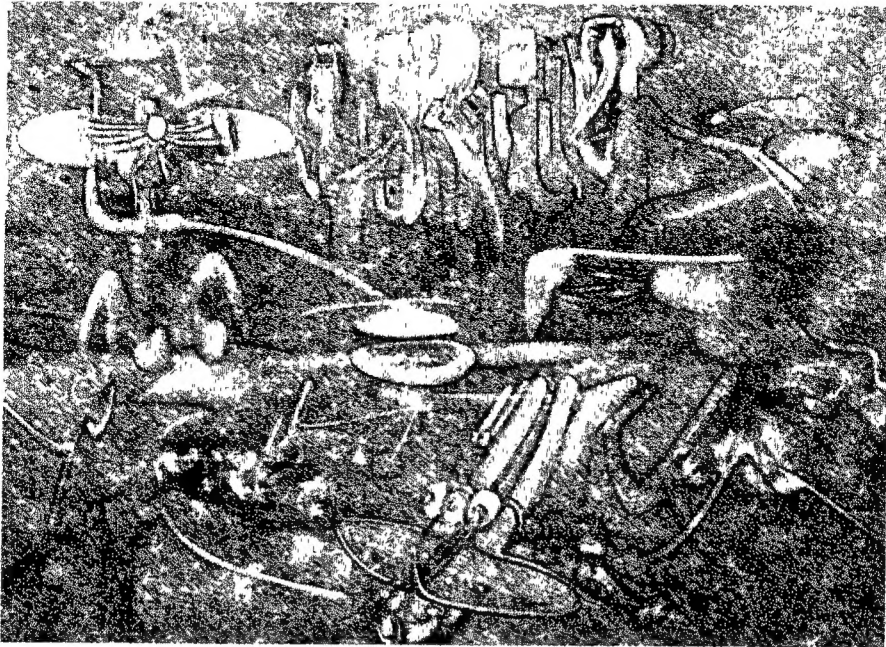


يوني بونداريف

اللعبة



ترجمة:
الدكتور نزار عيون السود

روايات عالمية «٢٦»



Bibliotheca Alexandrina

الأشرف الغني، زهير الحمو

اللعبة

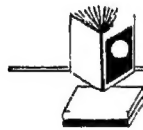
روایات عالمیّت

« ۲۶ »

يوسي بونداريفيتش

اللعبة

مترجمة:
الدكتور نزار عيون السود



منشورات وزارة الثقافة

في الجمهورية العربية السورية

دمشق ١٩٩٠

العنوان الاصلي للكتاب :

ЮРИЙ
БОНДАРЕВ

ИГРА

ROMAN

Игра = اللعبة / تأليف يوري بوندارييف ؛ ترجمة نزار ميون السود
١ - ط ١٠٠ - دمشق : وزارة الثقافة ، ١٩٩٠ - ١٠٨ ص. ، ٢٤ سم
٢ - (روايات حالية ؛ ٢٦) .

١ - ٨٩١٥٧٣ ر ب و ن ل ٢ - العنوان ٣ - بوندارييف
٤ - ميون السود ٥ - السلسلة ،
مكتبة الاسد

الايداع القانوني : ع - ١٨ / ١ / ١٩٩٠



يوري بوندارييف في سلو

— ولد يوري فاسيليفيتش بوندارييف عام ١٩٢٤ في مدينة أورسك ، الواقعة في جنوبي أوكرانيا . كان عمره ١٧ عاماً عندما بدأت الحرب عام ١٩٤١ بين ألمانيا والاتحاد السوفيتي . أمضى الضابط الشاب بوندارييف سنوات الحرب جنباً إلى جنب مع الجنود ، حيث كان يقود بطارية مدفعية . جرح أكثر من مرة وكوفيء بأنواط الشجاعة .

— بدأ بوندارييف بنشر أعماله الأدبية منذ عام ١٩٤٩ . في عام ١٩٥١ تخرج من معهد مكسيم غوركي للأدب في موسكو . وقد اعتبره أستاذه الكبير قسطنطين باوستوفسكي ، أحد ممثلي « الأدباء الشباب الموهوبين ، الذين يمكن تسليمهم بجرأة راية الأدب الروسي السوفيتي » .

— كان لروايته « الصمت » و « الثلج الحار » الفضل الأكبر في بروزه في الصف الأول من الكتاب السوفيت .

مهما كان موضوع أعمال بوندارييف الأدبية ، تبقى الرجولة ، والروح الانسانية ، والمسؤولية عن آلام الآخرين ، ومعاناته لمصائب الغير موضع اهتمامه . يهتم الكاتب بتصرفات الناس وسلوكهم في الظروف العصيبة ، حيث يطرح أمام الانسان خيار مصري : أن أكون أو لا أكون . في مؤلفات بوندارييف يتشابك بصورة وثيقة الماضي والحاضر ، وتلقى الأضواء على الأحداث والطباع من وجهات نظر مختلفة ، ومتباعدة في أغلب الأحوال ، ويقترن فيها العمق السيكولوجي بالوصف الصادق للأحداث . وأبطال بوندارييف هم أناس صامدون قادرين على الوقوف والثبات حتى النهاية .

— فاز عام ١٩٧٢ بجائزة لينين لسيناريو فيلم « التحرير » ، وبجائزة الدولة عام ١٩٧٥ لرواية وسيناريو فيلم « الثلج الحار » ، وبجائزة الدولة عامي ١٩٧٧ و ١٩٨٣ لروايته « الشاطئ » و « الاختيار » . وترجمت غالبية رواياته إلى كثير من اللغات ، ومنها العربية .

هذه الرواية « اللعبة » ، التي نقدمها للقارئ العربي ، هي آخر أعمال بوندارييف الروائية ، صدرت في موسكو عام ١٩٨٥ .

— المترجم —

الفصل الأول

أثناء عودته من المطار بسيارة الأجرة ، شعر كريموف بتوعك صحته . كان العرق يتصبب على صدره ، وكان يشعر بالاختناق ، وقد التصقت قبة قميصه القاسية برقبته المتعرقة . أنزل عدة مرات زجاج النافذة ، أملاً بأن يحف عرقه قليلاً ، واتكأ على مسند المقعد الخلفي ، وعندما هب تيار صيفي من الهواء ، المشبع بالغازات الدافئة المكدوفة من السيارات ، على وجهه الرطب .

دهش باستغراب من كثرة الناس ، كما في أيام العيد ، في مثل هذه الساعة ، على مواقف الباصات ، وأمام المخازن والمحلات التجارية (متى يعمل الناس اذن ؟) ، وشاهد بريق الشمس الصباحي المتلألئ بين أوراق الأشجار ، وعلى الواجهات الزجاجية ، وكانت تدور أمام عينيه ، كما في الأرجوحة ، الشوارع الأخرى والواجهات والمقاعد على الأرصفة تحت ظلال المظلات الحمراء ، والحشود الأخرى التي كانت ترتدي ألواناً مبرقشة متنوعة ، وهدت وكأنها شمس أخرى ، قائضة ، حتى في ساعات الصباح الباكر . هذه الأرجوحة المتألمة ، كما في الحلم المخدر ، كانت تمحو بكبرياء ، وتمين بشيء ما ، تواضع الشوارع الموسكوفية ، التي كانت تترك أثراً حزيناً في نفسه دائماً لدى

عودته إلى مدينته من رحلاته الخارجية . بيد أنه كان يشعر بانزعاج آخر ، لأنه في سفراته الخارجية السابقة ، لم يشعر سابقاً بمثل هذا الاختناق في حنجرتة ، وكأن نحيباً لم يفرغ قد انعقد فيها واستقر . لم يكن يدرك ما الذي حدث له ، وكان مستعداً لأن يضحك على نفسه لعاطفيته المفرطة ، التي لم يكن لها من مبرر .

ماذا حدث له ؟ كان كل شيء رائعاً في باريس المضيافة ، حيث أمضى ستة أيام من الاحتفالات والضيغيج في الخارج ، في حفلات الاستقبال ، التي لا تازمه بأي شيء ، في قاعات السينما المكيفة ، في حفلات الكوكتيل ، والمناقشات والسهرة اليلية في الكباريات ، مع الظامة الخفيفة ذات الأريج الذكي ، والأرائك المخامية ، وأجساد النساء الباهتة على خشبة المسرح ؛ وفي الصباح ، حلاقة الدفن الأنيقة ، وعند الإفطار ، تناول فنجانين من القهوة المنشطة المنعشة ، ومشاهدة عروض الأفلام ؛ وأخيراً جائزة الشرف للإخراج ، غير المتوقعة والمتظرة في آن واحد . كل شيء في المهرجان كان موفقاً ومرضياً ، بيد أنه بقي في نفسه ، من هذه الأيام الجميلة ، المشوشة ، مذاق دبق من الألم ، وهذا ما لم يرد تذكره .

أغمض عينيه ، ساعياً إلى التكيف مع الحياة الموسكوفية السابقة ، بوتيرتها المألوفة ، ومن جديد ، الاستوديو ، والمجالس الفنية ، والاستعداد لمرحلة التصوير ، بيد أنه نما عنده ، لسبب غير معروف ، قلق مزعج ، وفكر في نفسه قائلاً : « لقد عدت قبل الموعد المخصص وسأستريح في بيتي يومين » .

عندما اقتربت السيارة من منزله في شارع لينين ، وانعطفت إلى

الفناء تحت أغصان الحور ؛ وعندها ولج إلى برودة المدخل الحجرية ،
ولإلى غرفة المصعد المخلوثة الجدران ، ومن ثم شاهد ساحة المصعد
المألوفة ، وباب شقته المغطى بالمشمع النبي وزر الجرس الموسيقي ، لم
يستطع التغلب على الشعور الذي سيطر عليه ، الذي كان يعتمر حلقه
بالدموع ؛ واضطر ، من أجل أن يهيئ نفسه ، التوقف قليلاً في بهو
الدرج .

قرع كريموف الجرس أربع مرات (وهو رمز متعارف عليه بين
أفراد الأسرة) ، وأرهف سمعه ، ثم ضغط على زر الجرس ثانية ،
بانتظار أن يسمع من خلف الباب صوت زوجته أو ابنته أو ابنه . بيد
أن الصمت كان مهيمناً خلف الباب ، ووصات إلى مسامحة خشخشة
غامضة في فراغ الشقة الخالية : لأحد في البيت ، كما يظهر .

فكر في نفسه ساخراً : « زوجتي المحبوبة ، وأولادي الأحياء
يستقبلونني بالأحضان » .

بعد أن فتح الباب بمفتاحه ، وأدخل الحقيبة إلى البهو ، الذي فاح
منه دماء الغبار المنزلي ، نظر إلى المرأة فوجد نفسه مرهقاً ، متعباً ،
وشعر فجأة ، أنه كان سعيد الحظ ، مع ذلك ، بصورة غير متوقعة .
أجل إنه كان متعباً إلى حد كبير ، وأراد أن يخاو إلى نفسه ، ويخلد
الصمت ، ويستلقي على الأريكة ، بوهن وتراخ ، دون تفكير . أراد
أن يقلب المجلات ، ويتصفح الجرائد والرسائل ، التي تلقاها أثناء غيابه .

خاض سترته ، وأخذ ينتقل بين غرف شقته . واضح ، أن الأسرة
رحلت إلى المنزل الريفي ، كانت التوافد في الشقة الحارة كالحاها محكمة

الاغلاق ، وقد أسدلت الستائر عايتها . وكان الهواء المحبوس الخالق يسود أنحاء الشقة كلها ، وكانت أشعة الشمس ، المتغلغلة من خلال ثقبوب الستائر ، ترقد هنا وهناك ، على أرضية الشقة الخشبية ، وعلى السجاد والأثاث . أما في المطبخ ، الذي تحاو نوافذه من الستائر ، فقد كانت نفوح منه رائحة غطاء الطاولة المشمعي ، الساخن من أشعة الشمس . أما ايصال الهاتف ، فقد وقع على الأرض ، من على الخزانة الصغيرة ، واصفر لونه بتأثير أشعة الشمس ، فعدا أشبه بلقافة شبه مستديرة .

في كل مرة ، عندما كان يعود من سفر خارج الوطن ، كان يسيطر عليه احساس بأنه عاش طويلاً مرحلة حقيقية ، خلقتها لعبة الحياة ، وأن عليه ، وهو المنهك من هذه اللعبة ، أن يتحرر ، في أحاديثه مع الأصدقاء ، من شيء ضايط ، أشبه بالكوكتيل ، من الأحاديث الكثيرة في المطاعم ، التي كان عليه أن يمارسها فترة من الوقت ، مسلياً طموحه ، متمتعاً بفضوله .

والآن ، أراد أن ينزع عن نفسه عبثاً شاقاً من الناحية الروحية ، ومزيفاً في الوقت نفسه ، ناجماً عن ابتساماته ، وعن ثروة المثقفين العقلية ، أراد أن يغتسل من العذوبة المعطرة للصابون الأجنبي ، الذي كان مشبعاً بشيء ما أنثوي ، من الرائحة الكيميائية الصناعية التركيبية ، التي كانت تسود صالات السينما الباريسية وغرفته في الفندق ، أراد أن يغتسل مما قد عاشه وانقضى .

كان « الدوش » البارد يغسائه بإبر مطرية ناعمة ، وكان الماء يعطبلب بضجيج ربيعي منعش . كان باب الحمام مفتوحاً ، وبدا وكأن صدى البحر يتردد في الشقة الحالية من السكان . بعد أن ذلك جسمه بالمنشفة ،

تمشى بقدميه الخافيتين بين الغرف على الأرضية الخشبية الدافئة . وقبل أن يرتدي ثيابه ، قال محدثاً نفسه ، بصوت عال في غرفة الطعام : « حسناً ، كل شيء سيزول وينقضي » ، وسكب قلحاً صغيراً من الكونياك ، وكرعه ، فوخزته موجة جارحة ، وشعر بشيء من الراحة اثر ذلك .

ثم استلقى على الأريكة في مكتبه ، وأخذ يقاب ما عُص به صندوقه البريدي من المجلات والصحف والدعوات المختلفة لأسيات ومعارض ، وأخذ يفتح مغلفات الرسائل دون أن يقرأها ، ناظراً فقط إلى عناوين المرسلين ، أملاً بالعثور على اسم معروف . وتعبث نظراته بمغلف أزرق اللون ، وضعه ببطء على زاوية الطاولة الصغيرة ، حيث استرعى انتباهه على الفور نخاتم رسمي لم يألفه « الإدارة العامة لوزارة الداخلية » ، وأثار في نفسه ، حالاً ، قلقاً مريباً .

« إذن ، بدأ كل شيء من جديد . . . أو على الأصح ، ما يزال كل شيء مستمراً ؟ » . وتريث قليلاً ، ثم مزق المغلف من طرفه ، وقرأ بسرعة ، أن عليه هو ، فياتشيسلاف أندرييفيتش كريموف : الحضور في الرابع من تموز (يا الشيطان بعد ثلاثة أيام ؟) إلى المحقق توكاريف على العنوان التالي : شارع بروفكا ، البناء ٣٨ ، الطابق الثاني ، الغرفة رقم ٢٠٠ ، حاملاً معه جواز سفره أو وثيقة تثبت شخصيته . « لماذا المرة الثانية ؟ لقد التقيته في الاستوديو . أجل ، المحقق توكاريف أوليغ غريغوريفيتش ، شاب مهذب ، ذكي ، ذو شاربين أنيقين . ولكن ، مهما حصل لي ، فإن أذهب إلى بروفكا ، أيها العزيز أوليغ غريغوريفيتش ، ولا أريد أن تصبح ظلاً لا حدث » .

في خضم تأملاته ، أبعد كريموف الدعوة الموجهة إليه ، وأخذ يقاب
مقالاً يستعرض أفلام مهرجان باريس ، فشعر بشيء من زيف القرار
الذي اتخذته قبل دقيقة واحدة ، وبالتشويه المتبدل في تقويم فيامه ،
وبالمعارضة الساذجة لـ « الأخلاقية الاشتراكية والنقاء الروحي بقساوة
الأبطال الغربيين ، الذين يتميزون بعالم داخلي ، أشبه بالمحارة الفارغة » .

« يالنفادنا من مهرة . ولكن ، لم هذه النزعة الهدائية المتبدلة ؟ » -
وضحك كريموف غاضباً ، متصوراً بوضوح الوجه الممتليء للمخرج
الأمريكي الشهير ، الروسي الأصل ، الإنسان الموهوب اللاذع ، الذي
عرض فياماً أذهل الجميع ، وهو فيام « سودوم وغومورا » يتحدث
عن هلاك مستشفى المجاذيب - الذي يرمز لهلاك البشرية التي فقدت
الرحمة . - لو كان محاججي جون غريتشمار معي لقهقهه عالياً .
« النقاء » ، « الأخلاق » ، « السمو » - أية عبارات مهترئة ، يا الهي ،
اقتبسناها البرهان والدفاع ، وتسامحنا بها من الرأس حتى أخمص قدمينا .
نحن ، النخبة ، نسبنا لأنفسنا الطهارة الملائكية ، دون النظر إلى أي
اعتبار ، تاركين الغرب كل ما هو شيعاني شرير .

وبدأ يقرأ بعصبية وقهر ، مقالة انتقادية أخرى ، حيث تراءت
له من جديد العبارات الجرجة عن الجنس ، والشذوذ ، والأخلاقية
في فيام جون غريتشمار ، وقبل أن يكمل قراءتها ، رمى الصحيفة جانباً ،
وهو يحدث نفسه بصوت عال :

- يا البلاهة ، فليأخذ الشيطان ، يالها من بلاهة . . .

لقد فاز كل منهما بالجائزة ، ودعيا كلاهما إلى حفلات الافطار
(مخرجان من الدولتين العظميين) ، وكانا ياتقيان كل مساء في بار

الفندق بعد عرض الأفلام السينمائية ، كان أحدهما يقدم للآخر الويسكي والفودكا أكثر من اللازم ، رغم أنه كان من المستحيل التفوق على الأمريكي في الشراب . وأمضيا ليأتين في الأندية بدعوة من غريتشمار ، وفي كل مرة كانا يتناقشان حول مصائر روسيا ، وكان يفرق بينهما ، إلى حد الكراهية المتبادلة ، تباين المواقف ، ولكن كان يجمع بينهما ، في الوقت نفسه ، شيء ما ، ربما هو فضول لا حدود له ، لمعرفة أحدهما الآخر .

كانت الليلة الثانية في النادي ، منهكة بصورة خاصة ، بالمناقشات الحامية ، وبكثرة الشراب والمشاهد . وفي الصباح ، قبيل بداية العروض السينمائية الصباحية ، كان يقاب ، ورأسه موجوع ، صحيفة « باري - ماتش » على الطاولة ، راجياً من الظروف أن تلخصه اليوم من حفلات الكوكتيل ، ومن ربطة العنق المحكمة الشد على عنقه ، ومن سموم غريتشمار الكحولية ، وأن تسمح له بالتقاط أنفاسه ليتنفس بحرية ، وليتسكع دون تفكير في شوارع باريس المسائية . كان بهو الفندق واسعاً رحباً ، وقد غطيت أرضه بالسجاد السميك المزين بتقوش شرقية وليست فرنسية ، وكانت تظهر فيه فخامة المرايا الأمريكية ، والمقاعد الوثيرة العريضة ، والأرائك المنجدة بالجلد الصناعي الأحمر ، وحرارة الأجسام بالقرب من الأبواب الزجاجية ، ومنضدة مضيف المطعم ، والأصوات الخافتة ، والروائح المرة والدافئة للسجاير والعطور - كل شيء كان مألوفاً وعادياً ، بالنسبة لفندق ، وقد رآه كريموف أكثر من مرة في البلدان الأخرى ، وكان نادراً ما يلقى نظرة عابرة على وجوه المنتجين والمخرجين ، التي يعرفها والتي لا يعرفها ، الحقيقة إلى حد النعومة والملتحمة (نموذجان واسعا الانتشار للوجوه في العالم المعاصر) ، وعلى

الأجساد الرياضية المشدودة للنجوم السينمائية ، والممثلات الشهيرات ، الصبايا والمتصايبات بأثار الليل ، المتبقية على أعينهن اللامعة بصورة مفرطة . بيد أن شيئاً ما كان يمنع ملاحظته التقليدية ، أما أنه ثقاقل في رأسه ، واما السطوع الزئبقي في أعماق المرايا ، ورأى ، دفعة واحدة ، الجميع ، الذين اجتمعوا بعد طعام الفطور وفجأة غطى العرق وجهه ظناً منه أنهم جميعاً يلاحظون نظراته المتفحصة . نقل نظراته إلى صفحة « باري ماتش » ، وفي اللحظة ذاتها ، سمع ضحكاتهم وصراحتهم المتساعحة - الساخرة ، كانوا يتحدثون عن فضوله السمج ، الذي لا يحق له أن يبديه نحوهم ، وشعر على الفور باحتقان جأده على وجهه . رفع رأسه عن المجنة ورأى واحداً من جماعة المنتجين والمخرجين ينظر إليه نظرة ثاقبة هادئة : إنه رجل يعرفه جيداً ، خط الشيب شعره قليلاً ، كان يرتدي بزة رمادية ، رجل التقاه كريموف أكثر من مرة . « انني أعرفه ، ولكن من هو هذا الرجل ، من هو هذا ؟ » . وكما لو أنه يابح من سمك ثقل ضاغط ، أخذ ، شيئاً فشيئاً ، يتعرف على تسريحة شعره ، وجبينه ، والشيب في شعره ، وربطة عنقه ، محاولاً أن يلتقي بعينييه ، وجهاً لوجه ، وعيناً لعين ، لكن الأعين المتباعدة لم تلتق : كانت عيناها في الظل ، كان يتجنب نظراته ، ومن هناك كان ينظر باتجاهه بجمود ، ومع العرق الذي غطاه فجأة من الضعف ، حتى نخشي ألا تتوقف ضربات قلبه ، أدرك أخيراً ، من كان يشبه هذا الرجل . .

مما لاشك فيه ، أن الارهاق العصبي قد يكون سبباً لهذه الهلوسات . وكان قد سمع بأنواع مختلفة من الانعصابات ، لدى أناس من مهنته ، لكنه لم يعرف أن مثل هذه الحالات تحدث على هذا النحو بالذات . « غير ممكن ، سخافة ، ترهات ! أمر يشير الخبل ! » . وعندها ، نهض

ورمى المجاة على الطاولة الصغيرة ، واستعاد عزم سنوات الحرب ،
فانطلى بثبات وتصميم نحو هذا الرجل ، الواقف في زحمة المتجدين
السينمائيين . لكن هذا الرجل ، ذا البزة الرمادية كان قد اختفى . . .
وظهر مكانه المخرج الفرنسي كلود ميالييه ، وهو رجل نحيل ، متقدم
في السن ، قوي البنية ، ذو هيئة مستهترّة ، جاءته من حاجبيه القصيرين
المصبوغين . انحنى كلود ميالييه لكريموف بمجاملة ، عارضاً شعره
المسرح بمهارة على صاحبه ، الذي كان لا يزال رطباً من الكولونيا .
وبدون سبب معروف ، رد عليه كيريموف بانحناءة مماثلة ، وقال بمجاملة
متكففة « بونجور مسيو » — وسيطر على ارتبائه ، فسار من أمامه إلى
نهاية البهو ، نحو البار ، حيث رأى هناك خلف منصة البار ، كعادته
دائماً ، جون غريتشمار ، الذي لوح له بيده مسروراً . لقد كان وجود
غريتشمار بمثابة إنقاذ له : « أنا مسرور بلقائك يا فياتشيسلاف » .

بعد يوم واحد ، تكرر شيء مشابه في الطائفة ، حيث بدا له أن
كل ما هو أجنبي ، مبرقش ، مختلط بافراط ، مرتبط يومياً بالتوتر
النفسي ، ببدل الجهد ، قد انتهى ، وفي الصالة شبه الفارغة من المسافرين
على طائرة الآبروفلوت العزيزة ، شعر بالإشراق والصفاء ، وسمع
الكلام الروسي . . . وشعر بالاستغراب من وجود ذبابتين في الطائفة ،
هنا ، على ارتفاع تسعة كيلومترات . كانتا تزحفان على زجاج الكوة
المستديرة ، وكانت أشعة الشمس تلقي ضوءها الساطع الذهبي على
أكوام الغيوم ، التي تبهر العين بتجاعيدها الجامدة في الأفق ، أما السهل
المسطح من الغيوم المنخفضة فكان يبدو وكأنه محيط متجمد . وعبر
شقوقه ، كانت ترى بصعوبة كبيرة ، وفي عمق سحيق يصعب

تصوره ، المدن الغارقة تحت مياه هذا المحيط ، وخطوط الطرق والغابات
القائمة .

كان كزيموف ينظر إلى الجبال الجليدية الجبارة ، إلى الذبابين
الزاحمتين على زجاج كوة الطائرة ، وكان من دواعي سروره أن
يفكر بعدم التطابق بين العلو الشاهق وبياض الغيوم الناصع وبين الذبابين
السائحين ، اللتين دختا إلى صالون الطائرة ، أما من مطار شيريميتيفو
بموسكو أو من مطار أورلي بباريس ، كيف ؟ ومن أجل ماذا دختا ؟ .
وبعد أن فكر بعدم التطابق هذا وبـ « لماذا » الحتمية ، رأى نفسه ،
بمتعة ووضوح ، وقد تحرر بساطة ما ، من الطائرة ومن جسمها الفولاذي
وموادها ، ومن المقعد الذي كان يجلس عليه (بيد أنه حافظ على وضعية
الجؤس في البحر) ، رأى نفسه طائراً مخفياً فوق صحراء بيضاء ،
فوق الضياء الممتد للنجوم ، التي تغسلها الرياح والشمس .

« أنا أعرف ماذا حصل لي - أكله كزيموف لنفسه ، محاولاً تفسير
حالته - لقد تحقق حلم في شعوري . كنت أرغب دائماً بامتلاك جهاز
طيران ، من نوع طائرة عمودية بمقعد واحد ، وكانت رغبتني شديدة
أحياناً بالابتعاد عن الجميع في آخر اليوم ، والارتفاع فوق الأرض ،
والتحديق بدون طرق ، والهبوط في مكان ما ، في مرج أسطوري يخبو
عند الغروب ، حيث يرنو هدوء الغابة إلى البحيرة . . . ولكن بأي
مناسبة فكرت بهذا الأمر ؟ في تلك الأثناء ، رأيت نفسي في ردة
التملق - لإنساناً وحيداً بين حشد من الناس ، يرتدي الملابس الأنيقة ،
ويتقن خفاق مشاعر الآخرين وابداعها ، لكنني إنسان زائد خارج
بلدي . - وشعرت بشيء من الحرج . . . ولكن كيف أفسر ، أنني

أشعر الآن بوضوح ، بضغط الهواء على وجهي . وباختناق مؤلم في صدري ، وبتحرر كامل من المادة . . . ؟ » .

اقتربت المضيفة ، متماية برشاقة على كمبي جزمته ، مبتسمة بترحاب ، تحمل طبقاً كانت تتصاعد فوقه فقاعات الماء المعدني من الأقداح ، سألتها فيما إذا كان يرغب بقدح من ماء « بورجومي » المعدني ، - اقتربت نحوه من الصالة المضيفة (هذا هو الجمال المادي في صورة امرأة) ، أما كريموف فقد صمت ، غير راغب بالرد على ابتسامتها ، أو الاستماع إلى همساتها الناعمة ، والنظر إلى هذه المخاوقة الشابة ، الكاملة من الناحية الخارجية ، التي كانت تعرف من أي بلد عائد ، وكانت قد شاهدت أفلامه . كل شيء أصبح واقعياً بصورة ثقينة ، بالمقارنة مع ألم التلاشي والاضمحلال المضني في التحديق الحر فوق الغيوم الممتدة ، التي تغطي الأرض . رفض تناول قدح « بورجومي » وطلب قدحاً من الكونياك ، ثم أدار وجهه نحو الكوة الزجاجية . هذا الانطواء لم يحظه كريموف في نفسه سابقاً . أغمض عينيه دقيقة واحدة ، وخیل إليه ، في هدير المحركات الذرية الطائرة ، عواء شيطاني ، صراخ الضحايا وبكاؤها ، جوقات من الآلات النحاسية ، المختلطة بالرعد السيمفوني . حاول كريموف التقاط ، حفظ نوتة موسيقية معينة . لكن الموسيقى النحاسية كانت تتبدل كل ثانية ، وتكبر وتتعاظم ، لتتحول إلى نواح هائل ، كانت تهلل وتعصف في أذنيه ، كأنها صوت الكون ، الذي يتهدد العالم كله ، وتابع تفكيره وهو بين الحلم والواقع : « إيرينا . . . كل شيء انقلب بعد موتها . . . » .

على زجاج كوة الطائرة ، كانت تتنقل الأطياف الشمسية . جاءت المضيفة ذات الشعر الأشقر ، فمدت له فوطة وهي تبسم - كما في

السابق — بشفتيها اليانعتين ، وسألته من جديد شيئاً ما ، فلم يسمعها .
كان غير مكترث بالطعام وبإبتسامتها المدروسة هذه . هنا ، لاحت
بذهنه فجأة فكرة ، وكأن المحركات الذرية ستغص وتنطفيء ، وستعثر
الطائرة في الجو ، وتبدل الكجلة الفولاذية كلها بالسقوط إلى الأسفل ،
هاوية من عل .

ستصرخ هذه المضيفة بشفتيها اليانعتين ، المدهونتين بالحمرة
(لن يتمكن أحد من تقييماهما أبداً) صرخة مرعبة ، وسيصرخ صالون
الطائرة كله ، برعب ووحشية ، صرخة الموت واستغرق في
التفكير آنذاك ، محدثاً نفسه : « وأنا ؟ ماذا سأفعل في هذه اللحظة ؟
سوف أنتظر الصدمة الأخيرة وأودع الحياة ؟ أنا أعرف جيداً أنني
لن أصرخ ، ولن أطلب الرحمة . . . »

أدار وجهه ، متأملاً الذبابتين الزاحفتين على زجاج كوة الطائرة ،
وكان بوده أن يستعيد الحالة السعيدة التي خرقها — التبخر ، كما في
الحلم ، على ريشة حمام فوق الأمواج الجوية ، حيث ينعدم الخوف
والواجبات — أي نعيم هذا !

« الخوف ؟ هل فكرت بالخوف ؟ »

شعر كرمعوف وكأن رنين الهاتف يكاد يضربه على صدغيه ، فقد
نسي أجراس الهاتف خلال أسبوع . نفص النعاس عن عينيه وارتمى
على الأريكة ، ماداً يده بصورة آلية إلى سماعة الهاتف الموجود على
الطاولة الصغيرة . سحب يده بسرعة — حتى الآن لم يعرف أحد أنه في
موسكو وأول حديث هاتفي من المنزل — أنها ظروف المنزل وواجباته
وهمومه . لم تعرف أولغا أنه وصل إلى موسكو قبل يومين من الموعد

المحدد ، لذا من غير الممكن أن تتصل زوجته أولغا من البيت الريفي .
واستلقى من جديد ، حالماً بأن يستغرق في العوم السعيد في عالم النسيان ،
لكن رنين الهاتف للمرة الثانية أرغمه على رفع السماعة ،

— نعم ، — قال بصوت خافت ، منتظراً سماع صوت مولوتشكوف
النشيط ، مدير الإنتاج . وأسرع ، مستغرباً النفس الحذر في السماعة : —
نعم ، أنا أسمع ، تكلم ، ولا تُخجل بعد أن ضربت الرقم .

— هذه أنا — غرد صوت ، شبيه بصوت الأطفال ، على
نحو ممدود — مرحباً يا بابا ، أنت وصلت ؟ لقد ضربت الرقم بصورة
اعتباطية ، وفجأة أسمعك ترد على الهاتف . انه أمر مذهل ! نحن في
المنزل الريفي . بطلب من أمي ، أتكلم معك من كشك الهاتف قرب
الشاطئ . لقد شعرت مسبقاً بأنك وصلت . أنا مسرورة بعودتك يا بابا .

— تانكا ، يا كلبى الصغير العزيز — قال كريموف متأثراً ببحّة
مفاجئة — إنني لم أرك ولم أسمع صوتك منذ قرن كامل . كيف كنتم
تعيشون بدوني ؟ كيف الماما ؟

— الماما ؟ مذهلة .

— بأي معنى ، مذهلة ؟

— أنا أعتقد ، أن أمي أجمل امرأة في العالم ، وهي تشعر بشوق
كبير إليك . هذا سر بيننا . لا تفشه . أتعرف لماذا ؟ في الأمسيات ،
كانت تجلس في مكتبك وتقرأ أوه ، يا للهول ! — أخذت
تانيا تزعق بصورة لعبية — لقد اقتربت من كشك الهاتف مجموعة كبيرة
من الناس ، وهم ينقرون بالقطع النقدية على الزجاج . بابا ، أنا مسرورة ،

ونحن بانتظارك ! إلى اللقاء ! السيارة في المرائب . لقد سافرنا بالقطار الكهربائي .

— قولي لاما ، أني سأتأخر في موسكو بسبب أشغال ضرورية ،
سأتي لعندكم غداً — قال كريموف ، سامعاً الصوت المتقطع
في سماعة الهاتف التي وضعتها ابنته على الجهاز في كشك الهاتف بالقرب
من شاطيء الضاحية ، وأحس ، بجلاء ، بمذاق شفتي أولغا ، وبمنظرة
عينها الداكتين المتسائلة من الأسفل إلى الأعلى ، عندما قبلته بشفتيها
أثناء اللقاء ، وعبارتها اللطيفة المدللة « ها أنت هنا » ، — وفكر ، كارهاً
نفسه ، بأنه قادر على ألا يقول لها الحقيقة ، وعلى اخفاء ما يمكن أن
يهينها أو يخرج كرامتها ، فهي لم ترتكب أي ذنب .

تحامل على نفسه ، مجبراً إياها على الانتعاش والنشاط ، فقفز من
الأريكة وأزاح الستارة وفتح النافذة على الاشراق المشمسة لأوراق شجر
الحور ، واستنشق حرارة الاسفلت في يوم المدينة الدافئ . دغدغ وجهه
زغب أشجار الحور ، الذي يغطي منطقة جنوب — غربي موسكو
بكاملها . وطار الزغب في مكتبه . نفخ كريموف الوبر من على خديه ،
واقترب من المرأة ، وصعر خده ، قائلاً بأنه حلق ذقنه بعناية في الصباح ،
في الفندق ، قبل توجهه إلى المطار . في أيام العطلة وأوقات الفراغ لم
يكن يحب الفوضى وعدم العناية بهندامه ، التي كان يسمح بها انفسه
أثناء العمل ، ناسياً الخلاقة ومفضلاً ارتداء السرة والكمثرات الصوفية
القديمة .

« وهل أعرفه ؟ — فكر كريموف بسخرية ، متعرفاً في المرأة على
هذا الرجل المنهك ، الذي شاب شعره ، بعينيه الرماديتين الضيقتين ،

الذي يمت إليه بصلة الرحم ، الرجل المألوف وغير المألوف في الوقت نفسه . وفجأة تذكر ردهة الفندق في الصباح ، وذلك الرجل الآخر بوجهه الذابل في زحمة النجوم المشهورين ، الرجل الحامل ، الحسن الهندام ، والغريب هنا ، وارتجف من الخجل ، من تفاهة الأيام الستة في باريس — ما هذا التعاقب الجهني للأحداث ؟ يبدو لي أنني أحيا حياة غير واقعية ، متناقضة ، جانبية . اني أسير ، أتناول الطعام ، أنطق الكلمات والعبارات ، أسافر إلى الخارج ، أحصل على جوائز لست بحاجة إليها ، أما نفسي ، روحي ، فهي هناك ، في ذلك اليوم الحزيراني المرعب ، حيث ماتت إيرينا » .

* * *

الفصل الثاني

كمعادته ، دخل إلى غرفة الاستقبال بخطى واثقة ، خطى إنسان يعرف ، أنه هنا أمام باب مغطى جيداً بغطاء جلدي ثمين ، لا يسمح بوصول ضجيج الاستوديو إلى داخل مكتب المدير ، وأن السكرتيرة البشوشة ، ذات التسريحة الأنيقة ، ستستقبله ، وبرفقتها سيدخل إلى المكتب ، حيث سيجامله من بعيد بالابانوف فاتحاً يديه ، وبصوته العريض « آه ، من شرفنا بقدمه ! » — وبنشره لهذا الجو من الطيبة والاحترام والركة ، سيلوح ايفان كسينوفونوفيتش بالابانوف ، من خلف مكتبه الكبير ، مثل قنفذ عجوز مبتهج ، ويعانقه ، وكأنه مستعد للموت على الفور ، في مكانه ، من الشمس المشرقة الباهرة ، المتألثة في مكتبه .

في ذلك الصباح ، دخل كريموف ، المتعب بعد تلك الليلة الرديئة في باريس ، وبعد إقلاعه بالطائرة ، إلى مكتب بالابانوف ، وبذل جهده كي يبدي لامبالاة ودية تجاه السكرتيرة : « كيف صحتك ، يا نينشكا ؟ » — وشعر على الفور بشيء جديد في راحة كفها الفاترة ، وفي نظرتها الفارغة فوق رأسه ، وظهر له شيء جديد في عبارتها ، حيث لم تدخله مباشرة إلى مكتب المدير ، واختفت لحظة خلف الباب ، وهي تقول : « الآن سأعلمه » . بعد دقيقة ، وبعد أن أدخلته إلى مكتب المدير

بإمضاء من رأسها ، شعر بأن الريح قد غيرت اتجاهها ، هنا ، بعد رحيله إلى فرنسا .

— آه ، تفضل ، تفضل أيها الباريسي — قال بالابانوف بصوت أجش ، وكأنه يخرج من صدره ، وبقي جالساً وراء مكتبه ، خلافاً لعادته ، دون أن يرفع رأسه ، الذي يشبه القنفذ ، عن الأوراق التي كان يُبدي وكأنه يقرأها بامعان ، وأشار بيده إلى المقعد المقابل لمكتبه — تفضل ، أرجوك . أهتؤك بسلامة الوصول . الباقون سيصلون بعد غد ؟ نعم . أهتؤك بالجائزة الدولية . لقد نوهت بأن الرأسمالية عفنة نخرة ، والحمد لله . فليعطسوا ويمسحوا وجوههم ، وليفعلوا ما يريدون . ولماذا قدمت قبل موعدك ، فياتشيسلاف أندرييفيتش ؟ باريس هي باريس ، نساء على « الموضة » ، واجهات مترفة ، بارات ، عصير التفاح المخمر — تابع بالابانوف حديثه بصوته الهادر ، وهو غارق بين الأوراق ، مغطياً عينيه الصغيرتين بحاجبيه المتدليين — وأنت عدت قبل الموعد المحدد ؟ غير مفهوم . انها مدينة لعوب ، لعوب م .

لاحظ كريموف هذا الانشغال الزائف ، والاستخفاف اللامبالي ، وهو ما لم يمكن تصوره ، ولو تلميحاً ، قبل شهر . جلس على المقعد الجلدي ، وقطب جبينه عندما نطق بالابانوف بجملته الأخيرة :

— أحدهم قال عبارة جميلة عن باريس ، إنها مدينة المدائن . . .

— بارات ، واجهات ، عصير التفاح المخمر — إنها قصة أطفال للأغبياء الكبار — قاطعه كريموف بضجر ، رامياً سيجارته التي لم يكملها في أنظف منفضة سجائر ، ممتلئة بمشابك الورق ، على طاولة بالابانوف . —

أنت ، كما أرى ، مشغول جداً ، ايفان كسينوفونوفيتش ؟ ربما آتي عندما تنتهي من قراءة تلك الممتعة ؟ حدد لي وقتاً ، وسأنتظر .

— ز م ، دفعنا غالباً ثمن الكونتر باص . . .
ز م ، نحن جميعاً أغبياء .

حرك بالابانوف جفنيه المنتفخين ، وتنفس كالمصاب بالربو ، مشمراً قميصه عن ساعديه ، كما لو أنه يستعد للصراع ، وحرك حاجبيه الأحولين باتجاه منفضة السجائر ، ثم أمسك عقبة السيارة بأصابعه المنتفخة ، كما لو أنها فأرة ميتة ورماها في سلة المهملات تحت الطاولة ، باصقاً على أصابعه .

— ز م ، آسف ، لقد تركت التدخين منذ خمسة أعوام ، — قال بالابانوف مذكراً ، وحرك بشرود حذر الأوراق الموجودة على الطاولة — بسمَ يمكنني إدخال الفرحة إلى قلبك يا عزيزي فياتشيسلاف أندريفيتش ؟ كان بودي جداً أن أفرحك ، جداً جداً ، ولكن بأي شيء ؟

— ليس بشيء خارق للطبيعة — أجاب كريموف ، دون أن يحزر تماماً سبب جفاء بالابانوف ومراوغته — لقد قدمت قبل الموعد المحدد من المدينة اللعوب ، كما لاحظت ، فقط لأنني سأبدأ بعد شهر بتصوير فيلمي . إن ما يهمني الآن ، بصورة خاصة ، هو هذا الموضوع فقط — تابع كريموف قوله مؤكداً عدم رغبته بالتلون والتكيف مع شيء جديد ما ، ظهر في فترة غيابه ، وبعد أن أكد على « هذا الموضوع فقط » ، سأل بلهجة رسمية لطيفة : — ايفان كسينوفونوفيتش ، أمل أن الموقف

لم يتغير في الاستوديو من السيناريو الذي قدمته ؟ وإذا كان قد تغير ، فكيف ؟

— من أعماق روحي ، كان بودي مساعدتك ، من أعماق روحي . . . — جمع بالابانوف مشابك الورق في المنفضة ، قد أنزل حاجبيه — ولكن . . . هل من الماعول أنك لا تفهم ؟ . . . — أريد أن أفهم — قال كريموف بحدة هائلة — ماذا قررت بالنسبة لفيلمي ، يا للشيطان ؟

— ن . . . م . . . أسمح لنفسي بأن أذكرك ، — قال بالابانوف بصرامة وتنفس من جديد مصفراً كالمرضى بالربو ، مشمراً قميصه عن ساعدين أشعرين كجذعي شجرة — كيف يمكنك أن تصور الفيلم ، فياتشيسلاف أندريفيتش ، بعد شهر ، بعد تلك الظروف المأساوية ، . . . بعد وفاة إيرينا سكفورتسوا ، ليس لديك بطلنة رئيسية . ستضطر للهبوط إلى أرض الآثام . أجل ، الكونتر باص غالي الثمن !

— دع الكونتر باص جانباً ، إيفان كسينوفونوفيتش — قال كريموف ببرود . — أنت لست صادقاً معي . أرجو أن تشرح لي ما حدث بخصوص الفيلم ، وأرجو ألا تكذب علي ولا تخدعني ، إذا سمحت .

« لماذا قلت « لا تكذب » ؟ وعلى أي أساس ؟ » .

— أود أن ألفت انتباهك ، إلى أنني أنا ، ما زلت حتى الآن ، مدير الاستوديو . — نطق بالابانوف وقد احمر وجهه احمراراً شديداً ، فاكتسب شعره الشائب ، الشبيه بشعر القنفذ ، لون الثلج المتساقط ، بالمقارنة مع الاحمرار الشديد لحيينه العريض . — عفواً ، لست أنت ،

بل أنا المسؤول عن الانتاج السينمائي ، بما في ذلك فيلمك ، يا فياتشيسلاف أندريفيتش . وذلك على الرغم من شهرتك التي ، أستطيع القول ، بأنها أفقدتك صوابك ! - صرخ بالابانوف بصوت أجش ، وهو ينبش بأصابعه بقلق ، مشابك الورق في المنفضة . - وأنت ، كما يبدو ، لا تريد تحمل أية مسؤولية عن فيلمك ، وكأذا كل شيء مسموح لك ! إنك عابت ، يا فياتشيسلاف أندريفيتش ، أنك تعبت أكثر من اللازم . . . - مسؤولية ، أعبت ؟ - هز كريموف رأسه . - سخافة .

... لا تتظاهر بالجهل ، ولا تعتبر نفسك ساذجاً ، فياتشيسلاف أندريفيتش ! - أبعد بالابانوف المنفضة ، وقد ارتفع جفناه إلى الأعلى ، وكانت عيناه الرصاصيتان تبحثان عن شيء ما على قصبية أنف كريموف ، وقد احتقتا بنار حادة - أنا إنسان تابع ، مقيد ، ومهما كان موقعي منك ، ليس باستطاعتي مساعدتك ، رغم مطالبتك لي بالألا أكذب ، - قال بالابانوف شاعراً بالإهانة ، مما زاد من احمرار وجهه . - أنا آسف . . . وأشك بأن تصور أنت هذا الفيلم . فهذا أمر لم يعد من صلاحيتي .

- تشك ؟ لماذا ؟ من صلاحية من اذن ؟

- فياتشيسلاف أندريفيتش ، ألا تدرك أنه نتيجة ما حدث في مجموعتك التصويرية ، أنت مهدد بالمحاكمة ؟ أم أنك ، أنت الرجل المشهور ، تعتبر القوانين السوفيتية لا تنسحب عليك ؟

- ماذا تعني ؟

نطاق كريموف : « ماذا تعني » ، وأخذ يتقلب إحساسه الخلاق إلى كآبة ، إلى عتلة ثابتة لا تلين ، تدور في نفسه ، وهو ما بدأ قبل

شهر ، بعد ذلك اليوم المحتوم ، حيث بدا وكأن حركة الحياة الطبيعية قد توقفت لوقت طويل ، وأنه ، هو كريموف ، لن يعود سريعاً إلى عمله . ولكن ، قبل سفره إلى فرنسا ، تحدث لمدة ساعة مع بالابانوف ، الذي أسف لما حدث ، وكان متعاطفاً بجزع ، ومهتماً بمتابعة العمل في تصوير الفيلم ، أما هذه الرسميات الزجاجة ، التي صدرت الآن عن مدير الاستوديو ، والذي لم يستخدمها من باب الحذر إلا نادراً ، فقد أثارت في نفس كريموف اشمئزازاً مضمناً .

— أظن أنك قلت المحاكمة ؟ — قال كريموف متظاهراً بالدهشة — على أي شيء يريدون محاكمتي ؟

توقف بالابانوف عن العبث بمشابك الورك ، ولوح بعصبية بيده التي تشبه الرفش ، تعبيراً عن اليأس .

— اسمح لي بأن أخبرك ، فياتشيسلاف أندريفيتش — قال بالابانوف بصوت عريض لاهث — بأنني استدعيت للتحقيق . . . بخصوص ذلك الحادث الغريب . . . العجيب . . . أنا أتحدث عن التحقيق في تلك القضية المأساوية . . . في تلك القضية الاستثنائية .

— ايفان كسينوفونوفيتش ، تحدث بوضوح أكبر ، أنا أصغي إليك بانتباه .

— فياتشيسلاف أندريفيتش ، لقد تبين أنك كنت على علاقة خاصة مع الممثلة سكفورتنسوا ، التي ماتت بصورة مأساوية ، ولذا فقد اخترتها لتقوم بالدور الرئيسي . . .

— حتى لو كان الأمر كذلك ، رغم أنه ليس كذلك ، فما علاقته بالقضية الاستثنائية ، حسب تعبيرك اللطيف للغاية ؟

« غريب — أني أرى نفسي من فترة لأخرى من الجانب — فكر كرىموف وهو يتأمل وجهه بالابانوف الكبير ، المصبوغ بالدم ، ويرى ، في آن واحد ، نفسه بصورة ضبابية قليلاً ، جالساً على الأريكة مقابل الطاولة — يرى وجهه الذي تبدو عليه آثار الإرهاق تحت عينيه ، وقد ارتدى بزته الصيفية وقميصه النضر ، الذي ترطب تحت ابطيه . — ما عمر هذا الرجل الذي خط الشيب شعره ؟ وهل يشبه القاتل المحترم لعشيقته ، كما يمكن أن يتخيله بالابانوف ، أو ربما أنه يشبه بطل فيلم بوليسي فرنسي عن حياة المثقفين المعتدين بأنفسهم والمحبين لدواتهم ؟ » .

— اشرح لي ، ايفان كسينوفونوفيتش ، بصورة أوضح ، ماذا تقصد تحديداً ؟ — كرر كرىموف برصانة — وبماذا يمكنك التأكيد إذا كنت لا تعرف شيئاً ؟ على الأصح ، إذا كنت لا تعرف رأسك من رجلك ، حسب التعبير العسكري ، وأعتذر أشد الاعتذار على العبارة الفظة . .

— كن حذراً ، كن حذراً — صاح بالابانوف ، وهز وجنتيه الثقيلتين ، دون أن يرفع رأسه — إن قضايك المريبة ، على أقل تقدير ، تبجحها مؤسسات أخرى ، ولا أرغب حتى بالالتفات إليها . أما بالنسبة لتصرفك اللاأخلاقي مع سائق سيارة الاستوديو ستيفان غولين ، فهنا . . .

« . . . فهنا ، وباعتباره مدير الاستوديو ، سيضع النقاط على الحروف . على أية حال ، يبدو الأمر ، من بعيد ، مضحكاً وغير مفهوم : أنا الرجل المثقف ، ضربت السائق . . . ولكن ماذا كان سيفعل هذا الحكيم بالابانوف ، عندما كانت سكفورتسوا راقدة

بلا وعي على العشب ، في ثوب السباحة الرطب ، ولم تكن السيارة موجودة في مكانها ؟ ماذا كان باستطاعته هو ، بالابانوف ، أن يفعل ، إذا ما رأى آثار أحمر الشفاه على أعقاب السجائر البارزة من المنقضة على باب السيارة ، التي وصلت متأخرة أربعين دقيقة ؟ هل كان سيشعر بالغضب والغیظ من السائق الذي ذهب إلى مكان ما ، وكان على الأغلب ينقل ركاباً إلى المنازل الريفية ، في الوقت الذي كانت فيه سكفورتسوفاً تصارع الموت ؟ أجل ، غير مفهوم . لكن بالابانوف ، هذا المرائي العتيق ، رجل ذو وجهين ، إنه ممثل في مكتب . ربما ، لهذا السبب ، أشعر بالتمزز من صوته الخشن المتقطع ، ومن احمرار جبينه ورقبته ، ومن رأسه الشبيه برأس القنفذ ، والأهم من ذلك ، من عينيه الشبيهتين بعيني القنفذ ، الذي يخفيهما ، محافظاً على هيئته ، خائفاً من النظر إلي . إنه ينفذ يديه من المسألة » .

— يمكنني أن أتصور تماماً آلامك ومعاناتك ، أثناء استجوابك في إدارة خطيرة . انني أقدم اعتذارى للدقائق المزعجة التي سببتها لك — قال كريموف ساخراً ، وهو ينظر إلى جفني بالابانوف المتحركين باضطراب ، ورأى نفسه من جديد في الماضي الضبابي الغامض : شكل وجهه البيضوي الشاحب ، وضعيته وهو جالس على المقعد — والتحذير الذي وخذه بألم ، أزعجة بصورة جدية للمرة الأولى : « ماذا حل بي — إنني منهك حتى النهاية ؟ ولا أستطيع الخروج من هذه الدوامة ؟ إنني سأنهار اذن » .

قال بالابانوف بصوت غليظ :

— نعم ، لم أشعر بالسروور أثناء إجابتي عن الأسئلة .

— لم تكمل حديثك : الكونتر باص غالي الثمن . ولكن ، يجب

الافتراض أن أجوبتك لم تكن سوداء اللون . لهذا ، لا أسألك ، إيفان
كسينوفونتوفيتش ، ماذا ، وكيف أجبت . أريد أن أعرف شيئاً آخر :
ماذا قررت بخصوص الفيلم أثناء غيابي ؟

— آسف ، لن تصور الفيلم الآن .

— ماذا يعني « الآن » ؟

أبعد كريموف مرفقيه عن مسندي المقعد ، ونهض بسرعة ، متوتراً ،
شاعراً ، للحظة ، بظلمة تغشى عينيه (« أوه ، يا لوضعي السيء ،
أي ضئف هذا ! ») ، وعلى الفور ظهرت أمامه ، من خلال الطاولة
هيئة بالابانوف الحرقاء ، بكتفيه المنحدرين ، وقده السمين ، وقد
نهض مذعوراً من المقعد بقوة خوف غريب ، غسل الاحمرار عن
وجهه . وتصور كريموف ، وهو مندهش من فكرته المضحكة ، كيف
كان سيصرخ مذهولاً ، هذا القنفذ الحذر بالابانوف ، وسيرتد عن
الكرسي ويقلبه ، لو أنه لمسه باصبع واحد على أنفه الكبير ، وهو يقول
له : « يا عزيزي الملعوب من أجل الحقيقة » .

— اعتذر على حديثي — قال كريموف وهو يميل رأسه بصورة
مضحكة ، مطمئناً بالابانوف — في جميع الأحوال ، لن تتمكن من
كبح خيالك الجامح ، وهذا سيقودك بعيداً . ماذا يعني « الآن » —
قال مخلصاً — الآن ، الآن ، الآن ، إلى أن أدان ، إلى أن أدخل السجن ،
أجب : من اتخذ هذا القرار ؟ أنت ؟ لجنة شؤون السينما ؟ نصحت
بذلك إدارة خطيرة في شارع بروفكا ؟

ارتدى بالابانوف سترته المعلقة على ظهر المقعد ، وشد أزرارها

بصورة موحية ، مبرزاً بطنه الدائري مثل المشد ، وقال بنفس منقطع ،
يصدر صغيراً :

— أنا أيضاً أرجو المَعذرة . فياتشيسلاف أندريفيتش المحترم !
يجب أن أغادر مكثي الآن . ولكن . . . أرجو الصفح — وبات وجهه
باكياً ، وداس بقدميه حول المقعد جيئة وذهاباً ، مبعداً ما بين يديه —
أرجو الصفح ، يا عزيزي ! ولكن ، هل من المعقول بعد كل ما حدث ،
أنك لا زلت تأمل ؟ لا زلت تطالب ؟ لا زلت تسخر ؟ لا تسبح بين
الغيوم ، امش على الأرض ، فياتشيسلاف أندريفيتش ؟ هل تدرك
بم أنت متهم ؟ لقد أحبتك واحترمتك .

— متهم ؟ — استغرب كريموف ببرود ، وتابع حديثه بلباقة
مفرطة — أشكر لك الصدق الجزئي في عبارتك الأخيرة . لأنني أدرك
أن مصيري لا تقررته أنت ، ايفان كسينوفونوفيتش . أفضل تمنياتي
لك .

* * *

« أي حديث سخيف أحرق هذا ! ولم كان هذا الحديث ؟ » .
قبل سفره إلى مهرجان باريس ، دعا بالابانوف كريموف إلى
مكتبه ، وأثناء تقديم الشاي له ، حرك حاجبيه بطيبة قلب ، محاولاً
اقناع كريموف باضرار ، أنه في هذه الفترة ليس هناك من يمكن إرساله
إلى الرأسماليين سوى كريموف ، وأنه بحاجة إلى شيء من الانسجام ،
وتغيير الجو بعد كل ما حدث . ومن المفيد له أن يرنو إلى البرجوازية ،
وأن يظهر أمام الأوساط السينمائية العالمية في المهرجان ، وربما يحضر

معه جائزة من الجوائز إلى موسكو ، وهذا ما يأمل به هو بالابانوف ،
ومسؤولون من مستوى أرفع . وأثناء حديثه على هذا النحو ، كان يدفع
ملعقة الشاي باتجاه السقف ، كانت ضجته المألوفة ، وتشميره الحماسي
عن ساعديه (استعداد غير عاجل لمسألة هامة) — كل هذا كان مألوفاً
بالنسبة لكريموف ، منذ أكثر من عام واحد ، كل شيء كان عليه
أن ينبئ بأن بالابانوف عجوز طيب ، راعي الفنون ، ليبرالي بميزة
معروفة هي الاحمرار السريع من الاستغراب ، ومن السخط معاً ،
وتأنيب مرؤوسيه بصوت مرتفع ، وهو أمر لم يلحق ، عموماً ، ضرراً
بأي كان ، وذلك لأنه لم يكن من هواة الوشاية والدسائس في الاستوديو ،
حيث كان في كل مرة يقضي على الخلافات ، ويقوم بتهدئة المختلفين ،
ويقضي على التوترات الناشئة بين مجموعات التصوير .

أما الآن ، فقد خرج كريموف من عند بالابانوف وهو يشعر
بوسوسة مخربة غبية بلهاء ، باستبدال مخادع الواقع القديم بواقع جديد
سخيف ، لم يدركه بعد بشكل كامل . وما كاد يجتاز عتبة مكتب
المدير ، حتى حركت السكرتيرة ، ذات الوجه البعيد الغور ، كتفها
بسرعة ، ثم قالت بلطف ودلال مزيف للرجل ذي الشعر الطويل ،
الذي كان جالساً على المقعد ، مرتدياً سترة (« تفضل ، رفيق كوزين ») ،
فعبّر الرجل العتبة ، وهو ينظر بحنق إلى كريموف ، واندفع إلى الباب
رافعاً رأسه ، بكبرياء رجل معتبر ، شهير ، لحقت به إهانة ، وأرغم
على الانتظار طويلاً .

« أي سخيف هذا ! » كوزين — حدث كريموف نفسه ، عندما
رأى المخرج ، العامل في التلفزيون ، الرجل المتعلق بالشوش أثناء

اللقاءات ، الذي ينفرج قمه عن ابتسامة معسولة ، تخفي وراءها نظرة
ماؤها الحقد المتعالي .

بيد أن ما آله أكثر من أي شيء آخر ، هو أنه وفق الطريقة التي
اتبعها وحفظها منذ زمن طويل ، في أن يكون ودوداً وساخرأ ، دون
إسائة ، مع زملائه ، فقد حنى رأسه لكوزين ، بقوة العادة ، ولعن
تلك الانحناءة التي كانت تعني الضعف ، بل وحتى أنه توقف في غرفة
الانتظار .

— لا تزعلوا من عجز غبي كبير السن ، ولا تشعروا بالامتعاض ،
يا أبناء القبيلة الواحدة العظماء — قال كريموف بصورة ساخرة مؤثرة ،
بانحناءة راهب غيورة ، أصبحت لسبب ما ، دارجة في الفترة الأخيرة ،
مثلها مثل تبادل القبل بين الرجال في أوساط الممثلين ، وبعد أن سعل
بخنجر (واضعاً راحة يده على فمه) ، مقوساً ظهره ، ومردداً « الآن ،
الآن » بحركة خادِم مطيعة في مسرحية ، وأغلق الباب من الممر ،
ملاحظاً ، بسرور خلال ذلك ، وجهي كوزين والسكرتيرة المصعوقين —
مهرج ، ماجن ، بهاول ، ممثل رخيص — قال كريموف بصوت عال ،
وضحك في الممر شبه المظلم ، محترقاً نفسه لما كان مكروهاً بالنسبة
له ، وما لم يستطع ، ولم يرد ، مقاومته لسبب ما . ماهذا ؟ يفوح مني
تهريج غير معقول ! وكأني ، لاعترازي وفخري بنفسي ، أحرم
الجميع من القدرة على أن يكونوا أناساً عاقين . وأي إنسان آخر في
نمسي ، يمل علي هذه اللعبة التي تعافها روحي ؟ » .

ولكن ، عند سيره في ممرات الاستوديو إلى مجموعة التصوير ،
وبوقوعه بين الدهاليز المظلمة للممرات تارة ، وبين أشعة الشمس القوية ،

القادمة من الممرات ، والتي تكشف عن ساحة الاستوديو ، تارة أخرى (وهناك كان يسود اندماج سعيد لغيوم الصيف فوق أشجار الحور) ، تذكر كريموف ، من جديد ، يوم موت إيرينا ، المشابه لهذا اليوم ، من حيث الحرارة والاشراق ، والخضرة . في تلك الأثناء ، سار كريموف متجهاً أيضاً إلى مجموعة التصوير ، وكانت إيرينا تنتظره في غرفة مدير الإنتاج ، من أجل الذهاب إلى دير سباسكي ، الدراسة الطبيعية ، حيث كان من المقرر تصوير المشهد في ذلك اليوم ، سار كريموف في هذا الممر بالذات ، كما يسير إنسان لا يشاك إطلاقاً ، بثبات كل ما هو أرضي ، وكان مزاجه صباحياً ناضراً . لقد كان كل شيء رائعاً ، موفقاً ، وقد تم العثور على الممثلة ، وقرارها لدور بطولة الفيلم الرئيسية ، وكان من المفروض أن يبدأ التصوير في شهر آب .

والآن ، كان يلتقي في زوايا الممرات العديدة ودهاليزها وجوهاً وأشخاصاً معروفين ، كان بعضهم يتظاهر بالانشغال ، ويدير وجهه كما لو أنه عن غير قصد ، وكان بعضهم الآخر يحببه بحركة غير ماحوظة من اللدقن ، وآخرون كانوا ينظرون بنهم إلى حديقته بفضول لا يفتر ، الأمر الذي كان يعذب الكثيرين ، المستعدين للدفاع عنه وادانته ، في الوقت نفسه ، على السر الذي يدغدغ الأعصاب ، سر موت الممثلة الشابة الموهوبة .

* * *

الفصل الثالث

في الشتاء ، كانت تقيم في حي أوردينكا ، عند قريبتها ، أما في أوائل الصيف فقد انتقلت إلى فندق « بالتشوغ » المتواضع ، القائم في شارع بياتنيتسكايا ، مقابل الجسر القديم ، عبر القناة « كنافا » . كانت هذه زاوية هادئة من منطقة زاموسكفورييتشي ، حيث كانت تنتهي ضجة الشوارع الرئيسية بحشودها البشرية الزاحفة على الممرات ، وبهريق السيارات وضجيجها ، وبرائحة الغازات التي تقلدتها السيارات ، وبطواير الناس المتزاحمين لشراء البوظة والعصير ، وبمقاهيها الغاصة بالناس ، التي تشبه الحمامات لانحباس الهواء فيها ، وبتجوال الناس على ساحة تياترالنايا ، وفي جادة ستاليشنيكوف ، وفي شارع بروفكا . بالقرب من الفندق ، كانت الشوارع الضيقة على الجانب الآخر من القناة ، تشبه مدينة تجارية قديمة ، برصانتها الخادعة ، ومخابزها الصغيرة ذات الستائر القماشية المخرمة على واجهاتها ، وبالمرايا القديمة الطراز في صالونات الحلاقة (التي تفوح من أبوابها رائحة كولونيا « شيبير ») ، وبأشجار الزيزفون القديمة ، التي لا تزال قائمة هناك ، حيث كانت تقوم في الماضي الأسوار والأسيجة ، وأقواس البوابات والأبراج في الساحات المعشوشبة . هذا الجزء من موسكو ، الذي لم يغطى كاه

بناطحات السحاب بصورة مشوهة ، كان كرمعوف قد صوره في مشاهد قبل الحرب لفيالم عن العام الحادي والأربعين ، وأحب الراحة المتواضعة لهذه الأزقة والشوارع الضيقة التي لم تهلم كلها .

عندما وصل في ظهر يوم أحد إلى فندق « بالتشوغ » ، كان يلاحظ بفرحة التعرف ، ظل الأشجار السائل على الكورنيش الناعس ، وماء القناة الناعس ، ورذاذ قوس القزح من سيارة رش الشوارع ، وهو في حيرة من السبب الذي جعل إيرينا تنظم هذا اللقاء في الفندق ، الذي تكاد الشمس تحرقه في هذه الساعات . لكنه ، بعد أن تذكر رأسها المرمي إلى وراء بمرح ، وزوايا شفيتها ، التي انفجرت عن ابتسامة ، وجملتها الممرحية التي أطلقها بسرعة خاطفة : « أعين لك موعد عمل في فندق « بالتشوغ » ، - أدرك أن هذه لعبة يسعددها ويرضيها مشاركتها فيها . ووافق بفضول : وفي ردهة الفندق ، لم يوقفه الحاجب الشاب ، ولم يسأله إلى من هو قادم ، بل أحنى رأسه مرحباً ، ويبدو أنها قد أخذت به بذلك ، وعندما وصل في الطابق الثاني إلى البساط القرمزي الممدود على الأرض ، وبلغ حجرتها في آخر الردهة ، تصور مباشرة خلف الباب حجرة صغيرة ، خضراء من أشجار الزيزفون المشرقة على نوافذها . - ادخل ، من فضلك : أنا أنتظر ، ولكن للأسف بدون ثوب السهرة . هل تساعني ؟

لمح من الباب المنتوح نظرتها ، المصوبة إلى عينيه ، المعبرة عن الثقة المرحية ، مما ولد صعوبة التواصل معها وبساطته في آن واحد . - أليس على هذه الصورة ، كان الناس يلتقون في القرن التاسع

عشر الطيب الذكر ؟ - قالت ايرينا ، وانخت وهي تقول مضيفة -
فياتشيسلاف أنالريفيتش ، أحييكم ؟

- وماذا في الأمر ، ليكن كذلك - وافق كريموف بعدم اكتراث .
ولم يتمالك نفسه ، فعانقها برفق ، شاعراً بأنها ترتجف من الارتباك .
واستسلمت بكامل جسدها ليديه . ملتصقة به بوجل ، وبدأ وكأنها
بردت من هذا العناق . - أين ستكون حفلة الرقص ؟ - سأل كريموف
باهتمام مقصود . - وإلى أين تأمرين بالذهاب ؟

- الآن سأفكر بكل شيء ، وسأستشير بعضهم ، - قالت بصراة ،
وابتعدت ، ولمست المرأة بأنفها ، ثم تنهدت قائلة - لا ، لا ، لا أريد
الذهاب إلى حفلة الرقص ، لنذهب للمساء . ولنتنظرنا العربة . ولكن
ألا نسافر معاً إلى أستراليا ؟ أولاً ، سناتقي ، عند كل خطوة ، حيوانات
الكنغر الرائعة مع صغارها . . .

- ومهما كان غريباً ، فالناس هناك يمشون على رؤوسهم - قال
كريموف بسلاجة - لكن مارأيك لو نستبدل أستراليا بمكان ما وطني ؟
حديقة سو كولايكسي ، مثلاً . نتنزه هناك ، ونتناول طعام الغداء ، ثم
نذهب إلى الاستوديو . ينتظروننا في الساعة الثالثة . سنقوم بتصوير
اللقطات السينمائية التجريبية . السينما أكثر متعة من أستراليا ، ستين
ذلك يا ايرينا .

- موافقة على الحديقة الوطنية . بدون مخالطة الكنغر .

بقي فترة طويلة غير واثق من موافقتها على التمثيل . في تلك السنة

كان الشتاء كثير الثلج ، والصقيع قارصاً ، وكانت الأمسيات عاصفة في شقة قريبتها ، التي سافرت إلى أرخانغلسك ، ذات الغرفة الواحدة . وقد أذهله تعرفه البطيء عليها .

في مساء يوم ماطر ، نزل من سيارة الأجرة في الزاوية ، وسار على قدميه في شارع أوردينكا ، وقد غطته العاصفة من قدميه حتى رأسه ، وكان بصعوبة كبيرة يرى أمامه على الرصيف البقع المضيئة من النوافذ ، حيث رسم غبار العاصفة الثلجي لوالب حازونية ، وفي الأعلى ، إلى جانب المصابيح التي تنصر ، كان الثلج يطير بصورة منحرفة ، مائلة تارة ، أو ينتشر على شكل أمواج بيضاء تارة أخرى ، وفي كل مكان ، كان ثمة جنون مندفع عنيف . كان كريموف يمشي منقضاً على الريح ، وقد ارتقى في نفسه الاحساس بالاكتمال المادي للحياة والصحة ، والحنان غير المفهوم . رن الجرس ، ففتحت الباب ، نجاع كريموف في الردهة معطف القراء ، البارد من الصقيع والزمهرير ، والمغطى بالثلج ، وقال بانفعال :

— إنه الشتاء .

رفعت إيرينا حينها ، ولاح منهما تعبير المشاركة السعيدة .

— عاصفة في الشارع ، أليس كذلك ؟

— عاصفة .

— الثلج يدور ؟

— الثلج .

— الجو بارد ، والمصابيح تئن وتهتز غالباً . جميل الآن أن يستقل

المرء قطاراً ويسافر إلى جهة ما ، ويصغي إلى العاصفة . صحيح ؟
انني لم أراك منذ فترة طويلة . تبدو وكأنك خرجت لتوك من المنزل ،
ورائحة البراري تفوح منك .

وأسندت رائحة كفها إلى خده البارد .

لكنني واثقة ، من أنك لم تشعر بشوق لأي كان . نسيت ،
غالباً ، جميع من في الدنيا ، أثناء عمالك في الاستوديو ، بين الهرج
والمرج .

— كان هناك هرج ومرج — قال كريموف ولم يتمالك نفسه من
جديد فعانقها وقبلها عند منحنى حاجبها العاري الحريري .

أريد أن تبقى عندي اليوم ، — قالت هاسية ، وابتعدت بخوف
خفي ، وجاست على الأريكة ، وعلى طريقة الأطفال هددته ، ثم هددت
نفسها بالاصبع ، وهي تقول بصورة مضحكة : — لقد فقدنا عقلنا
نحن الاثنان . انها نهاية العالم .

جاس كريموف بالقرب منها ، واستاقت إيرينا بهدوء ، وهدت
يديها ، ثم سأله بهمس خفي :

— قل لي ، في أي شيء يكمن مغزى الحياة ؟

— ماذا تقصدين ؟ في أي معنى ؟

— في المعنى المهيّب .

— إيرينا ، وهل تظنين أن هناك من يستطيع الإجابة بدقة ؟

— لكن ، على أي حال ، يجب أن يكون هناك مغزى رئيسي ما ،
لما يحدث بيني وبينك . فأنت لا تحبني ، أليس كذلك ؟
وعضت على شفتها ، وأضاءت عيناها الخضراوان باستسلام معبرتين
عن جهل خبيث .

— لا ، ليس هذا سؤالي . قل لي ، هل هناك ما يروقك فعلاً
في شخصي ؟

— هكذا اذن . . .

— ألا تريد الإجابة ؟

— ايرينا ، كنت أسير الآن وأفكر فيك . كنت أذكر كيف
تبسمين أحياناً ، بصورة غامضة ساحرة . ليوناردو دافينشي كن
يعشق ابتسامة الجوكندا . . .

— وأنت ؟

— عني ، لاداع . لأي حديث . . .

وردت عليه بابتسامة سعيدة ، صريحة .

— لا .

— ماذا ؟

— أنت لا تعرف شيئاً .

— ماهو الذي لا أعرفه ؟

— الذي ببساطة موهبة الجاذبية ، هذا كل شيء . واحترقت حديقته

يعينها بخوف : - اذن ، تعجبك تلك الفتيات مثلي ؟ وغالباً ، ترشبن بأن أكون زوجتك ، ولو لفترة قصيرة ؟ أم لا ؟

- أريد ، ولا أريد ، أنت فتاة من عالم آخر . من كوكب آخر . من صحن طائر .

- قلدي أنت اذن - قالت مازحة ، وبخوف ، ابتعدت عنه إلى الأريكة . - قلدي ، وجهي . فأنت تعرف كل شيء . سأخبرك قليلاً .

لم يكونا قريبين ، وانحنى كرموف ، وقبل بجذر رمشها الواخذ المدغدغ ، أما أصابعه فقد كانت تمر باطاف على شعرها الطري ، على رقبته الناعمة المنحنية ، وهنا أحس فجأة بفقراتها الضعيفة ، الشبيهة بفقرات طفلة ، وسيطرت عاياه شفة خارقة ، فأبعد يده ، راضياً بالتهوض ، وهو يحس حركات جسمها الخفيرة ، المتعثرة . أما هي ، فبعد أن أغلقت عينيها ، أرجحت رأسها إلى الوراء ، فامتعت أسنانها البيضاء المتشابكة برطوبة ، وانفرجت عن ابتسامة تجمع بين الحزن والفرحة . وهمست قائلة :

- هكذا يحدث ، عندما يفارق المرء الحياة . إنه شيء مرعب . . .

كان يرى وجهها الذي لا يدرك غوره في تبدله الجذاب ، وكان يحس بالهواء الساخن المنبعث من همسها ، وفي لحظة من اللحظات ، كان يوده أن يتصور ، أنه ، وهو الإنسان الجليدي ، الخبير ، ليس في العقد الخامس ونيف من العمر ، وأنها ، هي ، ليست أصغر منه بمرتين ، وأنه مغرم بلا وعي ، كما كان مغرم ، في سنوات بعد الحرب .

بأولغا ، وأنه خاضع مستسلم لوسوسة الشيطان ، للمخدر ، الذي لا يستطيع التخلص من حباله . بيد أنه عندما كان يعانق إيرينا ، شعر لسبب ما ، بحالة شديدة من البرودة ، وبشفقة تحلشه بصورة آتمة .

— إيرينا — قال كريموف — يجدر بنا ألا ننسى ، أننا قد نصبح مضحكين ، سخيفين . أنا بالطبع ، أتحدث عن نفسي .

كان يذكر : في تلك الأمسية الشتوية ، في شارع أوردينكا ، كانت إيرينا تحاول الابتسام ، وتنظر إلى صدره بعينين مرفرفتين ، وقد أخذت الدموع تغشيهما وتسيل منهما . كانت مستسامة الصمت ، وكانت بصمتها كأنها ترجوه أن يقدم لها مساعدة ما ، وهو ، من أجل إخماد هذا الألم المجهول المروع ، قال لها مطمئناً :

— ماذا بك ؟ وإلا ، فسوف أبكي أنا أيضاً . وهكذا ، سوف ننوح نحن الاثنين .

— تحبني الكلاب والأطفال — قالت بهلوه ، وهي تمسح دموعها بيدها . — يكفي أن أقول في الشارع لأي كلب : « تعال معي ، يا أحمر » حتى يركض ورائي . وقد لاحظت في المنزهات العامة ، أن الأطفال يقتربون مني حالما أنظر إليهم . . . أما أنت فلا تحبني ، بل تشفق علي . أنت يجب أن تحب فتيات أخرى ، غيري تماماً . لكنني لست امرأة خيالية ، لست امرأة من المريخ . قل لي ، لماذا القوي يعذب الضعيف ؟ وانظرت إليه في عينيه بخضرة عينيها الضعيفتين البريتتين . أما هو ، كريموف ، المصعوق بقناعتها هذه ، فقال على سبيل المزاح :

— ايرينا : أنت تنظرين إلي ، ليس كما أنا بالفعل ، بل كما لا أريد أن أكون .

— على أية حال ، أنت أقوى مني . فالرجل هو ملك الطبيعة ، صياد ، مدافع ، أما أنا فكائنات ضعيفة من الجنس الآخر ، عايتها أن تخبز الخبز وتلد الأطفال .

— ولهذا فأنت أقوى .

— أنا ، أنا ؟ . سألت ايرينا بصوت ممدود . — أنت جاد في قولك ، أم أنك تمزح كمادتك ؟

— لا بالطبع ، أنا أقوى . أولاً ، لدي إرادة حديدية ، وأنا لا أستطيع رؤية دموع الآخرين ، وبخاصة عندما تبكي امرأة . وثانياً ، عندما يضرب طفل ، فاني مستعد لأن أكره البشرية لقسوتها . ولكن ، في أغاب الحالات ، تأخذني الشفقة على الجميع ، وعلى كل شيء ، وعندما يمكنني أن أسامح الناس على أخطائهم وأشداهم . وأسامح نفسي أيضاً . ان ملك الطبيعة محروم من السلطة ولا يرغب بها . طالما أن الجنس البشري مستمر ، فالمرأة هي ملكة الطبيعة .

أوقفته ايرينا بحركة ضعيفة من جفنيها .

— لا ، أنا أرى طبيعتك ، واهتمامك بي ، بمثابة بائسة وجميلة من فرقة بالية مسرح البولشوي ، كانت بدايتها جيدة للغاية ، ثم وقعت لها كارثة . آه ، كم أكره عندما يشفقون علي ويمعاطفون معي : « كم أنت سيئة الحظ يا ايرينا ! » .

— يشفقون ويمعاطفون ؟ وهذا أمر سيء إلى هذه الدرجة ؟

— سيء . . . أنا أدرك عدم الانسجام بيننا . بينك وبينني . أنت .
قد أنجزت الكثير ، أما أنا ، فكأنني كسرت قفلاً ودخلت شقة غنية
غريبة . غير أنني أحببت الرقص منذ طفولتي . ولم يكن يلزمني أي
شيء . لا المال ، ولا المجد ، ولا القيم ، ولا شيء آخر ، أنت
تعرف . . . — ونظرت إليه ثانية نظرة خضرة ، وانحنت شفقتها بابتسامة
ملذبة . — أتعرف ، إنني أحياناً ، أغضب لهذا السبب على نفسي ،
جداً . . . حيث أخرج عن طوري .

— وهل يمكنني أن أساعدك بشيء يا إيرينا ؟
— تساعدني — لا ، لا حاجة . سأغلب على ذلك . أحوالي جيدة
كلها .

— إذن ، كل شيء جيد ؟ — كرر كريموف .
— كل شيء على الإطلاق — قالت إيرينا ، وغرقت بدموعها ،
وهي تسحب الهواء بأنفها بصورة متقطعة — أسمع ؟
— ماذا ؟ — ومسح بظهر أصابعه خيوط الدموع الحارة التي سالت
على وجنتيها . — وعلام البكاء ؟
— أسمع ، أي سكون في البيت ؟ عاصفة . . . وأي سكون
هذا . . .

— وما شأننا به ، بهذا السكون ؟
— لا ، لا . إنه سكون ، أتعرف ، . . . إنه صوت غريب ،
شبيه بصوت الظلم والموت .

— لازلت طفلة يا إيرينا ، ومازال أمامك الكثير .

— أظن أنني لا أعرف ما هو الظلم ؟ وما هو الإخفاق ؟

— أجيئي بصراحة : كيف تعيشين يا إيرينا ؟

اكنها كانت قد لاذت بالصمت ، وجفت الدموع من على أهدابها المغمقة من التعب ، وارتجفت أجنانها ، كانت تصغي وكأنها في غفوة ، إلى شيء ما خفي مكنون ، غير قادر على معرفته وإدراكه ، وفكر كريموف ، بأنه يجب وضع حد لهذا العذاب الطوعي ، ومفارقة هذه الفتاة الرائعة ، التي جذبته برقتها الضعيفة ، وبلغز حياتها الغامض :

في كل مرة ، كانت تستقبله بابتهاج كبير تارة ، وبرشد جلدي تارة أخرى ، وكانت عيناها تتلألآن بهيام تارة ، وبجزن تارة أخرى ، وكانت تبرز من تحتها أحياناً حلقات زرقاء تدل على توعاك صحتها . في بعض الأحيان ، وبعد أن تتمرن على جهاز الحركة أكثر من ساعة ، كانت ترقد على الأريكة ، مرتدية البزة الرياضية ، ودون أن تنهض ، كانت تبتسم بحزن ، ، متأمة وجهه ، ولكن ما إن يحاول الكلام ، حتى تغطي فمه بيدها ، وترجوه هامسة : « لاداع ، تعال اليوم ، نستسلم الصمت » . وقد وجدها أكثر من مرة وسط الغرفة ، وهي شاردة جالسة على السجادة وإلى جانبها كتاب ، وهي غارقة في وحدتها ، منفصلة عن العالم كله . وأحياناً ، كان يتملكها مرح شبيه بمرح الأدغال ، وهي نشيطة منتعشة ، رائعة العينين ، وكانت تجره إلى الناس ، إلى الجمع ، إلى « بارك » الثقافة المركزي ، الذي كانت متعاقبة به لتوفر الألعاب فيه مثل « الدولاب الشيطاني » و « غرفة المرايا الضاحكة » ، وإلى مطاعم ضواحي موسكو (كي لا يلتصبا صدفه بمعارفهما من

المسرح) ، حيث كانت تعلمه رقصة الروك العصرية ، ودون أن تشعر بالحياء من أي مكان ، لافتة الانتباه إليها بشبابها الجريء ، ومرونتها ، وشعرها الأشقر القريب إلى البياض .

مع ذلك ، لم يكن كبريموف يعرف كيف كانت تعيش ومن أية موارد . لم تكن إيرينا لتذكره ، أو لتحديثه بشيء عن إصابته ، ولم تكن تسمح له بأن يراقب تدريباتها على جهاز الحركة ، وبدلاً ، وكأنها كثيراً ما تمارس أعمالاً جانبية وغير لازمة . جاء ذات مرة إلى شقتها في أوردينكا في الساعة السابعة مساءً ، وراها تمارس عملاً غريباً . كانت مستلقية على الأرض ببزتها الرياضية ، وقد تناثرت من حولها الكتب والمراجع الهندسية ، وجدول الاغاريتم ، وأوراق رسمت عليها زوايا وخطوط ، وكانت هي مستندة بيدها إلى خدنها ، تكتب صيحاً وقوانين في دفتر مدرسي ، هاتفة من حين لآخر :

— جيوب تمام الزاوية ، جيوب الزاوية ، أي شيء مقرف !

دخل المرح إلى قلبه ، وسأل ماذا يجري في البيت ، فردت بامتعاض ، أنها تحل مسألة هندسية ، لم تستطع أن تحلها في فترة سابقة ، أثناء اختبار قدمته في الصف التاسع ، لكراهيتها الشديدة للقوانين ، وبعد أن أجابت ، خلعت الأوراق بعضها ببعض ، وأغثت جداول الاغاريتم ، وعضت بصورة عابسة على طرف قلم الرصاص .

— ذلك الاختبار ، تلك المذاكرة في الهندسة تراودني في الحلم أحياناً مثل كابوس . أريد أن أتخلص منه ولا أستطيع ذلك . وقد حصل لي هذا الكابوس في يوم عيد ميلادي قبل بضعة سنوات . — نقرت

إيرينا بأصابعها بضيق وكدر . - على فكرة ، لدي اليوم حفل ، إبق
عندي ، سترى معارفي من ممثلين ورسامين ، وأشقياء لطفاء . . .

* * *

اندفع هؤلاء « الأشقياء اللطفاء » إلى شقة إيرينا بصياحهم وضجيجهم
وزعيقهم في الساعة العاشرة مساء : فتبادلوا القبلات ، وصرخوا بعبارات
الترحيب الحماسية ، وبعد أن رموا بمعاطفهم وسترهم على أرض البهو ،
ملأوا الغرفة بكاملها : كانوا شباباً يرتدون الكنزات السميكية ، وفتيات
نحيفات رشقات يرتدين السراويل . قام أحدهم : « تيري ، رسام
موهوب بصورة نادرة » - قيل لكريموف فيما بعد ، وهو أسود
الشعر ، قصير القامة ، ذو عينين ضيقتين على شكل زاويتين ، فبسط
يده وصاح قائلاً : « إيرا ، إيريتشكا ، يا ضوء وحي ! » ، ولوح
بزجاجة الكونياك . فلم يصنع إليه أحد . عندئذ ، صعد إلى الطاولة ،
وحرك شفتيه وحنجرتة كما لو أنه يعزف على السكسفون ، وأخذ
يقوم بحركات جسدية من الرقص البدائي ، ثم صرخ قائلاً :

- إيركا * ، أيتها الجميلة ! أهتوك ! . . .

- كفى ، توقف ، دياس ! - كان أحدهم يهلهله بصوت
جهوري ، أجش ، كأنه صوت ممثل . - اهلاً ، أريد أن أقول نجماً !
هدوء ، يا عصابة ! سكون كيميائي مطلق !

كانت الفتيات المقشعرات من البرد ، بسرويلهن ، يتزاحمن ،
ويجاسن إلى المائدة ، التي أصبحت على الفور وكأتمها محتاجة ، مغمورة ،

* إيرا ، إيريتشكا ، إيركا - هذه أسماء تحب وتلطيف لاسم إيرينا - المترجم -

مغطاة برماد السجاير الرطب . وكان الشباب يتسابقون برجولة الفرسان ،
الإنحاء أمام إيرينا ، دون الالتفات إلى كريموف ، ما عدا رجلاً
متوسط العمر ، ممتليء البطن ، ذا عين حولاء ، كان يبدو من تحت
قميصه الصوفي بقبته المفتوحة وقميصه الداخلي المتسخ . قال الرجل
بصوت متعثر ، وهو يمسك بيد كريموف مصافحاً :

- لقد سبق أن رأيتك في مكان ما - قال واهتز مخموراً ، ومقرباً
كرسيه من المائدة . - أين ، أين يا ترى . . .

- يبدو لي كذلك أننا التقينا . أين ، لا أذكر .

- سكون . . . كيميائي مطلق ! - هدير صوت الباريتون القوي ،
الشبيه بصوت ممثل . - هذا البيت . . . في هذا البيت المجيد ، في بيت
المولودة اليوم ، يمكننا البقاء حتى الصباح ! نحن نحب هذا البيت ،
لأنه يمكننا التلذذ إليه في أي وقت من أوقات اليوم . عاشت شمس
هذا البيت ، أورا ! . . . هلعاً يا عصابة ! أيها الدهان دياس ، اخرس .
يا عمي ، عمي العزيز ، فيما بعد ، ليس الآن ، ستمحدث عن النساء
اللاواتي كن في حياتك ، وفي أي وقت ! . . . هلع ، سكون الأموات !
لم أنه حديثي بعد . . .

- أسمع ؟ هل تفهمهم ؟ أنهم يصرخون علي - همس الرجل
المتراخي ذو العين الحولاء بصورة خائفة مغمومة . - هذا التري ،
رسام متميز ، يعمل في مرسومه ، بناه له أقاربه . إنه جريء ، مقلام ،
أقوى ، فارس ، عربي ، لم تمسه المدنية . في عروقه ودمايته تسري السماء
والسهب والرياح ، وتحت سرجه قطعة من اللحم النييء - هذا هو غذاء
موتهته . أما فسيقولد هذا ، ذو الحنجرة البيضاء والصوت العالي ،

فهو ممثل ، ابن الممثل الشهير من مسرح موسكو الفني الأكاديمي . . .
أسمع كيف يصرخ ، صهي ، وهو بهذا الصوت القوي .

— أيها العم ، ذا القميص الداخلي البارز ، هلا انضمت إلى
حلقتنا ، تبدو غريباً ، صمتاً ! كفاك حديثاً عن النساء ، كان لديك
الكثيرات منهن . . . صمتاً ، هدوءاً ! لأنني أقرأ الشعر ، سأقرأ عليكم
أبياتاً للشاعر العظيم بولك ! اصغوا جميعاً » وكل مساء في الموعد المحدد ،
أو هكذا يتخيل لي ، يتحرك خصر الفتاة بثوبها الحريري على النافذة
الضبابية . . . » .

— أسمع ؟ — همس الرجل ذو العين الحولاء بذهول . — أنهم
يريدون شيئاً ما . . .

— ماذا يريدون ؟ — سأل كريموف الذي أصمته الضجة والفوضى
على المائدة .

— أنهم عازمون على شيء ما — قال الرجل قنقاً — نحن ، أنت
وأنا ، لا نعرف ماذا يريدون ؟ هل يريدون شيئاً ما ، أم أنهم يشيرون
موهبتهم على هذا النحو ؟ أنهم يريدون الحياة : أنا سأقول لهم الآن ،
سأقول لهم كل شيء . . .

وقف الرجل ، يتمايل مخموراً ، وقد تغطى قميصه الصوفي الدافئ
برماد السجائر ، وغطى العرق وجهه الرمادي الأزرق ، وبدت غرة
شعره المشعث ، التي خطها الشيب ، أشبه بغرة الأسد ، وقال :

— أيها الشباب ، نحن في وقتنا . . . كان لدينا هدف ثابت . كنا
نتألم ، نعاني ، لكننا كنا نرى الهدف ، كنا نعرف . . . لقد كنا نرتدي
لحاء الشجر على أقدامنا ، لكننا . . .

— أيها العم ، اجلس ! — قاطعه الشاب ذو الصوت الباريتوني ،
الشبيه بصوت الممثل ، بوقار تراجيدي — أيها العم ، أنت ثمل ، لكنك
نطقت بالحكمة ، قلت نخباً حكيماً ! أيها العم ، أنت عبقرى ! سأقول
كلمتين فقط : عب . . . قري . . . !

— أريد أن أتر عليك شعير غوميليف ! فسيفولده ، افرض السكون
والهدوء !

— دياس ، ضع الزجاجاة ! من يشرب من فوهة الزجاجاة ؟
— انهم فعلاً لطفاء محبوبون ، رغم كونهم أشقياء وقحين ، —
همست إيرينا في أذن كريموف — اجلس الآن جانبا ، انظر واسمع
كالفأر . هذا طريف حقاً . الآن سوف يتناقشون .
— حسناً ، سأجلس كالفأر في الزاوية .
— أنا لست شهيداً ، ولا بطلاً . . . كيف يمكن تسمية هذا ؟
قولوا ؟

— لا ، هذا جيد ، حسن أنه اعترف ، أنه أصبح كما لو كان
على راحة الكف . لقد تعرى ، تعرى من ثيابه أمام الجميع . هذا
« ستربتيز » !

— كوليا ، ما هو موقفك من اليهود والروس ؟

— أبحث عن الوسط .

— الحسدون ينشرون الأكاذيب .

— في كل حقارة ثمة سداجة ، تماماً كما أنه في كل سداجة سخيفة
ثمة حقارة ! لكنك حسود .

— وهل في الخير حقارة أيضاً ؟

— أجل ، في الخير الخالي من الأسنان ، في الخير الأثغ ، في
الخير الفارغ ، مفهوم ؟

— سيكون كيميائي مطلق ! هدوء ! من أراد تلاوة شعر غوميلايف ؟
— أنا اقترحت .

— هدوءاً يا فتاة ! أين مسلماتي ، ذات القبضات المرصعة ؟
غريشا ، اقرأ شعر غوميلايف .

— أريد أن أقول لكم ، أيها الشباب ! غوميلايف فيما بعد .

— أنت من جديد ، أيها الغم ؟ هيا تفضل ، تفضل ، تكلم !
دعوه يتكلم ، يا أفراد العصاة ! اسمعوا نخب الرجل الذي عرف
جميع آلام العالم ومعاناته .

بوجه عابس ، أحمر — أزرق ، ثمل ، وعين حولاء نهض من
جديده ببطء ، الرجل الممتليء ، الجالس بجوار كريموف . هنا تذكر
كريموف فجأة : لقد تعرف عليه قبل عشر سنوات ، في إحدى الأمسيات
في دار الممثلين ، باعتباره ابن كاتب معروف ، استشهد في الثلاثينات
في الشمال .

وضع الرجل فمه على القلح ، وشرب بشراهة .

— يقول القدماء : استعجل ، لكن ببطء ! هذا ينسحب علينا جميعاً ! أما أنتم ؟ من أنتم ؟ ماذا تعرفون ؟ . . .

— فكرة الموت — الخوف من الموت .

— مستهلك الحياة . ماذا تعرفون أنتم ؟ حياة الإنسان الموهوب ، الشريف ، هي أقصى حياة في العالم .

— إن جميع كتابك الكلاسيكيين المحترمين هم كاذبون عاطفيون !

— ماتان ، ما هو موقفك مني ؟

— أنا رومانسي ، ولهذا ينقلني من تقدير الأشياء الواقعي . أنا رئيس ، أنت حمار ، أنت رئيس أنا حمار . الحق دوماً إلى جانب من يملك حقولاً أكثر .

— ماجن ، مستهتر .

— افتحوا النافذة ، وليدخل الهواء المنعش إلى هذه الغرفة المشبعة بالدخان . توقفوا جميعاً عن التلعين !

— لقد باع دياس لوحة ، تمثل منظرًا طبيعيًا بخمسمائة روبل . ويقوم الآن برسم اللوحات التصويرية لمسرحية ستعرض في مسرح تاغانكا ، كما أعتقد .

— إذا كان العمل هو الحياة ، فهو مترع حتى الشمالة . ولا وقت يكفي .

— ما المقصود بذلك ، هذا يعني أن الكلب كبير ، غني ، قوي ، أما الحقيقة فهي ضئيلة ، تافهة حقيرة ؟

- هراء ! الفن دوماً مجاز ، استعارة للواقع .
- إن الكذب الأكثر كذباً يحمي ويدعم حياة جميع الحقائق الإنسانية .
- وانعدام الموهبة هو كذب دوماً .
- أليس عقيماً هذا التفكير الفارغ ، بلا طائل ؟
- لدينا ستة عشرة بالمائة من الاحتياطي العالمي من الغابات ، وعشرون بالمائة من احتياطي المياه في العالم ، ومع ذلك ثمة نقص دائم بالورق .
- وما هو الكذب - الدفاع عن الذات ؟
- وإذا كان الكذب هو حقيقة ؟ ، والحقيقة هي كذب ؟ لا تشنج وجهك ، أنا نفسي قادر على ذلك .
- بهلوء ، استمع إلي ! سألقي عليكم أشعار أحماتوفا . إنها أبيات إلهية !
- روزا ، ماذا بالنسبة لرقصة « التويست » ؟ لا تنسي ، أنا لست ماهراً . دياس ! أيها العبقري صور لنا ، بشفتيك شيئاً من رقصة التويست أو « الشياك » !
- أما فسينفولد ، فهو قادر على خشبة المسرح أن يمثل ويعبر بوجهه وبصوته . فهو يصرخ مثل بوق أريحا ! *

* يشرب المثل بأبواق أريحا لقوتها وشدتها . وقد جاء في التوراة أن جدران قلعة أريحا القديمة انهارت من شدة أصوات أبواق الغزاة اليهود

- المترجم -

— أتعرف ما هو النقد ؟ إنه توقيع شخصي على الجهل الشخصي .

— أما أنت فتصفق بأذنيك ، كما تصفق الأبواب . اعطني

الزجاجة ، يا شقيقي ! لقد تفاسف فجأة !

— عمن تتحدث ؟ من هو عديم الموهبة ؟ تتعلق بالسخافة والهرء

ولا تخجل . يجب أن نحكم على الفنان من خلال أفضل أعماله ، وليس

من خلال أسوأها . لقد أصبحنا شريرين ، حسودين إلى حد الحقد

والكراهية .

— أنت من تقصد ؟ أم أذاك فقدت رشذك ؟ عمن تتحدث ؟

— عنك أنت . أنت سبيرة .

— وما هو السبيرة ؟ هل جننت ؟

— إنه نوع من الطيور ، صغير جداً . يعيش بالقرب من التماسيح .

يفتح التماسيح حنكه ، فينظف له السبيرة أسنانه . ينقرها بمنقاره . بعد

أن يكون قد التهم إحدى فرائسه .

— آه ، كم هذا طريف — الشر يتعايش مع الخير ؟

— بأي معنى يهماك هذا يا سفتلانا ؟ بالمعنى اليومي المبتذل أم

بالمعنى الفلسفي ؟ عندما تقولين « لا » ، فهذا شر بالنسبة لي . لكنك

تعتبرين هذا خيراً بالنسبة لك . أليس كذلك ؟ فالآن ، أود أن أذهب

وليالك إلى الحمام . . .

— توقف عن السخافات ، ناتان . أنا أتحدث بجد .

- الشر ، أيتها الفتاة ، هو ما يفرق بين الناس ، مهما كان الأشرار متحدين . هذا بالمعنى الفاسفي .

- والإله ؟ وهل هناك إله إذن ؟ وإلى أين ينظر ؟

- إن أنظاره متجهة إلى الطريق الرئيسي ، وليس إلى تعرجات البشرية ومنحنياتها . هل تريد أن تزيد معارفي عمقاً يا فتاة ؟
- ولكن ربما يكون الحق في هذه التعرجات بالمئات ؟ أسأل الله .
يا ناتان ، أين أصبح الحب الآن ؟

- أتريد أن بالمعنى الفاسفي ؟ حسناً . . .

- في أي معنى تريد . لقد جعأت كل شيء ضبابياً . تكلم على نحو بحيث يكون حديثك مفهوماً .

- اسمحي لي ، يا عزيزتي . أذكر رسماً كاريكاتورياً في مجلة « بليوي » الأمريكية . أب مصعوق بالشهوة ، يجلس على الأريكة والسيجار بين أسنانه ، وحوله ثلاث فتيات عاريات . والتوقيع : تقسيم العمل . فتاة تشعل له عود الثقاب ، وتقدمه له ليشعل السيجار ، وأخرى تثير هذا الخنزير السمين وتغريه ، أما الثالثة فمستأقمة على الفراش بانتظاره . هنا ، أنا قادر على الفهم والحسد . قه ، قه ! أما بالنسبة للحقيقة أو الحق ، فالأفضل ، غالباً ، ألا يفهمك للناس . أنا أريدك - هل هذا مفهوم ؟ . . .

- أنت تسخر ؟

- سفيتا ، أرسلني هذا الماجن إلى الشيطان ! أنا مع حرية النقاش . لهذا ، لا تغضبي : لقد كدس أمامك أكواماً من الترهات ، لا يقدر

حصان على اجتيازها . على العكس : الإنسان يكون إنساناً فقط عندما يخاف الموت ، آنذاك فقط يعرف قيمته وقيمة الآخرين . وعظمة الإنسان في نقطة ضعفه هذه . لا يخاف الموت إلا الصفر ، الفراغ ، العدم !

— عاش الحكيم : عاش ، عاش ، عاش . . .

— هدوءاً أيتها العصابة ! اسمعوا ، اصغوا عندما يتكلم الكبار ! من قال « قيمة الآخرين » ؟ هندسة العمارة ؟ عار العصر ! يا للعجز ! درب الحمير الوعرة ! سفيتكا ، لا تصغي إلى قول هذين الاثنين . الشيء الوحيد الذي لا يزال له قيمة ، الذي لا يزال يجمع بين الناس ، هو الحب . وكل ما عدا ذلك لا يساوي نصف قرش .

— أي حب هذا ؟ الحب هو قدرة ؟ هو موهبة . وأنا ، قد لا تتوفر لدي هذه الموهبة من هذه الناحية .

— أجل ، أيها السادة ، لا يمكن فصل السخافة عن صديقنا فيسيفولد ، تماماً كما لا يمكن فصل السبب عن النتيجة . غب — غب ، أنا أشرب نخب السبب والنتيجة .

— ارفع صوتك قليلاً ، يا دياس ، إنك تغغم بشيء غير مسموع . . .

— أنا أقول : كل شيء في فن الواقعية الاشتراكية ينطلق من الفكرة ، أيها الشيخ ، أما اللون فهو مجرد وسيلة . اعتبر ، أنني أرسم نفسي ، لأنني أحترم فكرة اللون .

— وماذا عن تفاعل الألوان ؟

— أنني أحترم تفاعل الألوان الفضي .

١٠ من — فسيفولد موهوب ؟ أم ناتان ؟ لا ، انهما كوكبان وليسا
نجمين ! النجوم ، شيء نادر يا صديقي .

— ولماذا كوكبان ؟

— لأن الكوكب يعكس ضوء غيره . . . ان من كان باستطاعته
أن يصبح نجماً من بيننا هي ايرينا . بيد أنها لم تصبح كذلك ، لم يسعفها
الحظ . أتعرف كيف تجري الأمور في الحياة — كل شيء بمحض
المصادفة ، بصورة مفاجئة . فجأة ، أصيبت بتمزق الأوتار ، ومنعها
الاطباء من الرقص عاماً كاملاً . فسيفولد ، اعمل على تنظيم الوضع !
الجميع يصرخون كالمجانين ، لا يستطيع المرء أن ينطق بكلمة . . .

— همدوءاً ، أيتها العصابة ، سوف أفجر الشمبانيا من زجاجاتها !
نخب ! سكون مطاق ، عندما يتحدث الصحفيون العظام ، ليس لصوص
الكلمة ، بل المناضلون من أجل الحقيقة !

— عزيزتنا ايرينا ، أروع النساء في عصرنا وأكثرهن موهبة ،
نحن جميعاً موهوبون باك ، وأنا ، باسمنا جميعاً ، باسم أصدقائك ، أود
أن أقول أنه يمكنك أن تصبحي ممثلة رائعة . . .

أما كريموف ، الذي لم يكن يعرف أحداً من الضيوف ، كريموف
المذهول من الزحام حول المائدة ، ومن الصباح والقهقهة ، ومن مناقشات
هذه المجموعة الشابة التي لا تعرف الحجل ، فقد كان يجلس على
الأريكة في الظل ، لم يأكل شيئاً ، ولم يمس القدح الذي وضع أمامه ،
مدرراً أنه هنا ، غريب . كان يلدخن ، ويراقب خابسة ايرينا الواجحة .
يراقب تبدلات وجهها الذي كان يغدو تبعاً لسير المناقشات . مرحاً

تارة ، ومغطى بسيماء الخيرة والذنب تارة أخرى . وعندما بدأ الشاب الطويل النحيل ، ذو النظارات ، « الصحفي العظيم وليام سارق الكامة » ينطلق نحوه ، عبر وجهها عن الألم والمعاناة . سحبت إيرينا سيجارة من عاية سجائر كريموف ، وأشعلتها بقلدها ، ثم أطفأها على الفور في صحن السيجارة ، ورفعت عينيها إلى الشاب ذي النظارات ، وهي تقول بحزن :

- عزيزي ، عم تتحدث ؟ كل هذا بعيد عن الحقيقة ، كل هذا كاذبات ، كلمات تسبب لي الحجل . . . وستشعر بالحجل أنت أيضاً . - وانفجرت زاويتا شفثيها عن ابتسامة شبه حزينة - عموماً ، كل ما قلتموه بعيد جداً . . . وكاله غير صحيح ، ولا لزوم له ، إنه كلام زائد . ونحن نكذب على أنفسنا . . . لقد نسينا من نحن على حقيقتنا . نحن أجزاء دقيقة من الأرض ، أجزاء صغيرة . . . لا أكثر . ولم نعد نحبها ، لأننا نحب أنفسنا . أصدقائي أنتم تحبون أنفسكم فقط . . . وأنا لست بأحسن منكم ، أنا مثلكم ، لكنني لا أريد الكذب ، لا أريد الخداع ، لا أريد الكاذبات ، أريد أن أحب الأرض . . .

- من تحب ، هذه الشيطانة ؟ - هدير صوت الممثل الشبيه ببوق أريحا - إيرينا ، أنت خنتنا ، لقد خدعتنا أيتها الكافرة !

قالت إيرينا بصوت مرتجف :

- لم أخدع أحداً ، أريد أن أحب السماء ، الأرض . . . وربما بعد ذلك ، أحبكم جميعاً ، السماء ، الأرض ، والأفق بالطبع ، - كررت إيرينا بسلاجة حماسية ، جعاتها مستقاة أمامهم ، ومجردة من السلاح . - أجل ، أنا أحب الأفق .

— أين ترين الأفق ، إيرينشكا ؟ كلما اقتربنا أكثر من الأفق ،
كلما أصبح أبعد عنا . وحتى في الحب لن تلتقي به . على أي نحو ،
آيتها الشيطانية ، تريدان أن تحيي الأفق ؟ حالة غير طبيعية ! نزوات
فتاة أمازونية ! حالة شاذة !

— فليكن كذلك . أنا أريد ، — أومأت برأسها بابتسامتها الصغيرة
الغامضة التي لا تكاد ترى ، وارتقت الطاولة ، وقالت بوضوح وبصورة
مستقلة كما في السابق : — إلى اللقاء ، لقد انتهى عيد ميلادي . لم
أحن أحداً . بعد أسبوع ، يمكنكم أن تأتوا لعندي في أي ساعة من
ساعات الليل والنهار .

بعد أن انسحب الضيوف ، وأغلق الباب من وراء آخرهم ، وسكنت
الأصوات في الشارع ، بقيت تنتظر في المدخل ، غارقة في تأملاتها ،
ثم أطفأت النور ، وتوقفت أمام النافذة وقد تراءى ظاهها عاتماً قليلاً .
وأزاحت الستارة — هناك خلف الزجاج ، في الظلمة العاصفة فوق
زاموسكفورييتشي ، في البرد الجليدي ، كانت تسطع النجوم الشتوية .

— كم هم غرباء كلهم — قالت إيرينا — اقرب وانظر — أضافت
هامسة — كيف تلمع النجوم بصورة بديعة !

اقرب كريموف منها ، ومع شعوره من جليده بضعفها ، وبنبض
مقاومتها العنيد ، الذي لم يكن يتوقعه مسبقاً ، فكر بأنها قادرة على
الصمود أمام الناس ، بصلاية مرنة ، وغير مزعجة في الوقت نفسه .

— لم أفهم ، يا إيرينا ، من هم الغرباء ؟ أصلهاؤك ؟

لم تجب إيرينا ، وارتسم على عينيها ضوء رطب سماوي ، منعكس
من النجوم المتوهجة وسط الليل .

— هل من المعقول ، أننا جميعاً سنكون في الماضي ؟ كنا ، كنا نأمل ، كنا ننتظر . . . سقراط وتشيوخ أوصيحا في الماضي . وكذلك سافو وأنا بافلوفنا . ومليارات من الناس الذين عاشوا . ونحن ، أنا وأنت سنصبح في الماضي . قل لي ، فياتشيسلاف أندريفيتش ، لماذا يفعل الناس ما لا يجب فعله ؟ ألا يشعرون بذلك ؟

— إيرينا ، متى سيسمح لك بالرقص — سألها غير راغب في تأييد مزاجها . — وهل باستطاعتي تقديم مساعدة ما ؟ اعطيني على هذا السؤال اللجوج ، لكن يودي أن . . .

— سأحتمل — قالت بصرامة — ليست هناك حاجة لأية مساعدة . وإذا ما تحدثت ثانية عن المساعدة ، فسأغضب . . . رغم أنني لا أريد أن أغضب منك .
— شكراً .

— هل تعرف ، أن زوجتك امرأة فاتنة ، لا يمكن للمرء ألا يحبها ، ولا أريد أن أقول لك كلمات زائفة . وأنا لن أستطيع أن أكون زوجة ، ولن أكون ، يوماً ما ، عشيقة لرجل ما . إنها كلمة شنيعة ، مقرقة . . . سنبقى أصدقاء طالما لم يمل أحدنا الآخر . موافق ؟

— أنا موافق . — أجب بخضوع مرح وسألها — ماذا يريد أصدقائك ، إن لم يكن سرّاً ؟ هل أوضاعهم جيدة ؟ أم كلها سيئة ؟

— أوضاعهم كلها جيدة ، كما أعتقد . ولكن ، ما معنى جيدة . لأنهم يعملون ويكسبون المال . غير أنهم جميعاً ، يعتبرون أنفسهم غير موفقين ، غير محظوظين . كانوا يحامون بالمجد ، المجد العالمي . ألا

تلاحظ أن عدد الفاشلين ، سيأتي الحظ ، المتخترسين أصبح كبيراً في السنوات الأخيرة ؟ يبدو وكأن كل شيء عندهم على ما يرام . ومع ذلك فهناك شيء من عدم التطابق ، من التنافر . . .

.. التنافر مع ماذا ؟

.. مع الحياة . . . على الأصح ، كيف يمكنني التعبير . . . عدم تطابق الرغبات مع الحياة . . . لقد كنا نتوقع أكثر مما يجب . . .

— وماذا بالنسبة لك ؟

— وهل قلت شيئاً ؟ وأنت أيضاً تريد أن تشفق علي ؟

وأدارت وجهها نحوه ، ولاح شيء من ضوء النجوم على شعرها ، كانت عيناها منكستين إلى الأسفل ، وفي ثنية فمها ، تراءى له شيء عنيد ، ارادي ، طفولي . ولتأنيبه لنفسه على التدخل المفرط ، واشعوره بالحجل من فضوله نحو هذه الفتاة ذات العينين الخضراوين المتمردتين ، قال كريمواف :

— أعرف نقطة ضعفي . أنا غير لبق ، وسمج ، كالمليس .

— كل شيء له بداية ونهاية ، أليس كذلك ؟ قالت ايرينا - ولكن ، ليس هناك من يقدر على مساعدتي .

— لا أحد أبداً ؟

— وأنت أيضاً غير قادر . أنا وحدي فقط . على أن أخطب نفسي :

« لا بأس ، سنناضل من جديد . . . »

ابتعدت عن النافذة ، وجلست على الأريكة ، ولم يكن باستطاعته تمييزها في الظلمة إلا بصعوبة ، وبصورة مبهمة .

هذه الكلمة « سنناضل » لم تكن تطابق ابتسامتها الضعيفة ، لم تطابق الرقة الذابلة ليدنها ورقبتها ، الرقة التي كانت تثير في نفسه أحياناً الشعور بالخطر ، الذي بدا له أنه كان يتهدهدها في أمسيات موسكو المتأخرة ، عندما كانت تعود لوحدها مساءً إلى أوردنيكا . وصور له خياله مداخل قائمة ، وأشخاصاً مجهولين ذوي نظرات قاسية ، كالمجرمين القتلة ، يترصدون بها الدوائر في الزوايا والمنعطفات ، ورسمت له مخيلته وجهها الميت ، المطروح إلى الخلف ، وجسدها المغطى بالدماء ، الملقى على الأرض الاسمنتية في قبو رطب أسود ، مليء بالدخان . كان يشعر بوضوح كبير بضعفها أمام القوة البهيمية ، للدرجة أن هذه المشاهد المسرحية « الكارتونية » المشؤومة للكارثة المحتملة كانت ترغمه أحياناً على أن يتصل بها ، هاتفياً ، في الأمسيات ، لاجئاً في الوقت نفسه ، إلى سخريته المألوفة : « أردت أن أناكد ، فيما إذا كنت تراعين الحمية أم لا » .

— وماذا في الأمر ؟ سوف نناضل — قال كريموف وجلس بالقرب منها على الديوان — وإذا كان الأمر كذلك ، يا إيرينا ، فأنني أقدم لك عرضاً رسمياً : أود أن تمثلي في فيلمي السينمائي . التصوير سيبدأ في الصيف . وأعترف لك : قبل عام رأيتك في باليه « جيزيل » ، وأقدمت على اختيار يصعب التراجع عنه . تعالي لتجرب ، ما رأيك ؟

— لا — همست إيرينا — لا أبداً . لا أريد أن أنسى الرقص .

في أوائل الربيع وافقت على هذا العرض . وحدث هذا قبل شهرين من موتها .

الفصل الرابع

أما ذلك اليوم الصيفي ، في ضواحي موسكو ، فلم يكشف سهو كاملاً ، حتى بالنسبة له .

أمام الجسر الصغير ، القديم ، المصنوع من عيدان الخشب المتقلقلة ، وغير القادر على احتمال سيارة « الفولغا » ، أوقف السائق السيارة ، ومن هناك ، من الضفة كانت تطل من بعيد القباب المتخففة والجدران البيضاء لدير « ستاري سباس » القديم . سارا في البداية على الطريق ، إلى جانب أحراش الجوز ، ثم مشيا عبر حقل أخضر من الذرة الصفراء ، حتى طرف الحوش ، حيث برزت على الراية البلدة القديمة ، التي لا تزال عالقة بذاكرتها على الأغلب ، الأخفاف الليفية البنية للمشاة العابرين ، والمشية المستقيمة للرهبان الصامتين ، ووقع الأقدام العارية المصلين البعيدين ، الذين يخلعون أحذيتهم على الطريق ، وآثار جزمات التجار ، ورقص جزمات فتيات القرى الجميلات ، والانهاك الوديع للآثامات ، القادحات إلى الدير من موسكو لتطهير نفوسهن . وعندما اقترب كريموف من الدير تصور يوماً حزيناً قائظاً ، والجياه الرائعة المتعركة لآثامات العاصمة ، وجفونهن المنكسة المتواضعة ، وتنانيرهن المتغيرة بلون رمادي على طريق الاعتراف . لقد رأى كل هذا ، بصورة واقعية ،

وكأنه بالأمس كان يجاس هنا ، في ظل شجرة دردار على قارعة الطريق ، على الأرض التي تفوح بالرطوبة ، مصغياً إلى الخيرير الناعس للساقية تحت الراية .

كانت البلدة تؤدي ، عبر الحرش ، إلى هيكل غير مرتفع ، محاط بسور شبه مهدم . وفوق أشجار الزيزفون المتنامية ، كان يتوهج بسطوع صليب ذهبي في الزرقة العميقة ، ومع الهواء الدافئ ، المصبوغ بالحرارة المزهرة للأعشاب الجافة ، كانت تصل رائحة العفونة الرطبة - الرمادية لأشجار البتولا المقطوعة ، والمنكومة على شكل أكاداس في ساحة الدير .

أجل ، كان يظهر في كل شيء حر الصيف القائط ، والسطوع ، وزرقة السماء ، والخضرة وكثافة الأوراق المبهجة. وشعر كريموف على نحو خاص ببريق عينيها الفتي ، وباستجابتها الحية غير العادية ، وفيما بعد ، عندما استعاد في ذاكرته ، أراد لسبب ما أن يتذكر بالتفصيل ، تلك الدقيقة ، بالقرب من الكنيسة ، عندما تأخرت قرب طنّف الكنيسة ، حيث كانت تقف ، تحت ظل شجرة زيزفون ، عربة أطفال تركها أحدهم ، وقد رقد فيها توأمان رضيعان ، وقد تعرقا من شدة القيظ (أذن أن إيرينا قالت آنذاك : « يا لأنفيهما الصغيرين البديعين ، يا لهذين الوجهين المضحكين ! ») ، ونزل كريموف على الدرج من قيظ الظهيرة المبهرة إلى ظلام الكنيسة الرطب ، حيث كانت امرأتان عجوزان ، وضعتا المنديل على رأسيهما ، تتساران ، وقد جاستا على مقعد قرب السور ، منحنيتي الرأس ، ترددان الصلاة ، وتمسحان أطراف شفاههما من فترة لأخرى على الطريقة القروية .

في كنيسة « ستاري سباس » كانت تفوح رطوبة الأرض الحجرية ،
وتجتمع لوحات الفريسك بغباشة باهتة على الجدران وتحت القبة . وكان
يسمع هديل الحمام في هدوء نعيم الصيف المنير ، وعلى ساحة الدير
المغطى بالأعشاب : توقف كريموف أمام ايقونة العذراء ، التي تنظر
في ضوء الشموع ، بعينين سماويتين إلى الأمور الدنيوية ، ولكنه استدار
عندما سمع وقع الكمب العالي النسائي على الدرجات الحجرية الرنانة .
كانت فتحة المدخل مغطاة ، بسطوع ، بشمس النهار الحزيراني ، الذي
كان يلاحظ بصورة عذبة من قبو الكنيسة الحجري . ورأى من خلال
فتحة المدخل المغطاة بضوء الشمس القوي ، قوامها ، وتنويرها الخفيفة ،
التي كان يخترقها من الخلف ضوء الشمس الذهبي ، ورأى درجات
الغرانيت القديمة ، التي كانت تابوس عليها بمرونة ، متأرجحة بصورة
خفيفة . لاحظ كريموف أن المرأتين العجوزين قد توقفتا عن الهمس
وأدارتا رأسيهما بصورة مستنكرة تجاهها ، أما إيرينا فقد اقتربت من
حائط الايقونات وحيثهما بنظرة بشوشة . وشعر كريموف بمرح
وسرور ، لأن العجوزين قد استنكرتا شباها ، وحيثها البريئة ، البشوشة
التي اكتشفها هذا اليوم ، ونظرة القديسين والعذراء الخفيفة ، وأضواء
الشموع . لقد رأى عيني إيرينا المرفوعتين ، المنفصلتين عن وجهها ،
في اليريق الرطب العاتم ، وقمع في داخله رغبة طائشة بالابتسام لها
(تدنيس المقادسات في المعبد) ، وقال مشيراً بإيماءة إلى ايقونة على
اليسار

— أنظري ، كيف رسم وجه القديس ألكسندر نيفسكي ، بطريقة

عصرية

— أوجل ، أوجل ، بطريقة مدهشة — قالت إيرينا هامسة .

كان كل شيء ساكناً وهادئاً ، وفي الأعلى ، تحت القبة ، كانت طيور الحمام تئن في فتور عاشق ، وكانت تلمع في ضوء الشمس المروحي الأرض التي شطفت حديثاً ، المغطاة بالبلاط (وقد وضع دلو في الزاوية ، وكانت تجفف فوقه مسحة) . ولم تكن وجوه القديسين المرسومة رسماً جيداً ، والبوابات القيصرية المفتوحة تحت القناطر المحلاة بالرسوم لتهدد بالتذكير بالإيمان المفقود ، بالآثام الغليظة ، باللغو الديوي ، ولم تثقل بالحزن . وكما في السابق ، شعر كريموف بالنقاء في روحه ، وكان من المستحسن جداً أن يشعر بشباب إيرينا الواضح في هذا الدير القديم ، المترع بهديل الحمام ، وهدوء الحقل .

بعد حوالي عشرين دقيقة ، خرجا من الكنيسة إلى الرابية الخضراء (بقايا البلدة القديمة) ، حيث كان يتلأأ ، في الأسفل ، في المنخفض الممتد ، نهر من المرايا المتكسرة ، مرغماً الزائر على تصور الشوارع والجدران لهذه البلدة الروسية التي كانت هنا ، على الجزيرة ، تحيطها المياه من جميع جهاتها ، بالقرب من الدير ، وعلى تصور الناس الذين كانوا يسرون على هذه الطريق ، التي تمدها الشمس بالدفء والحرارة .

— انظر ، هذا هو القرنفل البري — قالت إيرينا واستلقت على الرابية ، وداعبت الأزهار على المرج براحة كفها بخنان ، ثم انقلبت على ظهرها ، وقالت بصوت ضعيف : — يا ليتني أستلقي هنا ، وأأمل السماء طيلة الوقت . وهل كانت السماء هكذا دائماً يا ترى ؟ عندما لم نكون قد ظهرنا على هذا العالم ، وفي القرن الخامس ، وفي العاشر ؟ أية سعادة هذه : الشمس ، والسكينة ، والخطاطيف على قمة الأجراس . . .

— قرأت ، لا أذكر أين ، أنه حيث يوجد القرنفل البري تتواجد
الثمار البرية أيضاً . . . قال كريموف ، وبعد أن ضحك ، أبعد
نظره جانباً ، كي لا يرى ركبتيها .

خلع سترته ورمها على الأرض ، واستلقى على مقربة منها ، وعلى
النور ، دون أي عناء . عثر إلى جانبه على توتة برية كبيرة ذابلة من
أشعة الشمس ، فقطف ثمرتين منها مع الساق وقدهما لإيرينا . فقالت :
« أشكرك ، سنقتسمهما مناصفة » — وتابعت النظر إلى السماء ، وفصات
ثمرة بشفتيها بشروء . وأعادت له الثمرة الثانية . كان يود لو يرى
عصارة الثمرة على شفتيها ، لكنه لم يستطع أن يراها ، متذكراً من
خلال قنوات الذاكرة اللاارادية ، حبيبة مارتن ايدن السامية ، البعيدة
المنال ، والتي بدت له سهلة المنال في تلك اللحظة ، عندما لاحظ ،
بنظرة أرضية ، ذنيوية ، عصارة الكرز الحمراء على شفتيها . ابتسم
ساخراً من نقيصته البريئة ، ومن عاداته المهنية في المقابلة والمقارنة ، وشعر
بحب غريب لكيفية فصلها الثمرة لنفسها بشفتيها ، تاركة الأخرى له ،
وللرائحة البرية لهذه التوتة الذابلة .

— قل لي ، هل هناك في الدنيا إنسان حر مثل الهواء ؟ — سألته
بصوت ناعم ، وكأنها تكرر كلمات من دور حفظته ، لكن هذه
الكلمات لم تكن من دور البطلة .

— الإنسان يكون سعيداً ، عندما لا يعطي الوقت أية قيمة ، —
أجاب كريموف بالهجة كسولة ، لهجة بطل معجب بذاته من سيناريو ،
واتكأ على مرفقيه ، رافياً إلى وجهها المتبعد عن الأرض ، ورقبتها
المقوسة الفتية ، ويديها الممدودتين على العشب .

— إذن ، 'إنا' ، 'أنت وأنا' ، لسنا سعداء — قالت إيرينا بيأس —
في الماضي كان الناس يتوجهون إلى الأديرة والمنازح لتطهير أنفسهم .
أنهم سعداء . . .

— لماذا لسنا سعداء ؟ ولماذا سعداء ؟

— لا أتحدث عن هذا ، — صححت إيرينا ، وقطبت محاسنها —
لن أستطيع تمثيل دور امرأة تلعب إنساناً ضعيفاً . يجب ألا تكون المسألة
على هذا الشكل . إن زوجها جبان ، لقد خادعها ، لكنه لم يخونها وانفصل
عنها . كان عليها أن تشفق عليه ، على هذا الفاشل العصري ، الأناني ،
المتهمز حول ذاته . لكن ، قل لي ، هل هناك إله ؟ أنا أسأل جادة . —
— يبدو أنه ثمة انسجام كوني عالمي .

— فلماذا إذن ، يوجد الشر ؟ اشرح لي .

— الشجرة تنمو ، ترتفع إلى الأعلى — ماذا تبغي ؟ البرق ؟

— طبعاً لا .

— فهمي إذن ، تبغي الجمال — تابع كريموف حديثه باقناع مازح —
الجمال يساعد على الارتقاء إلى السماء ، نحو مالا يبارك ، أو على الأصح —
الجمال سديم يربط الأرض بالسماء . أما الشر فينبئ في الأرض .

— لا

— لماذا ؟

— أذنت تقول الجمال . فما هو الجمال في آخر الأمر ؟ هل هو
جمال التماثيل الإغريقية التكاملي — إنه ملل لا يحتمل ، إنه سامة فظيعة ،

إنه كآبة . هل هو الكلاسيكية المثالية — يا إلهي ، أي موت هذا ! لا ،
الجمال ليس انعدام العيوب ، لا — قالت بحماسة . الجمال في ليونة
الحركة . أنظر . . . — وقامت بحركة مرنة بكفها وأسقطت يدها على
العشب .

— الجمال هو مصيدة — قال متابعاً مزاحه — لمست فلانصفت
وليس ثمة مخرج . .

— هذا هراء ، غير صحيح . ثمة مخرج دائماً .

— من هذه المصيدة ليس هناك من مخرج لأي كان . غير أنني
أعمم بصورة خطيرة . هنا ، قد يكون الخلاص في الواقعية والسحرية
الناثية . والخوف من أن يكون المرء في وليمة غريبة . .

بعد أن أفادت ، التفتت إليه (وغرق كريمةوف في العمق الشفاف
الأخضر المصوب إلى عينيه بتأمل وتفكير) ، ولمست باصبعها حاجبيه
وجفنيه ، وقالت غير فاهمة :

— إن وجهك قد لوحته الشمس . ، وثمة نجاعيد شقراء حول
عينيك . أنا بالمقارنة معك ، فتاة غبية ، أنت يمكنك حقاً أن تحوز على
إعجاب النساء . ولكن لماذا تعتبرني فتاة غبية ، وتحدث معي كما
تحدث مع تلميذة في الصف التاسع ؟ أظن أنك تدرسي ، منذ نصف
عام من وجهة نظر المخرج السينمائي . قل لي صراحة ، هل أنا فعلاً
عديمة الموهبة ؟

— إيرينا ، ماذا حل بك فجأة ؟

— إذن ، قل لي لماذا الناس قساة ولا يحبون الخير لبعضهم بعضاً ؟

— لايرينا ، ما الغرض من طرح هذه الأسئلة ؟

— ليس مهماً . لماذا أصبح التواضع الآن عيباً ونقيصة ؟

— ما هي المسألة ؟ لأنني مرتبك وحائر . . .

— لماذا يثير الخير ، والطيبة والصراحة والصدق ابتسامة ساخرة ؟

وفي الوقت نفسه ، ينحني الناس إعجاباً أمام أنفه ثقليعة دارجة ، أمام سراويل « الجينز » السخيفة ، أمام الموسيقى المربعة ، أمام نجمة أجنبية قصيرة الأمد . . .

— هل حدث لك شيء ما ؟

— أجبني ، فياتشيسلاف أندريفيتش ، إذا كنت لا تعتبرني راقصة

غبية . كثيرون يعتقدون أن راقصات الباليه ، أو الراقصات كلهن غيبات تقريباً . . .

— بديهي ، لسن كلهن — قال كريموف ، منزعجاً من تبدل

مزاجها . — أتودين أن تعرفي رأيي ؟ نحن ، يا لايرينا ، نجعل الإنسان مثلاً أعلى ، بيد أنه ، بوعيه ، لم ينسجم إلى مستوى أمور كثيرة . ذات يوم ، دهشت كثيراً عندما علمت أن دماغنا يضم فقط اثنين ونصف ميليمتر من مادة التفكير السنجابية . . . ميليمتران تافهان فقط . . . يفصلاننا عن الحيوان . أما كل ما تبقى ، خمسة ميليمترات ، فكلها غرائز ، غرائز .

— أنت تتحدث معي ، من جديد ، كما تتحدث مع طفلة ،

وليس بطريقة جدية كما أريد .

- . أما إذا أردت الحديث الجدي ، يا إيرينا ، فالإنسان المعاصر ،
الكائن العاقل المعاصر ، كثيراً ما ينقصه الفعل ، لأن عمل الخير صعب
ومجهد دائماً . فقول الناس الحقيقة ، أحدهم للآخر ، يبدو أحياناً .
قريباً من الغباء ، ولا يخلو أحياناً من الخطورة . لهذا اعتدنا نحن ، بدلاً
من الفعل والعمل ، أن ندين الناس بسهولة كبيرة ، في حين علينا أن
نكون قادرين على الصفح والتسامح . لسنا قادرين على أي شيء . . .
قطعت إيرينا حشيشة وعذبت عليها بأسنانها .

- . لقد تعرضت اليوم للإذاعة . . . وبقسوة شديدة - قالت بهدوء ،
وبصورة بدت وكأنها لامبالية ، بعد أن صمتت هنيهة . - اليوم ،
صباحاً في الاستوديو ، سمعت حديثاً بالقرب من غرفة « المكياج » .
كان هناك ممثلون ، وكانوا . . .

- من هم ؟

- إذا أخذت تسألني « من هم » ، فسأصمت ولن أنطق بكلمة .
- عفواً ، إيرينا ، ماذا حدث بالقرب من غرفة « المكياج » .
- لقد سمعت مصادفة : كانت ممثلة تقول ، وهي تتحدث عني :
« لقد اختيرت لأداء الدور الرئيسي ، لأنها عشيقة كريموف . إنه ذو
ذوق رفيع . ولكن هل ستصبح راقصة البالية الفاشلة ممثلة درامية ؟ » .
لا أفهم ، علام يكرهوني إلى هذه الدرجة . وما هي الإساءة التي
ارتكبتها بحقهم ؟ ومع ذلك - إنه شيء مقرف . . .

- أوف ، يا للنعامات الحسودات ! - شتم كريموف غير متمالك

نفسه . — انهن يمدحن ، بأكثر عبارات المديح فظافلة ، عديمة الموهبة فقط ، غير القادرة على منافستهن !

— أنت لا تحب الممثلين ؟

لقد اعتاد منذ زمن ، على المفاجآت في العلاقات بين أوساط الممثلين وعلى تبدل العواطف ، وعلى الاحترام البارد ، كما اعتاد على حسن نية المنافسين المفرطة ، وعلى المكر الدمش ، وابتسامة الارتياح اللاذعة . وألف صرخات السعادة المبالغية والزحام في العروض الأولى ، والابتهاج المؤثر ، الذي يعبرون عنه لزميل شهير أجاد عمله بصورة رائعة ، لمعبود الجماهير الحديث العهد ، فيسرعون لسبب غير مفهوم ، لتهنئته بحلقة ، متنافعين بمرافقتهم في سرور وحبور (« موهوب ، عظيم ! ») . لقد تعود الحديث المتكلف للمشاهير المتبرمين ، والوقاحة المرححة المفرطة ، والمجاملة المتأنقة للممثل والممثلة ، اللذين يحتقر أحدهما الآخر ولا يكاد يطيقه ، والمضطرين رغم ذلك ، إلى الظهور على ساحة التصوير — بارادة المخرج — بمظهر العاشقين المتحابين — تعود كل ما يشكل وجود الممثلين وعملهم وعلاقته بهم ، وهم ، عموماً ، أناس وديعون ، صبورون ، وأحياناً سريعو التصديق بسذاجة ، مستعدون ، في لحظات التصفيق في العرض الأول ، لسكب الدموع الغزيرة أمام الشاشة ، تأثراً بتمثيلهم وتمثيل الآخرين . كما كان يعرف كريموف كيف يصيبهم ، بصورة مميّنة ، سم الشهرة المسبقة في الأروقة ، التي صنعتها ألسن حسودة للمعبودين المشهورين السابقين ، أو أصحاب المواهب غير الاعتباريين . وكان يعرف أيضاً ، أن دعوة إيرينا لأداء الدور الرئيسي واعتمادها له سيثيران إشاعات قارصة . لأنه كان يرى كيف كان

يراقبها بنظرة بالغة ، في أثناء التصوير السينمائي التجريبي ، المخزجون
المعاونون ، وعاملوا الإضاءة ، والممثلون من مجموعات التصوير
الأخرى ، الذين كانوا يدخلون إلى الجناح ، متظاهرين بأنهم يدخلون
خطأ . وكان يستقبل وجهها الشاحب وابتسامتها شبه المذبذبة والحزينة
ونحجلها في تلك الأثناء إما بسرور غير طبيعي ، وإما بفطور لامبال.
مصطنع بصورة متقنة ، من جانب نجوم السينما ، والممثلات المتطلعات
باصرار إلى أداء الدور الرئيسي (« خذني أنا ، فياتشيسلاف أندرييفيتش ،
فدور البطلة يناسبني ») . غير أن هذا كله ، الذي كان يلحظه كريموف
دون عناء ، لم يكن يثير قائمه أبداً ، وهو العارف جيداً بهذا الأوساط -
وسط التنافس الذي لا يهدأ ، والصمخب الدائم حول مجده عابر ، لاسيما
إذا كان منتظراً ومتوقفاً : فتلك هي ، حسب رأيه ، طبيعة عمل الممثل ،
بيد أن ، هذه المهنة ، لم تكن لتسمح بتجاوز أطر وحدود معينة ، وإذا
كانت متقاربة وغير ثابتة ، وكان سم الغيرة يتوقف عن الفيض - حالما
يتقرر الأمر ، وهنا يبدأ صمت وانتظار وتوقع ، يدل على أن الزمن
هو حكم نزيه وسوف يكشف الحقيقة ، ويبرز العالم كله الخطأ المشين
للمخرج ، الذي قام باختيار مزاجي ، غير مدروس ، مهيناً بذلك
الفشل لفيلمه . كان كريموف يسخر عادة ، من هذا الحلم البريء
بالانتقام ، الذي يجب أن يحل بالمخرج الضال ، لكن حديث الممثلات
السام أمام غرفة المكياج ، الذي دار بصورة مغرضة ، بحضور إيرينا -
قد أدهشه وأغاظه بروح الانتقام الجامحة عند النساء .

— يبدو ، أنه كان عليك أن تعرفي أنه يسيطر على الفن في مرحلة
معينة ملكتان — قال كريموف بأسف — الأولى هي الحسد لنجاح

الآخرين ، والثانية هي الغيرة من امكاناتهم وقدراتهم . ولا يمكن لأية ثورات أخلاقية أن تحرم هاتين الملكتين من عرشهما . وفي نهاية الأمر ، ينتصر القادر على العمل . هذا كل شيء .

— على العمل ؟ أنا موافقة . على العمل فقط . ولكن أنظر ، من فضلك ، كيف يعمل الناس الفظيعون . والجميع في وقت واحد . البارحة استلمت رسالة . في البداية ، لم أرغب أن أحدثك عنها . ولكن ، في الاستوديو ، هناك من يكرهني ، ولا يقدر على احتمالي . بينما أنا طيبة مع الجميع . إنني لا أعرف المشاحنة والعداء . فلماذا هم يعادوني . وهل نسوا أنني لم أفق من المصيبة التي حلت بي . انني لم أرقص منذ ثمانية أشهر . . .

جلست إيرينا ، وهي تعض الحشيشة بين أسنانها . وأحت جينها نحو ركبتيها ، وجلست هكذا ، غارقة في أفكارها ، ثم نظرت إلى كريموف نظرة استفهام ، وأخرجت من حقيبتها مغلفاً مكرمشاً ، وقالت بصوت هس ضعيف :

— هذه هي . انني لو لم أعرضها لكنت على غير حق . ومما ينجلني أن الرسالة تمسك أنت أيضاً .

كانت هناك ورقة ، في المغلف ، كتب عليها بالآلة الكاتبة بضعة أسطر غير مستوية وغير منتظمة (يبدو أن كاتبها لا تضرب على الآلة الكاتبة إلا نادراً) . وقرأ كريموف ماجاء في الورقة :

« إيرينا المحترمة !

— أعتذر لعدم معرفتي اسمك الكامل .

فاعلة خير لك تريد تحذيرك من أنك تتصرفين بصورة مثهورة ،
غير حذرة ، بل ، وبغطسة وصلف . وعلاوة على أن الاستوديو
كله على علم بعلاقتك غير الشريفة مع المخرج كريموف (انه ، بالنسبة
لك ، أيتها العزيزة ، يصلح أن يكون أباً) ، فقد قمت باستغلال سحر
شبابك النسائي ، وأرغمته على أن يخلصك بالدور الرئيسي في الفيلم ،
وهو عمل ليست لديك أية قدرة أو موهبة نحوه . فقد سبق أن أظهرت
عجزك في البالية . صدقيني ، ان الفن ليس رسالتك ، وأن مهمتك
هي الزواج السعيد ، وأن تكوني جميلة فاتنة لزوجك .

إيرينا ، أرجوك ، كوني رحيمة وعاقلة ، ابعدي عن الرجل الذي
يحترمه الجميع ، ولا تقتلي زوجته ، المرأة الجديرة بكل احترام ، والتي
يمكنك أن تقودها إلى التهلكة .

أرجوك ، أرجوك ، عودي إلى رشك !

« فاعلة خير لك ، ومحبتك » .

— طبعاً ، بدون توقيع ، — قال كريموف بجفاء — تذكر متواضع
للحسد بصيغة رسالة . أنقلني ، أيها الرب الرحيم ، من محبي الخير لي ،
ومن فاعلي الخير ، أما بالنسبة للأعداء ، فأنا بنفسى قادر على مواجهتهم .
انها رسالة من مراسلة محترمة ، أعلى من أي مديح أو ثناء ، وتقتضي
جواباً صريحاً وصادقاً للغاية يتألف من كلمتين : إلى الحميم !

مزق الرسالة بحزم ، ورمى قطع الورق الصغيرة جانباً ، بيد أن
لهجة المشاركة المزيفة في المعاناة ، والعداب الشديد ، الصادرة عن هذه
العبارات التي ضربتها يد غير خبيرة على الآلة الكاتبة ، وهذا الدفاع
المرائي عن شرف أسرته ، كل هذا قد ترك جرحاً أليماً في نفسه .

« من هم هؤلاء الأصدقاء الذين لا يعرفون الشفقة ، ولا يسامحون أبداً ، لا الشباب ، ولا فرحة الآخرين ؟ » — فكر كريموف ، وقد فازقه ذلك المزاج الخفي ، الذي شعر به في معبد الدير ، عندما نزلت إيرينا على الدرجات وكأنها قادمة من شعاع الشمس المنسكب .

— كم يكرهوني بلا شفقة — قالت إيرينا — ويكرهونك بسببي .

— أنا مخرج وقد تعودت كل شيء .

— أما أنا فلا أريد أن تحل عليك المصائب بسببي

— في السيئنا ، كي ينتصر المرء ، عليه أن يجتاز تسع حلقات من جحيم دائي — قال كريموف بصورة مبتذلة — تصوري أنني حبيبك فيرجيلي ، وأنتي أقودك عبر هذه الحلقات والدوائر بصورة آمنة ، وأن أسوار أريحا ستسقط . إنني أثق بك ، بنجاحك . وأعترف بأنني فكرت طويلاً ، أنت ستكوني قادرة على كل شيء .

— لا — قالت إيرينا — لا ، لن تسقط أسوار أريحا .

— لماذا ؟

أحاطت إيرينا ركبتيها بيديها ، ووضعت ذقنها عليهما ، وهي ترأب غيمة تشبه الجبل ، ذات أطراف رمادية مجروقة ، تحركت من وراء الغابة إلى الضفة الأخرى ، حيث كان كل شيء يلمع بقوة ، في كل مكان ، خلف ومضات النهر النارية ، ويتدفق كل شيء في الحر من تمازج الأعشاب الخضراء المبرقشة ، وبقع النور ، وظل شجرة الحوز الكثيف ، والهدوء الناعس للمراعي الدافئة .

— لا — قالت إيرينا وقد ظهر تجعبد صارم على جبينها — أنت لم تخبرني أبداً — هل تعلم زوجتك بوجودي في هذه الدنيا ؟
— عنك ، زوجتي لا تعلم شيئاً إطلاقاً .

— فياتشيسلاف أندريفيتش ، كل شيء مترابط في هذا العالم ،
أليس كذلك ؟

— كل شيء ، أو تقريباً كل شيء .

— حسناً — مدت إيرينا يدها — ساعدني على النهوض .

«إنها تخشني أن تنهض بصورة غير مريحة ، هل تذكرت إصابة
أنسجتها ، وهل الآن بالذات تذكرت إصابتها ؟ »

وضغط على أصابعها الهشة قليلاً ، ورفعها برفق من الأرض ،
فاستقامت ومست تنورتها قدميه ، ثم تراجعت بسرعة خطوة إلى الوراء ،
وحاجبها يرتجفان بالأم ، ثم أغلقت عينيها المبتسمتين بصورة غير مألوفة .

— إيرينا ، ماذا بك ؟

— اعذرنني . . . لن أمثل في الفيلم ، — قالت إيرينا — سألني
لأنني أضعتك في موقف حرج ، وأنسف خططك . لقد كنت أعرف
أن نهايتي ستكون وخيمة . أنا مدنية ، مدنية ، مدنية . تجاه زوجتك
الطاهرة ، تجاه هؤلاء الفتيات الممثلات ، تجاهك ، تجاه الفيلم . سأرحل
إلى مدينة ريغا ، إلى عند والدي . ذلك أفضل للجميع . لا ، أرجوك ،
لا تقل شيئاً — بادرت عندما شعرت بأنه يستعد لقاطعتها ، وكررت
بإتسامة غير مفهومة ، وهي تفتح عينيها الكبيرتين ، المليئتين بالدموع ،

بدلال : — أنا أعرف ما ستقوله ، لكنني لن أغير رأيي . هذا ما يجب .
سامحي . . .

كانت الكلمات التي يرميها أحدهم أحياناً ، بصورة عرضية ،
تجعله يتقلب في فراشه أرقاً ، وتجعله ينام نوماً سيئاً — وكان كريموف
يدغو هذا وسوسة زائدة ، عصاب القرن العشرين . بيد أن ما قالته
له لإيرينا لم يكن من الممكن التخفيف من عبثه لا بالسخرية ، ولا
بالمزاح — وهو السلاح المهديء الذي يطمثه ويسهل عليه العيش . نظر
كريموف إلى عينيها المتسعيتين بدلال (« لماذا ؟ ») ، المغرورتين
بالدموع ، وسيطر عليه ارتباك لم يشعر بمثله منذ زمن طويل ، سيطر
عليه ألم جديد أمام تراجعها الخنوع ، أمام سذاجتها الضعيفة ، التي لم
يلقى مثلها في السنوات الأخيرة ، لدرجة أن دلالها القسري الآن ،
والمؤسف ، ودموعها التي لم تسقط على خديها ، بدت له مؤلة معذبة .
وفارق كريموف المزاج الحسن في هذا اليوم الحزيراني الجميل ، نهائياً ،
وأدرك أن جميع خططه للتصوير في شهر آب قد ذهبت أدراج الرياح .
وتصور سفرها إلى مدينة ريغا ، من حيث أنها لا تزال حالة لا إرادية
لفعل لم ينته ، ورغم أنه لم يكن هناك من مخرج آخر ، فقد قال أخيراً
الجملة الوحيدة ، التي هيئات أن تنقذ شيئاً :

— لا تفعل هذا ، يا إيرينا .

— شكراً . سأفعله . لقد قررت — قالت وهي تنظر عابسة بخبر
مذنب ، وسارت إلى الأسفل على الممر الضيق نحو النهر ، متمائلة
قليلاً عند خصرها ، إنها الإنسانية التي لم يكشف سرها ، ولم يعرفها .
فيما بعد ، عندما أخذ يتذكر ما حدث بعد ذلك ، كان يحاول التفكير

بعجز ، أنه كان في ذلك اليوم حذراً ، غيباً ، بليداً بصورة لا تغتفر
وبأنانية ، وفي هذه الفترة خيم عليهما الجنون بجناحه الأسود ، على تلك
الرابية بالقرب من دير « ستاري سباس » .

وخيل إليه ، أنه عندما نزلوا إلى النهر الذي صهره القيظ ، كان
ثمة جنون ما ، غير هادف ، في الشمس ذاتها ، التي كانت تضغط ،
وترهق بصورة لافحة محرقة ، وهي ترتفع إلى قبة السماء ، أما الغيمة
المتكاثفة إلى درجة السواد ، فقد كانت تتقدم ، وتتقدم من وراء الغابة ،
وتتسع بجموح ، وتتصاعد من أطرافها ، وتمتد إلى السميت ، مغطية
الشمس من الجانب بسواد قائم ، ولهذا التمع دير العذارى في أعلى
الرابية بلون أبيض بصورة مذهلة . وشعر كريموف بالاختناق ، وكان
الجو على الضفة مفعماً بالحرارة والرطوبة ، ثم ركضت موجتان قائمتان
على ماء النهر ، وجرت معها رطوبة عذبة ، حتى أن كريموف لهث
وتقطعت أنفاسه من صوت الرعد الشبيه بقصف المدفعية في السماء .
ومن حبات المطر الكبيرة التي أخذت تضربه على وجهه ، ورأى بصورة
ضبابية كيف اندمجت الضفة المقابلة والنهر والسماء في ظلام زهري
متألي .

— آه ، المطر كيف ينقر ، كيف ينهمر — سمع كريموف صوتها
من خلال صوت انهمار المطر — آه ، يا للروعة ، كم هورائع الاستحمام
الآن في النهر !

كانا يقفان تحت الجسر ، المحاط بسيلان المطر ، الذي كان يرن
فوق رأسيهما ، وهو ينصب على الحديد بين القواطع ، وقد أدهشته
عبارة « المطر ينقر ، ينهمر » ، التي حضرت إلى ذهنها في تلك اللحظة

من سنوات الطفولة ، بيد أن شيئاً آخر ، بلا معنى أيضاً ، شيئاً مجنوناً ، غير لازم ، أدهشه أكثر . كانت تتكلم بسرعة : « أدر ظهرك ، لا تنظر » - وخلعت على عجل « البلوزة » التي تبللت بالمطر ، والتنبورة ، وأخرجت رجلها من الحذاء ، وركضت في « المايوه » إلى الجسر ، ناظرة إليه من خلال شعرها المسدل على وجنتيها ، وقالت ، وهي تستدعيه بحركة من يدها : « اتبعني ، اتبعني ، اتبعني ! . . . » .

لماذا لم يدرك كريموف ، لم يفهم آنذاك ، لماذا صعدت إلى الجسر ، ولماذا لم يوقفها ؟ (« وهكذا لم يتمكن من تحذيرها وإيقافها . . . ») . كان الندم متأخراً ، وكان يؤلمه في قلبه كالسم ، بيد أنه لم يكن هناك من يبرر موقفه أمامه ، وكان من غير الممكن تغيير أي شيء .

ومع ذلك ، لم يكن يتصور بوضوح في شعوره ، الدقائق الأخيرة من حياتها على الأرض ، دقائق يأسها وقنوطها أو فرحتها قبل ذلك المطر المجنون ، عندما صعدت إلى الجسر .

* * *

كان رأسها يرقد على كتفه ، وكان يلعن كل رجة من رجات السيارة ، عندما كان شعرها الرطب ، المتلاصق مثل شعر الأطفال ، يمس وجنتيه . كم كان وجهها قريباً منه ، وجهها ، الذي تفوح منه برودة الأرض ، وجهها الذي لم يعد دنيوياً ، حياً ، وقد سالت الأصباغ على رموشها شبه المعلقة ، شعر بوضوح كامل ، أنه لا مفر أمامه من هذا الرعب كله ، من هذا الذي لا يمكن تصوره وإدراكه ، من هذا الذي أصابها قبل ساعة (هاهي الآن تزقد في ثوب السباحة المبلل ، ترقد بلا حول ولا قوة ، يهتز رأسها على كتفه من ارتجاج السيارة ، وهذا كان الشيء الأخير الذي جمع بينهما) ، بحيث كان يبدو له ،

وكأنه في اللاوعي ، كان يرجو أحداً ما ، بأن يشفق عليها ، بأن ينقذها ، لكنه لم يذكر بعد ذلك كلمة واحدة ، لكنه يذكر بصورة غامضة ، مبهمه ، كيف استدار السائق نحوه - فجأة ظهرت أمامه عيناها ، وقد أضناها الخوف ، وفمها المفتوح مثل فم السمكة ، وانجاس الدم المتدفق من أنفها . . . وتلوح في ذاكرته ، كالظل ، تلك الدقائق الرهيبة المرعبة ، عندما أخرج لإيرينا من الماء وتوجه بسرعة نحو السيارة التي كان قد تركها وراء الجسر ولم يعثر عليها . . . في حالة من اللاوعي كانت لا تزال تتنفس في تلك الثواني ، وكان هو يروح ويحيى على طول الضفة ، كان يصرخ ، ينادي ، يشتم بشتائم مجنونة على أمل واحد ، أن السائق لا يمكنه أن يتأخر طويلاً . لكن السيارة لم تعد إلا بعد أربعين دقيقة ، وكان مستعداً للاقدام على المستحيل ، عندما رأى فجأة وجه السائق الممتليء ، الناضح بالعرق ، فلم يتمالك نفسه ، ولم يكبح غيظه وحنقه .

كان المستشفى في بلدة ريفية ، وقد قطعت بهم السيارة خمسين كيلومتراً على السكة الزراعية السيئة ، في الهذيان الجحيمي السابق للموت : كانت العاصفة كما يبدو ، تمر فوق الطريق ، وقد التمع شيء ما أخضر اللون ، حار مبلى في وابل الأمطار ، في الضجة ، وفي الهدير خلف زجاج السيارة . كان يئن ، ويضغط بشدة على أسنانه ، وشعر من جديد بملمس رأسها المفارق الحياة ، الحائر على كتفه ، شعر من جديد بصمتها الذي فارق الأمل . . .

فتشا طويلاً في البلدة عن المستشفى ، وكانت الطرق في كل مكان محفورة بخنادق الغاز ، وأخيراً انتهى هذا العذاب كله . وتوقفا تحت

أشجار الخور في الحديقة عند مدخل المستشفى . كيف نزل من السيارة ، تاركاً إيرينا وحدها على المقعد الخلفي ، ودخل إلى بهو المستشفى ، إلى الغور المعتم ، حيث تراءت أمامه وجوه غريبة ، وكيف صعد إلى الطابق الثاني ، الذي تفوح منه روائح بشرية فاسدة ، حيث انتشرت أسرة المرضى في الممر بكامله ، وكيف فتح الباب إلى عيادة الجراح — كل هذا كان يذكره بصورة ضبابية ، مبهمه . في تلك الدقائق ، كان يتكرر أمام ناظره مشهد واحد ، بقي راسخاً في شعوره إلى الأبد : هاهي قد نهضت إلى سور الجسر ، وكانت ترى من خلال المطر المنهمر ، وقد ظهرت في « المايوه » ، ووضعت يديها فوق رأسها ، وبعد أن صرخت داعية إياه ليتبعها ، التوت برشاقة وانسجام وقفزت إلى الماء .

ثم أخذ ينتظر أن يدعوه . كان يقف على عتبة الباب ، يدخن سيجارة إثر أخرى ، دون أن يكمل واحدة منها ، ويمسح حنجرته المنقبضة ، دون أن يفهم جيداً ، لماذا كانت الشمس ، بفرحتها الصيفية ، تلمع في البرك والغدران ، وتنعكس بصورة منعشة وبهيجة على الأوراق الثقيلة في الحديقة المبللة ، وعلى النباتات الطفيلية الرطبة ، وعلى العشب النظيف المغسول ، ولماذا كانت القطرات الثقيلة تتساقط ، بصورة مسموعة ، من السطح إلى الدلو المدهون ، الممتليء بالماء ، ولماذا كانت البقع البللورية تهتز مترنحة ثم تقفز على عتبة الباب ، وكانت إيرينا هناك في الطابق الثاني ، ترقد على السرير المتحرك في « المايوه » ، وقد ألقت رأسها بشعرها الأشقر المبلل ، برموشها الحامدة شبه المغلقة ، التي لم يحف من تحتها الكحل والأصباغ ، كانت ترقد في غرفة بيضاء ، ظيفة ، معقمة ، حيث لم يعد هناك أي أمل .

الفصل الخامس

كانت غرف مجموعة التصوير ، التي ألقى كريموف نظرة عليها ، خالية من الناس . وقد أحمت الشمس ، قبيل الظهر ، الأرضية الخشبية فيها ، وفاحت منها رائحة التنجيد المغبر للأثاث القديمة ، كما في المتحف . ووصلت إلى أذنيه من مكتب مدير الإنتاج أصوات طرق سريعة ، وماكاد يفتح الباب حتى أصم أذنيه طرق الآلة الكاتبة ، وهب تيار من الهواء ، وتحركت الأوراق على الطاولة مقابل النافذة المفتوحة ، حيث كانت ضاربة الآلة الكاتبة ، الشاشة ، تقلب بكفها حزم الورق ، ونظرت إلى كريموف بارتباك وذهول .

— ليوحده ؟ — سأل كريموف ودفع الباب المؤدي إلى الغرفة الداخلية ، حيث سمع منها صوت خافت مثل صوت خرير الماء في الجدول .

مدير الإنتاج تيرني سيميونوفيتش مولوتشكوف ، رجل قصير القامة ، نحيف الجسم ، له وجه نشيط وديع ، ينشر الاهتمام والاحترام على الجميع ، كان ينهي حديثه على الهاتف ، وقال في الختام بلطف « التهاني متبادلة » — وبعد أن وضع السماعة ، نهض برشاقة ، وارتدى معانقاً كريموف ، معبراً عن اهتمامه ، واستعداده العاجل .

— فياتشيسلاف أندريفيتش ، كم أنا مسرور لرؤيتك ! أهتوك
بسلامة الوصول ، وبالفوز ، لقد كنا ننتظرك على أحر من الجمر ،
نهتوك ، من القلب ، من الأعماق ! . . .

وأثناء قوله هذا ، لمس بشفتيه مكاناً ما بالقرب من ذقن كريموف ،
وتألمت عينا مووتشكوف انشافتان باخلاص وسعادة هاو سينمائي
ومعجب ، أسعفه الحظ بالاقتراب من نجمه ، ومن معبوده .

— مرحباً تيرني ، — قال كريموف دون اهتمام ، مقرباً من
المنضدة الصغيرة وساكباً من الزجاج الشفاطة ماء غازياً ، طرطش في
الكوب وقرقع . — أيها المتملق ، احفظ عن ظهر قلب ، أرجوك ،
وهذه ليست المرة الأولى ، الرهيون حقاً ليسوا أولئك الصقور الذين
يلتهمون الخيفة ، بل هم أولئك الذين يأكلون الناس أحياء بتزلفهم
وتملقهم . لن تأكلني يا تيرني ، ولن أقع في مصيدة صيحات تعجبك ،
فليأخذك الشيطان ! مرحباً ، اطمئن ، وحدثني ، كيف تجري الأمور
في مجموعة التصوير .

— يا إلهي ، ومن يقدر على أكاك ، فياتشيسلاف أندريفيتش ! —
ورفع مولوتشكوف يديه إلى السقف بامتعاض شديد ، بحيث انحدر
كما سترته الحريرية إلى المرفقين . — ومن يمكنه أن يزعجك ، أو
يزعجك ، وأنت صامد كالطود ! آه ، فياتشيسلاف أندريفيتش ،
أنت تحب نفسك وتقدرها بصورة سيئة . . . !

— كن هادئاً ، ولا حاجة للكلام الفارغ — قاطعه كريموف ،
ورشف قليلاً من الكوب ، الناضح بالفقاقيع التي تبرد الحنجرة وكأنها

إبر جليدية . - أعتقد ، أنك على علم بالأمور ، أليس كذلك ! يبدو أنني لن أصور هذا الفيلم

- كيف ؟ على أي أساس ؟ وكيف يمكن ذلك ؟ - صاح مولوتشكوف مدحوراً ، وأخذ يلسع الغرفة جيئة وذهاباً ، هازأ أطراف سترته العريضة على كتفيه ، ومارأ بسر واله الضيق المكرمش . - من أين أتيت بهذا الخبر ؟ من باريس نفسها ؟ إنك تقتلني بدون سكين ، إنك تضعني في موقف حرج للغاية !

- اجلس ، تيرني ، وتوقف عن الركض مثل النعامة . إنه يثير الأعصاب . تعال نتحدث .

جلس مولوتشكوف على الأريكة بانتظار مدحن ، وشعر مسبقاً بالخوف ، فأخذ يرف بعينيه الصفراوين المدورتين .

- إنك تقتلني بدون سكين . إنك تصعقني حقاً .

- اسمع يا تيرني - قال كريموف وشرب ما في الكوب من ماء معدني بمجرات بطيئة . - لن أصور الفيلم . على أية حال ، سأقول لك بصراحة ، - أضاف كريموف بصوت مخنق من برودة الماء المعدني - كان علي ألا أضع يدي على هذا الفيلم . لأنني ، ببساطة ، لا أفهم يا تيرني ، ماهي الشببية المعاصرة ، وما هو جها العصري .

- ألا تخشى الحقيقة - الأم ، فياتشيسلاف أندريفيتش !

- أجل ، أخشاه ، بيد أن هذا واقع . على كل امرئ أن يعرف قدراته .

وجاس على وف النافذة ، مديراً جنبه لمولوتشكوف - كانت
تندفق من النافذة حرارة أوراق أشجار الحور .

أمسك مولوتشكوف برأسه ، وصاح بصوت عال :

- أنا أحرر السبب الذي يدعوك إلى هذا القول ! في هذه المسألة ،
ليس عليك أي ذنب ، وإذا كان هناك من لا يدرك ذلك ، فإن هذه
المسألة ستزول سريعاً ، فياتشيسلاف أندريفيتش . لقد استدعوني قبل
أسبوع إلى الدائرة . . . أو دعيت للمحادثة . . . طرحوا علي أسئلة
حول علاقتك بالمشلة ايرينا سكفورسوف . وهكذا ينتج ، أنه لن
يمنعهم أحد من التنقيب عن بواطن الأمور ، طالما أن المسألة تتعلق بوفاة
إنسان في ظروف غامضة . . .

- في ظروف غامضة ؟ - سأل كريموف مبتعداً عن رف النافذة ،
وسار في أنحاء الغرفة - لمن هذه الظروف غامضة ؟ غامضة بالنسبة لك
أم للمحقق ، الذي كان يسألك ؟ . بناء على طالب المحقق ، كنت قد
عرضت ، قبل سفري إلى المهرجان ، جميع ظروف الحادث كتابياً .
وأنا كنت الشاهد الوحيد . . . الوحيد ، ولا يمكن لأي كان أن يضيف
أي شيء . لا بالابانوف ولا أنت . لم يكن هناك أي مغزى من استدعائك -
أو كما يقال هناك - لدعوتك للمحادثة .

- لم نستدعنا نحن الاثنان فقط . أنا أعرف أن السائق غولين قد
استدعي أيضاً ، كان يجب ألا ترتبط معه ، إنه إنسان جاهل من رأسه
حتى أخمص قدميه . - أضاف مولوتشكوف باستياء وسخط - لأنني
لا أفهم أبداً : هل من المعقول أنهم لا يثقون بك ؟

— في هذا العالم كل شيء محتمل .

— سيأتي لعندي الآن السائق غولين ، — قال مولوتشكوف ،
ثم أضاف بصوت خافت — ألا تريد أن تتحدث معه ؟
— ليست لدي رغبة .

— إنه ذو اتجاه غبي للغاية ، عدواني ، ويمكن القول ، أنه ينوي
رفع دعوى عليك إلى المحكمة . أوف ، كان لا حاجة لك إلى ذلك ،
كان عليك ألا تصطدم مع هذا الغبي . يا إلهي ، لقد تذكرت أنك عندما
كنت ضابطاً ، وشعرت برعب حقيقي . . . رغم أنه قد مر على ذلك
خمسة وثلاثون عاماً . وهنا تخاطر ، فياتشيسلاف أندريفييتش ، إنك
تخاطر من جديد بجراتك .

— ماذا كان علي ألا أفعل ، ماذا قلت ؟

— كان عليك ألا تضرب هذا الخثالة ، هذا الكبير ، جامع
الروبلات ، كما أصبح معروفاً . إنني قلق عليك ، فياتشيسلاف
أندريفييتش . ربما تكون صحتك وأعصابك ، عندي أغلى شيء في
الدنيا . فنحن هنا ، في مجموعة التصوير ، بدونك مثل الكلاب العمياء ،
أو مثل الأيتام . وأنا بدونك — صفر ، لا أحد ، مخطئة من فورونيج ،
أرتدي مزالق الغير . لهذا ، أشعر في أعماق نفسي بالحزن والألم .
فياتشيسلاف أندريفييتش ، أنا أتألم جداً ، عندما يمسك أحد بكتفه . . .

— لقد أردت أن أقول لك ، منذ مدة طويلة ، يا تيرنتي — قاطعه
كريموف ساخطاً — كان عليك منذ زمن طويل ، أن تدع عواطف

الرجولة جانباً ، في شؤون العمل . قل لي ، أيها المدير ، لماذا ، ومن أجل أي شيء تتزلف إلي ؟

— إنك تسيء إلي . أنا احترمك جداً ، فياتشيسلاف أندريفيتش —
قال مولوتشكوف غاضباً طرفه بهيام ، إنني لا أنسى حتى الموت ما فعلته
من أجلي . أنا مدين لك بكل شيء ، وزوجتي ممتنة لك كثيراً . . .
— إنك تضعني في موقف حرج — قال كريموف متهيجاً ، مدرّكاً
باشمتراز ، أنه لا يتمالك نفسه ، ساحجاً لنفسه باظهار نقطة ضعفه السابقة
في سنوات شبابه ، التي يدينها هو نفسه ، وهي التزق وسرعة الغضب —
إن دور المحسن والممتن — مفهوم عتيق في عصرنا ! — قال كريموف
دون أن يقدر على كبت هياجه . — رغم أننا لم نكن أصدقاء في الحرب ،
لكننا مع ذلك ، حاربنا معاً فترة من الوقت . وعلاقتنا يجب أن تكون
علاقات الند للند . اطمئن ، اهدأ ، يا تيرنتي ، أنت لست مديناً لي
بشيء ! لاسيما أننا لن نكون أصدقاء في يوم من الأيام . . .

« لماذا أتحدث بهذه اللفظاة والصراحة ؟ وما الذي يدفعني إلى هذا
القول ؟ » .

— كان بودي ذلك . . . كنت أحلم ، لولا أنك يا فياتشيسلاف
أندريفيتش . . . بعيد — قال مولوتشكوف وحرك يديه بصورة دائرية
ووضعهما على ركبتيه . — ولماذا أحلم ؟ لقد عمات الكثير من أجلي ،
وأنا لا أطيق الخنازير الحسيسة ، ناكري المعروف والفضل . أنت طائر
عالي التحليق ، أما أنا ، من أنا . . . أنا من قرية حقيرة ، من أوساخ
المستنقعات برزت وأصبحت أميراً . تلقيت تعليمي في الدورات . وتعامت
الحساب جيداً . أما بالمقارنة معك ، فأنا بلايد جاهل — وضرب

مولوتشكوف جبينه بقبضة يده ذات العروق البارزة . — رغم أنني أنهيت دورات الإداريين ، في الحرب كنت غيباً ، وبقيت غيباً بعدها . إلى أن التقيتك ، يا فياتشيسلاف أندريفيتش . . .

— إن إهانة الذات أسوأ من الافتخار — قال كريموف — لقد فعلت من أجلك ليس أكثر مما يمكن أن يفعله إنسان آخر . حسناً ، يا تيرنتي ، اجعل نفسك دائماً ، عبداً ممتناً شاكراً ، وأنا سأقوم بدور المحسن ، وأتلمذ باهانتك الفخورة للماتك .

« غير أنه يشبه الصرصور . هاهو يجالس على الديوان ، ماداً رقبته ، متوتراً ، وقد وضع يديه على ركبتيه ، وعينه طافحتان بالولاء المداهن الممتلئ ، هاهو ذا يستعد للقفز ومعانقي ، بالرغم من صراحي اللفظة . . . »

— أخشى يا تيرنتي ، أن تمل يوماً ما من كونك عبداً شكوراً . . .

« ما الذي يدفعني إلى قول مثل هذه السخافة ؟ »

— أبدأ . أنت تسيء إليّ أشد الإساءة — اعترض مولوتشكوف باخلاص ، وضيق عينيه في ذهول اللذبة ، وقال متنهداً من حنجرته : — فلتحل علي لعنة سونيا آنذاك ، ولأموت .

« يموت من أجلي ؟ لعنة سونيا ؟ أم أنه مجنون ؟ » ، سأله كريموف :

— سونيا ؟

— زوجتي سونيا ، صوفيا بافلوفنا ، — أوضح مولوتشكوف بسرعة — إنها تعشقك ، إنها تعبدك . إنها تحفظ جميع أفلامك عن ظهر قلب .

آه ، أجل ، لقد أصبحت صوفيا بافلوفنا ، مؤخراً ، زوجة مولوتشكوف الذي عاش طويلاً في وحدته . وعشية الزواج قام مولوتشكوف ، التمل من السعادة ، باصطحابها إلى منزل كريموف أولاً ، ثم إلى الامتوديو ، وقدم زوجته المقبلة بفخر واعتزاز إلى مجموعة التصوير . من حيث المهنة ، كانت صوفيا بافلوفنا ، معامة الغناء ، وقد ذهل كريموف من رجاياها القويتين السمينتين (الداليتين على المنحى الاقتصادي لعقلها) ، واتساع كتفيها الرجولي ، وامتلأ صدرها ، ومن صوتها الجمهوري العميق ، عندما غنت ، دون حياء ، بناء على طاب الخطيب المغتبط ، وهي تضرب الأرض بقدميها ، أغنية سولفيج ، بمصاحبة مهندس التسجيل الصوتي ، الذي دعي إلى العزف على البيانو في غرفة الممثلين .

— آه ، أجل ، — قال كريموف متذكراً ارتباطه أثناء تعارفهما — أجل ، إنها امرأة فاقنة ، موهبة ، طبيعة غنائية ، لكن ليس هذا ما أردت قوله يا تيرنتي ، — قاطع نفسه كي لا يتحول إلى لهجته الساخرة المألوفة ، ويسخر ، دون داع ، في الواقع ، من زوجة مولوتشكوف ، التي لا يعرف عنها إلا القليل — هاك ما أردت قوله يا تيرنتي . وهذا شيء جدي — أضاف كريموف — لن أصور الفيلام . وقراري هذا لم أصرح به لبالابانوف . لذا ، ستضطر على الأغلب ، إلى العمل مع مخرج آخر . ليست هناك ممثلة ثانية مثل سكفورتسوبا . وأنا لست واثقاً من النجاح . على أية حال ، لم تعد هناك أهمية للنجاح أو الفشل . لذا ، سأبقى يا تيرنتي ، سنة كاماة على الأغلب ، دون عمل ، إذا لم أدخل السجن طبعاً . لأن كل شيء ممكن في أيامنا هذه ، المليئة بالأحداث الخلاقة المبدعة . . .

— أنت تمزح من جديد ؟ — اقشعر مولوتشكوف من البرد . —
متى تتوقف عن السخرية من الجميع ؟

أجاب كريموف باهجة بين الجلد والمزاح :

— ليس من الجميع ، بل من نفسي . وفي هذا شيء من الأمل ،
طالما أننا لا نتردد إلى الكنيسة للاعتراف . إن الحكمة العليا تأتيك عندما
تبدأ بإحراك أن كل شيء ممكن .

— أوه — اهتز مولوتشكوف على الديوان ، وارتعبت عيناه
الشفافتان ولمعتا : — إنني أخاف عليك من لسانك ، فياتشيسلاف
أندرييفيتش ، لقد أصبح الناس حساسين جداً ، سريعى التأثير ، معتلدين
بأنفسهم ، وأخشى ألا يفهموناك على النحو الصحيح ، ويكونون رأياً
سيئاً هناك .

— آه ، عزيزي تيرنتي ! ثمة حولنا كثير من الشهرة المزينة ،
والفقايع والأوداج المنفوخة الكثيرة ، والمشهورين العرضيين ،
والمشهورين غير المعروفين ، بحيث أن انتزاع مجدي بـ « الرأي السيء »
لا يزيد ولا ينقص شيئاً من تفاصيل سيرتي الشخصية .

— هناك أناس شريرون . . . يسعون إلى التهام أحد ما . . .

— فلننظر إلى شهيتهم : أما أنا فسأذهب إلى بيتي الريفي مع السلا . . .

قال عبارته الدالة « مع السلا . . . » ، وبنفور من هذه الكلمات
السينمائية — البوهيمية ، توجه إلى الباب ، رابتاً ، بطريقه ، على كتف
مولوتشكوف .

« لا ، إنه خلداع ! بصرف النظر عن إرادتي ، فأنا لا أستطيع أن أصنع شيئاً مع نفسي ، - فكر كريموف في نفسه ، متأثراً من سخط شنيع . - بالمشاكسة الوديدة أسأله وأسلي نفسي ؟ في حين أنني في الواقع ، مريض بعصاب القرن العشرين ، مثل كل شيء في الفن لا يمكن إشباعه لا بالغرور ، ولا بعشق المجد . إنني طموح ، محب للرفعة ، محب لذاتي ، كما كنت بالأمس ، قبل خمسة وثلاثين عاماً في الحرب . وأصترف أمام ضميري ووجداني ، أنني لست أبداً لا مبال بما يظنه الناس ، وبما يقولونه عني . . . اذن ، ربما أن حياتي كلها كانت جيئاً ، إذا كنت أخاف على سمعتي ، وأردت أن أحوز على إعجاب الناس ؟ من أجل أي شيء ؟ في الحرب - من أجل الأوسمة ؟ وبعد الحرب - من أجل النجاح ؟ من أنا كاذب منافق ، أم متظاهر متصنع ؟ » .

توقف كريموف برهة ، أثناء خروجه إلى الغرفة ، حيث كانت تحمل ضاربة الآلة الكاتبة ، التي كانت تضرب بسرعة على مفاتيح الأحرف ، في مجرى التيار . وفجأة اصطدم بشيء ما غريب ، معرقل ، ولم يترك على الفور ، أن هذا الإحساس ظهر لديه عند رؤيته للشباب ، الذي كان يجلس محدودب الظهر على المقعد ، إلى جانب الخزائن ، المملوءة بأضابير السيناريو . كان يجلس محني الرأس ، بشعره الأسود المتدلي وكان يضغط بين ركبتيه المتباعدتين قبعته ويدعكها بعصبية يديه المشبوكتين . وقد أرغم شيء ما كريموف على التطلع بانتباه إلى هذا الشاب الذي رفع رأسه دفعة واحدة . على الفور ، تعرف كريموف على هاتين الوجنتين القويتين والجبين الصاب والشفيتين

الكبيرتين ، اللتين ظهر عليهما الدم ، في ذلك اليوم . في تلك الأثناء التفت هذا الشاب ، وهو يتنفس من رقبتة الشخينة ، ولعق الدم بلسانه . . . لقد كان هذا الشاب السائق غولين . واتجهت بسرعة عينا الشاب المتهبتان ببياضهما المحمر ، نحو كريموف ، وقد تشبّت الأورام البارزة على عظم وجنتيه . وتذكر كريموف ، ملتهباً ، عمجزه وهو ينتظر عودة السيارة ، وهممة السائق المبررة ، وشخير المجنون ، عندما دهن هذا الجبان أنفه بالدم ، دون مقاومة ، وابتعد جانباً نحو باب السيارة المفتوح ، حيث كانت تبرز من المنفضة عقب السجائر .

« إذن ، هو قادم للمقابلة مولوتشكوف ؟ » - قرر كريموف على الفور .

ودون أن يتمكن من مقاومة اغراء اللعبة الشيطانية ، التي تدفعه إليها قوة غامضة ، معروفة في شبابه في تلك الأثناء ، والتي كانت تفجر ، بصورة مفاجئة ، تحفظه واحتراسه الذي اكتسبه بعد الحرب ، أمسك غولين من ذقنه المبللة بالعرق ، وبعد أن رفعه ، سأله بصوت منخفض ، بهدوء جليدي ، كان يظهر عنده في لحظة العزيمة الحارقة .

- إذن ، أنت تكره المثقفين ، أيها الشاب ؟ لو كان باستطاعتك لقضيت عليهم ، لضربتهم ضربة قاضية ، هؤلاء الملايين ، الفاسقين ، العاطلين عن العمل . . .

- آه ! - سحب غولين ذقنه ، ورفع رأسه مثل حصان ماجوم ، وارسمت تعابير الكراهية على خدتيه ، وقال بصوت أجش : - لا تلمسني ، ثمة شهود عيان ! - وأشار بإصبعه إلى ضاربة الآلة الكاتبة ، المصعوقة : - تريد أن تضربني من جديد ؟

- للأسف ، لا أسمح لنفسى بانتقام الأطفال المحظور ، - قال كريموف وخرج إلى الردهة ، خائفاً من ذلك الرضى الذي كان سيشر به ، لو رأى آثار العقاب العادل على هذا الوجه ، ذي الوجنتين الصابتين .

خاف بوابة الاستوديو ، أقرب من السيارة ، مفكراً ، لسبب غير معروف ، بأنه ، بالرغم من جميع النقائص ، فقد كان ، بصورة عامة ، محظوظاً في الحياة ، رغم تأخره الطويل في تسليم كل فيلم جاهز ، وبعد حوار طويل في المكاتب ، مشيراً من فترة لأخرى جبهة وهوشة في لجنة شئون السينما ، التي كانت تخشى استلام الفيلم بدون التعديلات المصححة . في الوقت نفسه ، كان يثيره صهبة الاستوديو ، الذين يحماون الأنواط على صدورهم الشعراء ، ويدمدمون بمغزى وذكاء عن يساريته التجديدية المبهمة . وكان يثيره بالدرجة نفسها ، الهمس الزاحف ، بصورة سامة ، مثل ثعبان خشخاش حول تهوره وعدم اتزانه وعدم السيطرة عليه . أما هو الذي عرف الحماسة اليسارية واليمينية في تواصلاته وعلاقاته المتنوعة ، لم يرغب أن يذيع صيته ، لا يمينياً ولا يسارياً ، ولا مترناً خاضعاً ، محاولاً البقاء ، مفتوحاً بصورة مفرطة ، ربما ، وناعماً باعتدال ، وبخاصة في أفلامه الماضية حول شباب جيه ، وحول الحرب بشجنها العاري ، وخسائرها ، وعلى الأغلب ، في أفلامه الأخيرة حول الأعوام السبعينيات وجراثيمها الاستهلاكية ، ولا مبالاتها الأخلاقية المداوية ، وهمومها الآنية اليومية ، وحب الأرض الحالي من أي حب .

ولكن ، والحمد لله ، عليه الآن أن يذهب إلى البيت الريفي ، فقد اشتاق خلال ستة أيام من وجوده في الخارج ، إلى طفليه ، إلى زوجته أولغا ، بنظرتها المهادنة من الأسفل إلى الأعلى ، وبصوتها الرتيب البطيء ، الذي كان يؤثر فيه أحياناً ، تأثيراً كبيراً للغاية ، اشتاق إلى

اقتربها الخجول منه ، وإلى سؤالها المازح ، المداعب ، بعد القابلة الأولى : « ألم تنساني كثيراً ، مع ذلك ؟ » ، وكان هو أيضاً يجيب بشيء من الدعاية ، بأنه كان يموت حيناً وشوقاً . لقد اشتاق إلى ولديه وأسرته ، وبالدرجة الأولى إلى تانكا ، ابنته المضحكة ، المشاكسة ، الصغرى في الأسرة ، إلى محبوبته الصريحة . لقد كان هادئاً في مشاعره نحو ابنه فالتين ، طالب السنة الثالثة في معهد السينما ، الذي أصغى إلى نصحه وسار على خطاه . غير أن فالتين كان قليل الكلام ، منغلماً على نفسه ، وأحياناً غير متسامح بالنسبة لحين « الأجداد » وفنهم ، أي أنه كان متحرراً من ترهة عاطفية تقادمت واهترأت في عصر الثنية والنرائعية . إن الاغتراب الصامت لابنه وبعده عن الناس ، لم يقربا فيما بينهما ، ولم يخلقا وداً متبادلاً ، أما كريموف ، فبسبب ضغط عمله الدائم وانعدام القدرات التربوية لديه لم يكن يبحث عن نقاط التقاء قريبة خاصة ، واعتبر ابنه شاباً عصياً إلى حد الافراط ، لكنه مدير تصوير مقبل عادي جداً ، خال من النزعة الفنية ، يدعو إلى الصيغة التي يقبلها العقل والجديرة بهذا العصر وهي : أمل العالم في المدنية التكنولوجية .

في طريقه إلى البيت الريفي ، عرج كريموف إلى شقته في موسكو ، وعندما دخل إلى السكون الخائق ورأى أعمدة الشمس عبر شقوق الستائر في هواء الغرفة الحبيس ، فاح إهمال الشقة الصيفي باليتم والوحدة ، ولم يعد يرغب بالبقاء هنا وحيداً ، كما يرغب بالأمس . فشرب قدحاً صغيراً من الكونياك ، لوضع حد لوجع رأسه ، ووضع حبة ملابس من النعناع في فمه ، لإزالة رائحة الكونياك (في حال لقاء مفاجيء مع شرطة المرور) ، وأخذ حقيبة السفر مع الهدايا ، التي كان يشتريها دائماً لـ « نسائه » من الخارج ، ونزل باتجاه السيارة .

الفصل السادس

في الضاحية الريفية ، الدفينة في عريضة شمس تموز القائظة ، أوقف كريموف سيارته بالقرب من الخوخة ، المستظلة بأشجار الزيزفون ، ودخل من الباب ، وعلى الفور ، ومن خلال أخشاب السور رأى في الحديقة بين أشجار التفاح ثلاثة مقاعد خشبية طويلة ، ورأى ابنته المحبوبة تانيا * ، تلميذة الصف التاسع ، وقد قصت شعرها قصيراً على طريقة الصبية . كانت ترتدي قميصاً رياضياً يكشف عن كتفيها اللانين لوجتهما الشمس ، وكانت مستلقية بين الأعشاب فوق سجادة صغيرة ، وهي تقضم تفاحة ، وتقرأ وهي تحرك رجليها الخافيتين . التفتت تانيا بوجه مشرق ، عندما سمعت صرير الباب الخشبي ، وقضت بمرونة ، ورمت بقراصة التفاحة بين الشجيرات ، وصاحت بفرح :

- بابا ، الحمد لله على السلامة ، أورا . . . ! تحية ومرحبا !

- مرحبا يا عزيزتي ، - قال كريموف وسار فوق الأعشاب التي كانت تصفحه على قدميه ، باتجاه ابنته التي ركضت نحوه - مرحبا ، يا شيطانة ، يا زقزاقتي - قال كريموف ، مقبلاً ابنته في شعرها ، الذي تفوح منه حرارة الشمس - اسمعي ، يا تاتيانا « خانم » ، كأنني لم

* تانيا ، تانكا ، تايوشا ، كلها أسماء تصغير وتحب للاسم الكامل تاتيانا - المترجم .

أراك منذ عام كامل ، لكن أنفك قد انساخ من أشعة الشمس بشكل غير محتمل ، وأنت بكامل جسمك احترقت وأصبحت كالزنجية ! ماذا بك ، وهل تمضين النهار يكامله تحت أشعة الشمس ؟

- آه ، يا أباي العزيز ، لأنني مسرورة ، مسرورة ، لقد اشتقت إليك - قالت نانبا بمرح ، بما تميزت به علاقتهما من ثقة وصدقة ، كان يقدرها كريموف كثيراً - وأنت ، أصبحت نحيفاً في سفرك إلى الخارج ، وأصبحت رشيقةً وشاحباً . لقد قرأت وأمي في مجلة « الثقافة السوفييتية » أن فيامك قد فاز بالجائزة ، وعرض في قاعة الاحتفالات . أليس كذلك ؟ أو لم يصف أصحاب القلم الكثير من خيالهم إلى هذا الخبر ؟ فهم يجيدون ذلك ، على نحو لا يصدق . . .

- إلى هذا الخبر ، لا - أجاب كريموف ، ولمس في قرارة نفسه خنقة ساخرة سعيده ، تحت نظرة ابنته المرحمة ، مستمتعاً بصوتها المشاكس ، ومشتتاً على أنفها المسلوخ من أشعة الشمس . - كانت القاعة غاصة بالجمهور ، وتحطمت شبابيك التذاكر ، وتكسرت أجهزة إطفاء الحريق ، والمتفرجون كانوا بين جالس ومستاق ، وواقف ، وهناك من تعلق بستائر النوافذ أما أكبرهم مهارة ، فقد تعاقوا بالثریات ، وكانوا يصرخون بماء حناجرهم « الكرة » تارة و « أبعدها المخرج من الملعب » تارة أخرى .

- ها قد بدأت اللعبة - صاحبت نانبا باعجاب شاحب لشريكة في الرأي ، أدركت بسرعة الأسلوب المعهود - من جديد يا بابا ؟ لا يفهم المرء أين المزاح وأين الجد . انتظر ، ماما ليست هنا : إنها تحمل في الحقل المشمس : اجلس على المقعد الطويل ، اجلس هنا !

وشدته من يده ، وأجاسته قبالة الشمس ، وجلست هي مقابله ،
واتكأت بظهرها على المقعد الطويل المائل ، ناظرة نظرة خفية من تحت
رموشها المبيضة من أشعة الشمس .

- بابا ، أريد أن أسألك - هل حقيقة أم لا ؟ رغم أنني لا أصدق
منها شيئاً . . .

- ماذا تقصدين يا ابنتي ؟

غضنت تانيا أنفها ، وهي تقول :

- إشاعات سخيفة مرعبة ، يحمر الوجه خجلاً منها . البارحة
في « البلاج » ، اقتربت مني تلك الفتاة السمينة سيمكا أنسيموفا ، ابنة
مدير التصوير السابق عندك ، الذي اشترى الآن « فيللا » في بلدتنا ،
وقالت بنجث واستهزاء : « أتعرفين ماذا حل بأبيك ؟ » - « لا ،
وماذا تعرفين أنت ؟ » - « اذن ، أنت لا تعرفين ما يعرفه الجميع
الآن ؟ » - « وماهي المسألة يا غبية ؟ » - أسألها فتجيب : « لاشيء » ،
ستعرفين كل شيء عندما سيلزم ذلك » . أتعرفين ، ألا تعرفين ، إنها
تمساحة معروفة . - قالت تانيا ساخرة ، وكانت عينها تلمعان مثل
عيني ساحرة . - إنه أمر مذهل ! أنا ، طبعاً ، لقيتها بالشوبق المطبخي ،
ولكن من ياتق هذه الإشاعات السخيفة ياترى . . .

- أية إشاعات يا ابنتي ؟ ، أنت لم تقولي بعد شيئاً ،

- إشاعات تزعم أن ممثلة شابة من فرقة التمثيل في فيلمك قد
ماتت ، وكأنك كنت تميل إليها ، - قالت تانيا واحمر وجهها ،
وهزت رأسها بحرية واستقلال ، معترضة ورافضة . - معروف للجميع

أن الإشاعات ترددها وتنشرها الشوايق المطبخية . . . الواشيات
اللقلاقات . . .

— تانكا ، أنت ابنتي الحبيبة — قال كريموف وهو يرى على وجه
ابنته الصديق ، وعدم القدرة على الكذب ، والقاق ، والاهتمام بالدفاع
عن شرف الأسرة ، التي لا يمكن لأبيها أن يدوسه أو يدنسه .

— هذا ما يدعى بأبني افتريت ! إنها إشاعات يا بابا ! — صاحت
تانيا بقلق ، وضربت على ركبتيها بيديها . — أنت ، يا أبي ، لقد صرت
حزيناً ! لا تصنع إلى هذه الإشاعات . أنا سأدخل الآن المرح إلى قبابك ،
يا بابا ! إنه أمر مذهل ! هل تعرف ، سيكون عندنا زفاف عما قريب .
ابنك ، أخي فالنتين فياتشيسلافوفيتش ، طالب السنة الثالثة ، أتعرف
ماذا ؟ إنه سيتزوج . هذا لا يزال سرّاً تقريباً . لم تكتب الصحف بعد
عن هذا الموضوع ، ولم تنشر أية مقابلة ، ولكن ، ولكن . . .

— ولكن ماذا ، يا تانيا ؟

— لكن كل شيء يسير بهذا الاتجاه . أمي مذعورة قلقة ، بصورة
غير معقولة . ما إن يحضر الخطيب مع فتاته المختارة ، حتى تصاب بقلق
شديد ، فتأخذ منصتها ، وتمضي اليوم كله وهي ترسم . ولا تحضر في
موعد الغداء ، فهي تتغذى بالثمار البرية في الغابة على الأغلب . إنها
تعاني كثيراً ، أما أنا فأشعر بالضحك رغم أنني لا أظهر شيئاً . لقد عثر
لنفسه على « ألف ليلة وليلة » . . . على جوليت ، وحلّق معها باق ،
باق ، باق .

لمح كريموف في صوتها غيرة لم تحسن إخفاءها ، بيد أنها سرعان
ما ضحكت بصورة رنانة ، طبيعية ، لدرجة أنها كلها بجسدها الذي

كوته الشمس وشعرها الكثافي ، اشتعلت بالشباب والصحة والراحة ،
أما هو فقد تملكه لهيئة صغيرة ، شعور ثاقب ، غير مفهوم بالخشية
عليها : فلو حدث شيء ما لتانيا ، لما أبقاه شيء على هذه الأرض .

— باق ؟ اسمها باق ؟ — سأل كريموف بصوت خافت ، رابطاً
بصورة عفوية هذا الاحساس الذي تملكه لثانية واحدة بذلك اليوم
الحزيراني الرهيب ، وبرودة الشعر المبتل الأشقر على خده .

— باق ، باق ، باق — كررت تانيا بصورة مضحكة ، وأرته
بأصابعها المجرحة ، وكأنها تمط أنفها الذي تمزق جلده . غير مفهوم ؟
لدى خطيبتنا أنف كأنف البطة ، ذو رأس حاد مدبب . . . ويشبه
القباق ، لدي رغبة شديدة بأن ألمسه ، حتى أنني لا أستطيع منع نفسي
من لمسه إلا بصعوبة ، غير أنها ، أتعرف ؟ — ذات رأي مستقل ،
ولها شخصيتها . سترها . لقد اقتادها الطالب إلى « البلاج » منذ الصباح .
سيأتيان عند الغداء .

— ألا تتعني كثيراً مع هذه البطة ؟

— لا أبداً . يروفي فقط أن أراقبها وأراقب فالتين . إنه فقد
عقله ببساطة ، يبدو وكأنه ديك حبش ، أما هي فكأنها طاووس ،
حتى أن خنصرها يبرز عندما تمسك بالكأس ويتنفخ : هذه البطة اسمها
لودميلا : وهكذا العاشقان روسلان ولودميلا . إنه أمر ساخر إلى حد
لا يطاق : كالسخر في أعمال أنطون تشيخوف الأدبية الباكورة . أما
أمي ، فهي تعيش في ذعر حقيقي .

— لقد اشتقت إليك يا تانيا — قال كريموف ملاحظاً تانيا بدلال ،
ونفض من على المقعد الطويل — واضح ، سأذهب إلى غرفتي : أما

انت فافتحي الحقيبة ، واختاري هدية . أظن أن الصندوق ذا الأشرطة سيحوز على إعجابك .

* * *

في مكتبه ، كانت النوافذ مفتوحة على مصراعيها ، وكذلك الباب المؤدي إلى الشرفة ، وكان هواء الحديقة العليل يغمر الغرفة .

نظر كريموف إلى عليته ، ولاحظ على الفور أن أيدي غريبة قد لعبت بها . فعلى الديوان ، حيث كان يحب الاستلقاء أمام النافذة المفتوحة ، متأملاً غروب الشمس الذهبي على أشجار البتولا ، مستغرقاً وخاضعاً لسلطة أفكار المساء المتعبة (حسب تعبير أولغا) ، شاهد مخددة وشرشفاً يلمعان بلونهما الأبيض ، وقد غطيا إلى النصف بلحاف — فراش أصلي على عجل — وعلى ظهر الكرسي علق رداء نسائي باهمال . وقد رميت على السجادة الصغيرة بالقرب من المكتب حقيبة نسائية ذات زنار . ولم يكن مألوفاً له أن يكون جهاز الفونوغراف مكشوفاً ، والمكتب قد مستها أيدي غريبة . وعلى طرف طاولة المجلات ، كانت هناك مرآة مدورة لامعة . وإلى جانبها كانت هناك علبة أحمر شفاه وعلبة مسطحة لـ « البودرة » ومشط نسائي . وقد أزعجه أن خطيبة ابنه كانت تنام ، كما يبدو ، في غرفة مكتبه ، وقد أقلقت بتدخلها الفظ ممتلكاته الشخصية ، حيث كان يسود دوماً النظام الذي اختاره وحافظ عليه للعمل في مكتبه .

« اذن ، وصلت المسألة إلى هذا الحد ، طالما أنها تنام هنا في البيت الريفي ؟ » . خلع كريموف جاكيتيه ، وسار في أنحاء المكتب ، ملجأه المنير والهادئ دوماً ، ووقف أمام طاولة المجلات ، ونظر في المرآة المدورة الصغيرة ، التي كانت تنظر إليها ، في الصباح ، غالباً ، خطيبة

ابنه . لاحظ كريموف باستغراب ساخراً ، أن مرآتها قد وضعت فوق نماذج سيناريو الاخراج ، فقال بصوت مرتفع : « إن هذا مؤثر » .
وخرج من مكتبه .

قبل أن ينزل إلى الأسفل ، ألقي كريموف نظرة إلى غرفة زوجته ،
الغرفة الصغيرة ، المريحة ، التي كان يطيب له الدخول إليها ، إلى عالم
الحنين إلى موسكو القديمة في العشرينات والأربعينات ، موسكو التي
أصبحت الآن باردة ، شاهدة الأبتية ، وفقدت روحها السابقة .

هنا ، في حجرة أولغا ، كان يبدو كل ما كانت تحبه : انسجام
الخطوط والثنايا ، الرشاقة والاستدارة في العمارة ، التي تنشر الدفء
والاطمئنان ، وفرحة الخيال والظلال - رسوم وصور لبولفار
بريشيستينسكي ، وكاتدرائية المسيح المنتقم مع منظر لنهر زاموسكفورييتشي
وبرج سوخاريف بزخارفه البيضاء ورواقه المكشوف ، ومنطقة زارياديي
الربيعية ، وأزقتها الصباحية وكنايسها الصغيرة الأبدية ، ولوحة موسكو ،
بريشة أولغا ، في الفجر الصقيعي المبرد ، في الندى الثلج الذي شكلته
حافلة الترام الأولى في الشارع المقفر ، وعلى مقربة منه ، منظر طبيعي
يمثل مشهداً ريفياً يظهر فيه الغسق الذي يبعث المزاج الحزين : خلف
النافذة يغدو الهواء الشتوي أكثر زرقة ، وتظهر زرقة الثلج على الأسطح
المائلة بين أشجار الشوح السوداء ، بينما أشعلت الأنوار في بعض المنازل .

في كل مرة ، كان كريموف يتنسم هنا نقاء طاهراً ، منبعثاً من
الصور القديمة ، من المشاهد والصور المعلقة على الجدران ، من طاولة
الرسم والمصباح ذي القاعدة المرنة المركب عليها ، من الستائر الشفافة
المزخرفة ، الممتدة حتى أرض الغرفة ، تلك الستائر التي توحى حركاتها
المتوجة بشيء ما نسائي أنيق ، كما يوحي به سرير أولغا المرتب بأناقة .

قبل خمسة عشر عاماً ، عندما شيدا هذا البيت الريفي ، كانت هذه الغرفة هي الغرفة الأولى التي تم إنجازها وإكمالها . وقد استقبلا العام الجديد هنا ، في البيت الريفي وليس في موسكو ، وكانا مشغولين بالأحاديث ذات الطابع العملي مع النجارين ، وكانا مفعمين بأجمل الآمال المستقبلية ، عازمين على العيش صيفاً هنا ، والعمل في الحديقة ، واستقبال الضيوف هنا فقط . بيد أن هذا الاستقبال الأول للعام الجديد في البيت الريفي كان مصادفة ، وخاصاً . فقد انقطعا ، بسبب العاصفة الثلجية الكبيرة التي غطت الطريق ، ولم يذهبا إلى موسكو ، وبقيا هنا ، في البيت الريفي الذي لم يكتمل بناؤه ، الذي كان يفوح منه زيت التربينين ونشارة الخشب الباردة على الدرج وخشب الصنوبر البارد في غرفة أولغا غير المدفئة ، التي كانت تهزها العاصفة الثلجية طيلة الليلة . وكانت تقول أولغا بأن كل ما كانت تعمله ، في تلك الأثناء ، كان مفعماً بحبها له : فقد كانت ترسم في عينيها المخمليتين البريتين ، المصوبتين نحو عينيها ، ابتسامة تارة ، وحنان خضر تارة أخرى ، عندما كان يمسحها ، يمس زوجته ، أم طفليه ، لكنها بقيت دائماً مرتبكة ، كما في مرحلة عزوبتها ، خجولة من عدم صبره .

قطع شجرة عيد الميلاد من الغابة ، وحملها مع روح الثلج الباردة التي عصفت بها ، وأخذت أولغا تزينها بصفائر من بقايا ورق الجدران ، لم يكن كريموف يعيقها في عملها ، فقد كان يقف من الخلف ، يمازحها وينصيحها ، ويرى رأسها المنحني ، وشعرها الذي سرحته بنعومة ، وجمعه إلى الورا في عقدة مشدودة ، وكان من حين لآخر يمسك بكتفيها ويديرها نحوه . أما هي فقد كانت تنظر بعينيها إلى وجهه ، وتقول مرتبكة :

— هذا العام هو عام الحصان » ، لهذا عليك أن ترتدي بدلة بنية اللون .

— هكذا اذن ، يا أولاً ، بنية اللون حتماً ؟ للأسف ، لقد نسيت خزانة ملابسى المؤلفة من خمسين طقم « سموكنغ » في بوينس آيرس ، في أجنحة فندق هيلتون . لا عليك ، سأرسل برقية .

— ماهذا الإهمال ! وما العمل ؟ إن عدة الحصان بنية ، بصورة عامة . أتعرف المراسيم في هذه المناسبة ؟ علينا أن نرتدي شيئاً مصنوعاً من الجلد . وأن يضع الرجل على رقبته سنسلاً ذهبياً . احن رأسك . سألبسك سنسالي . — وخلعت من رقبته سنسلاً صغيراً ، ألبسته لزوجها ، وقالت مهمومة : — اعطني حزامك الجلدي لأرتديه أنا . علينا أن نضع على الطاولة لعبة على هيئة حصان . ويجب وضع الشوفان وقطعة من السكر في صحن أمامها . وماذا أيضاً ؟ في تمام الساعة الثانية عشر ليلاً لا يصح شرب الشمبانيا . على أية حال ليست لدينا شمبانيا . حسن جداً ! فقط الكونياك أو الفودكا . وهذا لدينا ، والحمد لله . قبل حلول منتصف الليل بدقيقة واحدة ، يجب فتح الباب وإخراج العام القديم . وفي الساعة الثانية عشرة تماماً ، يدخل العام الجديد . فنغلق الباب . وعندئذ علينا أن نشرب نخبه . تعال تستقبل العام الجديد على هذا النحو ، حسب التقويم القمري .

برغبة عظيمة ، وافق كرىموف على مراسيم استقبال العام الجديد وفق التقويم القمري ، دون أن يعلم حتى الآن ، ما إذا كان هناك عام الحصان في هذا التقويم . أما أولغا ، التي كانت عيناها تضيئان على نحو خافت ، فقد كانت تجلس خلف المائدة ، وقد وضعت على خصرها

✽ حسب التقويم القمري الصيني القديم . — المترجم —

الحزام الجلدي الرجالي ، وعلق كريموف في رقبته سنسال أولغا ، الذي يحتفظ ، كما بدا له ، بدفء جسدها ، والذي كان يؤثر في خفة الوزن النسائية على كثرته الصوفية السمكية ، وفي منتصف الطاولة كانت هناك لعبة على هيئة حصان ، وبالقرب منها صحن فيه قطعة من السكر . قبل دقيقة واحدة تماماً من حلول منتصف الليل ، اقترح كريموف على أولغا قائلاً : « تعالي نستقبل الحصان ، لكن خذي معك قدحك » - وخرج إلى الدرج الخشبي المظلم ، المشبع بالقار والنشارة ، حيث لم تمتد الإنارة الكهربائية بعد (كما في البيت كله) ، ونزل من العلية إلى المدخل ، وفتح الباب الخارجي للريح ، التي كانت تحمل ، بصورة مائلة ، اللبدات الثلجية الزرقاء ، وعويل العاصفة ، التي أحاطت بهما كليهما بالبرد القارس الأخرس لهذه الليلة الخالكة . وخيل إليهما أنهما يسبحان في الظلمات في نهاية الكون ، وأنهما منفصلان عن الأرض ، في عزلة سعيدة مشتركة ، تماماً كما في أيام الشباب ، حيث لم يكونا بحاجة لأكثر من ديوان قديم مثقوب في غرفة استأجراها بثلاثين روبلا ضمن شقة مشتركة مع الجيران في منطقة ياكيمنكا .

- هاهو قادم ، أسمع ؟ إنه يدبذب بحوافره بين ركام الثلوج ويهمهم بصوت مسموع - قالت أولغا مازحة بصورة غير متقنة ، ومرتجفة - أسمع ؟ لقد أخرج السنة القديمة ودخل ، وأحضر البرد معه . أتشعر ؟

- وحمل الثلج معه يا عجوزي .

أغلق كريموف الباب (وقد تمكنت العاصفة من ادخال كموات بيضاء من الثلج إلى أرضية المنزل) وعانق أولغا ، طلباً للدفء ، وقرع

قدحه بقدحها ، وقبلها من شفيتها الباردتين ، الحلوتين - المرتين
من الكونياك ، وقال شبه جاد ، مخفياً القلق الذي سيطر عليه :
- أهؤلاء بالسنة الجديدة ، يا زوجتي الحبيبة !

- لقد هنأني ، وكأن لديك زوجات عديدات : زوجة حبيبة ،
وزوجة غير حبيبة - أجابت أولغا ، وبعد أن تنفست الصعداء ، قبلته
قبلة خفيفة .

وذهل من جديد ، من أنها قبلته بشفتين لم يدفئهما النيبذ البارد ،
بسداجة ، دون خبرة ، مثيرة لديه الظمأ السابق ، كما حدث في شبابه
لأثر الحرب ، حيث لم تتعلم ما تعلمه من لقاءاته السابقة مع الفتيات ،
وقال متلذذاً بعدم معرفتها ونقاها الطاهر :

- أنت ، يا زوجتي الرائعة ، تقبلين من جديد كالغراب الصغير ،
وفي كل مرة تغلقين عينيك وتتنهدين .

في الساعة الثانية ليلاً ، هدأت العاصفة ، وكانا محاطين بالصمت
المطبق للصقيع المذهل ، فخرجا إلى الصحراء الغاية ، الريفية ، الثلجية .
كان صرير الثلج تحت وطء جزمات اللباد قوياً وحاداً كالجرس ،
لدرجة أنهما احتبسا أنفاسهما . وكان القمر ينير ويلمع في دوائر صقيعية
برتقالية ، وكان الصقيع يتراكم ، وكان كريموف يرى في دخان
القمر انزلاق الظلال على الغطاء الثلجي الطري كانعكاس بقع شمسية
على قعر رملي .

كانت أولغا تسير إلى جانبه ، وتتحدث عن شيء ما (كان لا يصغي
إليها جيداً ، مفكراً في أنه لم يتوقف أبداً عن حبها) . وكانت تمس
أحياناً كفه ، ناظرة إليه من الأسفل بإبتسامة قصيرة ، أما هو فقد كان

مذهولاً قليلاً من هيامه المتكرر بها ، وينظر إلى وجهها الداعي إلى
السرور الهادئ ، وابتسم أيضاً لنظرتها ، وليلة السنة الجديدة هذه ،
ولقرعة الأشجار في الغابة - ، حيث كانت تنهار طبقات الثلج بغبار
ثلجي ممتد من على أغصان أشجار الشوح بطبقاتها الثلجية المتناقلة .

غير أن كريموف كان يذكر أيضاً الصباح الفضي المشمس لليوم
الأول من السنة الجديدة ، عندما استيقظ ، فرآها تنظر إليه ، واضعة
كفيها على صدغيها ، دون حراك ، بتأمل واستغراق ، وكأنها أرادت
أن تحفظ صورته ، قبل فراق طويل .

— ماذا بك ؟ — سأها قلقاً ، وعانقها ، محترقاً من جديد بالرغبة .
— لقد استيقظت ورأيت كيف تنام ، وفكرت بأن طفلينا
لا يشبهانك . وهنا شعرت برعب كبير . وهل ياترى لن يرى أحدا
الآخر بعد عشرة أو خمسة عشر عاماً ؟ كم أشفق عليك وعلى الأطفال ،
وعلى حياتنا القصيرة كلها على هذه الأرض .

— ولماذا الشفقة ، يا أولغا ؟

— لقد بدا لي أنني وأنت وحيدان في عالم كامل ، غير أنك لا
تجني . لا ، نحن وحيدان على أي حال . أنت وأنا . . . — وارتجفت
عينها الهادئتان المخمليتان ، فأدارت رأسها إلى الحائط لتخفي وجهها ،
أما هو فأخذ ، بحزن يقطع القلب ، يقبل شفتيها الضعيفتين المتملصتين
وهو يقول هامساً ، لاهثاً :

— عبتاً ، تقولين ذلك يا أولاً . لقد كنا سعيدين في بعض الأحيان .

قال كريموف هذا ، خوفاً من أن تعترض أولغا ونحطم هيامه

الجديد ، الذي أصبح قبل بضعة ساعات من ابتعادهما عن موسكو مغزى لقربه منها ، ولهيامه وعشقه لامرأة قديسة ، أرسلها له القدر المبتسم له ، امرأة لم تخدعه أبداً في مشاعرها ، رغم أنه قد أذنب في حقها ، في شبابه ، أكثر من مرة .

— أي ظلم هذا — قالت بهمس ، واقتربت منه دافئة أنفها في صدره — لأنني لا أريد فراقك .

— أنا أعرف ، أن الأحلام تخيفك — قال كريموف — انسي ما حلمت به .

* * *

أثناء هبوطه من العلية ، وخروجه إلى الجو الحار في الحديقة ، إلى الطريق المفروش بالرمل النهري ، والمخطط بالظلال ، رأى كريموف من جديد ، وسط النهار التموزي المشمس ، تلك الليلة الشتوية المقفرة ، والكثبان الثلجية المقمرة ، والصبح الصقيعي في غرفة أولغا بوحدهما السعيدة .

— هل أساعدك بالعثور على أمي ؟ — صاحبت تانيا من بعيد تاركة كتابها ، ومحركة قدميها الخافيتين — ماما تجلس على المرج المشمس . هل أقودك إليها ؟

— لاداع يا ابنتي ، سأعثر عليها .

« لأنني لم أتوقف عن حبي لها — فكر كريموف وهو يسير على الممر في طرف الحديقة ، نحو الخوخة ، متوجهاً إلى الغابة — ولكن ، يبدو ، وكأن إخلاصي ينقصها » .

وجد كريموف أولغا تحت أشجار البتول في آخر الغابة . كانت تقف أمام منصة الرسم الغارقة في العشب ، وقد ابتعدت بشعور من التعب عن اللوحة ، واضعة قفا كفها على جبينها . كان كل شيء فيها قريب منه ، حبيب إلى قلبه : حركة التعب الخفيفة هذه بعد العمل الطويل ، وعقدة شعرها الأسود ، وخطوط ظهرها ، وكتفها اللذان حافظا على فتوتهما وقوتهما ككتفي فتاة ، وذلك بفضل رياضة الجمباز واليوغا الصينية التي كانت تخصص لها مالا يقل عن ساعة يوميا ، معتقدة أن في هذه الرياضة « سرّاً » شقيقاً للصحة والشباب الخالد .

شاهدته أولغا ، فأنزلت الريشة ، والتفتت صامتة ، ووقفت تنتظره ، إلى أن اقترب منها بخطوات سريعة .

— مرحبا يا زوجتي المحبوبة : : :

« من أين جاءني هذا الابتذال ؟ من يوجهني ؟ » هـ

وعانقها بقوة ، بصورة محرّجة ، دون احتشام ، وكأنه لم يكن له الحق بهذا العناق ، فتجاوز هذا الحظر وتغلب عليه :

— مرحبا يا زوجي المحبوب . — لم تقدم له شفيتها ، بل وجنتها ، ونظرت إليه باهتمام ساخر من تحت حاجبيها المعقوفين . — وهل أنا عمود أو شجرة ؟ ألا تحسب حساب قوتك يا فياتشيسلاف أندريفيتش ؟

كان ينطلق من تحفظها هواء خريفي ، وقد خمن كريموف الأسباب المحتملة لهذا الفتور المزعج ، ومع ذلك عثر في نفسه على قدر كاف من الجرأة للتخفيف من فتورها قائلاً :

— أولا* ، يبدو أنني خلال الأسبوع الذي لم أرك فيه قد فقدت قدرتي على التعامل مع الأشياء الثمينة . إنني حمار هرم .
« ابتذل من جديد ! وما هذا الهديان ؟ — بالفعل إنني غبي مطبق ! » .
— إذن ، دعني ، دع أشياءك الثمينة .
ولمعت عينها بتلك الريبة الهادئة ذاتها ، وتحررت منه بحذر .
فقال كريموف شاعراً بخطته :
— لقد اشتقت إليك ، إذا كان باستطاعتك أن تصدقني ولو قليلاً

— لقد جئت في الوقت المناسب . نحن الآن سنذهب لتناول طعام الغداء . ساعدني في جمع منصة الرسم .

لم تطلب منه ، كعادتها ، أن ينظر إلى رسومها ، وأن ينتبه إلى الألوان المائية الرطبة ، التي لم تجف بعد (« ما قولك — هل هذا يعجبك ؟ ») ، وهي الرسوم التي كان يقومها بتساهل كبير لأنه كان يرى في المنظر الطبيعي البحت مجرد انعكاس مرآتي للواقع المتغير ، مفضلاً عليه لوحة الطبيعة — اللوحة الفلسفية ذات الجمال العقلاني الطبيعي ، المعارض للقوة البشرية المخربة بقسوة ، هذا التعبير عن العالم المتمدن ، المعاصر ، الفاسد والمغري للكثيرين ، الذي يعشقه القادمون من الأرياف ، الذين يشكلون الآن غالبية سكان المدن الحالية ، والذي لا يحبه في الوقت نفسه . ولم تكن أولغا لتغضب أو تعترض ، أما كريموف فكان يختتم موعظته الانتقادية شبه الجدية بلطف وطيبة قلب (« أنت عندي رسامة رائعة للمناظر الطبيعية ، رغم أنك مهندسة معمارية ») . وكان يقبلها

المترجم

* أولا — تصغير وتحجب للاسم الكامل أولغا

من شفيتها ، الباردتين بصورة غامضة ، اللتين كانتا نجيبانه ولا تجيبانه على طريقة الصغار .

غير أنه عندما جمع طاولة الرسم ، ونظر إلى الألوان المائية التي لم تنشف بعد ، حيث يظهر مرج تحت أشعة الشمس القائلة - قرر أن الاستخفاف أو المزاح الآن سيزعجان أولغا ويصدانها ، لذلك قال مسالماً :

— في المنظر الطبيعي الذي رسمته تبدو الشمس قائلة ، ويبدو وكأن روح الثوت الأرضي الناصح ينهض من تحت الأعشاب . أنت قديرة حقاً .

— أخيراً ، سمعت مديحك — قالت دون أن تعبر عن موافقتها — حسناً ، أشكرك لأنني أصبحت أحوز على إعجابك ولو قليلاً . . . ولكن ، لماذا تجانب الحقيقة في قولك فجأة ؟

— أولاً ، هل يمكنني أن أعرف الذنب الذي ارتكبته ؟ ما هو ذنبي ؟ — سأل كريموف بصورة ودية كما في السابق ، خائفاً ألا يكون صادقاً معها — يبدو أنك لم تفرحي بقدمي ؟ — تابع حديثه ، ممسكاً بها من كتفيها المشربتين بأشعة الشمس . — أما أنا فقد اشتقت إليك حقاً ، وتعبت بصورة مضنية ، لقد اشتقت إليكم جميعاً وعدت من السفر قبل الموعد المحدد .

— ماذا جرى لك ؟ — تنهدت أولغا ، وكأنه مقضي عايتها . الآن ، سنغرق في محيط من العبارات الغنائية التافهة . لنضع هذا جانباً . إنني أرجوك شيئاً واحداً : تكلم اليوم مع فالتين ، إنه يقدم ، كما

أرى ، على خطوة غير مدروسة ، خطوة مجنونة . . : أتعرف أنه ينوي الزواج ؟ غريب ، صبي يلا خبرة . . . غير أنه لا يصغي إلي ، لأنه لا ينظر إلي نظرة جدية ، مثلك تماماً .

— يا للشيطان ! أتريدن ، سأجثو على ركبتني ، وأبوح بحبي لك ؟

— كم رائع أنت ، يا فياتشيسلاف ، ودائماً لا يمكن صدك . شيطانك المفضل ، الشيطان والشيطان . لقد بقيت فيك نزعة الجندي وألفاظه : بودك أن تشتم ، فتستبدل تعابير الشتائم بالشيطان . إنك فارس ماهر حقاً !

سارت أمامه على الممشى ، وعندما رأى ظهرها القوي وفخذيها المحتفظتين بفتوتهم وصلاتيهما في البنطال الذي ارتدته للعمل ، والملاطخ بالألوان ، ويفوح منه أريج الأزهار وغبار الطاع — هذا كله أعاد إلى ذاكرته فجأة جنونهما المفرح الذي لا ينسى في أعوام الأمل التي لا تعوض بعد الحرب ، كما أعاد إلى ذاكرته تلك العاصفة الثلجية الكثيفة في ليلة عيد رأس السنة في البيت الريفي ، هذا الجنون الذي انطلق فيما بعد ، بصورة مريضة ولم يعد يتكرر ، بسببها أم بسببه : وكاد كريموف أن يقول : « أولاً ، حبيتي ، من الذي يسبب لنا هذا كله ؟ » — غير أنه سار من ورائها باتجاه بلدة المنازل الريفية .

* * *

الفصل السابع

— ما هو الجليد لدى الشيبية ؟

اشتدت حرارة الشمس ، التي كانت تنعكس ، من خلال أوراق الشجر ، على الشرفة والطاولة ، على الكراسي الخيزرانية والأرضية الخشبية ، لكن أشجار البتولا كانت تحجب النوافذ المفتوحة ، ومع ذلك ، لم يكن الحر شديداً وقائظاً هنا ، كما في الحديقة ، في تلك الساعة .

أثناء تناول طعام الغداء ، أراد كريموف أن يشرب شيئاً من المشروبات ، بيد أنه كان من فترة لأخرى يعاني لنفسه من ماء البئر البارد ، القاسي ، الذي كان يتلأل في الابريق . لم يأكل إلا قليلاً ، متمنياً بأن يقف وقفة ممتعة الآن تحت « الدوش » ، ومن ثم الاستلقاء وحيداً في سكون مكتبه ، بين رفوف الكتب ، ويقاب المجلات في تراخ دون تفكير . غير أنه كان يعد رب الأسرة ، لكنه لم يكن يتذكر ذلك أبداً لانشغاله وأعماله ، وكان عليه الآن ، بناء على طلب أولغا ، أن يراعي قواعد آداب رب الأسرة ، أثناء تعارفه مع خطيبة ابنه .

قدم فالتين وخطيبته إلى الغداء من النهر فتيين ، لوحت الشمس بشرتهما إلى حله السواد . كان فالتين فارغ الطول بشكل مفرط ،

وقد ارتدى بنطالاً قصيراً ، ولبس صندلاً على قدميه ، ورمى منشقة موبرة على رقبته ، أما خطيبته فكانت تسير حافية القدمين ، وقد ارتدت قميصاً أحمر اللون ، قصيراً يكشف عن بطن أملس رائع الجمال ، وبنطال « جينز » ، وكانت الخطيبة نحيلة دقيقة ، وقد وضعت على عينيها نظارتين شمسيتين بعدستين كبيرتين ، تغطيان نصف وجهها بغطاء قاتم . ولم ترفع النظارة عن عينيها حتى بعد أن قبل فالنتين والده على نخله قبلة سريعة ، دون ابداء أية عواطف ، قائلاً : « تعارف ، أرجوك . هذه خطيبي ليودميلا » . أما هي ، فقد انحنت قليلاً بمرونة ، ومدت كفاً قوياً ، وأنشدت بصوت أشبه بصوت الطيور : « ليوسا * » .

ولاحظ كريموف أن وجه ابنه النحيل الجدي قد توتر وتشنج ، وكان ينتظر بوضوح جواب أبيه ، كي يدرك الانعطاف الذي تركه اختياره عليه . ضغط كريموف بصورة خفيفة على أصابعها الرطبة ، بالحناء بشوشة ، وقال إنه مسرور جداً من رؤية خطيبة ابنه في هذا البيت . قال ذلك مندهشاً من أولغا وتانيا ، ومن غيرتهما المحتملة ، وعدم تقبلهما لهذا الفتاة ، التي لم تكن تختلف بشيء عن الفتيات ، والطالبات العصريات .

« إن كل شيء عصري في هذه الفتاة . . . ولكن وجهك ، لو أريتني ، المديقة واحدة ، على الأقل ، أيتها الخطيبة . وهل بسبب الحياء لا ترفعين النظارة عن وجهك ؟ » - فكر كريموف في نفسه مراقباً ، بصورة خفية ، ليودميلا التي كانت تجلس قبالة إلى جانب فالنتين ، ونحمناً نظراتها الحذرة نحوه من تحت العدستين القاتمتين الزرقاوين .

- ما الجديد ، اذن ، لدى الشبيبة ؟ - كرر كريموف سؤاله .

* ليوسا ، ليودا - تصغير وتلطيف للاسم الكامل « ليودميلا » - المترجم -

طرح هذا السؤال ، من أجل قطع حبل الصمت الذي امتد وطال وأصبح قاسياً محرّجاً ، فمنذ بداية الغداء لم تتفوه أولغا بكلمة واحدة ، وكانت تقوم بتحفظ مهذب بدور ربة المنزل ، حتى أنها ابتسمت ابتسامة خفيفة لليودميلا ، مقدمة طبق الخبز لها ، عندما مدت الأخيرة شوكتها نحو الخبز ، ونظرت إلى تانيا محذرة ، حيث كانت تانيا تنظر يمينه ويسرة وتنحني فوق الصحن ، متهينة لإطلاق ضحكة ، وقد لمع في عينيها الرماديتين بريق الخبث والشبهة .

— بابا ، سؤال : هل تعتبرني من الشبيهة ؟ — سألت تانيا متهملة بروح الشقاوة — أم أنك تراني بين بين — مراهقة سخيفة ؟
— بلا شك ، أنت ممثلة رشيدة للشبيهة الطالعية — أجاب كريموف مازحاً — بلون أية خرافات باطلة .

حكّت تانيا أنفها المتغضن وقالت :

— اذن ، هذه هي الأخبار : في برج المذنبات الشمالي ، ونتيجة انفجار قوي ، تشكل نجم جديد ، لم يكن معروفاً من قبل . هذا النجم يبعد عن الأرض مائة وخمسين مليون سنة ضوئية . مثل هذه الظاهرة لوحظت في مجرتنا الشمسية في القرن الثاني للميلاد . تلك هي الحادثة الغريبة التي حصلت . إن المرء يكاد يفقد عقله . . .

— طريف حقاً — قال كريموف — الحمد لله ، فقد ازداد عدد النجوم نجماً آخر .

— هذا اضمحلال — قال فالتين يصوت صارم .

— ماذا ؟ ماذا ؟ — صاحت تانيا وهي تقفز على كرسيها — اشرح

لنا من فضلك ، ما هو الاضمحلال ، فعلاً . أنت ، عندنا ، تعرف كل شيء ، ماذا ، وإلى أين ، ولماذا والخ . . .

— لا ، لا أعرف كل شيء — قال فالتين مصححاً ، ونظر إلى ليودميلا ، التي كانت تقطع الخيار قطعاً دائرية بعناية ، وتدهنها بالقشدة الرائبة ، وتأكل بأناقة ، موجهة أنفها الحاد نحو الصحن . — لأنني أعرف ما أعرفه . لا يمكن للمرء أن يعرف كل شيء ، يا أنخي العزيزة . أما بالنسبة لحكيتك حول ولادة نجم جديد ، فهو نتيجة الانهيار ، نتيجة تقاص المادة في الفضاء خلال التفاعلات الكيميائية الحرارية .

— آه ، ياله من شرح رائع ! مذهل ! — قالت تانيا موجهة نظرها إلى ليودميلا أيضاً . وباندفاع صبياني ، عضت على نصف خيار ، وقرصته بشهية وبصوت عال ، بحيث أن أولغا أوقفتها مؤنة ، وهي تقول :

— تانيوشا ، أنت تصعقين الجميع بصوتك ، في النهاية ، أنت فتاة ولست حمالاً .

— ماما ، أنا أعيش في بلد ديموقراطي ، وأستطيع أن أقول ما أريد ! عاشت الحرية ! عاشت ، عاشت ، الخ .

«إن ليوسا الصامته هذه لم ترق لالتانيا الساخرة ولا لأولغا المتحفظة » — قرر كريموف ، مشفقاً لسبب ما على هذه الفتاة الغريبة ، ذات الأنف الحاد ، والنظارات المريخية ، التي ظهرت في أسرهم ، ومن أجل تخفيف الجو المتوتر على المائدة ، قال كريموف :

— أتعرفين ، يا ابنتي ، ثمة مقطع ، في مسرحية تشيخوف الرائعة

« السهب » . حيث يأكل ، دينيسكا ، أحد شخوص المسرحية ، الخيار .
وقد جاء في هذا المقطع مايلى بصورة تفريرية : ابتعد دينيسكا جانباً ،
وأخذ يقضم الخيار ، بشكل أخذت الخيول تنظر إليه .

— ياله من شاب شجاع ، ماهر ! — صاحت تانيا ، وهي تضرب
كفها بكف . — هكذا الرجال وإلا فلا — لقد أدخل الرعب إلى قلوب
الحياد . غير أنني لم أقرأ « السهب » . لم ندرسها في المدرسة . لكنني رأيتها
فيما سينمائياً . أما ما درسناه في الأدب فهو الآتي : فانكا جوكوف ،
صبي في الخمسين من عمره ، يتلرب عند الحذاء آليخين ، وفي عشية
عيد الميلاد ، لم يدخل النوم إلى جفونه ، والخ . . .

— صبي في الخمسين ؟ — هز فالتين كتفيه . — ماهذه السخافة !

ماهذه الترهات !

— لأنني سئمت إلى حد شنيع مما يقال لنا في درس الأدب حول
تشيفخوف — فانكا ، فانكا ، بائس ، مهمل ، بلاطفولة ذهبية . وأيضاً ،
الأطفال في عهد القيصرية كانوا يعيشون في ظروف لا تعاق ، كانوا
يرتلون أخفاً من ألياف الشجر ، ويعملون أربعة عشر ساعة في اليوم ،
ويأكلون سماك الرنكة . ثم أيضاً : غسق الحياة البشرية ، انغمس الجميع
في الدناءة والبذاءة ، في البحث عن عنب الثعلب ، ولا يحلمون إلا
بشيء واحد : بالسماء الممتلئة بالماس والحدائق الغناء بعد مائتي عام .
لا أستطيع احتمال مدرسة الأدب ماريجينخوفنا . . . لأنها عمود خشبي ،
خبزة مقددة في تنورة ، عانس عجوز ، شفتاها مدهونتان بحمرة شاحبة .
تتكلم من أنفها : غو — غو — غو . . .

وقادت تانيا ، وهي تتابع قرض الخيار ، بتعابير وجهها الصبياني ،

مدرستها ماريغينريخوفنا « الخبزة المقددة في تنورة » ، وهديرها من أنفها ، ثم لوت وجهها بتحد نحو فالتين ، الذي نظر إليها نظرة عابسة قاسية ، وقالت بحوية وحماسة :

— إنها تدفعني إلى الجنون ! ذات يوم ، استدعت إلى السبورة كودينوف . وهو طالب أخرق ، ذو صوت عريض يشبه صوت الجاموس ، عندنا في الصف . طابت منه أن يتلو قصيدة مايا كوفسكي « جواز السفر » . خرج كودينوف ، وأزاح قدمه جانباً ، وأخذ يصرخ بملء حنجرتة : « لو كنت ذنباً لتهبث البيروقراطية ! » — أما المعامة ماريغينريخوفنا ، فقد نهضت فجأة ، وسارت من ورائه وسدت أذنيها ، وأخذت تزعق : « ماهذه الفظاعة ! » ، فتسمر كودينوف مكانه ، ولم يحرك ساكناً ، مثل بقرة أمام آلة تصوير ، ولم يستطع للذهوله أن يغاق فمه بشكل من الأشكال ، ثم تحرك ومشى ، كالجمل فوق المقلاة ، والتفت إلى ماريغينريخوفنا ، أما نحن فقد كدنا نموت من الضحك وقام أحد رفاقنا ، من أصحاب النكتة ، وشبك بدبوس على ظهره ورقة كتب عليها بأحرف كبيرة : « لا أريد أن أتعلم ، أريد أن أتزوج ! » ، أتعرف يا بابا ، كم كان الموقف مضحكاً . . .

قهقهت تانيا بصورة جامحة ، ناظرة بنحيث إلى الجميع ، وقد لمحت أسنانها ببريق النظافة الفتية ، كما لمع شعرها الكتاني المكتوي بأشعة الشمس ، ولم يستطع كريموف أن يصمد أمام مرأى مرح ابنته المحبوبة . فغطى جبينه بكفه ، وشرع يضحك بصمت ، وبدأ وكأن ضحكه غير مناسب ، وهنا سمع صوت أولغا المؤنب :

— تانيوشا ، أية فتاة أنت ؟ ، فعلاً ، لا تسمح لي لأحد بأن يقول كلمة واحدة . وتعلقين بكلمات غير محتملة من اللغة المبتذلة المدرسية .

— هراء — قال فالتين متذمراً — كلام غامض .

— ليس هراء ، وإنما روعة وبهجة . — قالت تانيا معترضة .
وبالتحدي الحبيث نفسه ، لمعت عيناها المصويتان نحو لوسيا الصامتة ،
وسألت بصوت جدي فجأة : — وأنت ، يا ليودميلا فاسيائية ، تعتقدين
أيضاً أن هذا هراء ؟ أجل ؟ صحيح ؟

رفعت ليودميلا نظارتها المريخية عن الصحن ، ومسحت شفيتها
بعناية وأناقة بمنديل ورقي ، واعتدلت في جاستها أمام الطاولة ، بحيث
ارتسم ثدياها الصغيران ، غير الماحوظين ، من تحت القميص الداخلي
مثل أكميتين متشاحتين ، وقالت بصوت ناعم ، وكأنه صوت فتاة
صغيرة ذات ضمير حي :

— إنهم وقحون . لا يصح أن يسخروا هكذا من المعلمة . يجب
طردهم من المدرسة .

— ليسوا وقحين ، بل فتيان جيامون — اعترضت تانيا بحوية —
وليس من الواجب طردهم ، بل طرد ماريغينريخوفنا . لأنها خفتنا
بالمال والسأم والسخافة المبتذلة .

— إنها امرأة بائسة . . .

— الأغبياء وحدهم هم السعداء .

— هذا يعني أنهم ليسوا أغبياء يا ابنتي .

— لا أفهم يا بابا . . .

تدخل كريموف في الحديث ، بحذر كان يبدیه دائماً ، عندما تحدث
تانيا غيظاً ، مثبتة صحة رأيها ، محطمة كل شيء على طريق حقيقتها .

وعندما لاحظ الحمرة الخمرية على وجنتي ابنته ، وهي العلامة الأولى على عدم موافقتها ، التي تهدد بالانتقال إلى اندفاع لا طائل منه للبحث عن الحقيقة ، تابع حديثه مسترضياً ، مهاذماً :

— ليسوا أغبياء يا ابنتي ، لأنهم سعداء . — وبعد أن هدأ بنظرته تانيا التي ضحككت ، توجه إلى ليودميلا بالهجة البسطة المحترمة التي ألفتها ، والتي كان يستخدمها في حديثه مع الممثلات الناشئات ، المدعوات إلى « البروفات » السينمائية : — وأنت ، يا ليوسا ، تدرسين مع فالنتين في السنة الدراسية ذاتها ؟

— كلا .

— ماذا تعماين اذن ؟ ، أين تدرسين ؟

— لاني أعمل .

— أين ؟

— فياتشيسلاف أندريفيتش ، إن مهنتي لن تحوز على إعجابك .

— اكشفي لنا هذا السر ، إن كان ذلك ممكناً .

— أجي — تدخل فالنتين ، وقد قطب حاجبيه القاتمين — إنك تطرح الأسئلة على ليودميلا ، كما في الامتحان . أليس الأمر سيان ، أين تعمل ، وماذا تدرس خطيبة ابنك — نحب الإنسان وليس مهنته .

— أنت على حق — قال كريموف — غير أن المهنة نصف الإنسان .

— والنصف الآخر ؟

— النصف الآخر هو عدم تحقق الحلم ، عدم إرضائه ، والانتقال على السعادة والحظ والوهم .

— نحن جميعاً ، يا أبي ، نعيش حياة مصطنعة . جميع الكناسين ، وجميع الوزراء ، وجميع العظماء النابايونيين من الدوغمائية .

— نحن نعيش في عالم مشؤوم . هكذا أصبح — صحيح كريعوف ، مشفقاً على عناد فالنتين ، المعروف به منذ الطفولة ، واتجه من جديد إلى ليودميلا بروح ودية : — ومع ذلك ، أنا فضولي ، ماهو عمالك يا ليوسا ؟

« في الواقع ، من أين لي الحق بأن أطرح عليها هذه الأسئلة ؟ لأنني أسألهما باصرار مدير الذاتية ، هذا تطفل ، وبداعة ، في أي معنى كان . . . »

— لأنني أعمل ، فياتشيسلاف أندريفيتش .

— يبدو أنك نعمائين في مخبر إحدى مراكز البحوث العامة ؟
ترتدين الرداء الأبيض ، وتسمين رئيسك معاماً ؟ هل حذرت ؟
— لم تحزر . لأنني أعمل مفصلة ثياب في محل خياطة للم سيدات .
— هكذا إذن ؟ أمر طريف .

« وما الداعي إلى دهشتي هذه ؟ أردت لابني خطيبة من مهنة أخرى ؟
هل انتظرت شيئاً آخر ؟ وماذا أردت تحديداً ؟ »

— فياتشيسلاف أندريفيتش ، لقد نظرت إلى نظرة غريبة . غير مفهومة . . .

تردد صوتها الناعم بامتعاظ مغناج ، لكن ما صدمه ليس صوتها ، بل تلك الغرابة ، غير الطبيعية ، التي تمثلت في الارتباط المرتقب بين فئلتين « المنفاسف » ، البعيد الغور ، العميق ، طالب معهد السينما ، وبين هذه الفتاة الناعمة ، مفصاة الثياب ، ذات النظارة الشمسية ، بقطرات العرق التي تلوح على أنفها الأخنس الحاد . كانت أولغا تجاس صامتة ، واجمة كئيبة ، دون أن تشارك في الحديث ، وكانت ترسم بمحقتها طغريات على السمات .

— نظرت نظرة غريبة ؟ علناً يا ليوسا . وتقيلي ذلك على أنه مجرد فضول — قال كريموف باحترام — إنني ، ببساطة ، أهتم بمهنتك . ماذا تفعلين على وجه التحديد ، في مشغل الخياطة ؟ كيف تفصلين طرازاً أو نموذجاً من النماذج ، إن لم يكن سرّاً ؟ أنا أعرف ، كم يصعب أحياناً إرضاء كهنة « الموضة » .

— هذا غير ممتع أبداً ، فياتشيسلاف أندريفيتش — قالت ليودميلا — مهنتي عادية للغاية . غير أنني أحب أفلامك . هؤلاء الأشخاص الأقوياء ، الطيبون ، لماذا يموتون جميعاً تقريباً ، عندك ، في الحرب ؟ كم أشفق عليهم . كم كانوا جيدين هؤلاء الفتيان . وفياماك الأخير ، الذي حصل على الجائزة في باريس . . . ما اسمه ؟ « الحرب غير المعلنة » . . . إنك تريد أن تقول ، أن الناس يدمرون الطبيعة ، يدمرون الأرض ويدمرون أنفسهم ؟ لقد بقي في ذاكرتي هذا المقطع من فيلمك ، حيث يقول بطل الفيلم ، وهو عالم ، حزين جداً ، لصديقه : « مع ذلك ، فالإنسان لا يعيش من أجل أن يتحول إلى لقمة سائغة لستة أنواع من ديدان القبور . إن العثور على معنى الحياة هو السعادة ، أما السعادة ، فهي الشيء الذي لم نشعر به نحن . . . » .

— ذاكرتك جيدة ، يا ليوسا . . .

— إن ليودميلا تعشق السينما ، إنها هاوية الأفلام السينمائية يا أبي —
قال فالتين برفق ودود — إنها لم تدع فيلماً يفوتها .

— فياتشيسلاف أندريفيتش ، لقد قرأت في مقابلة صحفية ، أنك
اخترت لدور سينمائي ممثلة شابة من مسرح البولشوي ، وكان من
المفروض أن تشارك في التصوير — قالت ليودميلا بصوت ناعم متاعش —
لقد سمعت ، أنه قد حصل لها حادث أليم ، وقد أسفت عليها كثيراً
وأشفقت ، . . . في تلك المقابلة الصحفية ، كانت صورتها منشورة —
إنها رائعة الجمال .

— أنت تتحدثين عن الفنانة التي توفيت منذ فترة قصيرة ؟ —
سأل فالتين ، ناظراً بعجوس إلى نظارة ليودميلا الشمسية .

— لقد حفظت اسمها — إيرينا سكفورسوكا . وسمعت أنها كانت
قد تعرضت لإصابة ، وقد منعت من الرقص ، وأنت اخترتها لأداء
دور سينمائي . فياتشيسلاف أندريفيتش ، كم أنت إنسان طيب . . .
— كانت ممثلة موهوبة .

« كيف يمكن الجمع بينهم ؟ على أي نحو ؟ أولغا ، ليوسا ،
فالتين . . . أين الصداقة ، أين الرابطة ؟ أين الحيط المنطقي ؟ أولغا
المحافظة ، المرأة القديسة ، وإلى جنبها ليوسا ذات الأنف الحاد ،
الفئة المحدودة ذات الحرارة السخيفة . وماذا يجمع بينها وبين فالتين
الجلدي بصورة مفرطة ، والمنغلق على نفسه ؟ الشهوة الجسدية ؟ » .
— إنني أشفق عليها كثيراً — كررت ليوسا بهمس ، وقد أحنت
رأسها — كما أنني آسفة عليها ، فياتشيسلاف أندريفيتش . . .

قال فالتنين مكفهراً :

— ليوسا ، ماهذه العواطف ! استهلاك فارغ للمخلايا العصبية .
وقع حادث أليم ، ومثله تقع مئات الحوادث كل يوم في موسكو وحدها .
— لا تصلر الأوامر أيها الخطيب ، أنت لم تصبح زوجاً بعد !
— تدخات ثانيا بمشاكسة — ليودميلا فاسيلفنا نفسها تعرف متى عليها
أن تستهلك خلاياها العصبية ، ومتى لا تستهلك . أي قائد عسكري
ظهر !

— كم هذا غامض ، كم هذا وحشي ، كم هذا سخي
قالت أولغا بحركة من شفيتها ، وضعت المعلقة على السماط بصمت ،
وشعر كريموث بألم في قلبه من معاناتها الخفية الصامتة .

— أختي العزيزة ! أنا منذ طفولتي ، أقف ضد المواعظ والتعليمات
السخيفة ، وهذا أمر عليك أن تعرفيه جيداً . إنني أؤيد الحرية الكاملة
للشخصية — اعترض فالتنين ، ثم قال ، مخاطباً ليودميلا ، وقد بدا
أخرقاً ، طويل الرقبة ، مهموم الوجه — اخاعي النظارة ، إنها تضايقت .

فخاضت النظارة ، باذعان وطاعة ، أما هو فقد مسح لها جبينها
ونخلها بعناية ، دون أن يستحي من أحده ، وأعاد المنديل إلى جيبه ،
وقال ببرودة ، وهو ينظر إلى أغصان أشجار البتولا ، المتكسرة أمام
النوافذ المفتوحة على الشرفة :

— لقد تذكرت ليوسا فياماك الأخير ، يا أي . وأنا أيضاً كنت
أفكر به . هل تريد في عصرنا الدرائعي هذا ، أن يفكر الناس ، وهم
كالنمل الضعيف العاجز ، بمعنى الحياة ، بالجمال ، وبنفوس بعضهم

بعضاً . هل تؤمن بفكرتك إلى النهاية يا أبي ؟ وهل تعتقد جداً ، أن التقدم الأخلاقي أقوى . من التقدم التقني ؟

— آه ، لقد بدأت الفلاسفة اللعينة ! — قالت تانيا ، وضربت كفاً بكف بامتعاض — كان صامتاً دون همسة ، فأصبح ثرثاراً لا يحتمل ، مناقش ومجادل ، لا يسمح لأحد بقول كلمة ! فاق رؤوس الجميع برثرته !

— تانيا . لا تزعجينا . مداخل الفلاسفة اللعينة هنا ؟ إنني لم أر أبي منذ فترة طويلة .

— لم تعط لأحد معرفة الحقيقة الكامنة عن نفسه — قال كريموف والتفت نظراته بعيني أولغا المتوسلتين — والإنسان ليس إنساناً إلا لأنه يعيش بين الناس .

سأل فالنتين بعناد :

— لكن ، ماذا يكمن في نفوس الناس وأعماقهم : الخير أم الشر ؟

— لا تنتظر فرحاً مبتدلاً : الخير والشر معاً . الوقت لا يرحم الناس . تصور حواراً ذاتياً ، بين المرء ونفسه : « لقد أصبحت إنساناً آخرأ ؟ » — « لا ، لقد بقيت كما كنت سابقاً . العصر تبدل — وأنا أصبحت إنساناً آخرأ » : الناس يغيرون العصر ، والعصر يغير الناس .

— لهذا ، يا أبي ، أنا مقتنع بأن التقدم الروحي عاجز وضعيف أمام التقدم التقني . وجميع محاولات المفكرين المتشعبة لإدخال عاطفية الماضي الأخلاقية إلى القرن العشرين التكنولوجي هي محاولات عابثة . إن هذا ليس استهتاراً ولا مجوناً يا أبي . على المرء أن يجتاز إمتحان الشيع

والرفاهية ، وهذا لا يمكن اقترانه بالحياة الروحية . السيارات والآليات بحاجة إلى بزين ، وهناك حاجة عامة إلى الوقود — هذا يعني أنه يجب استخراج النفط من باطن الأرض . أعمال البناء بحاجة إلى أخشاب ، إذن من الضروري قطع الأشجار والغابات . لا يمكنك خياطة جاكيت وبنطال من روح . . .

— إن جرأتك ، يابني ، هي مثل من يريد أن يرى الملك العاري لابساً .

— أتقصد التقدم التكنولوجي ؟

— وثمة ناحية أخرى هي معنى الحياة البشرية ، التي لا نود أن نراها ماركاً عارياً .

— لو كان الإنسان خالداً ، لما فكر بمعنى الحياة ، يا أبي . والحواد لا يدمه للإنسان إلا التقدم التكنولوجي ، التكنولوجيا ونشرها ، وليس إنجيل الأخلاق ، أو ما يدعى بالروح .

— أنت لا تزال فتياً ، يا فالنتين . والإنسان أحياناً يحتاج إلى حياة كاملة ، كي يدرك ، أنه عاش حياته بلا معنى .

— مفارقة ، مفارقة .

— المفارقة أحد أشكال الحقيقة . لأود أبداً ، يا فالنتين ، أن تميش حياتك تحت شعار التقنية التي تقرر كل شيء ، كما يُزعم . بهذا الصدد ، إن التقنية ، « كاميرتك » السينمائية ، لا تقرر شيئاً ، إذا لم تخدمها ، ولم تخدمك بصورة رشيدة .

— أبي ، لن أعيش حياتي بلا معنى .

— كم هذا الحديث غامض ، كم هو سخيف ! — كررت أولغا بذهول ، والتقت نظرتها بنظرة فالتتين ، فسألته بصوت خافت : — الأفضل ، أن تحدثنا ، كيف ستعيش أنت وليودميلا . من أية موارد ، من أية أموال ؟ أنت لم تنهي دراستك الجامعية في المعهد ، وعليك أن تدرس عامين آخرين . . .

صمت فالتتين بانطواء ، وسكتت أولغا .

— أولغا يفغينينا — راتي الشهري مائة وأربعون روبلاً — قال فجأة لودميلا بصوت مستاء — ثم أنني أستطيع أن أمارس الخياطة في البيت . وأستطيع أن أحقق دخلاً أكبر بكثير . وهذا يكفيني الآن . سوف نعيش عند والدتي . . . لثلاثتنا غرفة مساحتها ثمانية عشر متراً مربعاً . صحيح ، أن الشقة مشتركة مع جيران . أنت لا تعارض ، أليس كذلك ؟ أنا أعرف أنك لا تمنع .

وربتت بصورة خفيفة على يد فالتتين ، وقد عرف كريموف من ايماءة رأس ابنه بالموافقة ، أن الإرادة غير الملحوظة لهذه الفتاة ذات الأنف الحاد قد سيطرت على ابنه بسلطة واضحة ، مخففة من عناده ، ومخضعة لإياه ، وممسكة بقدرته على المعارضة الدائمة .

— ألستما مبكرين في تقرير مصيركما ؟ — سألت أولغا بعتاب هادئ . — لماذا تسرعان ؟ أرجوكما ، فكرا جيداً ، أنتما الاثنان . فالتتين ، أنت إنسان عاقل ، وأعتقد أن المستقبل ليس عندك سيان . — ماما ، علينا أن نعيش حاضراً أيضاً ، — اعترض فالتتين — المستقبل غامض ومجهول . إنه خلف سبعة أقفال .

— لكن هذه الأقفال ، عليك أن تكسرها أنت يا بني — قال
كريموف .

— سأكسرها في الوقت المناسب .

كان الجو الحار ، الخالي من أية نسمة هواء ، مسيطراً على الشرفة
المحاطة بالارتخاء بعد الغداء في الحديقة ، وبصوت رتيب ناعس طنت
زرقطتان حول صحن توت العليق الحامض المهروس ، والتصق القميص
الرطب من العرق بظهر كريموف ، وكانت تخطر بذهنه من حين
لآخر ، فكرة غبطة « الدوش » الماطر ، الذي يغسل ذبوله ، وهذه
الوعكة التي سيطرت عليه طيلة اليوم .

— أستمحكم المائدة — قال أخيراً كريموف ووضع المنديل
الورقي على المائدة — أولاً ، أتعرفين ، لازلت أشعر بتعب السفر ،
لذلك ، إنني أتمنى الدوش ، والمخدة الرطبة تحت رأسي .
وقبلها على صدغها ، شاعراً بذبذبه ، وخرج متنهداً .

* * *

بعد أخذ الدوش المنعش في الحديقة ، وبعد طعم الماء الحديدي
المطري الدافئ ، والرطوبة النهرية الدافئة ، والقضبان الخشبية الرطبة
لقمرة الدوش ، بعد هذه الغبطة كلها ، استلقى كريموف على السرير
في مكتبه . كان الهواء المنعش يتسلل من الحديقة ، حيث خفت حدة
القيظ ، واقترب الوقت من المساء ، وهنا ، في العلية المفتوحة للهواء ،
سمع في عزله المتأمل صغيراً خفياً لصفارية خلف باب الشرفة .

— أبي ، أأست نالماً ؟ ساعنني ، إن أيقظتك . نحن سنغادر البيت . . .

— هذا أنت يا فالتين ؟ وعلام أساعحك يا بني ؟
— لا ، أردت أن أقول لك . . .

وعاد كريموف على الفور إلى الواقع ، من حالة الاستراحة والاسترخاء تلك ، حيث كان من الممكن أن يستعرض ، كما في صالة سينمائية فارغة ، الشريط السينمائي لهذا اليوم ، ونهض من السرير وقال بصوت عادي :

— ماذا تريد أن تقول ؟ قل ، يا فالتين ، أنا لم أنم ، وأنت لم توقظني ، ولا حاجة للاعتذار .

كان المكتب كله ممتلئاً بدخان ذهبي ، عسلي ، من الشمس قبيل الغروب ، وكان زجاج رفوف الكتب يلمع كالكهرمان ، وكان الهدوء ينبعث من النوافذ . وفي هذا الدخان الشرق كان يقف فالتين قبالة السرير ، ممسكاً بيده رداء ليودميلا وصندلها (يبدو أنه دخل من أجهما) ، وقال بصوت جهوري ، بشيء من الارتباك :

— نحن سنسافر ، حان الوقت . موعد الحافلة الكهربائية المسائية بعد عشرين دقيقة . ليوسا تستحي منك ، وقد أرسلتني لأحضر لها حوائجها .

« عجباً يا ترى ، هل كان لدى فالتين شعور مشابه لما شعرت به في أعوامه ، عندما استيقظت بعد الاستطلاع فوق عنبر الحشائش المجففة ؟ في تلك الأثناء ، رأيت نجماً خفيفاً أزرق اللون فوقني ،

وأذكر ، أنني فكرت ، أنه في ذلك العالم البعيد ، تنتظرني المرأة ،
الإنسانة التي سوف أحبها طيلة حياتي .

— مفهوم — قال كريموف ، وهو يتأمل وجه ابنه النحيل ، محاولاً
العثور على ملامح تشبهه ، تشبه كريموف الشاب ، وطلب منه قائلاً : —
اجلس دقيقة . ماذا أردت أن تقول لي ؟

جلس فالتين بشيء من التردد على حافة السرير ، وقد كوم
الرداء فوق ركبتيه ، دون أن يترك الصندل ، ونظر نظرة جانبية ،
بعينه اللتين كانتا تحشيان الالتقاء بنظرة والده ، باتجاه المكتب ، حيث
كان يرقد شعاع الشمس الدخاني ، كالذهب الهاديء ، ثم قال متعثراً :

— أتعرف ، يا أبي ، لقد ذاع عندنا في المعهد خبر ورطتك في
الاستوديو . أجل ، بصورة عامة . . . وكذلك موت الممثلة التراجيدي . .
أنا أفهم أن لك أعداء ، وأشخاص لا يريدون الخير لك . — وتجهم
فالتين ، ممسكاً الصندل بيد ومتابعاً تكويم رداء خطيبته فوق ركبتيه
بيده الأخرى دون أية ضرورة . — كل ما أرجوه ، ألا تصل الشائعات
والنمائم إلى أمي . . .

— الشائعات والنمائم ؟ لقد حدثني تانيا عن الشائعات التي سمعتها .
فماذا تقصد أنت ؟

— هراء كامل — قال فالتين بغضب — هرطقة ودناءة في غلاف
ملون من الابتهاج الشرير المتبدل . إن ضيقي الأفق من السينما « الوطنية »
يثرثرون عن علاقتك الخاصة المتميزة بالممثلة المتوفاة . ضجيج فارغ
لا يساوي قرشاً واحداً . الحقيقة ، بالنسبة لي ، أنك لست دونجواناً ،
وتحب أمي . لكنها سوف تتألم إذا ما سمعت بالشائعات الشامتة .

ومن خلال إنارة المكتب الصفراء ، رأى كريموف على مقربة منه يد ابنه الكبيرة ، الحشنة بفتوة ، الشبيهة إلى حد مريع بيد أخرى ، وكأنه حلم بها ، لأنها يد والد كريموف ، عندما وصل إلى البيت صباح يوم ضبابي ، تفوح منه رائحة فحم القواطر البخارية ، من أيام شهر شباط . لأنها اليد التي ربت على كتف أمه السعيدة ، لكن هذه اليد ، الآن ، تكوم هذا الرداء النايلوني الدارج . ذهل كريموف من قوة مورثات الجلد ، وشعر بفضول نادر نحو فالتين ، الذي كان يتميز عن الجميع في الأسرة بعناد « العقارب » ، وقال بصوت هامس :

— شكراً يا بني . أنت على حق . ولكن ، كيف أحوالك أنت ؟
قل لي برجولة : هل كان اختيارك صحيحاً ؟ ألن تفرقاً بعد عام ، حيث لن يكون بينكما أي شيء مشترك ؟

— وهل المسألة متوقفة على ذلك يا أبي ؟ . . . حسناً ، أنا ذاهب ، إلى اللقاء ، اعذرني ، إن كنت . . .

— بالنسبة للاعتذار ، لا لزوم له ، يا بني . قليل من الناس يعرف من يجب أن يعتذر من الآخر . . . ومن أجل أي شيء ، ولماذا .
— أنا أعرف أن المصادفة هي التي تسيطر .

أحنى فالتين رأسه لأبيه مودعاً ، بتكلف ، (لم يجرأ على تقبيله) ، واتجه نحو الباب بصورة منحرفة ، حاملاً الرداء والصندل بخنوع . وبكتفيه الضيقين ، ومشيته ، وببنطال « الجينز » المهترى الذي يرتديه ، انه كله قريب وغريب ، وفجأة شعر كريموف بروحه تتمزق شفقة عليه . « انني لا أعرف ابني » ، فلدة كبدي . فهل يحق لي أن أسدي النصيح له ؟ » .

غرق ثانية في وحدته ، في صالته السينمائية الفارغة ، ورأى في الأعلى وادياً ، ودخان الحدائق الشمسي ، والكروم ، وسقوف البلدة القرميدية ، وهب نسيم دافئ من الوادي الصباحي ، نسيم خفيف عذب . . . « وأين كان هذا ؟ في العام الخامس والأربعين ، في النمسا ؟ » . ثم سمعت أصوات من الحديقة ، فخرج إلى الشرفة بصعوبة . كانت الشمس تميل إلى المغرب ، خلف أشجار الصنوبر . وكان يسيطر ، في كل مكان من الحديقة ، السكون ، والكسل المخدر ، كان كل شيء عبثاً ، ذكي الرائحة ، منهكاً ، وقد أخذت الطيور المتعبة طيلة اليوم ، إلى السكينة وامتدت الظلال على العشب تحت أشجار التفاح . وفي هذا الهدوء الصيفي الساكن ، قبيل حلول البرودة والشفق ، كان يقف فالتين أمام الخوخة ، وهو يكاد لا يرى بين أزهار البنفسج الطويلة ، ماسكاً بيده حقيبة سفر صغيرة ، تخص خطيبته على الأغلب . أما هي ، فكانت تخطو برشاقة ، بقدميها الرفيعتين ، منتصبية القامة ، كانت تقترب منه ، وتراقبها أولغا ، التي تصغي إليها ، وتبعد شعرها البني الطويل عن خديها إلى الخلف .

— إلى اللقاء يائي — صاح فالتين ، ملوحاً دون اهتمام بيده الكبيرة (« يد جده ») ، وهنا نظرت إليه ليودميلا ، وتهللت للحظة تعابير وجهها ، ذي الأنف الحاد ، ولوحت بيدها أيضاً باتجاه الشرفة ، متناسية أولغا ، ناظرة إلى العلية بقلق .

« إن أولغا لم تقبل بها . إنها خائفة ، متكدرة من قرار فالتين » — فكر كريموف ، وليسب ما ، قارن ليودميلا الدقيقة الصغيرة ، الشبيهة بالدمية ، بقوام أولغا الفتي ، الممشوق المتزن ، بتقشف ممارسي اليوغا ،

لإنها أكبر من الخطيئة بمرتين ، وبتسريحتها الأنيفة المتميزة ، التي أخذت
تسرح بها شعرها في السنوات الأخيرة . وبعد مقارنته هذه ، شعر
كيف تقطع الشفقة روحه بصورة حادة ، على أولغا ، على ليودميلا ،
على فالتين ، وهو ماسع به قبل بضعة دقائق ، عندما خرج ابنه من
مكتبه ، إنها شفقة ممتزجة بالحب ، بالخوف والهاجس ، تشبه الحنين ،
تشبه الشعور بالذنب بحقهم جميعاً ، لأنه لم يعرف أحد منهم نفسه ، ولم
يعرف أحدهم الآخر .

شاهد كريموف من الشرفة ، أولغا ، وقد ودعت فالتين وخطيبته ،
وعادت إلى البيت بخطوات سريعة ، وهي تشد تنورتها . كانت تسير ،
خافضة رأسها إلى الأسفل ، فنادها مأخوذاً بنفسه من المشاركة في
المعاناة .

— أولا !

وركض على الدرج ، متجهاً إلى الشرفة التي وصلت إليها أولغا
من الخديقة ، فعانقها ، ودفنت أولا وجهها بخضوع إلى كتفه ، كما لو
أنها تطلب الحماية .

— أولا ، نحن هنا ، غير قادرين على عمل أي شيء . لقد قرأنا
بنفسيهما ، كما فعلنا نحن ، في ذلك الحين .

— أخشى أن أبقى وحيدة ، عندما تسافر . — همست أولغا ونظرت
بعينين غمليتين سوداوين . — انني أخاف عندما أكون وحيدة في
البيت ، وأطفالي بعيدون عني . وأشعر بقلق كبير ، عندما ينقضي النهار
ويحل الظلام . لا أريد أن ترحل إلى أي مكان . . .

أجاب وهو يقبلها من طرف أنفها :

— ياغببي ، الناس الموسوسون يخافون الظلام لأن الخوف من الظلمة كامن في دمائهم ، لكنك امرأة مثقفة .

— هذا شيء آخر ، فياتشيسلاف — اعترضت أولغا — نحن نعيش في رفاهية مقلقة . شيء ما قد يحدث .

— لماذا تحدثت فجأة عن الخوف ؟

— إن هذا شيء أكبر من الخوف وأعظم ، إنه الرعب والدعر عشية ما قد يحدث . . .

— لا أفهم شيئاً .

— انني خائفة .

— حبيتي أولاً ، مم أنت خائفة ؟

— انني أخاف من كل شيء : من هذا الحر الغريب ، الذي لم يحدث مثله منذ مائة عام ، من ظلمة الليل المرعبة ، من الهدوء والسكينة في مكتبك . يحل هدوء مريع هنا ، عند الفجر . نحن نعيش في توقع رديء ، سيء . أعرف أن لديك ورطة ومشاكل . وفالتين يدفعني إلى اليأس والقنوط . أوه ، ياإلهي ! وأية أقاويل لا يطلقونها عليك . وكم اخترعت من أعداء ومبررات . أخشى أن ينهار فجأة كل شيء . لم أعد أعرف ماذا علي أن أفعل ، هل أحبك أم أتوقف عن حبك ، — قالت بشيء من المزاح المرير ، ومرت باصبعها على شفثيه ، — ربما يكون كل شيء قد انتهى بيننا ؟

« لا ، لم تكن هناك رفاهية متألفة في حياتنا المشتركة . انها لم تكن واثقة بي . وكان هناك دائماً أثر لا ينطفأ ولا يخمد للقلق والخوف » .

— أولاً ، أحبك الآن ، كما أحببتك في العام السادس والأربعين —

قال كريموف بصوت أجش — هل تصدقين هذا ؟

— بصعوبة كبيرة .

— عبثاً يا أولاً .

* * *

المفصل الثامن

غفا كريموف في وقت متأخر .

فمنذ المساء وحتى ساعة متأخرة من الليل ، كان يقرأ يوميات ليف تولستوي ، التي كانت متنفسه الوحيد وهاجسه ، والتي اكتشفها قبل عشر سنوات ، عندما كان ساذجاً ، جريئاً ، سريع التصديق وخالداً ، لأنه لم يكن يتوقع في تلك الأثناء كثيراً مما عرفه وأدركه بعد بلوغه الخمسين عاماً . إنه لم يكن يفكر بصورة جدية ، أنه في الموعد المحدد ، سوف يكون عليه الخروج في المحطة الأخيرة ، وأن يترك إلى الأبد ، في عربة القطار الشتوية المريحة والحزينة ، حقيقته كلها ، التي تعب من أجلها طيلة حياته ، والتي ستكون غير لازمة ، كما يبدو ، للمستقبل القاسي الذي لا يرحمهم ، بعقلانيته وعصره التكنولوجي والآلي لاسيما وأن ذاكرة الناس هي بعد غير ثابت ، متحول .

غير أنه كان يعثر في كل مرة ، في اليوميات ، على ما كان يطمئن تولستوي من قناعات ، ويثير في نفسه إيماناً راسخاً بكمال العالم وسيره نحو الأحسن عن طريق التوجه إلى الذات ، الاستبطان ، من أجل ازدياد حب الإنسان لأخيه الإنسان ، ليس الحب الحسي ، البدني ، بل الحب الروحي . وكان يرى في عقلانية هذا الحب العارية ، بل

القاهرة ، مفتاحاً إلى الحياة الأخلاقية كلها للإنسان العظيم في أعوامه الأخيرة . وعند قراءته في الصفحة التالية العبارة المتعاطفة مع البشرية كلها : « كيف يمكننا أن لا نحب إنساناً آخر ، مع أننا نعلم أننا جميعاً محكومون » ، كان يعود من جديد إلى اليوميات حول العلم والفن ، اللذين « لا يمكنهما أن يصبحا شيئاً آخر إلا في حال الحياة الأخوية » .

« ماذا كان باستطاعته القول ؟ - فكر كريموف ، واضعاً الكتاب على صدره ، متأملاً في السقف الدائرة الخضراء المنعكسة من مصباح الطاولة المنار على طرف السرير . - للأسف ، لم يحدث ازدياد الحب ، ولم تحصل الحياة الأخوية ، رغم أننا كنا ننتظرها بجنون بعد الحرب . فالشعب وإغراء الخيرات المادية لم يجعلا الكثيرين منا أحسن مما كانوا . فمن المذنب ؟ نحن جميعاً . لقد وجهنا عنايتنا أكثر مما يجب نحو الحياة السهلة وتناسينا الرئيسي : في سبيل أي شيء أعطيت الحياة . أجل ، هنا ، في الصفحة الثلاثين . . . يالها من كلمات دقيقة ، معاصرة : « إن الخير الذي يظهر الناس في شهرهم ، يعدونه شراً بصدق . وهكذا حتى أن الرحمة ، والاستكانة والحب - كل هذا يبدو لهم شيئاً مرفقاً ، مكروهاً ، شائئاً ، مثيراً للاستياء » . ولماذا لم يحدث الكمال ، والتحسين المنشود ؟ هل بسبب الحرب ؟ الحرب التي أسقطت الجزء الأفضل من الأمة ؟ إن الأصح هو أننا حتى الآن لم نسد الثلثة . أين اختفت القواعد الأخلاقية الأخرى ، التي لا يمكن تصور روسيا بدونها ؟ وهاهي كلمات القلق وعدم الاطمئنان التي يكتبها : « إن ما يدعونه بالمدنية هو نمو البشرية . النمو ضروري ، لا يصح أن نقول عنه جيداً أم سيئاً . ففيه الحياة ذاتها ، مثله مثل نمو الشجرة . بيد أن غصن الحياة أو قواها النامية في الغصن ، ليست محقة ، لأنها ضارة ، إذا كانت تبتلع قوة النمو كلها » . وبعد

ذلك ترد عبارة أشد بأساً : « متى سيكون في الناس نفس ماهو في الطبيعة ؟ في الطبيعة صراع ، لكنه صراع شريف ، بسيط ، جميل . أما هنا ، فهو صراع ذني . لأنني أعرفه ، وأكرهه ، لأنني أنا إنسان » . أما في يوم السادس والعشرين من تموز عام ألف وثمانمائة وست وتسعين فثمة عبارة أشد بأساً ومرارة : « ومن جديد ، أصلي ، وأصرخ من الألم . لقد التبس علي الأمر ، وتعدت ، أنا نفسي لا أستطيع ، لكنني أكره نفسي ، وأكره حياتي . . . » .

هذه الكراهية نحو ذاته ، والتعرية الحادة ، وعدم القبول بالردىء والمزيف ، حيث « يتألق الجميع ، ويأكلون ويشربون ، ويطالبون » دون أن يعرفوا ضحايا الشعب في سبيل ذلك ، والأسى على ضياع أفراح الشباب ، ومرح الشباب ، والخوف من « الانقلاب » ، والانتظار الهاديء للموت ، وعدم الاستقرار اليومي في الأسرة (« . . . لا كرامة لنبي في بلده . . . ») ، الذي نشأ نتيجة عدم التفاهم بينه وبين الأبناء ، الاستكافة ، ثم فجأة البهجة أمام الوجود (« الحياة ، مهما كانت ، هي خير ، لأسمى منه ») — إن هذا كله لم يكن بالنسبة لكريموف مجرد قراءة . بل كان لذة خاصة ، كان ألماً ، ومشاركة في تلك المأثرة المؤلمة ، والصادقة إلى أقصى حد ، المأثرة الأرضية والسمائية في الوقت نفسه ، حيث أراد المعبذ العظيم المتطوع أن يأخذ على عاتقه مسؤولية جميع النقائص المشتركة والشهوات والطرق المزيفة والمصائب البشرية ، وأن يسامح غير محبيه ، مفكراً بهم بمحبة ، وأن ينقذ العالم . . .

بألم ولذة معاً ، مرتوياً بالتعرية الروحية لفكرة غيره ، ومناقشاً عقيدة النبي إلحاحاً والمتناقضة ، وأحياناً بالوقاحة المعاصرة المدعية بمعرفة كل شيء

(التي كانت تعيش فيه بنجل في تلك اللحظات) ، بدأ كريموف يكره طموحه الذاتي وعدم صدقه ، ويصفح عنهما من بعض الجوانب . كان يكره الزيف المتبادل للرفاقية المرغمة ، إعجاب الزملاء المتبادل ، الذي كان يشبه عيداً مزيفاً للنجاح الدائم لدى كل واحد ، تقريباً ، كان يقوم باخراج فيلم صغير مقبول (« آه ، يا عزيزي ، لقد شاهدته ، شاهدته ، إنني عاجز عن الكلام ، أنا نفسي أخرجت مندلي ، عندما ظهر في فيلمك مشهد الهجوم غير الناجح . . . ياله من انجاز ، ياله من قوة ! اسمح لي ، يا صديقي ، أن أعانقك وأقبلك من أعماق روحي ! ») . ولكراهيته محبة الخير المتكلفة هذه ، التي كانت تمثل بصورة متقنة أحياناً وبصورة مفضوحة أحياناً أخرى ، ولكراهيته هذا الشكل المشروع للزلف المأمون ، الذي لايعبر عن حب لموهبة الزميل ، بل عن عنجهية مقنعة وحسد ولا مبالة ، أدرك كريموف أنه قد حدث للكثيرين شيء ما قبل خمسة عشر عاماً أو عشرين عاماً ، حدث لهم شيء مهدم ومدمر لأهم ماعنده ، لأهم ماعند كريموف (« الحالم ، المثالي ») ، — شيء دمر الأمل بالأخوة ، الأمل الضروري للجميع ، الذي ولد بعد الحرب واستبدل بصورة تدريجية ، غير ملحوظة بالإهتمام والتطلع إلى الخيرات المادية .

« لقد بلغت المدينة ازدهاراً لاسابق له في النصف الثاني من القرن العشرين . . . » ، « لقد ألبس الإنسان الطبيعة لحاماً . . . » ، « نحن نعيش في عصر عقلاني ، عصر تقدم تقني لم يسبق له مثيل » — تذكر كريموف ، متغضناً ، كلمات المناقشين والمشاركين في ندوة باريس حول فيلمه ، وأثناء تذكره تصوير البعثة السينمائية التي قادها في العام الماضي إلى نهاية

العالم، إلى الشمال ، إلى بيتشورا ، حيث كان يصور اللقطات الأخيرة
من فيلمه « الحرب غير المعلنة » . . .

* * *

اقترب المركب ، هادراً بمحركه من حين لآخر ، من الأطواق
المثبتة ، الموزعة على عرض نهر بيتشورا ، حيث كانت أربعة زوارق
تتمايل على الموجة القائمة ، وقد أخرجت الشبكة الثقيلة المبللة وانتشلتها .
كانت ألبسة الصيادين المطاطية الصفراء تلمع بصورة دسمة ، لزجة ،
وكانت فلانسهم مائلة على الجوانب ، وقد ارتدى الصيادون القفازات
المطاطية على أيديهم . كانوا يعملون بسرعة ، مطوقين ومضيقين الدائرة
حول كائن ما ، غير مرئي بعد ، في الماء الهاديء ، القاتم . وفجأة
اندفعت نار بيضاء قوية بين الزوارق — ولعبت فوق الشبكة عدة شرارات
من البرق . أدى انفجار الماء المفاجيء هذا إلى إحداث نوافير من الرذاذ
في المسافة المتوسطة المحاطة بالزوارق . كان هذا الانفجار بمثابة إشارة
ملتقط ، حدثت إثرها موجة ثانية من شرارات البرق ، وفجأة أخذ
الماء كله عند الأطواق يضيح ويهدر ، وظهرت خطوط متعرجة فضية
من الأسماك الهائجة الكبيرة ، التي سيطر عليها الذعر .

كانت الأسماك تضرب بأذيالها وتندفع ، وقد وقعت في الشباك ،
كانت تسعى باضطراب إلى الإفلات من الشباك والقفز إلى الحرية من
الأسر ، من الدائرة التي كانت تضيق باستمرار . هذه الإناءات الجميلة
والذكور القوية من الأسماك ، التي أبدعتها يد الطبيعة ذاتها من الفضة
الخالصة ، المشبعة بغريزة الحياة الأساسية — ألا وهي استمرار النوع ،
والتي أوقفتها قوة لا ترحم على الطريق نحو تجديد الحياة — كانت الشباك

ثغطي نهر بيتشورا على عرضه من الضفة إلى الضفة المقابلة . آنذاك ،
كان يبدو لكريموف ، وكأنه يسمع نداء واستغاثة ، طلباً للعون ، وكأنه
يسمع نواحاً وبكاء وأنيناً ، وتضرعاً ، طلباً للرحمة . وهذا ما كان
يسمع غالباً ، بالقرب من غرف الغاز في معسكرات الاعتقال النازية ،
التي اقتيدت إليها النساء العاريات والأطفال ، وكان معروفاً لماذا .
وإلى أين . . .

— نحن نقلها بالتيار الكهربائي في الشباك — قال لكريموف رئيس
فرقة الصيادين ، وهو شاب أسمر اللون ، نحيف ، يضع حزاماً في
وسطه ، ذو عينين زرقاوين ضبابيتين ، يشبه زير نساء . — انظر
كيف ، مأخذان كهربائيان وانتهى الأمر . هكذا ، أكثر إنسانية .
أما في السابق ، فكنا ننهي الأمر بالعصي ، بيد أنه كانت تسيل دماء
كثيرة !

— تعال ، هيا ! — صاح أحدهم بالقرب من أذن كرموف .
ومن فوق رأسه ، قفز إلى الماء المكتظ جسمان مرنان قويان لفرخين
من سمك السلمون ، وظهر صندوقان معدنيان من الأسلاك . نظر عامل
المحرك ، وهو شاب ضخم الوجه ، نظرة لامبالية إلى السماء الغائمة ،
وأدار المحرك ، فسكن كل شيء على الفور في الماء الذي تحيط به
المراكب ، ولم يعد هناك طرشة ولا ضجيج ولا بريق . رقدت الأسماك
الميتة دون حراك ، وأخذت تتأرجح على الشباك سباتك فضية ، تنظر
بعيون سوداء مدورة إلى السماء المنخفضة فوق نهر بيتشورا ، التي كانت
ترحف عليها غيوم سوداء ، نظر إليها عامل المحرك الذي لا يعرف
الإبتسام ، والذي لم يرتكب أي ذنب سوى أنه قتل الأسماك .

وصلت إلى أنف كرىموف راحة الموت الحديدية من السكون المميت بلحش الأسماك بين الزوارق ، وشعر بتشنج مؤلم دفع به إلى الغثيان عندما فكر ، بأنه في الصباح أكل لحم السلمون المقتول بالكهرباء ، تماماً كما أن شيئاً ما متوقعا سوف يأكل بنهم لحوم جميع هؤلاء القتلة من الذين كانوا الآن في الزوارق (سوف يأكل لحمه أيضاً) — لأن قانون المراحل للسلمون والديدان والإنسان هو قانون واحد في الطبيعة ، وليس هناك من اختلاف سوى في مراحل السلم البيولوجي ، مع التساوي التام للجميع أمام الخلود . بيد أن الاستهتار الواهي ، والمنقذ أحياناً ، الذي لجأ إليه طلباً للعون ، لم يقدم له تفسيراً معقولاً لهذا التطرف من جانب الإنسان .

لقد جاءت سمكات السلمون الجميلة هذه من المحيط الأطلسي ، مارة بالقرب من شبه جزيرة كول ، واخترقت حصار الشباك الأول الذي نصبه النرويجيون ، وسارت إلى نهر بيتشورا ، باتجاه منابعه ، إلى الأنهار الصغيرة ، حيث كان على الذكور أن تحفر بأنوفها في الأماكن الضحلة حفراً في الحصى النهري ، وتلقح فيها البيوض التي وضعتها إناثها ، ومن ثم تغلق هذه الحفر ، وبعد أن تخور قواها تموت ، أو أن تنحدر من جديد إلى البحر ما إن تدب في أبدانها الحركة . أما الأسماك الصغيرة التي تخرج من البيوض ، فقد كان عليها بعد ثلاثة أعوام أن تتجه إثرها ، كي تعود بعد ستة أعوام ، متبشوقة إلى الحب ، وتقع في الأسر ، ومن ثم على « الكرسي الكهربائي » ، الذي اخترعه الإنسان المتفن في أساليب القتل ، لا من أجل إنقاذ الناس من المجاعة ، بل من أجل تزيين « الموائد الرفيعة » في مطاعم المدن الراقية والمآدب الخاصة .

« عبثاً أتذكر كل هذا ، فليس هناك من جواب على اللاعقلانية
المبرجة ، التي سوف تبديد كل ما هو حي ، بعد عشرين عاماً ، حتى في
أقصى الشمال . لقد قال رئيس فرقة الصيادين ذو العينين ، الشبيهتين
بعيني زير النساء : « بعد عشرات السنين لن نعث على أصغر سمكة ،
مهما حاولنا . . . إننا نصطاد الأسماك بطريقة متقدمة . كما هو الأمر
بالنسبة للغابات : نقطع ونقطع » .

بيد أن ما أذهل كريموف أكثر من أي شيء آخر ، صفرة الموت ،
وريح المقابر التي هبت على تلك الأراضي ، حيث كانت الملاذ الأخير
لحقوق * الذي لا يجاري .

لقد رأى هذا بعد ساعة من نهر بيتشورا .

— انظر إلى الأسفل ! هناك مدينة بوستوزيرسك * * .

— أين ؟ ، إنني لأرى شيئاً !

— في الأسفل ، في الأسفل ، مدينة بوستوزيرسك

تعلقت الطائرة العمودية في الجو فوق الأرض ، باحثة عن نقطة
الإرتفاع المطلوب ، ولكن ، هناك ، في الأسفل ، في الهوة المشمسة ،
لم يكن هناك أي أثر للمدينة — هناك ، وسط المنظر الكثيب للسهوب ذات
الشكل الواحد ، كانت تلمع وتتفجر مياه البحيرات الشبيهة بالمرآة ،

* حيقوق : القمس حيقوق (١٦٢١ - ١٦٨٢) أحد كبار رجال الكنيسة
الأرثوذكسية . تزعم حركة الانقسام فيها . ولوقوفه ضد البدعة الكنسية البطريرك نيكون
نفي إلى سيبيريا عام ١٦٥٣ ، ولم يسمح له بمغادرة منفاه إلا في عام ١٦٦٣ . بعد سقوط
البطريرك نيكون .

* * بوستوزيرسك - وتعني بالروسية البحيرات الخاوية .

— المترجم —

في لعبة عابثة ، وكانت ترقد حولها أعشاب التوندرا الميتة ، السمراء الداكنة ، التي تقبض النفس بقنوط مسافة وحشية خارج الزمن .

وبعد أن أصبحت الطائرة معلقة بين الشمس والأرض زار المحرك بأنين ، وبدأت الطائرة تنخفض بسرعة ، وتهبط باتجاه الأرض ، وظهرت من النافذة الأعشاب الجافة وقد تمايلت بصورة حادة ، واستسلمت تحت رياح المروحة ، وسارت الأمواج بغتة فوق البحيرة القريبة . وصمت المحرك . وفي السكون البدائي الذي يصم الأذن ، أفاق الجميع وخلعوا الأحزمة ، ونهضوا من أماكنهم ، وبصورة مترددة ، غير واثقة ، بدأوا ينزلون على السلم الحديدي ، الذي نصبه الملاحون من على ظهر الطائرة العمودية إلى الأرض ، ذات التلويحات البارزة . أخذ ينظر كريموف ، الذي بهرته الشمس الساطعة ، واحتضنه السكون المتدفق من جميع الجهات ، والهواء اللذيذ المنعش من الأفق اللامحدود ، باحثاً عن علائم حياة الإنسان ، غير مصدق أن هذا المكان هو مدينة بوستوزيرسك .

— وأين المنازل والبيوت ؟ أين كان الناس يعيشون هنا ؟ — سأل كريموف مدير التصوير بذهول — يالها من كآبة . . . أليس كذلك ؟

قفر يباب ، يوم شمالي مشمس ، ريح فوق البحيرات المسطحة ، فوق هذا المتسع الرحب البدائي ، الذي نسيه الإله وأبقاه على بساطته البدائية وقدمه . وفي هذا المكان ، حيث كانت تقوم ، في وقت من الأوقات ، منازل وأبنية وطيدة بظلالها الفسيحة ، وآبار ومخازن ، ومحلات تجارية ومستودعات ، ومدرسة — حل التدمير القاسي الرهيب ، فلم يبق أية علائم تدل على الحياة . وكان من المحزن للمرء أن يرى

الأكمات المعشوشبة للقبور القديمة ، ورفات الصليبان شبه البالية ، وكان يبرز بصورة غريبة صليبان جديدان ثابتان ، دهنا باللون الأزرق الفاتح حديثاً . من دفن هنا ياترى ؟ وكيف نقل إلى هذا المكان جثماننا الميتين على بعد مئات الكيلومترات من توندرا الشمال ؟ وماهو الهدف من دفنهما ، هنا ، حيث لاوجود لأي مسكن ، ولا لصوت لإنسان ؟ ماعدا الشمس والبحيرات ، والأجمات والرياح . . .

اقرب كريموف لإثر مدير التصوير ، وقد تعثرت قدماه بعظم بين الأعشاب ، من حجر رمادي مرتفع على رابية مقبرة ، وقال :

— صور هنا كل شيء .

— اذن ، هو ؟ هذا هو المحروق بالنار ؟ — سأل مدير التصوير ؟

— أجل ، هو .

— كان هذا نصباً للقمس حبقوق ، محب الحقيقة المتحمس ، الذي أحرق في بوستوزيرسك بأمر القيصر في القرن السابع عشر ، ومات حرقاً بالنار ، متألماً ، متعذباً لتمرده العنيف على البطريك ليكون الجبار .

بالقرب من حجر حبقوق ، وعلى مقعد صغير ، جففته الشمس ، وضعه أحدهم منذ فترة طويلة ، وقد تشقق بفعل المطر والريح ، كانت تلوح جمجمتان صغيرتان ، بلونهما الأبيض ، لطفلين ، كما يبدو ، كما كان يظهر عظامان من عظام القصبة لطفلين ، وضعا هنا لسبب ما ، وربما من القبور المهدامة ، وقد غسلهما الزمن إلى حد البياض .

— هكذا نحن هنا ، نبدو تافهين حقيرين — قال مدير التصوير

وأُنزل بوهن آلة التصوير السينمائية ، ولمس بكفه الحجر الخشن . —
ياله من معذب . ويا لها من قوة وإيمان وقناعة كان يتحلى بها !

— للأسف ، نحن جميعاً ، تنقصنا القناعة ، — قال كريموف .

— نحن ببساطة ، لا نعرف أين الحقيقة — قال مدير التصوير
ساخراً — لقد قايضناها بربطة عنق دارجة ، وبتنورة دارجة ، ذات
علامة أجنبية ملصقة على المؤخرة .

وقفا أمام الحجر ، يقرآن عليه كلمات القمس الصبور ، الثابت ،
غير الراضخ ، الذي لم تمنح له السلطة ، لكنه سمى نفسه إلى الأعلى ،
في سبيل حقيقته وعقيدته ، ضد ألكسي ميخائيلوفيتش ، قيصر عموم
روسيا ، وضد البطريك المتسلط نيكون ، يقرآن عليه كلمات القمس
الذي لم يخضعه العذاب ولم يثنه الموت . وتخيل كريموف ، كما لو أنه
كان مقيداً ، يحترق هنا في عزبة أحرقها السفاحون من جهاتها الأربع ،
وهو يلعن الغادرين وخونة العقيدة ، وأخيراً أصبح واهناً خائر القوى ،
لكن قوته الروحية لم تنفذ ، — وخلع قبعته المصنوعة من الفراء ، ناظراً
إلى الحجر ، يطلب منه في ذهنه ، القوة والنصر في عمله في الإخراج
السينمائي ، عارفاً أن المساعدة ويد العون لن تأتيه من أية قوى ، سوى
قواه الذاتية .

كانت شمس الشمال تبعث الدفء ، وكانت الريح تنعش رأس
كريموف على هذه الأرض الشمالية المهملة ، حيث حلت مقبرة مهملة ،
وسط البحيرات ، مرصعة بالعظام المرمية على التراب ، محل البلدة
الروسية القديمة ، والشوارع الخشبية والأصوات البشرية ، والشباك المعلقة
على الأعمدة .

إلى جانب كريموف ، كان يقف الطياران ، الشابان الجديان ، بصمت ، وقد رفعا قبعتيهما الزرقاوين عن رأسيهما . ثم اقترب عامل اللاسلكي القصير الأشقر ، وقال بحوية ، أنه على مقربة من هنا ، عثر على قبرين منبوشين ، إما من قبل بشر أو من قبل وحوش . كان القبر الأول مليئاً بالجماجم ، بينما وضعت في الثاني أيدي وأرجل—وكأنهم قطعوا أطراف ورؤوس بعض الأشخاص ، ودعوا الناس لرؤية ذلك .

— لا ، رفض كريموف — هذا يكفي .

مضى الطياران وعامل اللاسلكي ، أما كريموف فقد جلس على المقعد بالقرب من قبر حبقوق ، حيث كانت ترقد على مقربة منه جماجم أطفال ، ابيضت من الشمس ، محاولاً أن يفهم سبب وضعها هنا ، على مقربة منه ، من نصير العقيدة ، المتحمس لها .

عندما أخذت الحوامة ترتفع عمودياً عن أرض بوستوزيرسك ، وهي تهلل بمحركها القوي ، سطعت ، كما في السابق ، الشمس القصديرية القطبية ، وتلألأت البحيرات الفارغة ، الميتة ، التي لا يستفيد أحد منها الآن ولا ينتفع ، بلون القصدير ، يحرسها حشد تافه من الصليبان والقبور المنبوشة في هذه المقبرة المهجورة . وكما في السابق ، كان القفر صامتاً بصورة خرساء ، أما الطائرة العمودية فقد اندفعت إلى الأعلى ، بعيداً عن الأرض المكدمة ، المحروقة ، الخالية من أي كائن حي . وعلى رابية شمعة رمادية بلا نار ، كان يقف وحيداً حجر حبقوق ، مذكراً بقناعة الصبور المتحمس المقدسة القوية ، وبقسوة السلطة التي لا تعرف الحدود ، وبتفاهة الجميع ومساواتهم أمام السماء الواحدة والشمس الواحدة . وعندها تخيل كريموف بأنه إذا ما خلعت الأرض ،

ولم يعد هناك تحت قبة السماء ، مثل هذه الطاقة ، ولم تعد هناك روح شبيهة بروح القميس حبقوق ، الذي صمد ولم يعرف الإنهيار ، فستنتهي المدنية وتؤول إلى أن يخلق أحدهم فوق أرض مدمرة ، فوق صحراء دائرية ، لا يرى سوى بقعاً سوداء من رفات الحياة البشرية .

لكن ، ماهو الشيء المشترك بين « الكرسي الكهربائي » على نهر بيتشورا ، المغطى بالشباك وبين مدينة بوستوزيرسك؟ ولماذا عاد من الشمال مكتئباً ، رغم أن تياراً رفيعاً من الوعي كان يقاوم في نفسه ، وقد شق طريقه بمرح وبلاهجوم ، أملاً بشيء آخر لانهائية له ، شيء منقذ ما . . .

« الأمل ؟ ماهو — أهو زيف أم حقيقة ؟ بماذا نأمل ؟ تنقصنا الثقة بأنفسنا » — فكر كريموف وأدار رأسه نحو النافذة المفتوحة فوق السرير ، حيث كان يفوح أريج ذكي طازج من الحديقة في الليل . ومن طرف النافذة ، كان يظهر خيال العلية ، أسود اللون من ثلاث زوايا ، في السماء الخافتة فوق أشجار البتولا الجامدة ، حيث كانت النجوم تضيء بنور هاديء خافت ، أما تحت القمر المنخفض فقد استدارت أذغال الحديقة ، التي كان يصمها نقيق الضفادع السعيد من النهر القريب .

* * *

الفصل التاسع

في الساعة العاشرة صباحاً ، وصل على سيارة الاستوديو المنتج مولوتشكوف ، ومعه المخرج أناتولي بروفيتش ستيشوف . والمخرج ستيشوف صديق قديم لكريموف ، وهو رجل ذو نمط مريح وحافظ . إنه رجل متأدب ، لبق على الطريقة القديمة ، إنه المعبود الدائم للممثلين الشباب الذين يشاركون في أفلامه ، يأخذون بمعاملته الطيبة وملامح وجهه الدقيقة ، الشبيهة بملامح نبلاء الرومان ، وبحياته الغامضة كأرمل . ما إن رأى كريموف ستيشوف الطويل القامة ، الأنيق ببزته القاتمة الملتصقة بقامته النحيفة يدخل إلى الخوخة ، حتى هب فرحاً بلاقائه ، وعانقه ، فاشتم رائحة الكولونيا العطرة الأجنبية ، التي تعطر بها بعد حلاقته الأنيقة ، وقال له باضطراب :

— حسناً فعلت يا توليا ، شكراً لقدومك . كنت مشتاقاً إليك كثيراً يا صديقي . . .

— شيء شبيه بالمديح الثافه ، لأعره أي اهتمام — قال ستيشوف برصانة ، ثم سأله بلهجة مغايرة ، تسحر بجمالها : — وأين نساؤك الرائعات ؟ كان بودي رؤيتهن ولو للحظة . هل هذا ممكن في هذا العالم ؟ — أوه ، أنا أيضاً بودي رؤية جميلاتك ! — صاح مولوتشكوف

وهو يقلب عينيه بفرح وإعجاب ، ضاغطاً بيديه الاثنتين على يد كريموف ،
وهو يقول : — آه ، كم أنا مسرور ! . . .

— أنت مداهن جامع ، يا تيرني ، وهو أمر معروف عنك —
قال كريموف وأمسك بستيشوف من مرفقه — المرأة الرائعة الأولى تقوم
بالتمارين الرياضية قبل الذهاب إلى الشاطئ ، أما الثانية ، فهي للأسف
قد ذهبت إلى معهداها ، معهد الهندسة المعمارية .

أجاب كريموف ستيشوف باللهجة نفسها ، عارفاً طريقة صديقه
في الكلام ، وكان مذهولاً ، صراحة ، في الوقت نفسه ، من هذه
الزيارة المشتركة (كان ستيشوف يزوره عادة بسيارته الخاصة) ، دون
اتصال هاتفى مسبق ، بيد أنه لم يطرح أي سؤال ، واقتاد أناتولي
بتروفيتش على الممشى إلى طرف الحديقة ، في الظلال الصباحية لأشجار
الصنوبر التي دفنت أغصانها فوق المرآب ، حيث كانت تنتقل حول
السيارة ، تانيا النعسة قليلاً ، الشبيهة بقبي ريفي ، بقميصها الذي شمته
حتى كوعها ، وبسروالها المقلوب المهترى ، وكانت تضرب بحرطوم
الماء قوس قزح مرن ، متغير بأشعة الشمس ، تشكل من تيار الماء المنساب
على زجاج السيارة كالجداول ، مما كان يجلب لها السرور ، وقد تضيق
قليلاً عينها المنتفختان من النوم .

— ابنتي ، عندنا ضيوف — قال كريموف ، بيد أن ستيشوف
سبقه على الفور ، وقال بصوت مليء بلباقة كبيرة :

— عزيزتي تانيا ، رغم أنني أدرك أن حمل الأزهار من موسكو
إلى الطبيعة لا معنى له ، ومع ذلك لم أستطع ألا أتذكر ، قرب مخزن
الزهور ، أنك وأولغا يفغينيفنا ، تحبان أزهار القرنفل .

— حسن جداً أنك أتيت ، أحبيك ، منذ فترة طويلة لم تأت لعندنا ،
يا أناتولي بتروفيتش ، شكراً !

وتألفت أسنان تانيا ، وتهللت فرحاً ، بشبابها وصحتها ومشاكستها
الدائمة ، فرمت خرطوم الماء على العشب ، وأزاحت شعرها إلى الوراء
بغنج فتاة ناضجة ، أدهشت كريموف بغيرة ، وأخذت باصبعين مبللين
بالماء ، باقة أزهار القرنفل ، التي قدمها ستيشوف ، محبباً بانحناءة من
رأسه .

— تانيا ، من الذي يستغلك ؟ أبوك ؟ وهل تعرفين ماهي القيمة
الفائضة ؟

— أنا البطل الايجابي لواقعنا . لذا أنصحك وأنصح والدي بأداء
التمارين الرياضية كل صباح ، — قالت تانيا ، وهي تشم أزهار القرنفل —
واضح أنك لا تمارس الرياضة ، يا أناتولي بتروفيتش ؟

— آه ، يا تانيا — صاح مولوتشكوف وهو يضرب كفاً بكف —
ان أناتولي بتروفيتش لاعب تنس ، انظري ، أية قامة رياضية ممشوقة
لديه !

— افترء ، وشاية — اعترض ستيشوف . — تصوري ، يا تانيا ،
ان قلب الإنسان قد بُرمج ، بحيث يقوم خلال حياته بسبعين مليون
نبضة . فما الداعي إلى إرغامه على بذل جهد فوق البرنامج المعد ؟ أليس
جهداً بلا طائل ؟ على أية حال ، أنا أكذب عليك ، فهذه فلسفة الكسالى .
أنني أقوم ببعض الحركات ، بالطبع ، من أجل المحافظة على اللياقة
والمزاج الرومانسي . فمن الضرورة بمكان ، أن يستيقظ المرء صباحاً ،
وينظر نظرة متفائلة إلى العالم الأمل .

— أجل ، بالضبط : المزاج الرومانسي — قال كريموف مؤكداً ،
واقفاد ستيشوف إلى داخل الحديقة ، إلى الطاولة ، تحت أشجار التفاح ،
ناظراً إليه بشيء من التفكير . — أما بالنسبة لي ، فان مزاجي صباحاً ،
كما في أيام الشباب . . . اجلس ، سوف نشرب القهوة . سوف تشعر
بلذتها في الهواء الطلق . تيرتني ! أنت تعرف أين نحضر القهوة . اعمل
معروفاً ، إن لم يكن صعباً . . .

أحس كريموف في لهجته الآمرة بمسحة من الزعل والضجر ،
تماماً بعد حديثه بالأمس في الاستوديو ، وكأن المنتج كان الآن ، مزعجاً
له ولستيشوف ، لكن مولوتشكوف تظاهر ، بهيئته الجافة ، باستعداد
سعيد : « ثانية واحدة ، لحظة واحدة ! » — وبحركة تمثيلية ، مثل نادل
في فيلم بوليسي ، أمسك بابر يق القهوة من على الطاولة ، وسار بخفة
على الممشى باتجاه الشرفة ، هازأً بسترته الحريرية على الأرض .

جلسا خلف الطاولة ، تحت أغصان شجرة التفاح التي تفوح منها ،
بصورة عذبة ، رائحة أوراق الشجر ، المزينة بقطرات الندى . وهنا ،
في الهواء الطلق فاحت رائحة الخبز اللذيذة ، الذي قطعته أولغا بعناية
في السلة ، كما فاحت الرائحة الزكية للزبدة التي ابيضت حوافها في
العلبة الخضراء ، والقطع الطازجة الجبن القششقوان على الصحن — وقد
استقبل ستيشوف هذه الروائح كلها ، وأشعة الشمس المتموجة على
غطاء الطاولة المشمعي وصوت الزرقطة على صحن المربى برضى إنسان
يعرف معنى الحياة وجمالها .

— منذ مدة طويلة لم أستشم رائحة الخبز في الهواء الطلق .
وأخني ظهره بارتياح على الكرسي القماشى القلاب ، وفك أزرار

الجاكيتة ، وقرب إلى وجهه الغصن المثقل بالتفاح الذي بدأ بالاحمرار ،
ومد أنفه وهو يقول :

— روعة ، أسطورة . المربي ، الزراقط ، الزبدة ، التفاحات
اليانعات . . . سوف آتي لعندك لتناول طعام الفطور ، وسأتحول إلى
متطفل . وعنده اقترابي من المائدة ، سوف أدندن بيني وبين نفسي ،
وأنا أنحني حتى منتصفني : « صحة جيدة . . . هنيئاً مريئاً ! » — وبعد
أن ترك الغصن ، وضع رجلاً على رجل ، ونظر بعينيه الزرقاوين إلى
كريموف وهو يقول : — أما إذا ما أردت الجلد ، فبالرغم من كل
هذه الروعة ، ليس شكك على ما يرام ، يافياتشيسلاف . . . أن
تعترض إذا ما طرحت عليك سؤالين ؟

— لا ، موافق — قال كريموف — لكن قل لي في البداية ، مالذي
جمعك مع مولوتشكوف في هذه السفرة ؟ كنت في البداية سأعبر عن
دهشتي . . . على أية حال ، أستطيع أن أحزر . تقترح عليك إدارة
الاستوديو ، على ما يبدو ، أن تقوم باخراج فيلمي ، الذي أوقف العمل
فيه كما هو معروف .

— أعوذ بالله ! — قال ستيشوف معترضاً — هذا أمر لا يمكن أن
أوافق عليه ، بشكل من الأشكال ، مهما كانت الظروف . حتى
إذا ما وعدوني بمائة ألف لقاء كل ساعة تصوير ، وبجواري حريم
السلطان كل يوم أحد . أنا ، كما تعرف ، لم أصبح حتى الآن كاسر
الاضراب ، منتهز الفرص .

— أما أنا ، فسأكون مسروراً بترشيحك ، أنت بالذات . بيد أنهم ،
من أجل الأمانة ، سوف يبحثون عن حربي . فالفيلم المتوسط ، كما

تعلم ، لا يثير سخط الإدارة ، والمثلث المتساوي الأضلاع من النوع
الوسط ، يناسب كثيرين .

— فياتشيسلاف ، كل شيء سينتهي ويزول . وأحجار إدارة
الاستوديو ستبقى في مكانها على رقعة الشطرنج بانتظار تحريكها ، وسوف
تصور فياماك أنت بنفسك — قال ستيشوف ، وهو يلدخن مستمتعاً ،
مظنناً عود الثقاب بتحريكه بمرونة ، وأطلق اللدخان من فمه متلذذاً ،
فابتسم كرىموف شاكراً له قدرته الملهبة على التخفيف مما كاد يعجز
اتزانه الصبور عن ضبطه . — والآن ، السؤال الأول : لماذا لم تتصل
بي هاتفياً فور قدومك من باريس ، أنت رجل طائش ؟

— أردت أن أتمالك نفسي . كما أنني كنت منحرف الضحكة بعض
الشيء هناك .

— وماذا جرى لك ؟

— كيف يمكنني أن أقول لك باختصار . . . — وصمت كرىموف
برهة ، وهو يمسح وجنته غير الحقيقة — إنني أغوص في أعماق نفسي
طيلة شهرين . إن الاكتئاب هو شيء ساحر فتان . وماذا ، وهل هناك من
شيء آخر لدى الرجل المثقف الروسي المعاصر ، عندما يبدو له أنه
مذنب ، ومسؤول أمام العالم كله .

— إذن ، تبحث عن الخلاص على هذا النحو . لست أول من يتبع
هذا الطريق . نحن جميعاً ، يافياتشيسلاف ، قضينا حياتنا لأكما نريد .
أين هي تلك الحقيقة التي بحثنا عنها طويلاً ، والتي توفق بين الجميع ؟
ما إن بدأ الإنسان التفكير بنفسه وباخوته ، حتى ذهل من نقائص الواقع ،
والمقربين إليه .

— لا تستغرب ، ياتوليا ، اليوم ليلاً ، كنت أفكر بالقهس حبهوق ،
وبخداع الذات الكبير ، الذي نتعرض له جميعاً — قال كريموف ،
وهو يهرس سيجارته عابساً . — المسألة على الأغلب ، ياتوليا ، أن
كل واحد منا ، خلال حياته ، تنقصه الإرادة الكافية لكي يكون هو
ذاته ، كما هي على حقيقتها . نحن نؤدي دوراً معطى لنا ، ولا نعيش
بصورة طبيعية . أتعرف ، ما هو ذنب المثقفين في العالم ، بمن فيهم
مثقفينا ؟ إنه الحام ، وعفوية الذهن ، والخضوع للظروف . نحن جميعاً
عبيد الظروف . . .

— أما أنا ، فأرى أن اعتزازك المفرط بنفسك يخاق لك أعداء ،
ويثير دهشة المسؤولين الساخطة .

— لو كان الأمر مسألة اعتزاز بالنفس ، لكانت بسيطة ، تافهة .
لإني أفكر دوماً بإيرينا سكفور تسوفا . إنها فتاة عزيزة ، طاهرة ،
موهوبة . وهي بالذات ، لم تحتل القلادة والكذب . وهذا هو الخنوع
والخضوع .

— ربما العكس . — قال ستيتشوف ، وبوجه مستغرق في التفكير
وضع يده على ركبة كريموف — غير أنني لست واثقاً من هذا أيضاً .
يصعب على المرء أن يتصور ، أن تقدم هذه الفتاة الرائعة ، بعد أن
حصلت على الدور السينمائي ، فجأة على . . . إنه ، على الأغلب ،
حادث مؤسف ، مأساوي .

— إن موتها بالنسبة لي أحجية ، سر ، لغز خفي ، ياتوليا .

تريث ستيتشوف قليلاً ، وخلص الزرقة بملحمة الشاي من صحن
مربي التوت الأفرنجي ، ثم قال :

— هل سمعت ، يا صديقي ، أنه هناك دواء للأرق والتهلثة العامة ؟
فاليوم ، لقد جربته على نفسي . صدقني ، إنني أنام نوماً عميقاً ، مثل
الديك الرومي ، دون أية أسئلة أبدية مستعصية ، وكأنني في ذهول كامل .
أستريح ، وأحلم بدجاجات روميات صغيرات ، يرتدين مآزر قصيرة .
لقد حدث اتجاه لعوب للعقل عندي .

— هذه هي بالذات عفوية الذهن ، يا عزيزي تولىا .

— الآن ، سوف تشتمني أنت بصورة أشد وأقوى — قال ستيفشوف
بحزن . اشتم هذا الحيوان الماكر . أرجوك ، اشتمني .

— سأشتمك ، لكن ، علام ؟

— بعقلي الضعيف ، أنا أدرك أنه ، في جميع الحماقات ، علينا
أن نضع الذنب على أنفسنا . اسمح لي أن أسأل : ممن ينتقم الفاشل ،
التعيس الحظ ؟ من نفسه . إن الفاشل ، المتعثر الحظ ، هو مضجر ،
أناني : أود أن أبدو . أمام نفسي على الأقل ، أكثر ذكاء . إن هذا
الفاشل ، التعيس الحظ هو أنا . لأنني بهيمة ، ضعيف الإرادة . لم أستطع
أن أرفض : إن أحمةنا التركي دعاني اليوم في الثامنة صباحاً ، وقد احمر
طية نصف ساعة ، بحيث كان من الممكن إشعال سيجارة من احمراره
الشديد ، وكان يستميلي ويقنعني ، وهو يشمر عن ساعديه ، وأخذ
يشخر ، حتى كاد أن يبكي وينوح . . .

— عم تتحدث ، ماذا في الأمر ؟

— كي أكون أكثر ذكاء ، أجب في البداية ، عن سؤالي الثاني ،
ومن ثم أمسكني من رقبي ، واطردني كالكلاب . . . فياتشيسلاف ،

قل لي ، هل لديك رغبة بلقاء جون غريتشمار ؟ هذا الاسم ، بالطبع معروف لديك . . .

- ماذا يعني « رغبة بلقائه » ؟ - هز كريموف كتفيه بضجر ، دون أن يدرك السبب الذي دفع ستيفوف لهذا السؤال ، ولماذا ظهر اسم المخرج والمنتج الأمريكي جون غريتشمار - لقد التقيته مراراً في باريس ، وشربنا في الحمارات كثيراً من الويسكي . وهل هو في موسكو ؟

- لقد وصل أمس ، في طريق عودته من باريس إلى أمريكا . وهو مشتاق لك ، يريد أن يمتقيك أنت وحدك . ولا يعترف بأحد غيرك . قيل له في البداية ، أنك مريض ، وأعان غريتشمار أنه سيبقى في موسكو إلى أن يئاقك . وعموماً ، الأحمق في ذعر هادىء ، وقد وصل إلى درجة الاحمرار الكامل ، ولمعرفته بعلاقتي الجيدة بك ، كاد أن يثو على ركبتيه ، متضرعاً أن أقنعك بلقاء غريتشمار . بالمناسبة ، الاستوديو كاه يتحدث عن الحوار الكبير الذي دار بينك وبين الأحمق . ياإلهي ، لقد التقى القطبان المتنافران . أتصور ، كيف كان يصرخ أحدكما على الآخر ، وكيف حطمتا المقاعد في المكتب .

- دار حديث شبه متأدب ، لبق ، لكن المقاعد لم يحطمها أحد . رغم أنه قد آن أوان تحطيمها ، - قال كريموف . - أتعرف ، أين تكمن السفالة ؟ يروق لبعض العاملين في الاستوديو ، لسبب ما ، وقوع أحد المشهورين في وضع معقد أو مربك . قل لي ، من أين تأتي السماتة ؟ ربما تكون السماتة حسداً مفرغاً ، مخففاً ، أصبح أقوى من الكراهية ؟ أنظر ، أترى هذا الرجل المشهور ، الممتايء بالمال ، كل يوم يتحمم

بالشهبانيا . ومن هو هذا المشهور ، لقد تبين أنه منحل ، عرييد ،
لئيم قاتل ، فيذهب إلى الشيطان ، وليقضى على هذا الوجد ، كالديك
المشوي ، حتى يعرف القوانين ، ويعرف كيف يتساق على أجساد
الناس ، حتى يعرف ذلك . . .

— أنه أمر يدعو للحسرة والأسف — قال ستيشوف ، مراقباً كيف
كانت تتفرق الغيوم المدورة بين أغصان أشجار التفاح في زرقة عالية ،
وتتلاشى كاللدخان — للأسف ، أن الحالة الوسط كانت ، منذ أقدم
العصور مناسبة ، ساسة ، متقادة ، ومأمونة . أما الموهبة ، فالقسم الأكبر
من الناس يحسبون صاحبها ، غير أنهم يخشونها ويحبونها رغماً عنهم .
يحبونها حاقدين . . . هل ستلتقيه يا فياتشيسلاف أم ؟ . . . بماذا تأمرني
أن أكذب على الأحق ؟ — سأل ستيشوف ، واستلقى قليلاً على المقعد ،
وكأنه يتلمذ ، مصوباً وجهه نحو الهواء وأشعة الشمس التي تمر عبر
الأغصان . كان شعره الأبيض الفضي ووضعيته الاتكالية يوحيان
بالرفاهية ، بالاتزان الروحي الهادي ، غير أن صوته كان يسمع هادئاً
بصورة غير طبيعية . — يمكنني أن أنصحك بالألا تزيد من حدة التوتر
في علاقتك ببالابانوف . إنه موظف ، بيروقراطي ، خطير ، وأحق
خبث ، زد على ذلك أنه يحب الانتقام وهذا أسوأ شيء فيه . أنا لا أريدك
أن تكنسب في الاستوديو حدوداً رقم واحد . وما حاجتك إلى هذه
المسرات ؟

— فيذهب ، فيذهب بعيداً ، ثم أبعد ، كما في النادرة المعروفة ، —
قال كريموف غاضباً ، وعندما رأى في الممشى مولوتشكوف يطير
طيراناً من الشرفة على قدميه الخفيفتين ، حاملاً لإبريق القهوة ، قال

مادحاً بصورة متصنعة ، حتى أنه طلق أصابعه : - يا لهذا المنتج المذهب
لدي ، إنه يظهر عند الضرورة . ياله من حدس مذهل .

- لا تغضب منه ، - قال ستيشوف بصورة وديعة - إنه رجل
مأمور من جميع النواحي .

كان مولونشكوف يتألق نشاطاً وطاقاً واستعداداً للخدمة ، ووضع
لإبريق القهوة دون أي صوت على الركيزة ، وقرب أنفه من إبريق
القهوة ، ثم قال بسعادة العاشق :

- آه ، يا لهذه الرائحة العبقرة الفريحة ، إنها تدير الرأس ، ويحاول
الموت فيها : الآن ، سنشرب القهوة في هواء الحديقة الطاق ، كما قال
فياتشيسلاف أندريفيتش آنفاً ، وكل شيء سيكون رائعاً وساحراً -
وغض طرفه عن عيني كريموف المنفعتين ، اللئيمتين ، وهو يسكب
القهوة ، التي ينبعث منها البخار ، في الفناجين ، ثم قال بصوت خافت
بعد أن استرد أنفاسه : - فياتشيسلاف أندريفيتش ، لا تقتل الأمريكي
غريتشمار ، إنه يطالبك أنت وحدك ، حتى أن بالابانوف لم يجرأ على
القدوم إليك . . . وقد ضغط علي ، من أجل أن أعثر عليك ، بحيث
أنني لا أعرف كيف أستطيع العودة إلى الاستوديو . إنني أتضرع
إليك . . . تحدث إلى الرأسمالي . . . إن بالابانوف سيطردني إذا لم
تنتهي الأمريكي . إنه مليونير على أية حال ، وهو يود إنتاج فيلم مشترك
معنا . . .

- يكني ، يكني ، يا تيرني ، تظاهراً بمظهر البائس ! - قاطعه
كريموف - إن رؤيتك متضرعاً تسرني إلى حد لا يوصف . وتراودني
شكوك ، بأذك ستبدأ قريباً بكتابة سيناريوهات مأساوية عاطفية عن
حياة المنتجين

الفصل العاشر

اسمع يا جون ، لن نتحدث الآن عن السينما العالمية . أعتقد ، أننا اغتبننا معاً ، في باريس ، جميع المخرجين في العالم . والأفضل ، قل لي ، كيف تعيش أمريكا . وتكلم بالروسية ، كما تقلد ، فستكون ممارسة عمالية لك . وما هو صعب عليك ، سيترجمه أنا تولي بتروفيتش ستيشوف ، صديقي : موافق ؟ هل لديك اقتراح آخر ؟

- أوه ، حسناً ، أستطيع التحدث قليلاً بالروسية : بالنسبة لأمريكا ، كل شيء على مايرام . أي ليس هناك من شيء على مايرام ، ومع ذلك فهو على مايرام . نيويورك لا تزال على ما هي عليه ، في مكانها ، وكذلك واشنطن . وأرى أن موسكو تقف بصورة مدوية . . . لا ، لا . . . كيف أقول ، تقف بصورة راسخة ، ثابتة . هل صحيح ما قلته يا فياتشيسلاف ؟

- أعتقد أنه صحيح .

كانوا يجلسون في الهواء الطلق ، في مطعم الطابق الأخير من فندق « موسكفا » الشهير ، حيث كان الهواء يهب رطباً منعشاً حيناً ، ودافئاً حيناً آخر ، وكانت الشمس قد كوت قماش المظلات ، فغدت قبائها فوق الطاولات أكثر شفافية ورقة . ولكن هنا ، بالقرب من السماء ،

كان الجو أكثر انعاشاً منه في الشوارع ، المأوى بالضجيج البعيد ، المنبعث من الأسفل . فهناك ، في الضباب الشمسي ، في التألق القائظ ، كانت السيارات تتزحلق وتزحف وفق الخطوط المنقطة المدهونة ، فتتفرق حول الساحة الدائرية ، لتلتقي من جديد أمام ساحة مانييج ، أمام حديقة ألكسندروفسكي . وهناك ، بعيداً في الأسفل ، الممتلئ بالغبار ، كانت تتساقط شرارات سيارات الترولي والغاز الكثيف المنفوث ، وكان الحر لا يطاق غالباً ، هناك على الأرض الأسفلتية ، حيث كانت حشود الناس تتحرك بكثافة النمل .

وكان جون غريتشمار ، وهو رجل كهل ، كبير الجثة ، عريض المنكبين ، كبير الصدر مثل رافعي الأثقال ، الذين هجروا الرياضة (رغم أنه لم يمارس الرياضة مطلقاً) ، كان يمسح وجهه السمين المغبر بمنديله ، بنظافة ، ويشرق قليلاً من الكونياك ، ويدخن سيجارة لأثر أخرى ، مضيقاً عينيه بسبب الدخان ، وبسبب قطرات العرق المنحدرة على صدغيه . أما عيناه الصغيرتان الذكيتان ، الشبيهتان بكرزتين يانعتين فكانتا تنظران بحدة واستطلاع . لم يكن يلحظ على هيأته المدينة أثر كبير لإرهاق الصيف ، ولا للذبوله وكسله ، وهذا لم يدهش كريموف ، فقد عرف ، بعد لقاءاته معه في باريس ، قدرة غريتشمار الكبيرة على الجلد وتحمل المشروبات والأحاديث ، والجلوس خلف المنصة في البار ، وعرف قدرته على البقاء يقظاً طيلة الليل ، والظهور في الصباح منتعشاً ، نشيطاً ، وكأنه أخذ قسطاً كافياً من النوم والراحة ، مستعداً لمشاهدة عروض الأفلام ، والمناقشات ولتناول المشروبات الكحولية القوية .

— مثل هذا الجر الشيطاني . . . صحيح ما أقول ؟ — الخيالي في

موسكو ، — قال غريتشمار وهو يحرك منديله ، وضحك فبرزت أسنانه
البيضاء الفتية المتناظرة بصورة مريبة . — مثل هذا الجو وانحباس الهواء
يحدث في نيويورك . . . إنه جهنم « مع تجاوز الخطه الإنتاجية » . هكذا
يقال عندكم ؟ نهراً وليلاً ، إنه أشبه بيوم القيامة . . . إنها نهاية العالم
تزحف علينا وعليكم . أليس كذلك ؟ سوف نراها يا فياتشيسلاف .
النجيل يوحنا .

— . محتمل جداً — . أجب كريموف دون أن يكون متهيأً بشكل
كاف للمزاح ، متذكراً في الوقت نفسه ، أن غريتشمار خال من الحساسية
النزقة وسرعة الغضب ، ذلك الدفاع السطحي الذاتي عن الأنفة وعزة
النفس ، التي اضطرت كريموف للاصطدام بها ، أثناء مخالطته الأمريكيين .
— أنا أعرف ، يا جون ، قهرتك على التلاعب بالألفاظ . لذلك أرجوك
رجاءً حاراً : الفكاهة الشريرة أكثر دقة . في هذه الحالة تحدث بالانكليزية
أين أنت أيها الإله ، وليس بالروسية ، حيث تنسى بعض الألوان .
وإلا ، فكيف سأبادل الشتائم معك ؟

— أوه ، بدأنا نشتائم في باريس ، وأين النهاية ؟

— نكمل مشاتمتنا هنا ، في موسكو ، إذا ما سحبت الفرصة .

— الشتائم المقلدة ؟

— وهذه أيضاً .

وهنا ، أنزل ستيشوف رأسه إلى الأسفل ، مراقباً بانتباه متحفظ ،
ومديناً بوضوح ، فظاظة عبارات الاثنين . كان يتأمل ، صامتاً ، راحة
يده البيضاء الرقيقة الأنيقة التي أبدعت تكوينها الطبيعة ذاتها ، وكان

الزر على كم قميصه الأبيض يجمع مثل عين القطعة ، ثم مد يده نحو قاذح ماء بور-جوم المعدني ، معبراً بوجهه النحيل ، الذي لا يمكن النفاذ إلى غوره ، عن توتر لم يفهمه كريموف . أما مولوتشكوف ، الذي عاد لتوه من عند رئيس الخدم في الفندق ، فقد امتص بسرور ، بشامونته ، الشراب غير الكحولي مع البودلة الذائبة فيه (« أنا أعتذر ، أقوم بتنفيذ عملي . كما أنه محظور علي تناول المشروبات الروحية ») ، وبمظهره المتواضع كله ، نشر وداعة مطمئنة للإنسان صغير ، يعي مكانه المناسب ، ويعرف أنه ليس من مرتبته التدخل في أحاديث الكبار . كان يعرف ، أن مهام كل إداري يحترم نفسه ، تكون محدودة في مثل هذه المواقف : العمل على تنشيط قوى المطعم الخفية ، من أجل توفير النظام الكامل والخدمة الممتازة على الطاولة من أجل ضيف أجنبي رفيع ، كما هو متعارف عليه عادة في روسيا .

« من أجل أي شيطان ، يجاس معي مولوتشكوف ؟ .. لمعت هذه الفكرة فجأة ، في رأس كريموف . - على الأغاب ، من أجل أن يخبر بالابانوف عن كيفية اللقاء ، وماذا حدث فيه . »

.. تبرني . - قال كريموف ساخطاً ، عازماً على القول بأنه ليس هنا ، وإنما في مجموعة التصوير ، قد اشتافوا إلى قيادته الدقيقة ، ولكن على الفور ، أبعدته عن ذلك ، ففكرة الوضع المتعاقل ، الذي نشأ في الاستوديو حول فيلمه ، وعندما رأى وجه مولوتشكوف المستكين ، الخنوع ، المستعد لتلبية أية رغبة يبدىها كريموف حرفياً ، لم يقل شيئاً ، وتوجه نحو غريتشمار ، بلهجة أقرب إلى المزاح ، قائلاً : - قبل أن نبتعد عن المسألة الرئيسية ، ياجون ، هيا بنا نحدد حقيقة التاريخ المعاصر ،

رغم أنني أعرف ، أن التاريخ ليس ترجمة الحقيقة ولا سيرة له . . .
أم أن الحقيقة في الخبرة ؟ في صحتك . . .

رفع غريتشمار أصبعه ، تعبيراً عن فهمه ، وشرب جرعة من
الكونياك ، ثم مسح العرق من على خديه السمينين دون أن يأكل شيئاً .
وسحب دخان سيجارته ونفثه ، وقد امتزج الدخان بضحكة لطيفة .

.. الكونياك هو أيضاً حقيقة . ولكن . . . التاريخ من جديد ؟
هل أتحدث بالروسية ؟ لا ، سيكون حديثاً سيئاً . ليست لدي كلمات
كافية . سأتكلم بالانكليزية . مستر ستيتشوف ، ترجم من فضلك .
(هز ستيتشوف رأسه باحترام) التاريخ ليس سيرة الحقيقة ، بل سيرة
للكنز ، أليس كذلك ؟ لا ؟ إن تاريخ أمريكا هو ساسة من الجرائم
الإجرامية أو الجرائم فحسب - لافرق . كما هو تاريخ جميع البلدان ؛
كثيراً ما أفكر ، يا صديقي فيان شيسلاف ، بأنه لن يجيبني أحد في العالم
المعاصر ، فيما إذا كان هناك سجل تاريخي للأيام ، أم أن هذا كله
خداع . وهل يعقل ، أن الله خدع الإنسان ، عندما منحه الحياة ؟ يصعب
قول هذا باللغة الروسية - . أضاف غريتشمار ، وصور صعوبة اللغة
بحركة دائرية من سيجارته - . عندما أتحدث بالروسية ، قد لا أصدق
في التعبير عن المعنى . . . وما قوالك أنت عن أمريكا ؟

- . أجل ، لقد حولت الحديث بسرعة إلي . حسناً . ألا يبدو لك
ياجون أن الإنسان قد خدع الله الذي تؤمن به ؟ - قال كريموف وقد
أخذته موجة من المقاومة ، واحتد بنار النقاش الذي كان يجاب له رضى
الحماسة وراحته - لا أريد الإساعة إلى مشاعرك الدينية ، ياجون ، ولكن
هل الله ، الفاعل العقل ، قد ابتدع الإنسان ؟ ومنحه قلداً قايلاً من

الأخلاق والروح إلى درجة البخل ، وكثيراً من الجشع والغباء . وفي نهاية الأمر ، ففي عصرنا هذا ، سيخر الشيطان من الله وخلعه ، كما سخر من الإنسان ، الكائن العاقل : لقد استل منه الروح ، وربما اشتراه ، واستبدله ، أنفسهم ياجون ؟ ووضع له ، بدلاً من الروح ، أفخم جهاز تلفزيون ، وجيوب منع الحمل ، التي تضمن الحرية للفتيات والشباب الطيبين . . .

- وبعد ، تابع حديثك .

- أتابع . ان الحسد والكذب ، العبدن الحقيرين ، قد أصبحا سيدين ، حاكمين مسيطرين . والعالم كله تقريباً ، يسيره قدر ، قضاء مجهول : المصارف . المافيا ، الساسة الدمى . أتعرف ، ماهو الرهيب في الأمر ؟ لقد أصبح الجهل الأمريكي وساطة المال مشرعين منيعين لا يقهران ! « الموضة » والتقاليعات المختلفة ، ومحدث انحطاط في الذوق العالمي . فمن المنتصر ؟ وما الذي انتصر ؟ البريق الرخيص والمواهب الغثة في سوق البيع . وارتقت إلى المنصة العليا البهرجة والبلادة والاباحية . الشيطان وحده يعرف ماذا يجري ، الفياض الذي يصور كهنة الحب الشاذ ، من أفراد الجنس الواحد ، يشاهده ملايين الناس ، أما المثقفون فيبتهجون ويفرحون بجرأة الاباحية . فانتعش سودوم وغومور - ، وليعش السيدان مازوخ ودوساد * . أتذكر حفلة الرقص في باريس .

* سودوم وغومور : مدينتان يهوديتان في فلسطين ، دمرتا بسبب فسق أهلها ، كما جاء في التوراة - المترجم -
* مازوخ (أو ماسوش) (١٨٣٦ - ١٨٩٥) : كاتب نمساوي ، كان أول من وصف الانحراف الجنسي الذي يتلذذ فيه الفرد بما ينزل به من آلام ، وعرف هذا الانحراف فيما بعد بـ « المازوخية » أو الماسوكية - نسبة له .
دوساد : المركيز دوساد : كاتب فرنسي عاش في القرن الثامن عشر ، وكان أول من وصف جنون القسوة الجنسي ، والتلذذ بالقسوة ، وهو الانحراف الذي عرف فيما بعد بالسادية ، نسبة له . - المترجم -

حيث كانت الفتيات الفرنسيات يظهرن في فساتين من زي مارلين مونرو ، والشباب في ضمصان قذيرة الأكمام ، رسم عليها وجه ألفيس بريسلي ، وكيف كانوا يرقصون كالأبالسة ، كالدشياطين ، على أنغام الروك الأمريكية ذاتها ؟ إن نصف فتيات العالم كله ، يرتدي سراويل «الجينز» المضرة بالصحة من جميع النواحي ، عاقرات بذلك ، مؤخراتهن وأماكن الجلد الحساسة . إنها «الموضة» العالمية ! إنها لا تلقى بالاً لأطباء الأمراض البولية والنسائية .

— ليس بهذه الخلافة يا فياتشي لاف - قال «.يشوف هامساً .

انك تستشيط غضباً .

— وماذا علي أن أفعل - . أن ألثغ ، حسب ما يقتضيه البروتوكول ؟

إن ما يهمني هو رأي جون بهذا الخصوص ، وليس «إذا كان يريجه أن يصغي لي ما أقوله .

- تكونم ، تابع . كلي إهتمام . لقد فكست أذني . هنكنا يقولون ؟

— نعم يا جون . بعد الحرب ، فرضت أمريكا على العالم كله إيقاعها

المالي المجنون ، وتفرض الآن جميع أعاجيب مدنيتهما الأمريكية - الحساسة الودعة ، الدعاية ، الإعلان ، البطاقات والمصنوعات الجلدية ، والجمالية الجلدية للقنابل الذرية . أولم تفكر أنت ، أن أمريكا تعام الإنسان المادي العالمي ، الضيق التفكير ، على تقبل الحرب وكأنها خاصية ملازمة للحياة المعاصرة ؟ أتعرف لماذا ؟ لأنكم لم تمرؤا عبر أية معاناة ، ولا بقرش واحد . . . أناولي ، ترجم إلى الانكليزية ، ولا بقرش واحد . . .

- لا ، لا حاجة - صاح غريتشمار رافعاً يديه الكبيرتين - أني
كان تاجراً روسياً ، أنا أفهم . تكلم ! . . .

- كانت الحرب العالمية الثانية ، بالنسبة لأمريكا ، « أوبريت »
مرحة ، عرضاً عسكرياً ، ولكن دون فتيات عاريات ، والحق يقال .
آنذاك ، كنتم أكثر تواضعاً . جنتم ، في نهاية المعارك ، على أصوات
« المارش العسكري » . قتلكم كانوا ثلاثمائة ألف وليس عشرين مليوناً .
في حوادث الطرق والسيارات قتل عندكم أكثر مما قتل في الحرب .
والشيء الخطير يا جون ، أن أمريكا تحمل الآن العالم دعارة الروح
والكذب الكبير الذي يدعى بالمدنية العليا والحقيقة . أتفهم ماذا أقول ؟
أم نترجم إلى الانكليزية ؟ كثيرون ، يا جون ، يعيشون تحت شعار
كارثة الإنسان التي تحملها هذه المدنية المزيفة ، أنت تفهمني ؟ لقد انحدر
عصرنا وتهاوت من لا أخلاقية غالبية العلماء . كل شيء يغدو بلامعنى ،
يا جون ، عندما يصبح التقدم التقني لا أخلاقياً . إنه يخاف ويبدع من
أجل أن يهدم ويدمر . . . إنه ضد الإنسان ، ويحول الروح الإنسانية
إلى صحراء ، إلى قفر . أنريد أن أعبر بصورة أشد قهراً ؟ ان جميع
الآزياء والصرعات الأمريكية في العمارة ، والموسيقا ، وفي الألبسة . . .
وفي كل شيء ، حتى في الكوكاكولا - هي معسكر اعتقال يومي
وعقلي ينتشر على العالم كله . على أية حال ، كثيرون يرغبون بمعسكر
الاعتقال الأدريكي هذا . إن الإنسان المادي ، الضيق الأفق ، تغريه
البهرجة ، والغلاف الجميل ، والمشايك والأزرار ، إنه إنسان يسهل
خداعه . . . رأيت ، يا جون ، كيف تحدثت بنزق وغضب عن بلادك .
ولكن ، ليذهب كل شيء إلى الشيطان ، فنحن ، أنا وأنت ، لسنا

دبلوماسيين ، ملزمين بأن نقول «أبدًا» ، «مطلقًا» ، ويهمني جدًا ،
أخيرًا ، أن أعرف فكرتك عني . فهذا أمر يقايني ، منذ خمسة عشر
عامًا ، على الأقل . هيا ، اعترض ، أنا مستعد للإصغاء إليك . . .

واتكأ كريموف بمرفقيه على الطاولة ، متهيأ للإصغاء بانتباه ، وهو
يبتسم بابتسامة ساخرة ودية . وأسند ذقنه براحة كفه ، ثم تذكر فجأة
على طريقة صاحب البيت الضيف وقال : « والذا نحن صاخين بصورة
مخجلة ؟ وأين الضيافة الروسية ؟ » - وملاً الأقداح ، وبحركة مضيافة
مازحة ، أشار إلى المائدة المفروشة بالمقيلات ، والمغطاة بظل خفيف
من المظلة الشمسية .

بيد أن غريتشمار ، رجل يتقن تعاطي المشروبات الروحية ، وربما
لهذا السبب ، أو بسبب الحر ، نكش مرة واحدة ، بالشوكة ودون
شهية ، قطع سمك السلمون ، وأبعد الصحن . وصيق ، بصمت ،
عينيه الكرزييتين اللاذعتين بين جفنيه المنتفخين ، دون أن يترك قدح
الكونياك من كفه الكبير المغطى بالشعر ، وابتسم كريموف ابتسامة
ساخرة ، ملاحظاً ستيشوف الذي كان يمسح العرق عن جبينه ، وهو
يراقب ، من بين أصابع يده ، غريتشمار ، بتوثب حساس . وكان
يتراعى في نظراته اعتذار وحيرة على تلك الحلة المفرطة في الحديث ،
التي اتبعها كريموف دون داع .

« كم نخشى نحن الإساءة إلى الضيف ، وبخاصة الأجنبي . أجل ،
ياعزيزي تولى ، لا حدود لتهدينا وثقافتنا . ولكن ، هل هذا تهذيب ،
وهل هذه ثقافة ، أم أننا لم نُخرج العبد من أنفسنا ومن أعماقنا ؟ . . . » -
فكر كريموف غاضباً ، ونظر إلى مولوتشكوف (وهاهوذا نحجول

آخر ! ») ، الذي كان يحرك بتواضع كأس المرطبات بالقشة ، وقد احمر عظما وجنتيه ، واستدار طرفا فمه الضيق بانتسامة اعتذار .
احتسى غريتشمار جرعة من القلح ، وأخذ نفساً من السيجارة بصوت مسموع ، ثم قال بالانكليزية ببطيء وبصوت أجش :

— إن المدنية كلها — مؤامرة ضد الإنسان . ولكن ، لا يرتعش أحد من الناس أبداً ، عندما يفكر بمئات الألوف من العبيد الذين كان عليهم أن يهلكوا في الصحارى من أجل تشييد الأهرامات الملعونة . وما الغرض منها ؟ قبور للفراغة ؟ إنه جنون مطبق . الإنسان دائماً رخيص الثمن . كيف يسمى هذا بالروسية ؟ . . . وحرك غريتشمار بتركيز حاجبيه الكثيفين ، متذكراً — ثمن قليل . . . قليل من المال . . . هكذا ؟ — ثم تابع بالانكليزية ببطيء وثبات : — ثمة بعض من أصحاب سلطة المالكين يريد أن تكون غرفة العمليات مكاناً وقدرأ لجميع الشعوب . عملية صغيرة في المخ أو حقنة . وللمثقفين باديء ذي بدء . بعضهم يريد تحويل البشرية إلى أغبياء وروبوتات . الإنسان في العالم المعاصر — لاشيء ، مجرد طنين متشامخ . وهذا الطنين المتشامخ يحتاج إليه الأقوياء في العالم ، من أجل استغلال ملايين البسطاء . لهذا ، يسيطر الكذب في العالم اليوم أكثر من أي وقت مضى . ولهذا كانت السياسة كذب باسم الحرية . وكانت الأزياء و « الموضة » كذب باسم الجمال . والفن ، في ثلثيه ، قذارة مسلية ، فلسفة فارغة وجنس . إن الحقيقة هي خادمة الأقوياء . اذن ، هي زيف ، يفتح أمامه جميع الأبواب دون طرق ، ويتحدث دون انقطاع عن الحرية ، وهذا ما تتوق إليه المواهب الضعيفة السطحية . هل حديثي مفهوم ، . . . مستر . . . مستر ستيشوف ؟

— تماماً . لقد ترجمت حديثك حرفاً بحرف تقريباً ، مستر غريتشمار — أجاب ستيشوف بانحناءة مهذبة من رأسه ذي الشعر الأشيب ، المفروق ، والمسرح أحسن تسريحة ، وتردد بوضوح ، ثم أضاف مصححاً : — بيد أنني شخصياً ، لم أفهم جيداً جمالك حول الحرية التي تتوق إليها المواهب السطحية . ماذا تعني ؟

طرق غريتشمار راحة كفه على جبينه ، بصورة مستوحية ، وقال :

— الإنسان الذكي حر دائماً . حتى عندما يكون وراء القضبان . الفكر ، الفكر . . . لكن الحرية تجعل السطحي والحكيم متساوين ، وينشأ الحسد والظلم في العلاقات . الحسد ينتج الحقد ، ولهذا ، فالحرية مزيفة . هذه مسلمة من كتاب العهد القديم ، مستر ستيشوف . بالنسبة لي . لقد أدركت ذلك قبل ثلاثين عاماً .

— ممكن جداً — تدخل كريموف . — لكن الحرية ضرورة لشيء أساس — لحالة الإنسان الطبيعية ، كي يجد الطريق نحو أخيه الإنسان . إن الطائر لا يقدر على الطيران دون هواء .

— أوه ، فياتشيسلاف ، سنبدأ المشاتمة الآن بقوة . لقد تحدثت كما لو أنك شاعر . ليس بمقدور أية حرية أن تحطم جدران العزلة ، إنها عاجزة تماماً . فهي غير قادرة على وقف طاعون المدنية الزاحف على العالم كله . هناك الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة . ولا وجود لليونان القديمة ولا وجود حتى لعيسى المسيح .

— ألم يخطر في ذهنك ، ياجون ، أن عيسى المسيح قد استنفذ ذاته ، خلال ألفي عام ؟ قد يكون هناك من ينتظر ملاكاً جديداً برحمه

الناري ؟ ويتوق لعقاب التوراة للإنسانية على جميع ذنوبها ؟ بهذه المناسبة ، سمعت بهذا العقاب في أمريكا عام ست وستين وتسعمائة وألف ، على لسان أستاذ الفلسفة في جامعة بيركلي .

— لاخير في الولايات المتحدة — قال غريتشمار متجهماً — ولاخير في روسيا ، لأنه ليس هناك تكفير بعد . إن تاريخ روسيا هو مأساة . فقد قضت الأقلية على العقل والموهبة . وخربت المعابد . كان الأب يقتل ابنه ، والابن أباه ، والزوجة تسلم زوجها إلى أيدي أعدائه ، والأخت تحقد على أختها ، والأخ على أخيه . لقد قضى . . . قضى تقريباً على روح الشعب الروسي . أصبح بلا دين . أنت تعرف ، يافياتشيسلاف ، أنا أرثوذكسي . أبي كان تاجراً من المرتبة الأولى ، غريتشماروف ، روسي الأصل ، كان ملك الشاي في بطرسبورغ . انه رأسمالي وليس بروليتارياً بدون وسائل الانتاج . وقد غادر روسيا أثناء الثورة . وأمي ايرلندية . أما أنا ، فأعتبر نفسي أمريكي المولد ، روسي القومية . مفارقة ؟ لا ! وقد سيطرت الروح الروسية في أسرتنا حتى وفاة أبي . أنا حافظ سيء للتقاليد ، ولكن ، بالإضافة إلى عيسى المسيح ، كان هناك في طفولتي إلهان آخران — غوغول ودوستوفسكي . إنني أحب روسيا القديمة . أبحث فيها عن الحضارة الروسية ، غير أنني ، ألقى ، أكثر ما ألقاه ، الحضارة الأوروبية . ألقى حضارة ليست جيدة جداً ، ليست من النوع الأول . أنتم تقلدون أمريكا ، إلى حد كبير في الركض وراء الثروة . وسيظهر عندكم قريباً ، شعار « النجاح بأي ثمن » . بيد أن هذه ستكون محاولة لتكرار نجاح الغير . وهذا ، كمثل من يطير بأجنحة الغير ، أجنحة غريبة ، لا يثق بها كل الثقة . ويتناقص العنصر الروسي بالتدريج عندكم يافياتشيسلاف .

— ماذا تقصد ؟

— الانكلوسكسونيون يعتقدون الفلسفة الكلونية ، فلسفة النجاح والتوفيق الأرضية . أما روسيا ، فقد كانت قوية بحياتها الروحية . . .

— وأنت تعتقد ، أنه لا وجود لها ؟

— مازلت أنت موجوداً حتى الآن ، — قال غريتشمار وقهقه بصوت عال ، ثم رفع قدحه ومسّه بشفتيه ، ثم أضاف قائلاً : وقليل من أمثالك ، الذين يتألمون لكل شيء . بيد أن الروح أخذت تستبدل بالنزعة العملية . إن الإنسان مهما كان جاهلاً ، فهو يعرف جيداً أن حذائه ضيق على قدميه . إن أحذيتكم العصرية التي تعرضونها ، تضيق على أقدام الكثيرين ، لأن قياسها هجين ، مختلط : روسي — أوروبي — أمريكي . وهناك أيضاً نزعة عملية من إنتاج سوفيتي . . .

— أما أنا ، ياجون ، فأفكر بطريقة معاكسة : إن أحذية من صنع أمريكي تضيق على أقدام العالم كله . إنها أحذية ذات مظهر خارجي رائع ، لكنها من الداخل صنعت من جلد قاس لا تحتمله القدم . الأمريكي مائة بالمائة ، كما عرفت ذلك في الولايات المتحدة ، يعتبر نفسه نصير الديمقراطية وشهيداً : فهو مستعد لمساعدة الجميع في التخلص من الشيوعية . بيد أن هؤلاء الشهداء سرعان ما يغدون سفاحين . واعدزني لهذه اللهجة الحادة . . .

— فييتنام ؟ فييتنام الملعونة ! . . .

— ليست فييتنام وحدها . حسناً ، ليس هذا ما كنت أريد قوله . . . ليست هناك حقيقة شاملة وأبدية . فالعقل والمعرفة نسبيان . وسيأتي

حين ، ونتخلى عن كثير من الأشياء ، ونغير الكثير منها . هذا إذا ما استمرت الحياة على الأرض بالطبع . . . لكنني لا أريد تبرير أي شيء . فكل شيء يمكن تبريره . يمكن تبرير جميع أخطائنا . ومن الممكن إيجاد آلاف البراهين من أجل تبريرها . هذا أعرفه جيداً .

— انني على شك ، يافياتشيسلاف ، أن الحياة ستستمر . ولكن هل سيكون بعث ، كما قال عيسى المسيح ؟

— ما يزال بالامكان وقف الكارثة ؟ ياجون . ما يزال ذلك ممكناً . . . وقد آن لنا جميعاً ، أن نقدر الطبيعة التي شوهناها ، وزيفناها ، واغتصبناها من أجل منافع آتية . وانقاذ الطبيعة يعني انقاذ أنفسنا وضميرنا .

— كيف ؟ كيف يمكن إيقاف العصر التكنولوجي ؟ وهل تتوقف أمريكا ؟ وهل يتوقف الاتحاد السوفييتي ؟ واليابان ؟ والألمان الغربيون ؟ هذا مستحيل ، يافياتشيسلاف ، أنت تتخيل . لقد بلغ القطار السريع سرعته القصوى ، والناس في عرباته يمرحون ، يشربون الكونياك ، كما نفعل أنا وأنت ، أما قائد القطار فقد فقد عقله ، لوجود المكابح ، ليست هناك فرامل ، ونحن نشرب ونعرف أن أمامنا الهلاك ، الهاوية . . .

— لا أود أن يحل الهلاك بهذه الأرض الرائعة . على أية حال ، أنت إنسان متوقد الدهن ، مرهف العقل ، ياجون . وحدة ذهنك الشرير هي أنجيل الحقد والكراهية لهذه المدنية الخاطئة . ولكن ، لا يحق لنا ، أنا وأنت ، أن نحقد ، ولو كان حقدنا مقدساً . أتعرف على وجه الدقة ، هل يحق للفنان أن يطرح تقديرات مؤكدة لاجدال فيها . . . وأن يحكم على الحياة ؟ على الأرجح ، علينا نحن أن ندرك ، ونأسف . الناس جميعاً ينتظرون شيئاً ما ، وفي الوقت نفسه ، هم مصابون بعدم

القدرة على الإنتظار . علينا أن نبحث في العالم عن الروح التي فقدتها الإنسان ، في سعيه إلى العيش حياة سهلة . وبالتحديد ، لقد فقد الإنسان الروح . بيد أنه ليست هناك حياة سهلة ، ثمة فقط موت سهل . . .
— فياتشيسلاف ، لنسترح قليلاً ، لقد سئمت الترجمة . اسمح لي . . . وأنت أيضاً تعبت .

« نعم ، لقد تعبت . عم كنا نتحدث ؟ وماذا يعطينا هذا الفيلسوف العقيم ؟ إنه تفلسف فارغ لمخرجين ، جمع بينهما رفض جنون المدنية وخذاعها ، — قرر كريموف ملاحظاً بصورة خاطفة عيني ستيشوف الزرقاوين القلقتين المصويتين نحو وجهه . — ثانية عن معنى الحياة ؟ أمر سخييف ا غالبية الناس تعيش ، دون تقرير هذه المسائل . ليس ثمة معنى واحداً للحياة : فالناس ليسوا متكافئين من حيث العقل والعاطفة . ووحدة الفكر مستحيلة . بيد أنه ثمة ذهان السخافة والقسوة . فأني كائن رهيب ، هذا الإنسان ، إذا كان يعذب أمثاله واخوته ؟ هل قلت — الشفقة ؟ أن ندرك ونتأسف ؟ أن لانهكفم على الحياة ؟ ان هذا أشبه بالحيانة ، أيها المحترم فياتشيسلاف أندريفيتش . وهل أناقض نفسي بنفسني ؟ أين الحقيقة — في الوسط ؟ لا . أبداً . أظن أن ستيشوف قال ذات مرة في المجلس الفني : « أتريدون وحدة فكر المخرجين ؟ تفضلوا . إنها في أروقة الاستوديو شيء ، بينما هي على المنبر شيء آخر تماماً . نحن مربون جداً ، ومهذبون أكثر من اللازم ، كي يقول أحدنا الحقيقة للآخر في عينيه » . ولكن ، لماذا ينظر عزيزي ستيشوف ، الإنسان المهذب ، هذه النظرة إلي ، ولماذا أنا متكرر إلى هذه الدرجة ؟ عزيزي أناتولي ، أنت تخشى صراحتي وصدقي أمام الأجنبي ؟ وماهو

الشيء المثير ، فيما قلته ؟ أجل ، نحن حذرون أكثر مما ينبغي . . . إلى حد القرف . ولكن ، لماذا أشعر بهذا الدهول والغربة والحرج ؟ . . . » .

على شرفة المطعم المكشوفة ، حمي كل شيء إلى درجة الاحتراق ، وكان يفوح من كل شيء فتور يوم تموزي قانظ ، حتى أن الحر كان شديداً تحت ظل المظلات الشمسية الواقية . وكانت تفوح من قماش المظلة الساخن فوق رؤوسهم ، بتأثير الشمس ، رائحة جافة مزعجة . كان يشعر كريموف بالاختناق والحر ، رغم أنه خلع سترته ، وفك ياقة قميصه ، وأرخى ربطة عنقه ، دون أن يفهم أبداً لماذا ارتدى ربطة العنق اليوم . وكان يتذكر ، في حفلات الاستقبال في باريس ، أن غريتشمار كان لا يحب التألق في اللباس ، ويردد إلى حفلات الكوكتيل بالاستخفاف البوهيمي لشخصية شهيرة ، مرتدياً قمصاناً خفيفة ، غير رسمية ، مفكوكة الأزرار عند رقبته السمينة .

أما غريتشمار ، فقد كان يصغي إليه بانتباه ، وقد تحرك حاجباه العريضان بصورة مشعثة ، معبرين عن الموافقة أو عدمها ، وكانت عيناه البنيتان تضيقان في كل لحظة ، مشعتين بسخرية قاتلة لعقل خبيث ، منبسطتين تارة ، كانتا تضحيان ، بشيء من الرقة ، عندما كانت فكرة كريموف تطابق فكرته . وكلما زاد حديثهما حدة ، وكلما ابتعدا أكثر عن المسائل البسيطة إلى القضايا المعقدة ، كلما زاد إحساس كريموف بالألم — وضغط الضجر الحزين على عنقه . كان يخشى أن يسأل نفسه بثبات : ماذا حصل له ، وما هذا الذي أخذ يتكرر عنده ، بعد تلك الأزمة النفسية التي أصابته في الفندق الباريسي ؟ — كان يخشى أن يعرف عن حالته أكثر مما يجب ، لأنه لم يصب بأي مرض جدي

خلال السنوات الأخيرة . وظهر من جديد ، قلق وقشعريرة من اليأس والقنوط (« الأعصاب ارتعشت ، وقاومت ثم استسلمت ») عندما تذكر ذلك الرجل الذي يعرفه عن قرب في آخر ردهة الفندق ، وقد كان الوحيد بين جميع الذين ارتدوا ثياباً رسمية ، وحلقوا ذقونهم بعناية ، وكانوا يدخلون ، ويتحدثون بلا اكتراث ولا مبالاة قبل مشاهدة أفلام المشاهير — هو وحده كان يذكر ويشعر على صدغيه ، ببرودة الشعر الملتصق الذي تفوح منه رائحة الطمي النهري ، المختلطة برائحة الموت اللوزية ، ورأى الرموش الرطبة نصف الملتصقة ، التي كانت تسمح بمرور بريق العينين الخافت . لقد أراد أن يسمح — ولم يسمح — الصبغة التي سالت على وجنتيها من رموشها ، والتي كانت شبيهة بآثار الدموع السوداء ، التي أذهلته بضعف طفولي غريب . .

حاول ألا يتذكر تفاصيل ذلك اليوم ، بيد أن ما حدث بالأمس القريب قد انغرز ألماً متكرراً في قلبه ، وعجزاً آثماً ، وشفقة — وهذا الاختناق المفاجيء للدموع العاجزة عن الانسكاب قد حبس أنفاسه . وعندها بدت له الكلمات الرنانة والأفلام والأحاديث عن الجمال ثرثرة فارغة بلامعنى ، وبدا له ، أن العالم لم يكن عادلاً تجاه تلك الفتاة الطاهرة الموهوبة . « اسمع ، يافيانثيسلاف أندريفيتش ، أية كلمات رائعة هذه : « الفرحة هو قضية الحياة وغرضها » ، — كان صوتها الممدود يتردد على مسامعه ، صوتها الذي كرر هذه العبارة في إحدى الأمسيات عندما قدم إليها في حي أوردينكا . ولسبب ما ، كان كريموف واثقاً في تلك اللحظات من أن الشقاء ليس عارضاً ، بيد أنه لم يستطع أن يصدق ، بأنها خرجت من « قصد الفرحة » ، بمحض إرادتها .

وعندما قال لغريتشمار عبارة « لا وجود للحياة السهلة ، بل هناك موت سهل » ، لاحظ كريموف نظرة ستيشوف القلقة المحذرة . ولقلق صديقه الصامت ، البارد بصورة أريستوقراطية ، والشديد الاحترام نحو الجميع ، والذي لم يصطدم أبداً مع أي إنسان ، شعر كريموف بانزعاج منه ، بلاسبب .

« ياملاكى الحارس ، ذا العينين الزرقاوين ! لماذا تنظر إلي بهذا القلق الحزين ؟ » — أراد كريموف أن يقول ساخراً ، متنبئاً بما أقلق أناتولي بتروفيتش ، بيد أنه خاف فجأة ، على نحو غير رجولي ، من ألم في قلبه ، ومن دموع ارتفعت إلى حنجرته وتوقفت (وهذا لم يحدث له من قبل أبداً) ، بحيث أنه قال بصعوبة ، أخيراً ، بصوت مزيف :

— يكفي ، انتهت المناظرة الدولية ، وقيلت كلمات ذكية حكيمة . جميع الحقائق المنشودة أصبحت في متناول أيدينا . لهذا ننهي شرب الكونياك في هذا المكان ، ونتناول قهوة مركزة للخاتمة السعيدة . ونبدأ بالتفكير بكيفية العيش لاحقاً ، في ظل هذه المدنية الفاخرة ، وماذا علينا أن نفعل . . .

ترددت جملته الأخيرة بحشة مبهمه ، بصوت منقطع . وبعد أن بلغ ريقه ، سعل بمرح ومسح صدره من العرق ، ورفع قدحاً ، متجهماً إلى غريتشمار ، وأكمل حديثه بصوت عال ، شديد الارتفاع :

— نحبك يا جون . بالمناسبة ، مارأيك أن تذهب اليوم إلى مسرح البولشوي ؟ مارأيك ؟

أخذ غريتشمار يتنفس مخرخراً بضجيج ، طارحاً الدخان من منخري أنفه الكبير ، وبدأ وكأنه ينظر بريبة متسائلة إلى عيني كريموف ،

وإلى يده التي تمسح العرق من صدره ، وبعد فترة من الصمت ، سأله بالروسية :

— أنت منحرف الصحة قليلاً ؟ . . . أنت متعب ؟ قلبك يوجعك ؟
أذكر أنك كنت تبتلع الحبوب في باريس . . .

— الحياة صراع مع حتمية الموت . وقد جاء في التوراة ، أن الإنسان يولد للمعاناة . أنا في حالة صحية ممتازة . ومارأيك أنت بالذهاب إلى مسرح البولشوي ؟

— لماذا تمزح هذا المزاح ؟ — قال ستيشوف بتأنيب حزين ، متضرعاً بنظرته إلى كريموف ، ومفرقشاً بأصابعه — أنت لم تشرب كثيراً إلى هذا الحد ، غير أن الارهاق باد عليك بوضوح . . . لست على ما يرام أبداً . . .

— ساعني أرجوك ، يا أناتولي ، لقد مزحت بصورة غير موفقة ، فأنا مازلت خاضعاً لتأثير العبارات الفخمة والسامية ، — قال كريموف متنعشاً ، وغمز بعينه على الفور ، وشرب ما بقي في قدحه من الكونياك ، ثم حث غريتشمار على الاسراع بود وخشونة : — هات ماعندك ، اقترح البرنامج الذي تريده ، أنا اليوم دليلك .

تأوه غريتشمار ، وأشار بأصبعه الكبير ، الذي يشبه المقانق الغليظ ، طالباً الانتباه ، ثم كرع مافي قدحه حتى الثمالة ، وقلبه رأساً على عقب ، وهزه فوق الطاولة ، مبيناً أنه أصبح خالياً من أي قطرة ، وقال بتؤدة وتأن :

— قدحي . . . العزيز . . . أشكركم على حسن الضيافة . هكذا

يقال بالروسية ؟

— تماماً ، يا جون . إن لفظك رائع باللغة الروسية . كم أتمنى أن أنطق الانكليزية على هذا النحو .

وبعد أن ضحك ضحكة صامتة ، حرك غريتشمار اصبعه — وكانت هذه عادة عنده كما يبدو — وتحدث بصورة مؤتمنة ، بحيرة لإنسان لم يرغب بالحياء والحجل وسط هذه الجماعة .

— يقال عندكم ، اذهب إلى مسرح البولشوي ، ويقولون في باريس ، اذهب إلى فولي بيرجي ، إلى ليدو . صحيح أنه يمكن هناك تناول قذح من المشروبات على نحو رائع . لكنني لأحب مسرح الأوبرا . لا يمكن للأفكار أن تغني وترقص . إنني أجلس ، أشاهد ، ويسيطر علي ضحك سخيف ، عندما يعانون ويتألمون على خشبة المسرح . بيد أنه من غير اللائق أن يفهقه الأجنبي في المسرح . وهل تحب مسرح الأوبرا أنت يا فياتشيسلاف ؟

— لست مغرمًا به إلى هذا الحد ، ولا أكرهه إلى تلك الدرجة . إن همي هو تأمين بطاقة لك ، ولكن لن أذهب معك إلى المسرح ، وأنت تفهمني . انني أشعر بانزعاج شديد ، عندما تتمايل الديكورات وترقص ، وينفتح شارب أمام الدون بازيليو في لحظة البطولة .

« علام ، لماذا أتحدث على هذا النحو ؟ أجل ، أجل ، سينتهي الآن كل شيء ، وأشعر بتحسن . أي حنين هذا ! . . . هل أشرب الكونياك ثانية ؟ وأتذكر طرفة من الطرائف ؟ إنه أمر غريب — ليست لدي ذاكرة لحفظ الطرائف والنوادر . أجل إنه رجل مثير غريتشمار هذا ، غريتشمار . . . ولكن لماذا ينظر إلي على هذا النحو ، بجذ وإصرار ؟

— فياتشيسلاف ، أنا لم آت إلى موسكو من أجل المسرح ، ولم أفد سائحاً . لدي موضوع هام بالنسبة لك . يجب أن أناقش فكرة معك . لدي هدف . . . أريد أن أدعوك . . . باللغة الروسية أدعوك ، أليس كذلك ؟ . . . أدعوك لتقوم بالأخراج . . . لا ، أدعوك لاجراء فيلم . لدي سيناريو جيد ، ويلزمي ذهنك .

— هكذا اذن ، ياجون ! . . . — صاح كريموف بدهشة مغالية . — أنت تدعوني إلى هوليود ؟ لماذا لم تحدثني عن هذا الأمر في باريس ؟ . هناك كان من الأسهل معالجة هذه المسألة في مزاج غير مكثرت . . — أنا منتج ، ولا يمكنني رمي عدة ملايين في المرحاض . لقد جئت إلى موسكو بصورة رسمية .

« آه ، أية أعاجيب تحدث في هذا العالم ! هذا طبعاً ، أمر لم أتوقعه . لقد شاهد جون فيلمي « الحرب غير المعلنه » ، وبعد أن فكر في الأمر ، وضع عينه علي ، كما يقول الأمريكيون » .

— فياتشيسلاف أندريفيتش ، أنت موهبة رائعة — قال مولوتشكوف باستعطاف وهو يمزغ « السندويش » بهدوء ، وقبله برزت بقع بنفسجية على عظمي وجنتيه — كم هذا رائع ، أن تخرج فيلماً في أمريكا . هناك ستحظى بالشهرة العالمية . . .

— فلتذهب إلى الشيطان أنت والشهرة العالمية — قال كريموف بفظاظة ، وفجأة ابتهج وسيطر عليه المرح — أنا أحب الحكايات والأساطير لكنني لاؤمن بها .

— إن هوليود لا تحوي الأشياء السيئة والحكايات والخرافات فحسب .
لقد صورت أربعة أفلام هناك . وأنا لست أسوأ مخرج .

— وهذا ما أردت قوله ، لديكم فائض من مخرجينكم الأمريكيين ،
الذين سيلتهموني بأحشائي ، باعتباري منافساً ، حالما أظهر هناك ،
بقواعدي وأنظمي في دير غريب .

— هذا الفيلم يحتاج إلى مخرج روسي ، إليك أنت ، أنت يا كريموف ،
كرر غريتشمار باصرار — يجب أن أتحدث إليك بالروسية ، « رأساً
لرأس » . تعال نخرج من هذا المطعم اللذيذ جداً . لنتمشى سيراً على
الأقدام ، هكذا يقال ، أجل ؟ ونحدث عن السيناريو . ولن نتعب
معنا مستر ستيشوف . سوف أتعب نفسي أنا وأتحدث بالروسية . شكراً
جزيلاً . هكذا ، اتفقنا ؟ .

— الشكر متبادل — أجاب ستيشوف وشكره بابتسامة .

— ماذا ، لننهض — قال كريموف ، وقدم نقوداً لمولوتشكوف ،
لسبب ما ، بصورة مهذبة وماهرة ، مغطياً إياها براحة كف على الطاولة ،
وكأنها بطاقة مخرجة . — ادفع الحساب من فضلك ، ياتيرني . ماذا بك ،
تريد الإمساك بسيارة أجرة ؟ — قال متهمكماً — دع السيارة لنا . أما
أنا تولي بروفيتش ، فأوصله إلى بيته بسيارة أجرة .

نهضوا وساروا باتجاه المصعد الكهربائي ، أمام مظلات المطعم
الذي خلا تماماً من الزبائن ، بين خطوط أشعة الشمس القائظة بين
الطاولات ، التي كان بعضها مغطى بأغطية بيضاء ناصعة ، وعليها
أطعم الملاحق والشوك الفضية . وسمع من الأسفل صوت الضجة الكبيرة

المنبعثة من الشوارع . وقد انزعج كريموف الآن من رؤية زرقة السماء فوق سطوح المنازل ، المعكرة بأبخرة المدينة الكبيرة ، ومن رؤية البزة السوداء الصارمة لكبير الندل في الفندق ، ومن رؤية مجموعة من الندل الشباب ، الذين مشطوا شعورهم بأناقة ، وتجمعوا أمام البار ، وهم يودعون بأعينهم باحترام ، الضيف الأجنبي الكبير الجثة ، الذي يشبه صخرة جامدة .

* * *

المفصل الحادي عشر

كانت الشمس لا تزال في قبة السماء ، لكنها بدأت تميل إلى الغروب ، عندما خرجا من السيارة ، بعد تنقلات طويلة في موسكو ، وبعد تناول كوكتيل خفيف في دار السينما ، وتناول المرطبات في شارع غوركي . خرجا من السيارة عند هضاب لينين « لينينسكي غوري » ، واقتربا من ساحة الشرفة المطلة ، التي طلب منه غريتشمار أن يقوده إليها .

هنا ، كان سياح أجانب ، بسرراويلهم القصيرة ، يقفون ويجلسون على الحاجز الحجري الغرائبي ، مثل جماعة صاحبة ، وقد رموا تحت أقدامهم حقائب السفر . وبالقرب منهم ، كان عروسان يلتقطان الصور التذكارية ، وقد أحاط بهما الأصدقاء ، الذين كانوا يترجلون من السيارات . ضحك العروسان وتسمرا بأمل خالد ، مغرور ، بأن تبقى إلى الأبد هذه اللحظة المنقضية على الصورة اللامعة . كانت العروس ترتب على عجل ثنايا ثوبها على خصرها المكتنز ، ناظرة إلى طرفي حداثها اللذين كانا يبرزان قليلاً من تحت فستانها الأبيض الطويل ، وهي ترفع بايعاز من المصور ، وجهها البسيط الذي شوهته ضحكة لالزوم لها ، مدخلة يدها تحت كوع عريسها الشاب الأسمر ، ذي الشاربين المتغندرين

القصيرين . وتساءل كريموف في نفسه ، كم هما بعيدان ، هذان العروسان ، اللذان ينتظران أعجوبة جمالهما على الصورة ، وكم بعيدون ، هؤلاء السياح القادمون إلى بلد غريب ، ببطاقات اشتروها ، بحثاً عن ملذات البصر — كم هم بعيدون ، هؤلاء جميعاً عن كل ما كان يتناقش حوله مع غريتشمار ، وهو الذي ليس له أدنى أهمية بالنسبة للآخرين ، بالنسبة لغالبية الناس الذين يعملون ببساطة ، بعرق جبينهم ، ويعيشون حياة بسيطة ، دون أية أفكار أو آلام زائدة ، يعيشون بسعادة ، ربما ، مثل نبات معافى تحت قبة السماء .

« حقاً ، يمكن العيش باطمئنان ، دون طرح أية أسئلة ، والإهتمام بالقوت الضروري فقط . مثلما تغيش مئات الملايين من الناس » — أخذ يوخى كريموف لنفسه ، ولحزنه على نفسه ، قال لغريتشمار الذي كان ينظر شزراً ، بفضول ، إلى العروسين :

— عندما عدت من أمريكا ، كان يطرح علي دائماً هذا السؤال : ما الذي أعجبك هناك : أكثر من أي شيء آخر ؟ وكنت أغغمم مفكراً ، ما هو الذي أعجبني فعلاً . أما الصحفيون الشباب الأذكاء ، العازفون ما هو المطلوب ، فكانوا هم أنفسهم يوحون إلي : الشعب ، كما يجب الجميع إطلاقاً ، عند عودتهم من رحلاتهم إلى الخارج . لا ، ياجون ، أنا لم أشعر بالشعب الأمريكي ، رغم أنني حاولت التحدث إلى كل عابر سبيل ألقاه ، ماعدا سمة واحدة من سماته ، وهي السذاجة

اقترب غريتشمار الذي كان يجر قدميه بثقل على الاسفلت ، من الحجر الغرائبي ، وهو يتنفس بصعوبة ، واتكأ برفقيه على الحجر ، ثم أخرج من جيب سترته علبة السجائر ، ثم تمتم بصوت مبخوح :

- وأنت ، هل تعرف الروس . . . هل تعرف الشعب الروسي ؟
- أعرفه قليلاً ، لأنني حاربت . لكن هذا كان في الأربعينات .
لا أحد يعرف شعبه حتى النهاية ، معرفة كاملة . ولم يعرفه سقراط
ولا تولىستوي ، تماماً كالكون الذي لا يمكننا معرفته . بيد أن السنداجه
ليست من سمات الروس . الثقة ، وسرعة التصديق - نعم هي سمة
مميزة لهم . ولكن ليس السنداجه . أنا أتحدث عنك يا جون ، وعن السيناريو
الذي حدثتني عنه . لن أستطيع لإخراج فيامك .
... لماذا ، قل لي ؟

- أنت لم تختار المخرج المطلوب . أتريد مني أن أخرج فيلماً عن
يوم القيامة ؟ لن أتمكن من ذلك .

لاك غريتشمار السيجارة في فمه ، وكانت نظراته تنزلق بكآبة
ونهم على الظلال المتكسرة لموسكو القابعة في الأسفل ، في ضباب ما قبل
الغروب ، على رؤوس الأبنية الشاهقة البعيدة ، التي تشبه رؤوس المعابد ،
والتي كانت تحمل شيئاً متخلفاً ، قوطياً ، على الدبوس الرمادي لبرج
« أستانكينو » والأسطح الواقعة خلف الأفق ، على البقع الصفراء الباهتة
لناطحات السحاب ، ذات الزوايا القائمة الرتيبة ، وعلى زجاج النوافذ
الساطعة المتلاثلة المواجهة للشمس ، وعلى القباب المذهبة لدير العذارى
« نوفوديفيتشي » بأبراجه الصغيرة ، التي تشبه الدمى ، على ذلك الجانب
من المنعطف المنحدر لنهر موسكوف ، الذي أظلم ببرودة قبيل المساء
المقرب ، حيث كانت تزحف ، بالقرب من دائرة الملعب الرياضي
الكبير ، عربة الترام المائية مثل عجل أبيض . منزلاً شاربياً في الماء ،
نحو قنطرة الجسر الحديدية . ومن السطوح المتراكمة . من المدير المرتبف

بحسر المترو ، الذي كان يصل إلى الأذنين ، والذي كان يخترقه القطار .
من الغيباب العاتم الكدر ، الذي ارتفع فوق الاسفلت المتسخن خلال
النهار ، من كثافة الغازات المنفوثة ، وبدا لكريموف وكأنه تدفقت
من الأسفل ، من هذا الجسم الكبير ، الحي ، رائحة زيت دافئة من
عرق الآليات ، كما تدفق إرهاب وضيق المدينة الكثيفة السكان ،
التي أحبها منذ صغره ، ولم يعد يتعرفها في السنوات الأخيرة .

— كان والدي يقول : في موسكو أربعون أربعينات كنيسة —
تتم غريتشمار ، وحرك بقجهم حاجبيه الكثيفين . — أين هذه الأعداد
الهائلة من كنائس موسكو ؟ ناطحات سحاب . . . قداحات مؤلفة
من عشرين طابقاً ، كما في فيلاديلفيا . لماذا هدم الروس المعابد ؟ لا يصح
أن تضحك ، حيث ثمة سر . . . لا تفعل هكذا ، يافيا تشيسلاف . — قال
بسخط ، منتقياً الكلمات ، وضارباً الحجر الغرائبي بكفه — عليك
أن تنتج الفيلم . عليك أن ترفع صوتك أمام العالم كله ، وتقول كلمتك
للمنتحرين الأغبياء ، للحمير المتعطشين . الموضوع — هلاك الكوكب
الأرضي . أناس تافهون يحرقوا أشعوا الحرب النووية . الأرض كلها
تتحرق . النار ، النار في كل مكان ، ثم تصبح الأرض كلها حجراً
متفحماً . ولم يبق من الأحياء سوى سلحفاة واحدة . سلحفاة وحيدة ،
بائسة ، تزحف وحيدة نحو شاطئ المحيط . فترى الشمس الحمراء
الكبيرة . . . في الأمام ، في الدخان . الشمس كأنها بقعة منتفخة ،
متورمة . والسلحفاة تزحف . تقترب من المحيط ، فإذا هو جاف ،
فارغ . إنه ميت . . . هكذا يقال بالروسية ؟ حفرة هائلة ، عظيمة ،
وعظام الأسماك . تنظر السلحفاة ، تنظر إلى المحيط الميت ، تنظر إلى
الشمس . وتموت على حافة الحفرة . تسجد عيناها والشمس تنطفئ .

— شيء لا يدعو للمرح — قال كريموف مفكراً ، متصوراً بوضوح
نهاية الفيلم هذه : شاطيء متفحم ، بصورة حزينة ، المحيط جفت
مياهه بتأثير النار النووية ، عين السلحفاة الحامدة ، الكامدة ، المغطاة
بطبقة رقيقة ، مع نقطة حمراء ، في قرص الشمس ، تنطفئ تدريجياً .
إنه مرعب ، مرعب . إنه مصير أسود لا مخرج منه .

— الفيلم يجب أن يدعى « السلحفاة الأخيرة » . — قال غريتشمار
متأوهاً ، ومسح بمنديلته حاجبيه المقطبين وعينيه الرطبتين ، ثم وجنتيه
المرتعشتين بألم ، ثم مخط بصورة دائرية وقال : — إنها القيامة . . . إنه
يوم الحساب الرهيب بدون يسوع . هذا الفيلم يجب أن يكون . . . مثل
صرخة أخيرة قبيل الموت . إنه عقاب الكذب والزيف والنقائص .
عقاب البشرية الطائشة الرعناء . إن فيلمك « الحرب غير المعلنة » كان
فيلمًا مقلقاً جداً . إنه يعالج مشكلة البيئة الرهيبة . أما « السلحفاة » ،
فهو فيلم يجب أن يصور رعب جهنم . يجب أن تسقط قابوB الجميع ،
إنه الصدمة ، الموت ، هلاك المدينة والأرض البائسة ، وهلاك السياسة
القدرة السيئة كلها

لفظ غريتشمار ، بعدة توقفات ، وبصوت متقطع ، الكلمات
التي عثر عليها ، وتابع مسح وجهه ، دون عجل ، بمنديلته ، وكأنه
بهذه الحركة يكسب حديثه أهمية والحاحاً ثابتين . بيد أن كريموف
رأى اضطرابه الأخرق ، وشاهد العرق على جفنيه المتورمين — فتذكر
بوضوح فيلمه الأخير ، الذي عرض في مهرجان باريس . لقد هز هذا
الفيلم كريموف بالمصير البائس التراجيدي للشخصية الإنسانية في نظام
العالم الحالي ، الذي أدركه بطل الفيلم إدراكاً كاملاً ، بعد حادثة

السيارة ، حيث وقع بـخطأ في مستشفى المجانين ، ووجد نفسه في هذا المستشفى ، الذي يديره أصحاب الأموال ، وجراحون لطفاء بـزيف ورياء ، حيث يجعلون ، في قاعات وغرف عمليات مريجة ، من الناس المصابين باصابات بسيطة مرضى بأمراض مميتة ، لأمل من شفائهم ، ومن المواهب الفائقة أشلاء بلا إرادة ، ومن الحقراء حكماً وسلاطين ، وينتهي الفيلم بوضع البطل على طاولة العمليات تحت همهمات جراح مجنون ، كاهن الزيف والرياء : « من يسامح ، من ينقذ ، من يشفي المدنية ! نحن . . . » .

— أشكرك على هذا العرض يا جون ، — قال كريموف ، مرتجفاً من آثار وبقايا العالم المدمر ، المريجة المعروضة ، التي تمثل أقسى عقاب للبشرية الحية . — لقد ابتكرت فيلماً مروعاً ، بلا أفق ، ودون أي أمل . وأنا ، مع ذلك ، أحب الأرض ، لهذا لن أستطيع أن أكون جبريلاً ، يحمل سيفاً نارياً .

— شيء رهيب ، يا فياتشينسلاف ، أمر فظيع . ان الشر يبقى . . . بدون عقاب . . . — قال غريتشمار بصوت خافت وآسف ، وعقد جبينه ، باحثاً عن الكلمات اللازمة — وهل أنت واثق كل الثقة أنه يمكن تحقيق . . . لا . . . هكذا ؟ أجل ؟ — يمكن بلوغ المثل الأعلى للأخوة الإنسانية ؟ لا . بل وأسوأ .

— أجل ، انه أسوأ — أكد كريموف — غير أنني واثق بما يلي : يلزمنا الآن ، بطل ، يطرح على الناس المسائل والقضايا الأبدية حول كل داع أو سبب . كثيرون سوف يعتبرونه أبلهاً ، في البداية ، بيد أن هذه ليست مصيبة . ان دون كيشوت شخصية خالدة . لقد تزايد

واستثنى ، إلى حد مفزط ، عدد الأغبياء والمخادعين والمخربين ،
والناس الصغار البيروقراطيين — من رئيس لجنة البناء وحتى الوزير ،
الذين يسترشدون بمبدأ واحد : عش حياة سعيدة اليوم ، ولتغرق الدنيا
من بعدنا . فيقطعون الغابات دون رحمة ، ويحولون الأنهار إلى ميازيب ،
والسماء إلى ملقى للقاذورات . لأنهم قتلة الأرض ، وقتلة كل كائن
حي : هل لاحظت ، ياجون ، أنه لدى جميع هؤلاء الأشخاص ضيقي
العقول ، في العالم ، عندنا وعندكم ، تعبير واحد في عيونهم ؟ اللامبالاة ،
وعدم الاكتراث بكل شيء على وجه الأرض ، ماعدا الراحة والرفاهية
لمؤخراتهم . ومن أجل هذه الغاية ، فهم مستعدون لبيع أراضيهم
وبلادهم ، وأمتهم ، وخيانتها ، بل وبيع العالم كله وخيانتته .

— دون كيشوت . . . أجل ، أنت . . . أنت تعلم بأنه يمكن
تبديل الطبيعة البشرية .

— سأخذك ، أنا لست دون كيشوتياً . أنا أعرف المسائل التي
تقلقني . ولكن لا أعرف أجوبة دقيقة لها ، ياجون . أتفهم ؟ لهذا ،
فأنا أشعر بالكآبة .

— وماهي الكآبة ؟

— الكآبة ؟ لأنها الألم الذي ليس له موضع معين . أتفهم ؟

— أنا أعرف هذا . . . أعرفه جيداً .

وقفنا على الساحة المطلة حوالي نصف ساعة ، بعيداً قليلاً عن السياح
الذين كانوا يتوافدون ، ويغادرون من فترة لأخرى على سيارات
الباص ، التي كانت تملأ الاسفلت بالغبار ، ثم هبطا على الدرج الحجري

أغرانيتي نحو كنيسة ثرويتسكايا ، وسارا باتجاه الطرق الجديدة التي
تقوم على طرفيها أشجار الزيزفون . وهنا ، على مقربة من الكنيسة ،
خلف أسوار المقبرة القديمة المغلقة ، رأى كريموف بدهشة ، بين شواهد
القبور التي نمت الأعشاب من حولها ، رجلاً ملتجئاً ، يرتدي قميصاً
مسيبلاً فوق البنطال ، حافي القدمين ، كان يمشي على الممر الذي كانت
تقطعه أشعة الشمس الساقطة من الأشجار ، مترنحاً ، ثملاً في ثناؤب
مديد ، وخلفه ، وبتثاؤب متشنج ، كانت تنتقل بتراخ امرأة مكتنزة
القدمين ، حاملة مخدة تحت إبطها ، وقد ارتدت ثوباً من القطن ،
ورسمت بسرعة شارة الصليب أمام قمها * . انهما ، على الأغلب
(كما تصور كريموف) حارس الكنيسة وزوجته . كانا ينتزهان في
مكان ما تحت الأشجار . وشعر مباشرة ببرودة المخدة ، ودفع العشب
النضر ، وحسد كريموف ، دون قصد ، غبطة الآخرين البريئة هذه ،
وقال :

— أتعرف ، يا جون ، أي لذة ، أن يستلقي المرء على العشب
وينام ؟ ألم تجربها ولا مرة ؟

— روس ، أجل ؟ إنها روس * * — قال غريتشمار ، وتوقف أمام
السور محققاً بعينه الكرزيتين الحادتين بالرجل الملتحي ، الرازح تحت
وطأة تشنجات التثاؤب . — كان أبي يقص علي . . . كان لديه عقار
كبير . . . في الأورال — قال غريتشمار ببطء — بالقرب من مدينة

* عادة يتبعها المتدينون ، وكبار السن في روسيا ، عند التثاؤب — المترجم —
* روس — الاسم القديم لأول دولة روسية للسلافيين الشرقيين ، تأسست على ضفاف
نهر الدنيبر في القرن التاسع . — المترجم —

بكتاتيرنبورغ ، تسمى عندكم الآن سفردلوفسك ، أجل ؟ هناك كان
عنده عقار . حديقة واسعة كبيرة . كان هو ، أبي ، وجدتي . . .
يجبان النوم على الدريس . كان يقول ، بأنهم كانوا ينامون هناك في
روسيا ، تحت أعين الله . وكان يقول . . . عندما كانت تطل نجمة
الليل من النافذة ، في البيت ، كانت تغدو روجي أكثر ثراء —
وضرب غريتشمار صدره باصبعه — انه كان يعرف روسيا ، كثيراً ،
معرفة مثالية . . .

— عفواً ، يا جون — قال كريموف بحزم جامع — لم يعرف أحد
ولا يعرف روس ولا روسيا بصورة مثالية . حتى ليف تولستوي .
لا وجود لروس الآن . أما روسيا فهي بلاد المفاجآت . وليس هناك
من بلد آخر مثلها في الطبيعة . وإذا كان هناك من سينقذ المدنية الضالة ،
التائهة ، فهي أيضاً روسيا . كما حصل في الحرب العالمية الثانية . كيف ؟
لا أدري . وبعد كم من السنين — لأدري . وبأية توضيحات — لأعرف .
ولكن ، ربما ، قد يتمثل فيها ضمير العالم كله . ربما ، لم تُعطَ أمريكا
مثل هذه الميزة . فقد فسدت روحها تماماً ، ووقعت حلفاً كاملاً
مع الشيطان . . .

وصمت كريموف ، ثم قال بضجر «آه» — وتأبط ذراع غريتشمار ،
داعياً إياه بهذه الآهة ، إلى السير بصمت على هذا الطريق المشجر ،
واستنشاق الهواء العذب .

غير أن غريتشمار كان يقف بحيرة وارتيك أمام سور المقبرة ،
ناظراً إلى القباب الخضراء المترائية بين الأشجار لكنيسة قريية ، حيث

كانت تزقزق العصافير على امتداد قبة الأجراس ، وكانت الحمام
تمشي على الافريز الجديدي ، وهي تطرق بمخالبها .
— أريد أن أذهب إلى هناك — قال غريتشمار .

دخلوا إلى الكنيسة الصغيرة ، الهادئة ، التي تفوح بالشموع الدافئة ،
والتي تضيئها من الأعلى أعمدة الشمس المائلة . لهذا كانت نيران الشموع
المشعلة أمام الأيقونات الباقية تحترق على شكل جزيرات باهتة . ما إن
دخلوا ، حتى رفع غريتشمار نظره بخفر إلى القبة ، ورسم شارة الصليب
بغيرة وحرارة ، وقد دهش كريموف من التبدل الخاطف المفاجيء ،
الذي حدث على وجه غريتشمار المكتنز ، وفي كتفيه الثقيلين المحدودين .
كان هذا تعبيراً غير مألوف ، تعبيراً جديداً عن الخطيئة المستسلمة
الخاضعة ، تشبه الخطيئة المتعمدة المصطنعة ، في هيئة غريتشمار الشبيهة
بالصخرة الجائدة . أما هو ، فقد أمسك أنفاسه ، وتحرك دون ضجة
إلى مكان ما ، في الزاوية ، إلى اليسار من المذبح ، في الظلام الذي تبدده
الشموع . وهناك وقف بصورة خرقاء ، على طريقة الثور ، وقف
أمام الأيقونة على ركبة واحدة ، ثم على الركبة الأخرى ، وتحركت
يده اليمنى ، لترسم صليباً واسعاً كبيراً على صدره ، وكان رأسه يرتفع
وينخفض في الركوع والسجود . أما كريموف ، الذي لم ينتظر هذا
من غريتشمار القاسي ، الذي لا يعرف التسامح في أفلامه القاسية ،
فقد أشاح بوجهه عنه ، مصدوماً من التصنع واللاطبيعية ، وكأنه كان
مرغماً على مشاهدة إنسان يعرفه معرفة قريبة ، ويعرف أنه يخدعه على
مرأى منه .

« وماذا أفعل أنا ؟ — امتعض كريموف من مشاعره الخارجة بـ

ولماذا أشك بصدق إيمانه ؟ ومن أعطاني هذا الحق ؟ لأنه لا ينسجم مع أفلامه ؟ مع آرائه ؟ وأين على وجه التحديد ، أين أرى الخداع والتناقض ؟ وأين هو حقي السامي بأن أدينه وأحكم عليه ؟ كم ألفنا نحن ، أن نعتبر أنفسنا مثاليين أمام العالم كله ، متميزين خالين من العيوب ! أما هو ، فقد أخرج فيلمين من أقوى الأفلام ، برز فيهما ذلك الألم الإنساني الكبير . من المستبعد جداً أن يستطيع مخرج آخر التعبير عنه بمثل هذه القوة » .

ولنفوره من إنسان ثان متكبر في ذاته ، تربي منذ طفولته على وعي التفوق الأخلاقي الواثق ، والذي عاش في بعد ملائكي . كامل عن الخطيئة ، يعرف كل شيء ويدركه إدراكاً دقيقاً ، ارتجف كريموف من الحجل ، ونظر من بعد إلى غريتشمار ، الذي كان واقفاً يخشوع على ركبتيه ، وخرج بسرعة من الكنيسة ، هارباً من هذا الإنسان الثاني الحقير الكامن في نفسه .

توقف أمام المخرج ، حيث كان يتقد مصباح في حالة برتقالية ، وكان وجه العجوز ، بائعة الشموع ، المضيء المتجدد ، المثلث بمندبل أسود ، مائلاً إلى الطاولة ، بصورة بدت له حزينة وقانطة . وباحساسه الثاقب المعروف ، ولابعاد الحناق عن عنقه ، تلمس كريموف في جيب بنطاله ، بقلق واضطراب ، ورقة مالية كبيرة ، وبفكرة سرية للتخلص المحتمل من الكتابة ، وبأمل التفريغ عن نفسه ، دون اقتناع بهذا التفريغ ، رمى كريموف الورقة المالية على الطاولة ، وخرج إلى الهواء الطلق .

كان يمشي ، بانتظار غريتشمار ، جيئةً وذهاباً على الرصيف ،

أمام طنف الكنيسة ، وهو يدخن ، مكرراً الفكرة ذاتها التي تطمثه دائماً : « الآن ستمر وتنتهي ، كما ينتهي كل شيء » . وبالتدريج تخلص من هذا الاختناق الشديد ، وظهر العرق على جبينه ، وأحس فعلاً بشيء من الراحة . وعندما ظهر غريشمار المقطب الجبين ، بعينه الملتهبتين ، وقال له : « . . . هذه كنيسة روسية حقيقية » ، اقنصر كريموف على سؤاله بصوت عادي :

— من أجل ماذا صليت ، إن لم يكن سرّاً ؟

— لاداعي للحديث .

— اعذرنى ، إذا كان الأمر كذلك .

— سأقول لك . ابتهلت وصليت من أجل إنقاذ العالم . . . — خفف غريشمار من سرعة تنفسه ، وهو يفتش بأصابعه في علبة السجاير ، وهنا عاد وجهه كما كان عليه سابقاً ، وكأن حديثهما لم ينقطع ، ولا لثانية واحدة . — أريد أن أسلمك العقد . انني أريد هذا الفيلم يافياتشيسلاف . أنت قادر على إخراجه . . . وتعال نشرب ثانية . . .

— آه ، ياعزيزي جون . هذا ليس فيامي — قال كريموف بحزم غير مزعج : — إن عرضك مغر ، لكن هذا ليس فيلمي . . . وكما يقال ، الأمل آخر ما يموت . من الشاعر القائل : إن القبرة على الحبل تحتفظ بأغنياتها طيلة فصل الشتاء ؟ أم أن هذا القول من عندياتي ؟

— هذه عواطف . . . : رومانسيتمك السوفيتية السابقة .

— لا ، الحبل هو الأمل .

— أريد أن أشرب مشروباً روحياً من جديد ، يافياتشيسلاف ، وأريد أن أتحدث إليك .

الفصل الثاني عشر

في الرابع من تموز استدعي كريموف إلى المحقق ، ولم يذهب إلى البيت الريفي ، بل أمضى ليلته في المدينة .

عند الفجر ، سمع ، بوضوح في منامه ، شخصاً ، كان يحاول تكسير باب شقته من بهو الدرج — بحدة وقساوة ، كان حديد الأقفال المنتزعة يصير ، وكانت ألواح الخشب تطلق وتنداعى . وسقط الباب تحت الضربات وتقوس . واندس شيء خطير ، لاشكل له ، من الطرف إلى غرفة مكتبه ، وأخذ يراقبه بلاعين ، وقد تجمد راقداً على الأريكة ، وأخذ هذا الشيء يمسه مهدداً ، أما هو ، فلعجزه وضعفه ، لم يستطع حتى أن يدبر رأسه ، ويصرخ بحجارة جافة : « من هنا ؟ » .

لقد رأى كل هذا بوضوح وواقعية ، لدرجة أنه أفاق من نومه والعرق يباله ، ونظر طويلاً بريبة ، دون أن يصدق ، إلى الباب الذي يلمع بهدوء على ضوء الفجر ، من مكتبه الذي لم يمس . كان يرقن ويفكر بحديثه المقبل مع المحقق ، الذي حدد في الدعوة ، في الساعة الثانية عشر ظهراً ، وكانت ضربات قلبه العميقة تصم أذنيه ، وكان يشمر بعناء ثقيل وصعوبة ، نتيجة عجزه الكريه السابق في الحلم ، كانت هذه الدعوة الثانية إلى المحقق ، أما لقاءهما الأول فقد جرى

عشية سفره إلى باريس ، وفي تلك الأثناء ، كان كريموف على قناعة تامة ، بأن كل شيء يجب أن يتضح حتى النهاية . لكن دعوته من جديد إلى بتروفكا * ، وواقع أن التحقيق ، كما هو مفترض ، لم ينته ، شكلاً ظاهراً من التناقض المبهم والغموض المريب . لم يتوقف خفقتان قلبه ، ولم ينس ذلك الشيء الأبيض ، العديم العينين ، الذي دخل إلى مكتبه . ومن أجل أن يتنشط وينفض عن نفسه تخدير النوم ، أخذ « دوشاً » بارداً ، وفرك جسمه بمنشفة ذات وبر ، إلى أن سمع صوت التيار المخشخش في عضلاته . وعندما بدأ يحلق ذقنه ، لاحظ شعاعاً رفيعاً آتياً من النافذة عبر الغاية ، قد أصبح فضي اللون في المرأة . وبينما كان يرغي رغبة الخلاقة المعطرة ، التي تدفء الجسد برقة ، حلّ ذقنه ، شعر كريموف فجأة بتدفق رشاقة روحية إلى نفسه ، كالتي كانت تحدث له أحياناً في الصباح الباكر . وعندما ارتدى قميصاً نظيفاً يحجب له الرطوبة ، ورأى عينيه البارقتين بالابتسام ، غمز بعينه بود وصدافة ، وكأنه يتابع حديثه الذي لم ينته مع غريتشمار : « سوف نعيش . . . حتى يوم القيامة ! » .

شرب كريموف كأساً من الشاي الثقيل ، ومشى في مكتبه باتجاه الهاتف ، عازماً على الاتصال بالبيت الريفي . اسودّ جهاز الهاتف على الطاولة مثل وحش صغير غريب ساكن ، ووقف كريموف أمام الهاتف غارقاً في أفكاره ، لكنه لم يهتف به ، لعدم رغبته بأن يكذب على أولغا ، ويفسر لها مالا يستحق الحديث عنه الآن . فحسبما استقبائته أولغا في

* بتروفكا - اسم الشارع الذي يقع فيه بناء الإدارة الداخلية في موسكو . وقد أصبح هذا الشارع رمزاً لهذه الإدارة المختصة بالتحقيقات الجنائية وملاحقة المجرمين - المترجم -

البيت الريفي ، حزر كريموف أن الشائعات قد وصلت إليها ولم تستثنىها ،
بياء أن أي تفسير كان أشبه بالتبرير ، أشبه بالاعتراف الحزين .

« المهم ألا تتورط أولغا - فكر كريموف ، وهو يتمشى في شقته
بين غرفها اليتيمة ، الناضجة بالغبار والفراغ المشمس . - علي أن أواجه
هذه المسألة لوحدي » .

* * *

عندما وصل بسيارة الأجرة إلى بوليفار تسفيتوي ، ومن هناك
سار مشياً على قاعه باتجاه شارع بروفكا ، كان الوقت وقت عمل ،
قبيل الظهر ، وكانت الشوارع غاصة بالناس المتراحمين ، القوضيين
العابثين ، مع حفيف مستمر لا ينقطع ، ومع هدير وانخفاف السيارات
الصغيرة التي تنطلق نحو غاية ما ، باتجاه ما ، ومع قرقة وضجيج
وصداة من السيل المتدفق بلامعنى ، كما ياء له ، من الشاحنات على
محلق « سادوفوي » الدائري ، ومع سيارات الترولي باص ، المحشورة
حشراً بالركاب ، بزجاج نوافذها السميكة اللامع ، ومع الضيق والهواء
المحبوس في عربات الترام ، ومع الطوابير التي تحجب الأرصفة لشراء
المياه المعدنية والمرطبات ، مع الوجوه المتعبة من الحر في الحشد المزدحم -
ان لوحة المدينة هذه كلها ، الدائرة في القيط الخائق كانت تلمع أمامه
تحت أشعة الشمس الجهنمية الثقيلة . المشبعة برائحة الاسبغات المدخنة .
ولم تبق رطوبة الصباح الدافئة ، ورطوبة سيارات الرش التي صبت
الماء البارد على الأشجار في الصباح الباكر ، الا في البوليفار ، تحت
أغصان أشجار الزيزفون .

« حسناً ، سنعيش الآن . . . حتى نهاية العالم ، - فكر كريموف

ثانية ، محاولاً الاحتفاظ بإتزانه النفسي عن طريق السخرية . — ولكن لماذا ، وعلام هذا كله ؟ — وهل عدم الثقة والريبة تعد ذنباً . . . ماذا حل بي ، كنت لأرغب ، والآن أريد التعجيل بالحدث مع المحقق . ولماذا العجالة ؟ من أجل إزالة شكوك غير معقولة ؟ من أجل اثبات الحقيقة ؟ في هذه العجالة ثمة سخافة ممثلة لما في التأخير والتأجيل . »

بعد التحقق من الوثائق الشخصية في المسر (شاب برتبة ملازم بعد أن تعرف على كريموف ، نظر إلى البطاقة الشخصية ، ثم إلى وجهه ، وابتسم خلسة) ، صعد كريموف إلى الطابق الثاني واتجه في دهليز طويل إلى نهايته ، حيث كانت الغرفة رقم ٢٠٠ / ، كما يذكر ، إلى اليسار من النافذة ، بالقرب من منبسط الدرج . ووصل إلى نهاية المسر ، ذي السقف العالي ، الخالي من الناس ، بأبوابه الكبيرة (في مكان ما ، في الداخل ، كانت تسمع بصورة بعيدة ومنعزلة ضربات آلة كتابة) ، ووجد رقم الغرفة المطلوب دون عناء ، وهنا وجد زائراً آخر ، يقف أمام النافذة ، عاقداً يديه خلف ظهره .

— أنت أيضاً إلى هذه الغرفة ؟

لم يتحرك الرجل الواقف أمام النافذة ، وطرق كريموف باب الغرفة . لم يسمع أي رد من داخل الغرفة . ضغط كريموف على الباب ، باصرار غير مقبول ، في مثل هذه الدائرة الحكومية ، لكن الباب كان موصلاً ، فتمتم بارتباك : « لأحد . . . » — وبعد أن أخرج سيجارة ، اقترب من المخرج المؤدي إلى منبسط الدرج .

— أنت كريموف ؟ — سمع صوتاً خفياً باحثاً . — أنت المخرج كريموف ؟

التفت إلى الوراء ، فرأى الرجل الواقف أمام النافذة ينظر إليه بعينين فاتحتين ، محاطتين بجفنين أحمرين . كانت عينا الرجل معروفتين جيداً بالنسبة لكريموف ، وقد ذكرته بصورة مؤلمة ، بشيء ما ، ونحرق قلب كريموف بحرارة . فتذكر على الفور ذاك الشيب الناعم ، النبيل الشعر الطويل ، الذي يوجد عادة لدى الممثلين المتقدمين في السن ، وتذكر الحاجبين الجسميين الذين خطهما الشيب ، والجاذب القاتم اللون ، وأناقة الملابس ، وربطة العنق السوداء ، علامة الحداد ، وتذكر كيف كان يقف هذا الرجل في المقبرة ، وقد وضع قدميه تحتَه بصورة جامدة ، وكيف كان ينوح باختناق ، عندما انتهى توديع الجثمان ، وهو ينحني على التابوت بوجه مائل .

— أنت والد إيرينا — قال كريموف ، متغلباً على الموقف الحرج — اعترفني ، أنا أعرف اسمك الأول من اسم إيرينا الثاني ، لكن اسمك الثاني * قد انحمى من ذاكرتي . لقد تعارفنا في المقبرة في ذلك اليوم . . .

— للأسف — قال والد إيرينا بصوت جامد وغطى عينيه بجزء من إسمي فنيامين فلاديميروفيتش ، أعمل في إدارة التخطيط في جمهورية لاتفيا ، أقيم في مدينة ريغا . أما أنت ، فأذكرك جيداً . وأعرفك من خلال أعمالك ، يا فياتشيسلاف أندرييفيتش . . . هل أناديك بالاسم الصحيح ؟

— اذن ، أنت تقصص هذه الغرفة أيضاً ، قال كريموف بصورة شبه متسائلة ، لاعتناً سخافة كلامه ، وعدم ضرورة اللقاء في مكان ،

* الاسم الكامل بالروسية ثلاثي : الاسم الأول واسم الأب (الثاني) والكنية (الثالث) ، وصيغة النداء الرسمية : الاسم الأول واسم الأب — المترجم —

كان يجب ألا يحدث فيه . — لقد استدعوك من ريخا ؟ أمر غريب ،
في الوقت نفسه . . . كم هو غامض وأخرق كل شيء . . . — ولم
يكمل كلامه ، ورمى سيجارته التي لم يدخنها حتى النهاية في سلة المهملات .

— أجل ، أنا أقصد هذه الغرفة ، قدمت إلى هنا — قال فينيامين
فلاديميروفيتش مشيراً إلى الباب ، وبصورة مسرحية غطى وجهه المشوه
بيديه الصنراوين بعروقهما الزرقاء ، وقال بصوت مختنق : — صدقني ،
أنني أفقد عقلي . . . علام عاقبني المصير بمثل هذا العقاب ؟ من يستطيع
الآن الإجابة ؟ من يافياتشيسلاف أندريفيتش ؟ من يعيد لي إيرينا ،
ابنتي ؟ ابنتي الوحيدة ، الرقيقة الناعمة ، الذكية . . . أنا أعرف كم
كانت إيرينا موهوبة — تابع حديثه ، ساحباً يديه من على وجهه ،
واستدار جانباً إلى كريموف ، ووضع لسبب ما ، كفيه على الزجاج ،
وسالت اللامع على نعله المرتجف — أنا أعرف كم كانت تعاني إيرينا ،
وكم كانت تتألم ، عندما حدثت لها تلك الإصابة في مسرح البولشوي .
كانت لديها آمال وتوقعات كبيرة . . . كانت ستصبح راقصة بالية
عظيمة . . . لقد شعرت بموهبتها هذه منذ طفولتها ، منذ مراقبتها . . .
الأمومة ، المرونة ، الرقصات ، حركاها الرقيقة الناعمة ، ثم مدرسة
البالية ، واعجاب الأساتذة والممارين . . . علام ، علام يعاقبني القدر
بهذه القسوة ؟ علام اختطف مني ابنتي الوحيدة ؟ . . .

واستنشق الهواء بضمه ، ثم نشج وتساقطت دموعه ، واهتزت كتفاه ،
كما حدث أثناء الوداع الأخير في المقبرة ، وقال كريموف متجهماً :

— أرجوك ، اهدأ

— طبعاً ، طبعاً — قال فينيا مين فلاديميروفيتش ، مسحاً دموعه
بتحريك جفنيه — متى سيبرأ هذا الجرح ؟ لن يبرأ ، أبداً ، أبداً !

ايرينا ، ابنتي ايرينا ، كانت فتاة غير عادية . . . يالها من فتاة مأساوية...
آية زهرة رائعة ضعيفة هي ، محكوم عليها بأن تلداس ، بأن تدموس عليها
الحياة بقسوة !

« أنا أفهمه ، لكنني لا أستطيع مساعدته ، مبعداً نظره بانقباض
كثيب عن وجهه سكفور تسوف الجميل ، الغليب ، المغطى بالعرق . -
انه صادق ، انه يعاني ويتألم . . . ولكن ، لم هذه الكلمات والايماءات
المظلية عن ايرينا ؟ » .

- كانت تعرف ، لقد كان لديها شعور مسبق بأن شبح القدر
يحوم حولها ، - قال فينيامين فلاديميروفيتش ، وهو ينظر إلى الدخان
المشبع بالرطوبة في سماء موسكو من خلف النافذة . - أذكر ، أنها
جاءت إلى ريغا ، بعد تخرجها بدرجة شرف من مدرسة البالية . وكان
قد عرض عليها تمثيل دور . . . وجاءت لعنلي لمدة يومين من أجل
أن تراني . لم ترغب في قضاء اليومين في البيت ، ونزلت في فندق .
كان الوقت مساء ، وقت الغروب ، وكانت تشعر بالبرد ، متدثرة
بشال ، كانت تقف أمام النافذة ، مستغرقة في التفكير ، كانت حزينة
رغم أنه كان من المفروض أن تكون فرحة مسرورة . سألتها : « هل
حدث لك شيء يا ايرينا ؟ » فاستدارت نحوي ، وابتسمت لي بحزن
كبير ، وهي تقول : « أبي ، عزيزي ، ستكون نهايتي سيئة . . . » .
ابنتي البائسة ، بماذا كانت تفكر في تلك الأمسية ؟ . . .

- هل كانت تزورك كثيراً ؟ - سأل كريموف بصوت خافت ،
متذكراً لحظات استغراق ايرينا في التفكير .

- لا ، ليس كثيراً ، وأنا لا أستطيع أن أسامحها - اعترض
فينيامين فلاديميروفيتش ، متنفساً من منغريه . - بعد موت زوجتي

الأولى ، استقلنا إلى ريغا ، لكن إيرينا لم تعد تقطن معنا . . . أعني —
الثقيلت بامرأة وتزوجتها ، فلم تستطع العيش معنا . كانت تحب أمها
المتوفاة حباً جماً ، إلى حاء المرض . وعاشت في موسكو ، في البناء
السكني للمدرسة البالية أولاً ، ثم سكنت في بيت عمتها . أما أنا ، فكنت
أشتاق كثيراً لإيها بصورة لا تحتمل . كنت مستعداً لعمل أي شيء من
أجلها ، كل ماتريده . لكن إيرينا لم تكن تتقبل المساعدة دائماً . أنت
لاستطيع أن تتصور ، كم كانت تحبني في طفولتها . أما في السنوات
الأخيرة ، فأصبحت تشفق علي ، كما بلدا لي . . .

— كانت تشفق عليك ؟

— أترى ماهي المسألة ، يافياتشيسلاف أنليرينيتش . . .

« ماذا به يكلمني » أترى ماهي المسألة ؟ من أين لهذا المثقف الكهل
هذه الأناقة في الكلام ؟ انه ، لسبب ما ، يثير أعصابي ، وهذا يهيننا
نحن الاثنين . »

— لقد قات ، لإيرينا كانت تشفق عليك ؟ اعذرني ، لم يكن
بودي طرح أسئلة تسبب لك الألم .

— الألم ؟ الألم . . . انه أشبه من الألم وأقوى ، يافياتشيسلاف
أنليرينيتش . لأدري متى بدأت الحياة تنهار نهائياً . كانت ترى أنني
غير سعيدة في حياتي الجديدة . والحقيقة ، أن الحياة لم تلتئم بيننا فعلاً . . .
غير أن إيرينا لم توجه لي أي لوم ، ولا كلمة واحدة . وكنت أنا أرى
من خلال عينيها — كانت تعاني ، كانت تشفق علي . . . يادلاكبي
الحبيب ! أية عزة تارك ، أي نقاء ، أية رقة طاهرة ، وأي ضعف غير
عصري ، أتترك ذلك ؟ وكأنها هبطت من كوكب آخر إلى هذه
الأرض . . . من أجل أن تزين الحياة . وقتلوها هنا ، قتلوها لعلها رتها

وبرأتها . ؟ أي مرت غريب هذا كان مصيرها - ماتت لانكسار
فقرات رقبته ! وأنت ، أنت تترك ، باعتبارك مخرجاً ، أراد العمل
مع ابنتي ، باعتبارك عارفاً بالنفس البشرية ، هل تترك ماذا حصل ؟
أجبنني ، أتضرع إليك ! أرجوك ، أطلب منك . أجل ، أطلبك بأن
تشرح لي أسباب هلاك ابنتي ! أنا لأصدق أنها كسرت عظام رقبته
وغرقت ! لأستطيع تصديق ذلك !

« ماهذا ، جنون ؟ التقيينا في الممر ، أمام باب المحقق ، وهو ،
والد ايرينا ، هذا الرجل ذو المظهر النبيل ، ينطق بكلمات لا يمكن
تصورها ، ويطلبني بالمستحيل ! إنه أمر لا يمكن احتماله . . . » .

- لأستطيع الإجابة عن سؤالك ، فينيامين فلاديميروفيتش -
قال كريموف بمرارة - لو كنت أعرف . . . ثمة شيء واحد واضح :
حدث شيء لا يمكن رده ، لا يمكن دفعه ، ونحن كلانا عاجزان .

- كلانا ؟ عاجزان ؟ - كرر فينيامين فلاديميروفيتش بصوت
خرج من حنجرتة وهز رأسه قليلاً ، وكأنه في حالة من الغثيان -
أنا ، لا ، أنا لست عاجزاً ! عزيزي ، ملاكي الحبيب ، ايرينا ، يا طفلاتي
الطاهرة البريئة ! أنا أعرف ايرينا أكثر منك ! كانت فتاة متطرفة ،
مغالية . أنا نفسي ، كنت أحلم في وقت من الأوقات بالتمثيل والظهور
على خشبة المسرح . انني أهوى المسرح طيلة حياتي وأفهم قليلاً في
الفن . كان روح عصر النهضة في ايرينا ، كانت فيها رشاقة لاهية لراقصة
بالية رائعة ، وكان فيها روح الفن الشعبي الروسي الرائع (البوب -
آرت) ، والفن (المودرن) الأكثر حداثة ، كانت أعجوبة !

- وما علاقة « البوب - آرت » و « المودرن » هنا ؟ هذا كله
هراء ! - لم يصبر كريموف ولم يحتمل ، خائفاً من اندفاعه الذي لم
يستطع مقاومته ، ومن الانفجار الصاعق المفاجيء ، وبعده أن صمت

قائلاً ، وهو يضغط على أسنانه ، تابع حديثه بنادم : جاء متأخراً :
— يبدو أذاك لم تكن تعرف ابنتك جيداً .

— أنا لم أعرفها ؟ وأنت ؟ كنت تعرفها جيداً ؟

ارتفع كتفاه المحدودبان وارتجفا ، وكأن ذلك نتيجة لحيب داخلي ،
وخطا على مقربة من النافذة ، وتقدم بكامل جسمه نحو كريموف ،
موسعاً بصورة كبيرة عينيه الكبيرتين الفاتحتين ، وقال هامساً :

— ماالذي كنت ترمي إليه من اعطائك الدور لإيرينا؟ لقد أغريتها
بالأمل ! وليس بالأمل وحده . . . أنت ، فياتشيسلاف أندريفيتش ،
أنت مذنب ، ويجب أن تعاقب . عليك أن تنال عقابك ! لقد جئت
من أجل أن أطلب . . . أطلب محاكمتك ، لقد كنت شيطاناً — مغرياً ،
أنت مشهور . . . ولهذا ، كنت لأخلاقياً بالنسبة لابنتي ! — وشهق
مبتلعاً الهواء بجشع ، كما لو كان يعاني من سكتة قلبية . — كان عليها
أن تهجر الفن إلى الأبد ، إلى الأبد ! فبعد إصابتها تلك ، كان عليها
ألا تعود إلى البالية من جديد . . . وبعد تلك الآمال الرائعة ، لم يعد
بامكانها أداء الأدوار الصامتة والصغيرة الثانوية ! أما أنت ، فقد رشحتها
لدور في السينما . . . أوه ، لقد أفسدتك الشهرة وشوھتک ، أفسدتك
النساء ! لقد كنت أسأل ، وأستعلم ، فياتشيسلاف أندريفيتش ، عن
سلوكك الأخلاقي عندكم في الاستوديو . لقد كنت هناك ، اليوم
صباحاً ، لاتواخذني ، كنت هناك . . . وحتى مدير الاستوديو ،
مدير ، وعضو اللجنة الحزبية ، الرجل المحترم ، لا يستبعد . . . حتى
هو قال لي : لا أستبعد . . . أجل ، أجل ، إنه لا يستبعد علاقتك المجرمة
بإيرينا . . .

وتشبث سكفورتسوف بيديه اللثنتين بكم كريموف — ، وبكى
بكاء مرأ وأسقط رأسه الذي كان يفوح برائحة شعره وماء الكولونيا .

اصفر كريموف ، وشعر بقشعريرة حادة تسري في وجهه ،
وقاطعه قائلاً :

— عم تتحدث ؟ ماهذه الترهات التي افترها ولفقها بالابانوف ؟
وماهذا الحديث الغريب الذي يدور بيننا ! لم أرد ذلك ، فهذا مهين
لنا نحن الاثنين ! هذا عيب ، باللييطان ! — ولم يعد باستطاعته أن
يمسك بزمام نفسه ، وأن يهدىء نفسه بالبصيرة الناضجة ، السليمة ،
المهدئة ، التي تحضره فيما بعد ، عندما يتذكر فترة حدته الجاحدة — علي
أن أقول لك شيئاً واحداً ، فينيامين فلاديميروفيتش : لا قدر لك الله
أن تكون في موضعي في ذلك اليوم الرهيب ! . . . أتمنى لك أجمل
الأمنيات ! تصرف كما تريد ، أنا مستعد لتقبل كل شيء ! . . .

كان مذهولاً من سخافة هذا اللقاء (« من أجل ماذا استدعينا نحن
الاثنين في ساعة واحدة ، أم أنه مجرد تزامن عرضي ؟ ») ، ومع ذلك ،
أمكن كريموف توديعه ببرودة أعصاب ، واحترام ، مدركاً التعبير
الزائف المحطم ، وغير المصدق لأي شيء ، في الوقت نفسه ، في عيني
بنيامين فلاديميروفيتش ، ومشى بسرعة في الممر ، مقتنعاً بفكرة يائسة —
فكرة ألا يحضر إلى هنا ، إلى أن يستدعى من جديد بصرامة كاملة .

ركض على الدرج الواسع في البهو ، متمسكاً على عجل بطاقةته
الشخصية التي وضعها إلى جانب الدعوة في جيبه .

كان يدخل إلى البهو ضباط الشرطة ، جماعات ، وهم يتحدثون
بلهجة صارمة ، مبرزين ، الواحد تلو الآخر ، بطاقة الدخول للملازم
الشاب ، متبادلين الانحناءات برؤوسهم على عجل . توجه بعضهم إلى
المصعد الكهربائي ، وتوجه بعضهم الآخر إلى الدرج ، وألقى آخرون

نظرة عاجلة إلى كريموف الذي كان ينتظر جانباً . وهنا ، وقبل خروجه إلى الشارع ، شعر بحدس سيء ، وكأنه مبيحدث الآن شيء ما ، لاداع له أبداً ، شيء سخيف بلا معنى ، ينطلق بطرق لاواقعية وغير لازمة . وما إن فكر بهذا حتى برز من بين حشد الضباط نقيب يتسم بفتوة ، أحمر الوجنتين ، متوسط العمر ، ذو شاربين (« توكاريف ، المحقق توكاريف ، لقد التقيته قبل سفري إلى باريس ») ، وقد غمره صوته المخملي الجميل بالدفع :

— فياتشيسلاف أندريفيتش ، مرحباً ، وعذراً ألف مرة ، لقد أذنبت بحمك ، اجتماع مفاجيء على أعلى المستويات ، لقد تأخرت أربعين دقيقة . انني ملذب . أدرك كم أنت مشغول ، لذا ، فقد أذنبت بحمك ، واني أعترف بذنبي . . .

— ماذا يعني انشغالي النفيس بالنسبة للعدالة ، وما علاقة ذنبك الأسطوري هنا ؟ — قال كريموف ، خائفاً ، أكثر من أي شيء آخر ، ألا يفلت الكلام من بين شفثيه ، بعلم عبارات توكاريف المصطنعة ، بعلم هذه الاعتذارات ذات الطابع اليومي المبتذل ، التي تحلو من أية أهمية . — عفواً ، أوليغ غرينغوريفيتش ، أنا اليوم لست قادراً على التشرف بالإجابة ، بصورة معقولة ومنطقية ، محلى أسئلتك . فإذا كان من الممكن طبعاً ، سأودعك الآن ، لاسيما وأنه ثمة زائر بانتظارك ، يعرف أشياء كثيرة ، بما في ذلك عني . . .

مضى توكاريف الابتسامة من على وجهه المتورد ، ونظر بعينين ثابتتين ، مخبرتين .

— اعطني دعوتك للتأشير عليها . وإلا ، فإن يسمح لك بالخروج

يفياتشيسلاف أندريفيتش ، رغم أنك مخرج سينمائي شهير . سأستدعيك خلال أيام .

— شكراً . سأكون مسروراً للغاية .

في ميدان تياترالنايا ، أوقف كريموف سيارة أجرة ، وانطلق باتجاه الاستوديو .

* * *

عندما دفع الأجرة لسيارة التاكسي ، ودخل عبر كشك الاستعلامات إلى بوابة الاستوديو المشبعة بأشجار الاسنات ، المغلفة بوبر أشجار الحور المبشر ، الطائر الذي يتصق صيفاً بالوجه (لهذا كان يبدو القيقظ أشد ، ولا يطاق أبداً) ، وعندما اجتاز الردهة الرطبة الحائزية المظلمة ، الداوية ، صعد إلى الطابق السادس ، ودخل إلى غرفة استقبال المدير . وهنا ، في هدوء قطني معقم ، وبين جدران مكسوة بخشب الباطر ظهر عدد من وجوه المخرجين والممثلين المألوفة ، وارتفع وجه السكرتيرة الأفلطس ، المنكمش ، بشعرها المعلق على وجعتيها ، للقائه بخوف وذعر . كان يدرك تماماً أنه غير قادر على تغيير الطبيعة البشرية ، التي تذوقت حلاوة السائلة ، أية سائلة كانت ، وأنه لن يتمكن من هز شيء وزعزعه ، دون أن يلقي العقاب ، بيد أنه فتح بجزم الباب المغطى بالخلد السميك ، ودخل ، وقد أوقفه صراخ السكرتيرة المدعور :

— ممنوع ، فياتشيسلاف أندريفيتش . إنه مشغول !

— مسموح — قال كريموف — لن يسبب له دخولي كارثة ، حسب اطلاعي .

خلاقاً لعادته ، لم يجلس بالابانوف وراء مكتبه الضخم ، المطمور من أطرافه بالأوراق ، ومخطوطات السيناريو المغلفة والأصابير ، بل كان يجلس خلف « الطريزة » مقابل الباب المفتوح ، كان أحمر الوجه ، دون سترة ، يحرك كأس الشاي ، عاصراً قطعة الليمون فيها ، وكان يصغي بانتباه وتركيز ، إلى رجل نحيف ، يرتدي بذة لاثوبها شائبة ، بوجهه العريض العظام ، الواسع الجبين . كان هذا الرجل يمسك الكوب بيده الشاحبة الرفيعة ، ضاغطاً الملعقة بين السبابة والوسطى ، فبدت وكأنها بين غصنين هشين ، وكان يرتشف الشاي بجرعات صغيرة . كان هذا الرجل نائب رئيس لجنة السينما بيسكاريف ، شاباً ، يسير على عكازين بسبب مرض ، لا يقبل العلاج ، أصيبت به رجلاه منذ طفولته ، لكنه رغم ذلك ، كان خفيف الحركة إلى حد كبير ، وافر النشاط ، يتنقل بين الاستوديوهات السينمائية داخل الاتحاد السوفيتي وخارجه ، وهو رجل قارص ، لاذع ، صريح في أحكامه وآرائه المسموعة من جانب الكثيرين في المجالس الفنية واللجان .

— ما هذا ؟ ماذا ؟ ولماذا تندفع على هذا النحو ، فياتشيسلاف أندريفيتش ؟

قطع الاثنان حديثهما وأدارا رأسيهما إلى كريموف ، وأخذ ينمو بسرعة على وجهه بالابانوف تعبير الامتعاض والسخط . فنهض وهو يتنفس ، كالمصاب بالربو ، رافعاً على عادته ، بصورة عدوانية ، أكمام قميصه المنحدرة على مرفقيه ، وكأنه يستعد للدفاع عن كرامته الشخصية ، وعن سمعة بيسكاريف ، وعن حرمة مكتبه .

— اسمح لي ، ولماذا ، على هذا النحو ؟ أنا مشغول ، مشغول .

« عندما رأى كريموف احمراره الشمندري وقامته القصيرة بزقته الصغيرة ، ومرفقيه المبعدين ، الموضوعين على خصره ، وشعره الساقط على جبينه مثل شعر القنفذ ، قال بشيء من المرح :

— اجلس ، ولا تخوفي ، من أجل كل القديسين ، ايفان كسينوفونوفيتش ! حسن جداً ، أننا ثلاثة . انني طيب الحظ . لأن الرفيق بيسكاريف عندك ، وهو ممثل القيادة السينمائية العليا ، إن صح التعبير ، كم أنا سعيد الحظ . أتعرف ، انني بحاجة إلى شاهد وقور . في هذا الجانب أو ذاك .

— أولاً ، مرحباً فياتشيسلاف أندريفيتش ، — قال بيسكاريف ببرود — ، ثانياً ، اجلس أنت — وأشار إلى مقعد بالقرب من «الطريزة» — وثالثاً ، بينك وبين المدير حديث ودي خاص ، على الأغلب ، وبالتالي يمكنني الخروج ، كي لأضيافكما ، ونظر إلى عكازيه المسندين إلى الديوان .

— أوه ، لقد أخطأت ، ليس هناك أي حديث ودي خاص ليس هناك أي بروتوكول — صاح كريموف وهو يجلس على «الطريزة» — أكرر : انني بحاجة لشاهد ، أرجو ألا ترفض أن تكون شاهدي .

— ماذا تقصد .

— أقصد ثلاثة أسئلة ، أريد طرحها على ايفان كسينوفونوفيتش بحضورك . أولاً ، ثانياً ، ثالثاً . . . أولاً . . . — ويتناول كريموف قطعة بسكويت من الإناء الزجاجي ، وقروط حافتها ولاكنها ، ثم كيرش وجهه . — ياللعار ! ديساً تأكل يا ايفان كسينوفونوفيتش ! — قال

متلذذاً بالتلاعب بالوقاحة وبعيني بالابانوف المحتنقين بالدم ، وبالحوف المريب الظاهر على جبينه - قل لي ، ايفان كسينوفونوفيتش - سأل كريموف بوداعة - هل تم ايقاف فيلمي رسمياً من قبلك ، أم من قبل جهة عليا ؟

- هذا سؤال صعب ، - هدر بالابانوف ، ناظراً بوجل إلى بيسكاريف ، الذي كان يضغط على شفتيه الرماديتين بشدة . - إنه سؤال صعب ، فأنت نفسك تعرف كيف سارت الأحداث والوقائع . ثم هناك قوانين القضاء والتحقيق ، كما تدرك ذلك . . .

- أدرك ذلك - قال كريموف ، - ثم قضم بقرف طرف قطعة البسكويت ، متوجهاً بالحديث إلى بيسكاريف الصامت - لا أستطيع أن أفهم ، كيف يمكنك تناول هذا الشيء المفرط الحلاوة . إنه أقصر طريق إلى مرض السكر . . . وأنت ترى ذلك أيضاً ، يارفيق بيسكاريف ؟ التحقيق ، وقوانين القضاء ، واحتمال الجريمة ؟

ألقي بيسكاريف بخطرسة نظرة سافرة ، وانضغطت شفثاه بقوة ثم انفرجتا ، كاشفتين عن ظل ابتسامة ، أو عن تصعيرة صفراء .

- أنت تعرف ، أنني لاأثقن المواربة والحداع ؟

- أجل ، بالطبع .

- أنا شخصياً ، لم يرقني يوماً ما السيناريو الذي تكتبه - قال بيسكاريف بصوت بارز - فالسيناريو الذي تكتبه عن الشيبية المعاصرة مفرط في التأملات ، والأسئلة الدائية التي يطرحها المرء على نفسه ، والتنقيبات والبحث والاستغراق . وهذا ، أولاً ، لايطابق الواقع الحقيقي ، وثانياً ، لن يذهب ، بعده ، أي شاب ، إلى أي مكان . . .

— إلى أين ؟ ومن سيذهب ؟

— الشيبية . لن تذهب إلى الأعمال الانشائية في سييريا ، على سبيل المثال . فالسيناريو الذي كتبته لأثر فيه لحماسة الشيبية ، ولا للنهوض بالعمل ، ولا للتطبيق العملي للخطط التاريخية العظيمة ليومنا المعاصر المعقد هذا . الجميع عندك يتعذبون ، ويعانون من أسئلة خالدة أبدية : كيف أحيا ؟ ماهو الضمير ؟ ماهي الحقيقة ، في حين أن . . .

— آه ، أجل ، الأسئلة الأبدية الخالدة ، تعرقل بلاشك . إنني لم آخذ هذا في اعتباري . عقل ضعيف ضيق لم يصل إلى الحقيقة .

— في حين أن الموقف اللاطقي ، من مواقع التزعة الإنسانية التجريدية ، من هذه المفاهيم كالإنسانية ، والضمير ، والعار ، والخير ، إن هذا الموقف مفعم بمختلف أنواع الأخطاء والتشوهات .

— أجل ، أجل ، إنه مفعم بمختلف أشكال الأخطاء والتشوهات .
كم هي بائسة هذه السينما !

لمس بيسكاريف ، وهو يصعر خده بكآبة ، الملعقة في الكأس بأصابعه النحيفة (كانت أظافره زرقاء اللون ، مستديرة ، مقبوضة بصورة منتظمة) ، وسأل مستفهماً بحذقة :

— لقد قلت ساخراً . السينما بائسة ؟ لماذا ؟

وتابع كريموف لعبته اليائسة ، قافزاً فوق الهوة ، ومتلذذاً بالمخاطرة دون تراجع :

— لقد صليت من أجلك وأضفت : السينما بائسة ، هل ستتمكن من تجاوز لحظات تخليقها ومجدها ؟ لقد تخلفنا عن أنفسنا مدة خمسين

عاماً . وذلك بسبب بعض الجمالين المدافعين عن سلامتهم الشخصية ،
والمهتمين بالمجد العالمي لفننا السينمائي .

— ماذا تقصد ؟ أنت معروف برهافة ذهنك وفكاهتك ، فياتشيسلاف
أندريفيتش ، ومع ذلك ، اشرح لي قصدك !

— سأشرح . هاهوذا أنت ، أبونا ومعلمنا ورب نعمتنا ، ليونيد
فيكتوروفيتش ، أنهيت بامتياز كلية التاريخ في جامعة موسكو الموقرة ،
هذا أنت ، خلال هذه الدقائق لم تقل الحقيقة ، ولا نصفها ولا ربعها .
على أية حال ، أنت حارس — وأكسب صوته لهجة الامتحان اللبق —
أنت نحامي حياة خيالية مجهولة في الفن ، ممثلة بالمشاعر الوهمية ، التي
اخترعتموها ، أنت وغيرك ، بصورة موفقة ، من أجل راحتكم النفسية .
اعذر جهلي البهيمي المطبق ، لم يكن في نيتي أبداً الإساءة إليك ، خرجت
بصورة عفوية ، — تابع كريموف ، ونهض قليلاً ، وكأنه يطلب
بصورة ذليلة ، الصفح والعفو من بيسكاريف ، أما عينا بيسكاريف
(عينا طفل يعرف كل شيء ، طفل كبير منذ طفولته ، طفل مثقف
قرأ الكثير) فقد جمدنا على نحو ميت ، وثبتنا على قصة أنف كريموف ،
ممثلتين بلمعان الخلد الأزرق . — كل هذا جاء بالمناسبة . لكنني لم أرد
أن أطرح عليك الأسئلة . اعتذر ثانية ، بل أردت طرحها على مديرنا
المحترم ايفان كسينوفوفيتش ، مشعلنا ومناونا إلى ذرى السينما
الوطنية . . . — وانحنى كريموف باحترام وتمايل ساخرين باتجاه
بالابانوف ، وبعد أن رفع بنطاله على ركبتيه ، وضع رجلاً على رجل ،
وكانه يتهماً بهدوء لحديث عائلي مريح حول مسألة قريبة ، عزيزة . —
إذا كنت أبنا متوقد الذهن ، محباً للفكاهة ، كما وصفني ليونيد

فيكتوروفيتش بصورة ليست دقيقة تماماً ، فأنت ، إيفان كسينوفونوفيتش معروف للعالم الشريف كله بأنك راية الفكر الفخورة ، وفارس شريف ، وأخيراً ، نصير العقل وكادحه . لهذا ، علينا أن نأمل ، بأن عليك أن ترفع سيف الروح وليس السيف الصديء ، سيف جميع البيروقراطيين في العالم . هل لديك اعتراضات على هذه الصيغة ؟

— ما هذا الذي أراه ؟ ماهي المسألة ؟ — صاح بالابانوف بصوت جهير مكتوم ، جاذباً كمي قميصه إلى يديه القصيرتين المغطيتين بالشعر ، ورفع إلى وراء شعره ، الشبيه بشعر القنفذ ، الساقط على جبينه المتعرق — الديموقراطية شيء وهذا شيء آخر ، انني لأسمح لك ، رغم أنك مخرج تحمل لقب الجدارة ! فموهبتك لاتعطيك الحق . . . أنت لاتتمالك نفسك حتى بحضور ليونيد فيكتوروفيتش ، أنت تتصرف بصورة غير لائقة . . .

قفز كريموف من فوق « الطريق » ، وداعب بنعومة قبضة بالابانوف الضاغطة بقوة على يد المقعد .

— أنت لم تسمح لي بانهاء حديثي ، إيفان كسينوفونوفيتش — قال كريموف بهلوه أربعه نفسه ، هلهو الحق وسورة الغضب ، كالهلهو قبيل القنز إلى الهاوية ، إلى أوقات الشباب في الحرب ، تلك الأوقات شبه المنسية ، التي تحجبها سنوات طويلة . — أنت اليوم اقترفت كذبة ، وهي مرادفة للافتراء . في سبيل أي غرض قمت بتضليل والد إيرينا سكفورسوف ؟ من أجل أي غرض قلت له عن احتمال وجود علاقة بينها وبينني ؟ انني أرجع هذا إلى أنك لم تتمكن بعد من التفكير ، كما يحدث معك غالباً . . . أيها المثقف الكبير ، يا محرك الروح الأسمى .

لما صوبت سهامك نحوي ، لكنك أصبت روح الوالد الجريحة . لأنني أقدر وعيك الحر ، ولكن هل يمكن اقتراف ذلك في الظلام ، وحتى العمل الشيطاني ؟ كم هو حقير الإنسان ، الخالي من الطيبة ، أليس كذلك يا إيفان كسينوفونوفيتش .

— كيف . . . كيف تجرؤ ؟ — صاح بالابانوف ملتقطاً أنفاسه ، وضرب بقبضته يد المقعد ، وقد احمرت وجنتاه وأصبحتا بلون أرجواني ليلكي — جئت تسخر مني وتعلمني العقل والمنطق ؟ أما بالنسبة لعلاقاتك ، فلا حاجة للبحث بعيداً عن الاثبات والدليل — اتجه ، باديء ذي بدء ، إلى مواوتشكوف ، مدير إنتاج فيلمك ! هو سيحدثك عن الهدف من ذهابك من الاستوديو إلى أوردينكا ، إذا كنت قلنا نسيت ! يجب الافتراض ، أنك لم تذهب لمشاهدة الصور في كتاب تعليم القراءة ! كيف تتحدث معي على هذا النحو ؟ لا معارفك ، ولا خدماتك وفضائلك لا تعطيك الحق بالتصرف كما تريد . . . كما لو أنك مخرج أمريكي مدال ، مثل صديقك غريتشمار !

— أرايت ، ليونيد فيكتوروفيتش ، مهما كان الأمر محزناً ، فالمسألة تدور من جديد حول الضمير ، الذي يزعمك ويكدرك — وهنا أشار كك تماماً مخاوفك — بتجربيدته . . . — قال كريموف بالهدوء نفسه ، هدوء سورة الغضب المكبونة — الحديث لا يدور حول اهتزاز دعائم الأرض . إنه يدور ببساطة حول الحياة . . . بهذا الصدد ، أشير ، يا ليونيد فيكتوروفيتش ، إلى أن المخرج الأمريكي جون غريتشمار ، من حيث صدقه وإخلاصه ، أقرب إليّ بكثير من مديري العزيز ، مدير الاستوديو . إنها مفارقة ، يا للشيطان ، ولكن لا مفر منها .

هذا التوجه إلى بيسكاريف ، جاء غالباً ، لأن كريموف كان يشعر على وجهه بالتماس المادي تقريباً ، الجليد القارص ، المنبعث من عيني بيسكاريف الطفوليتين ، عيني رجل عازم على الشر ؛ رجل كان يلتقط كلماته بصمت ، كي يرفضها فيما بعد . تماماً كما كان يرفض في المجالس الفنية آراء المخرجين ، المتمسكين بمواقفهم بعناد . ولكن ، ومن خلال إحساسه شبه المنسي ، المحجوب بحياة كاملة ، كان يعرف كريموف ، أنه لن يتمكن أي شيء الآن من إيقاف تحليقه الذي باءه فوق الهاوية ، هذا التحليق الانتحاري ، السار ، الليند ، وكأن المسرة العادلة كانت في الهلاك والسقوط في قاع الهاوية . ولنشوته وتلذذه بقوة التحدي التي أدارت له رأسه ، ولإدراكه بمحدد وسعادة أن إحساس الشباب القديم الياثس ، لم يمت بعد في التعقل والحكمة ، في الخبرة المكتسبة ، قال كريموف باتزان وهدهوء ، مبتسماً بإتسامة جذابة ، إبتسامة معبود الحظ والتوفيق :

— الرهيب في الأمر ، أننا نعيش في عصر المدنية المادية المدبرة . إن زيف العلاقات يطمئن الغباء ويحل النزاعات . أليس صحيحاً ، يا إيفان كسينوفونوفيتش وليونيد فيكتوروفيتش ؟ لكن ، يا إلهي ، لأنني مستعد للتخلي عن جميع معارفي ، وما يدعى بفضائي ، التي نوه بها إيفان كسينوفونوفيتش بصورة مؤثرة ، مستعد أن أصبح معدماً ، ويتيمماً بائساً ، وأن يذاع صيتي على أي شكل ، واو أبلهاً ومجنوناً ، يا إيفان كسينوفونوفيتش ، على أن . . . نعم ، نعم ، وعفواً ، على أن . . . أسيمك بعلامة ، يا إيفان كسينوفونوفيتش ، على بصمات أصابعك ، كما كانوا يسمون الحقراء والسفهاء في القرن التاسع عشر

الطبيب الذكي . وهنا ، أقصد الفئة الثانية . . . إنك جدير بأن توسم .
بأن تكون موبسوماً ، كي لا يجذب الآخرون ذريعة لتقليلك . . .

ونهنض كريموف ، وفي اللحظة ذاتها ، ارتد بالابانوف بصرخة
مبحوحة ، بقماته القصيرة إلى المقعد ، وكأنه ضُرب من الأسفل على
وجهه ، ورفع ذفته ، وبدأ بتحريك رجله على الأرض على عجل ،
محاولاً إبعاد المقعد ، وهو جالس عليه ، بعيداً عن « الطريزة » التي
تحديه . أما كريموف فقد وقف صامتاً ، ناظراً باشمزاز إلى رقبة
بالابانوف المتنفخة كأنه صدم ، وسيطر عليه قرف شديد من حين
بالابانوف الدنيء ، المكشوف ، ومن هذه الخنجرية المتنفخة المتورمة ،
وتجاهل نفوره من وجهه بيسكاريف الحامد المتصنع ، ومن النظرة الطفولية
لعينيه الجليديتين الحامدتين .

كل شيء كان تافهاً ، شريراً : لقد أُطِش على كريموف في
حلقة غير ودية ، غير أنهم كانوا لا يزالون يخشون منه ، أما هو ،
ولعدم تمالكه زمام نفسه ، وبكراهيته لعدم تمالكه هذا ، لم يستطع الآن
أن يصفح عن نفسه وعن الآخرين . كما لم يستطع أن يعدل أو يبدل
من اللهجة المازحة التي بدأها في اللعبة الكريهة ، إلى حد الغثيان (لم يكن
لديه ما يكفي من القوة لبدء هذا الحديث وانهاية بصورة جدية) ، وقال
باحترام متأدب ، مخاطباً بيسكاريف :

« لي رجاء صادق عندك ، ليوتيد فيكتوروفيتش ، أن تحفظ بعض
تفاصيل هذا المشهد الغنائي ، الذي رأيته بأعينك . لقد كنت أخشى ،
أن يقوم إيفان كسينوفوفتوفيتش ، بدون شهود عيان ، بخلع حذائه
من قامه وإدعاء بوزة ، عفواً ، أعترف أشد الاعتذار ، بإدعاء وجهه ،

ومن ثم يتقدم بشكوى إلى اللجنة الحزبية ، بأنه قد ضُرب ضرباً مبرحاً من قبل الفاسق الوقح كريموف . وهكذا ، فقد كنت سعيد الخط . وأرجوك يا ليونيد فيكتوروفيتش ، أن تبلغ الرئيس أن الفيايم سوف أخرجه وأصوره أنا ، على الرغم من حالة الطقس السيئة . كان لي الشرف . اسمحوا لي بأن أودعكم .

طقطق كريموف بكعبي حذائه ، وأخنى رأسه انحناءة أكبر ، وباحترام أكبر ، وعلى هيئة الموظفين الذي يؤدي خدمته الوظيفية باتقان ، توجه إلى الباب . ولكن ، هنا ، شاهد بصورة عارضة ، ستره بالابانوف ، معلقة على ظهر المقعد ، خلف الطاولة الكبيرة المعدة للاجتماعات ، فانتزع بسرعة السترة ، ومثل خياط خبير ماهر ، رماها بحركة رشيقة على المشجب الموجود إلى جانب الباب ، وقال بكدر :

— الشيطان وحده يعرف ماهذا الإهمال . — وعند العتبة تماماً التفت إلى الابانوف ، الذي كان يجلس صامتاً ، وكرر في صوت غنائي : — لي الشرف ، لي الشرف ! . . .

« مجنون ! حساسة ! أنا قَرِفٌ من نفسي ! وهل من الممكن أن أهين نفسي في هذه اللعبة بالتهريج والاستهزاء ؟ على أية حال ، هل كان من الممكن الحديث بصورة جدية ؟ كان ممكناً فقط ، الضحك ، الضحك بسخرية ! » .

* * *

— لي الشرف ، لي الشرف — قال كريموف متهمكماً بهمس وفتح عينيه ، نازلاً ، دون أن يفهم ، إلى غرفة مألوفة .

— ماذا بك ، فياتشيسلاف أندريفيتش ؟ لأنني أطرش قليلاً في
الأذن اليمنى ، لم أفهم . لقد استغرقت في التفكير قليلاً .
— على الأغلب .

نظر كريموف نظرة مبهمّة إلى مولوتشكوف ، الذي حول إليه
بترقب وجهاً مبسماً ، محمّلاً كعادته مزاجه . تمالك كريموف نفسه
على الفور ، فارتقى على المقعد بأنين ، متذكراً المشهد بكامله في غرفة
الاستوديو بصورة مفصلة وساطعة ، لدرجة أنه توهم ، أن هذا المشهد
قد تراءى له في سورة الغضب والنزق — وما يزال في نفسه باقياً حتى
الآن ، الشعور بالارتياح المزدري ، والشفقة المتقرزة نحو حنجرة
بالابانوف المتورمة والمتنفخة ، أثناء التنفس ، نحو بالابانوف الذي
كان يضرب الأرض بقدميه ، بجلبة وهرج .

في الوقت نفسه ، عندما قدم كريموف إلى الاستوديو ، تصور
القاء والحديث مع بالابانوف — بعد المشهد الذي عاشه في خياله في
طريق عودته من بترفكا — انتقاماً مهيناً وفارغاً ، خالياً من أي معنى ،
وغير قادر على تصحيح أي شيء ، لدرجة أنه شعر بالبرد ، وبالإرهاق
فوراً ، فصعد بالمصعد الكهربائي إلى مجموعة التصوير ، وجلس هناك
على المقعد في غرفته ، وطلب من مولوتشكوف إحضار ألبوم صور
اللقطات السينمائية المقررة وغير المقررة .

« هل حدث هذا أم لم يحدث ؟ وهل كان هناك صبي ياترى ؟ »

— هل قلت شيئاً ، فياتشيسلاف أندريفيتش — كرر مولوتشكوف
بقلق ، وهو يضع الألبوم على الطاولة — أحضرت لك الألبوم بنفسني .
أما «جينيا» نيتشوزالوف فهو في الجناح .

— المترجم —

« جينيا : صيغة تصغير وتعجب للاسم الكامل يفيني »

— ادعه إلى مكتبي إذا كان في منطقة قريبة . أرسل أحداً إلى
الجناح ليدعوه .

— إن يفغيني بافلوفيتش مع الممثلة . إنه يجري اختباراً مكرراً ،
معتمداً على نفسه فقط . ما يزال يبحث عن بطة رئيسية . في حين أن
الفيام قد توقف عملياً ، فياتشيسلاف أندريفيتش . آه ، سوف يعاقبوني ،
باعتباري منتجاً . المهم — الأموال . حيث أنني أخطار احتراماً لك . . .

— لا بأس ، ستتحمل — قال كريموف بنفء — لاسيما وأن علاقتك
جيدة ببالانوف . بل إن علاقتك به مؤتمنة ، موثوقة .

— لأفهم ، فياتشيسلاف أندريفيتش . علام هذا ؟

— حسناً ، لا بأس ، اذهب ياتيرتي ، دعني أجهز وأفكر .
بانظار قدوم ميتشورالوف ، أخذ كريموف يدخن ، ويقاب
الألبوم ، متصفحاً صور الممثلين المعتمدين لأداء الأدوار ، وكان
ينظر بريبة مكنهرة إلى أعين الممثلات المرشحات للدور الرئيسي ،
وشغاهن وخواجهن . وبين الوجوه الفتية التي أصبحت مسطحة ،
جميلة مملّة ، نظرت إليه فجأة ، في بؤبؤي عينيه ، عينا إيرينا الشفافتان ،
الضعيفتان بطفولة ، اللتان اخترقتهما أشعة الشمس ، وقد ارتسم عليهما
ظل خفيف لا يتسامى حزينه . في اللحظة ذاتها ، رأى وجهاً آخر . —
أبيض اللون ، مثل الجبس ، رأى رمشين شبه مغلقين ، يحترقهما ضوء
العينين الأخضر الرطب ، والكحل الذي سال على وجنتها بضعف ،
في هذه القنطرة المتناهية القصوى ، غير المكترثة بالموت — ومن جديد
ضربات المطر المتدفق على زجاج نافذة السيارة ، وهدير المحرك ،
وبرودة شعرها المبلل اللوزية التي كانت تلاحقه منذ تلك اللحظات

الرهيبية في السيارة . ثم بدت له نافذة في نهاية مرطويل ، ورائحة جسدية لتواليات الحلاقة أو ماء الكولونيا ، ورأس فينيامين فلاديميروفيتش الواضح البارز المملحوظ من كثرة الشيب في شعره - وهل يعقل أنه لاوجود في مكان ما من العالم لتعويذة منقولة ، لابتهاال وصلاة للنسيان ، لتسامح الذاكرة ؟

« لو أنني استطعت ، بمعجزة خيرة ألا أتذكر ، لسهل وخف علي كثير من أمور حياتي . انه ، والد إيرينا ، كان محقاً ، ولم يكن الحق إلى جانبي ، كنت متهيجاً . ففي وحدته ، مع زوجته الجديدة ، كان يعيش من أجل ابنته فقط ، وأراد أن يعرف المذنب ، وصدّق كل ما قيل ضدي . وما العجب في ذلك ، فرهافة الألم ، والذنب والالتهامات - . كلها أشياء معروفة ! أليست هذه كلها وليدة قرننا المتحضر العزيز ؟ » .

أغاق كريموف ألبوم الصور ، ماسحاً بتأمل مرهق جبينه وقصبة أنفه ، ثم فتحه من جديد ، ومن جديد ، ابتسمت له العينان الممثلتان بضوء الشمس ، والمظللتان قليلاً بتيقظ ناء ، عندما واجهته الصورة المصقولة اللامعة ، « إن المسرة هي قنمية الحياة وغرضها » . تذكر كيف كانت تنزل على الدرجات الحجرية ، وهي مضاعة من الخلف بشلال الشمس الأبيض ، النافذ من باحة الدبر ، متمائلة قليلاً في ظلام الكنيسة الرطب الخفيف ، في ذلك اليوم الحزيرياني . وكان قد قرر على نحو واع وبصورة حازمة ، أن من المستبعد جداً العثور على إيرينا ثانية الدور الرئيسي ، لذا فان الفيلم لن يشجع على النحو الذي رسمه ، وأن طعم الفشل المرير ، الذي لم يشعر به بشكله العاري أبداً من قبل ، ينتظره مستقبلاً .

— أسمح لي ، فياتشيسلاف أندريفيتش ؟

دخل لاهثاً ، جينيا نيتشورالوف — المخرج الثاني ، ببنتاله المخملي المهترىء ، وسترته « الجينز » ، وهو شاب ذو عينين بنيتين مرحتين ، يخفي بلحيته فتوة سنه وحيائه لتخضب وجهه بلون أحمر مسمر . كان المخرج الثاني في مجموعة تصوير كريموف عاشقاً للسينما باخلاص ، وبصورة لاتنضب ، كان مولهاً بأفلام العالم العظيمة ، بالممثلين العظماء ، بالحركة التنظيمية للمرحلة التحضيرية ، بالاتصالات الهاتفية ، بالرحلات والتنقلات من أجل اختيار المناظر الطبيعية ، بالروح البنائية لألواح الخشب والغراء والورنيش والديكورات الحديثة للأجنحة ، كان مولهاً بالضوء المنطقيء بصورة سرية في صالة العرض أمام السححر المنتظر للمادة السينمائية المصورة ، كان مولهاً بكل ما كان يشكل أمارات السينما الجادة . هذا الوله ، هذا العشق ، من النظرة الأولى شعر به كريموف ، قبل عامين ، وأخذ معه للعمل في فيلم « الحرب غير المعلنة » ، وفيما بعد في الفيلم الجديد .

— كيف تسير الأمور يا جينيا ؟ — وأبعد كريموف ناظره عن الألبوم ، مشيراً له بسيجارته باتجاه المقعد مقابل الطاولة .

— مازالت على قيد الحياة ، رغم جميع التدابير المتخذة . فياتشيسلاف أندريفيتش ، لا يمكنك أن تتصور ، كم أنا سعيد الحظ اليوم ، لم أفكر أنك ستحضر ! — قال جينيا بنشاط وحركة ، حاطاً جسمه على حافة المقعد ، وناظراً باهتمام شديد إلى الصورة الظاهرة في الألبوم . — أعرف ، أنني قمت قبل عشر دقائق ، بأجراء التصوير التجريبي للممشاة

شاتروفا . . . انها من مسرح « المالي تياتر » ، وأقسم لك أنها فريدة من نوعها : شابة ، رائعة القوام ، عيناها عميقتا القرار — يمكن الغرق فيهما وعدم الظهور على السطح . تتحرك بجمال رائع ، ابتسامتها ساحرة . قبل أسبوع انتهت من التصوير عند المخرج بوليشوك . كم هو رائع لو تشاهدها . انها لاتزال هنا ، الق عليها نظرة سريعة ، وقل نعم أو لا . سوف تقتنع أن فيها شيئاً ما يستحق ! هل أدعوها ؟

— شيء ما فيها — كرر كريموف دون اهتمام ، مغلقاً الألبوم — شيء ما — ليس كل شيء . لأنه شيء ما .

— إذا أمكن ، فياتشيسلاف أندريفيتش ، طالما أنك جئت ، أنظر إلى شاتروفا ، إلى ماشا ! — توسل جينيا ، وأخذ جبينه يكتسب لوناً زهرياً تشوبه السمرة . — انها لاتزال هنا . سأحضرها الآن ، وستقتنع بنفسك ، كم هي قرية من سكفورتسوا .

« هذا شيء غير ممكن ، — فكر كريموف معارضاً ، وهو لا يزال يشعر بلمعان العينين اللتين تنظران إليه في بؤبؤي عينيه — مالمالذي جذبني إلى هذه الفتاة الضعيفة ، القوية ، ذات المصير الأليم ؟ المشاركة ؟ الشفقة ؟ أم الميل إلى موهبة أنوثتها غير العادية ، النادرة ؟ » .

— حسناً ، أحضرها ، لنرى ، ادع شاتروفا — قال كريموف متدمراً ، وسار في أنحاء الغرفة ، على مقربة من مجرى الهواء القادم من النوافذ ، المفتوحة على ضجيج فناء الاستوديو . ولسبب ما ، رغب بأن يسافر بعيداً إلى مكان ما . رغب بأن يجلس وحيداً في مقصورة

* هو المسرح الصغير بالمقارنة مع البولشوي — المسرح الكبير — المترجم —

قطار ، وأن يستلقي في استراحة دون تفكير ، في الأسفل على الفراش
التظيف الذي يقرع لنظافته في عربة منامة تئن وتندفع إلى الأمام ، قبيل
الغسق ، وكأنها ممتلئة بغبار ذهبي اللون ، بزجاجها المزدوج المغبر ،
الذي ينزلق عليه طويلاً غروب الشمس المتأخر ، متحولاً بصورة
تدرجية إلى أشعة على لمعان البلاستيك ، منيراً بصورة متألثة كهربائية
حافة السرير العلوي ، وأزرار الجاكتة على المشجب ، التي ترنح
وتتمايل ذات اليمين وذات الشمال ، مذكرة بالعزلة اللذيذة في مقصورة
قطار مغلقة ، ملاذك الوحيد ، حيث لا استوديو ولا اتصالات هاتفية ،
وحيث يمكنك التلذذ بالأفكار البسيطة والسامية ، التي تخطر في ذهنك
في القطار ، حيث تعرف أنه يحق لك ، دون أن تقول كلمة واحدة
لأي إنسان ، أن تخرج من القطار في الساعة الخامسة صباحاً إلى محطة
عرضية ، غير معروفة ، مثل رايكا ، وتستشق رطوبة الندى الكثيف
على الرصيف المنسي ، وأن ترى كيف يسبح قرص الشمس التوتي
في الضباب ، وكيف تتبخر أطياف أشجار الصفصاف وأسطح القرية
فوق الأرض في رجرجة بيضاء . . .

— فياتشيسلاف أندريفيتش ، أسمح لي ؟ .

— تفضل يا جينيا ! — أجب كريموف بصوت عال ، قاصداً
إبعاد وسوسة الرحلة والطريق : فالحلم بالطريق كان علامة الإرهاق
الشديد .

كان جينيا نيتشورالوف يقود شاتروفا إلى مكتب كريموف ، وقدمها
إليه دون أن يخفي إعجابه المدلل بها . وقفت شاتروفا بخضر إلى جانب
كريموف ، مضطربة ، ناظرة بحول ، بعينيها الزرقاوين الملائكيتين ،
وقدمت له أصابع يدها الرطبة بخجل .

— أرجوك ، تفضلي ، — قال كريموف

جلست على « الديوان » وجمدت كلها ، بظهرها المستقيم ورقبتها المرنة المشدودة . أما وجهها الأصفر ، البيضوي ، الذي غسلته لتوها من الماكياج ، فقد كان متوتراً بصورة ملحوظة ، خوفاً من القرار القريب . فكر كريموف بألم كيف سيضعب عليها قراره بالرفض ، وكيف سيثبط هذا الرفض عزيمة جينيا المثابر ، السريع التأثير ، بيد أنه لم يكن قد استطاع أن يحدد بدقة ، مناسب حذره من حياة شاتروفا ، وما هو الذي لم يناسبه وأزعجه بصورة مثيرة — أوليس هذا الجمال النموذجي الصارم ، دون أي غموض أو ألغاز ؟

— هل تعرفين موضوع السيناريو — سألها برقة بالغة .

— حدثني عنه يفغيني بافلوفيتش ، — عندما كنا نعد اللقطات

التجريبية .

— وحسبما فهمت ، حول أي موضوع يدور ؟

— حول الشبيبة . عن الآباء والأبناء — وابتسمت بصورة خفيفة ،

ثم طردت بخوف ، ابتسامتها من شفثيها المنفوختين — عن معنى الحياة . . .

— وهل تريدان أن تمثلي في هذا الفيلم ؟

— جداً .

— ولماذا ابتسمت عندما قلت عن معنى الحياة ؟

حركت كتفيها قليلاً ، ثم قالت :

— أعتقد أن غالبية الناس الآن تعيش يومها وحده ، فياتشيسلاف

أندريفيتش .

- ربما لهذا السبب ، يحذر بنا أن نقرع الأجراس ؟
- لا أدري ، فياتشيسلاف أندرييفيتش . انني أعيش ، آملة تمثيل دور ليزا كالييتينا * المعاصرة ، ولا يحالفني الحظ
- أتظنين ، أنهن موجودات في الحياة الواقعية فتيات تورغينيف ؟
- ألم يزلن بزوال الضياع والدساكر الخاصة ؟
- ثمة عدد قليل منهن . . .
- حسناً ، لن أزعجك أكثر من ذلك . شكرًا ، سنشاهد اللقطات التجريبية ، ونرى كيف تبدين على الشاشة .
- انني لم أحز على إعجابك . « لم أع » ، كما يقولون عندنا في المسرح
- وفتحت قفل حقيبتها ، وهي تحرك رموشها الطويلة ، وأخرجت منها علبة السجاير ، بيد أنها غيرت رأيها على الفور ، وأعدت السجاير من جديد إلى الحقيبة ، وقالت بحزن مجرب : أدهشه فيه عدم تطابقه مع مظهرها الخارجي الظافر :
- إن الشيء الذي لا يحتمل ، والأكثر إهانة في مهنتنا ، اللحظة التي يختارونك فيها : شفتاك ليستا كما يجب ، قوامك غير مناسب ، صوتك لا يصلح . إلى اللقاء فياتشيسلاف أندرييفيتش . كم أنت سعيد — فأنت من يختار .
- أنت مخطئة على الأغلب . لأحد يدري ، هل نحن نختار القدر .

* ليزا كالييتينا — بطلنة رواية تورغينيف « عش النبلاء » ، تميزت بالرومانسية

— المترجم —

المفرطة .

أم القدر يختارنا — أجاب كرىموف دون رغبة — سعيد بخطته ذلك الذي
يعتبر الآخمين سعداء . كلا ، لقد حزت على إعجابي ، رغم أنني
لأفهم شيئاً في فن هاتين العبارتين «أع» و «لم أع» . والضرورة هي
التي تقرر ، كما تعرفين . غير أنني لأريد أن أزرع في نفسك أملاً
كبيراً خاصاً .

— أنا أفهم ذلك . أتمنى النجاح لفيلمكم . لأنني أحبك كمخرج . .
— أشكرك . — وصافح يدها المضطربة في راحة كفه ، دون أن
يضغط بقوة .

فتح جينيا الباب مسبقاً وخرج لمرافقة شانروفا إلى المصعد، وعاد
بعد خمس دقائق مكتئباً . اتكأ بمرفقيه من الخلف على ظهر المقعد ،
غارزاً قبضتيه في لحيته ، وقال بارتباك وحيرة :

— لماذا لم تعجبك ؟ أية عينان ، أي قوام ! تقف إلى جانبيها ،
ويسري جمالها في جسمك كالكهرباء !

— جينيا ، إن أفضل ما في الفن ، قد صنع على ضوء الشموع .
يلزمنا في البطلة «القليل» وليس «كل شيء» . ولإلا لن نتحرك من مكاننا .
تعال نبحث عن النور الداخلي . على أية حال ، أنت تعرف هذا . شانروفا ،
رغم كل معطياتها ، لاتصلح . معطيات رائعة ، بيد أن هناك شيئاً خشناً ،
قاسياً ، في وجهها ، في استقامة أنفها . . . لكن ، يا جينيا ، بدا لي
أن . . .

— ماذا تقول ، فياتشيسلاف أندريفيتش ، ليس لدي أي شيء . . .

.. اوقال جينيا متألماً ، وهو يضغط بقبضتيه على لحيته ، وظهر ما يشبه الغضبون على جبينه القوي :

فعلاً ، يجب أن يكون شعور الممثلين شتيعاً للغاية في اللقطات التجريبية . فتحن نختارهم ، كما يختارون الجياد في المعرض . أما النساء فنفحص أسنانهن ، أرجلهن ، مشيتهن . إن هذا مهين ومجوني ، فياتشيسلاف أندريفيتش ! قل لي ، ألم تخطيء ، ألم تندم ، لأنك رفضتها ؟

— ندمت وأخطأت . لكن الفيلم الجاهز لا يمكن تصليحه بمقصر أعوج . ولتكن عبقرياً ، بل وأعظم عبقري ، فلا وجود لأي فيلم بدون بطل أو بطله . إن الفيلم السيء هو بعينه الوقاحة والمجون والاستهزاء ، أمام أعين الملايين . لذا ، جينيا ، علينا أن نكون صارمين ، قاسين ، شديدين ، لانعرف الرحمة ، في اختيارنا للممثلين . على أية حال ، أنت شاب ذكي ، موهوب ، وهذه الحكمة العميقة كلها تدركها جيداً .

— ليس كلها .

— وماذا بالذات ؟

— أنت ، فياتشيسلاف أندريفيتش ، هل بحثت طويلاً ، أثناء اختيارك لإيرينا سكفور تسوفا ؟

— رأيتها مرتين في المسرح قبل عامين ، حيث كانت لاتزال فكرة الفيلم غامضة ضبابية . لم تكن هناك حاجة لاجراء لقطات سينمائية تجريبية . كان كل شيء واضحاً : النظرة ، الانحاء ، الحركات ،

الرشاقة الداخلية إيسامتها وحدها ، مخطئة تارة ، وحزينة تارة أخرى ، كانت سيناريو كاملاً إن صح التعبير . كان يمكن تصور جهل ، ضعفها ، زواجها غير الموفق ، بأسها ، استسلامها ، أملها إن مثيلات سكفورتسوا نادرات جداً ، وبخاصة بين الممثلات .
قال جينيا بحرج .:

— فياتشيسلاف أندريفيتش ، انني أكن لك احتراماً عميقاً .
بيد أن الأمر ليس كذلك

— أي أمر ليس كذلك ؟ أكمل حديثك إلى النهاية ، طالما بدأته .
ليس عن احترامك لي ، بل عما فكرت به :

أمسك جينيا لحيته الكستنائية بيديه الاثنتين ، ونظر إلى الأرض ، غير عازم على الإجابة ، متأسفاً لأنه لا يحق له أن يصحح لأستاذه الموقر ، واثبات عدم صدقه ، ورأى كرههوف هذا التردد المؤلم ، والتوقف الوجلي على وجهه ، فحثه بخشونة :

— هيا ، قل ، اقتحم ، اخترق ، قل الحقيقة كلها مرة واحدة ،
لا تخجل !

— فياتشيسلاف أندريفيتش ، لايسرني ابدأ أن أحدثك حديثاً مسبقاً قال جينيا بحيرة — ولكن ، قل لي ، ألم ترفض سكفورتسوا عندما اتجهت وإياها في المرة الأخيرة لاكتشاف الطبيعة ؟

— في أي شيء رفضتها ؟

— رفضت إعطاء الدور لها

— و... ؟ قل ، اندفع هيا إلى الأمام ، حطم جميع الأسوار
والحواجز .

— انني أشعر بالخرج ، فياتشيسلاف أندريفيتش .

— وعلام الخروج ؟ تكلم بصراحة ، سيكون الأمر أوضح لنا
نحن الاثنين .

— يقال أنها كانت مغرمة بك وأنت مغرم بها . وأنها طالبت بأن
تطلق زوجتك وتزوجها . ولم يكن باستطاعتك ذلك . . . وفي ذلك
اليوم ، عندما انطلقتما إلى الطبيعة ، قطعت علاقتك بها ، فأرادت هي
الانتقام منك . . . بهذا الانتحار الرهيب . . .

قال جينيا ذلك ، بسرعة وتلعثم ، ثم صمت ، ناظراً إلى كريموف
بعينين ممتلئتين خوفاً ، ثم أطرق وكأنه ضُرب على رأسه ، معبراً عن
ذنبه برأسه المطأطأ ، وبرقبته المنحنية ، التي تشبه رقبة صبي ، وحتى
بطوق سترته « الجينتر » البازر ، الدالي .

— وهل تصدق ، أنت يا جينيا ، هذا التلفيق المجهين الجائر
وهذا الهراء الوقح ؟ هل من المعقول أنك تصدق ؟ لقد سألتني ، وكأنك
تؤنبني ، ثم خفت — قال كريموف كاتباً في نفسه نار التهميج المشتعلة —
وهل تصدق الشائعات ؟ أم أنك تريد تضليلها ، لأنك ضعيف ، مثل
جميع الناس ؟

— لا أريد ، لا . . . — أجاب جينيا بصوت مكبوت ، وكأنه
يستعد لتحمل الجزاء . — ولكن ، لماذا ينسج حولك كثيرون

يا فياتشيفيلاف أندريفييتش ، السخافات ، ويحكون أحازير قدرة
متنوعة ؟ لماذا ؟ . . .

— لأن كثيرين لم ينموا بعد ولم يصلوا إلى الكثير و — إذا أردت ،
وبعبارة مخفية — لأنهم لا يتعاملون بخير ومحبة نحو بعضهم بعضاً . نحن
نتحايل ونخدع أنفسنا ، عندما نتحدث عن إنسان جديد كلياً ، في
عصرنا هذا . ولكن ، يا جينيا ، وما الحاجة إلى فننا ، إذا كان الناس
جميعاً ملائكة ؟ هذا ما أقصده . تصور ، لو أنك ، وأنت الشاب اللائق
المناسب من جميع الجوانب ، جئت فتاة لا تغفل عنك لثيقة ، لكنها
وحيدة . ومكنت عندها ساعة ، بصورة عفوية أم مقصودة ، ولحظتك
الجيران ، اليقظون ، ثاقبوا النظر . فماذا سيقول عنك الرأي العام في
الغد ؟ سيكون رأياً مديناً ، وجيد الجانب — لقد ارتكبت خطيئة .
ومن المستبعد أن يعترض أحد ، ويقول بأنك كنت تقلب الكتب عندها ،
وتناقش حول المخرج فيليني . المحزن في الأمر ، أننا نقع في أسر
تصورات كاذبة ، حسودة ، حقودة عن بعضنا بعضاً . أتفهم يا جينيا ؟
واحد من الدرائعين يستبدل بمهارة ، أو ربما بسخافة كبيرة ، روح
الإنسان بالحساسة والابتذال ، أما ضميره ، فقد كان خافلاً بمتعة ولذة
أمام شاشة جهاز التلفزيون . على أية حال ، إن الضمير الحي شيء خطير
على النفس وعلى الآخرين . إن الحياة تغدو غير محتملة ، في حين أنه
يجب العيش وفق القوانين الأخلاقية ، لا من أجل الملذات والمسرات
الآنية . هذا صحيح ، يا جينيا ، أم لا ؟

— فياتشيفيلاف أندريفييتش — قال جينيا مقشعراً — بأي حزن
كبير تنظر إلى الناس

— ليس بحزن بل بأسف عظيم — أجاب كريموف . — لأن هذا العصر هو عصري أكثر مما هو عصرك . عصرك سيأتي . بالمناسبة ، أنت أمام منعطف ، على الأغلب . . .

— أنا ؟ أمام منعطف ؟ إلى أين ؟

— أقصد من حيث منصبك . — قال كريموف بعدم اكتراث بالغ . — فإذا ما انهارت سمعتي بصورة نهائية و . . . ، غيره . . . ، وغيره ، فأنت ستشغل مكاني ، يا جينيا ، وسوف تقوم بتصوير فيلمي .

فارتعش جينيا ، وحرك رأسه إلى الأعلى حركة حادة ، وتشوه وجهه بصورة بائسة من الماكياج يبيع لائحة حمراء ، بحيث بدا : وكأن المأفاجئاً اخترقه !

— لا ، أبداً ، أبداً . .

— اشرح ، ماذا تقصد .

— لن أشغل مكانك أبداً ! — قال جينيا لاهتاً بصورة محتدمة — إن من يريد أن يشغل مكانك هو غبي ، أبله مطلق ! من خطرت له هذه الفكرة في رأسه ؟

— لقد خطرت لأبله ، هو أنا . لقد كنت سأرضى بذلك .

— فياتشيسلاف أندريفيتش ، انني أنحني لإجلالاً واحتراماً لموهبتك ، لهذا لن أتمكن من إخراج هذا الفيلم . إنني عاجز عن ذلك . لقد تعلمت منك ، وأنا أذكر ، أن على كل امرء أن يغرف من قصعته ، هو ، عليه أن يرتدي حذاءه ، هو

— يغرف من قصعته: يرتدي حذاءه — هذا صحيح — قال
كريموف: ، وضحك مستغرقاً في التفكير ، ومنع ذلك ، ففني الحياة
الأرضية كل شيء ممكن .

— فياتشيسلاف أندريفيتش ! أنا لست خائناً ! — قال جينيا محتدماً
بغضب — لن أوافق أبداً ، في يوم من الأيام .

ولا اضطرابه وعجلته ، أخذ يسحب بصورة طائشة ، غيز رشيقه ،
علبة من السجاير الرخيصة من جيب سترته الصدري ، وبعد أن أشعل
سيجارة وسحب منها نفساً ، وسعل ، طارداً الدخان ، قال :

— لن أوافق أبداً ، أبداً — كرر جينيا بسرعة ، باستياء — أنا
أعرف ، لماذا لا يحبك بعضهم في لجنة الدولة للسياحة ، بل وحتى بعض
الرؤساء في الاستوديو ! أنهم لا يحبونك ويخشونك ! لأنك تعرف من
قصعتك ، وتسير وفق رأيك ، وحسب طريقك الذي اخترته . وهذا
أمر لا يقدرونه . إن عقولهم انتهازية جبانة . كما أنهم لا يريدون أن
يفقدوا مواكزهم . لقد سمعت غيباً منهم ، عمتلي الجيوب بالإموال ،
يقول ذات يوم في مكتبه لأحد الأشخاص : « إنها مذهلة » ، قبيرة
كريموف على اكتساب المقرطين المادحين ، بتعبير مخفف وما الذي
ينقصه ؟ الشهرة ؟ المال ؟ إنه مرتش وأنا في ! . لقد انتشر هؤلاء المقرطون
المادخون في المكاتب بأعداد كبيرة ، وكل منهم يتشبث بمقعده بيديه ،
وبطاولته بأبنيانه ، وكلهم تقريباً ، بلا معرفة ولا قبلرة
ضحك كزيموف من جديد . وقال :

— كفناناً حديثاً عن موظفي السينما البيروقراطيين . تعال ، يا جينيا ،
نفكر معاً ، كيف سنعيش في المستقبل ، كيف سنعمل . هل سنقاتل

حتى آخر طلقة ، أم سوف نستسلم ونضع أنفسنا تحت رحمة المادحين
المقرطين ؟

وأمسك جينيا من مرفقه بود ، مواجهاً عينيه الداكنتين المشرقتين
بابتسامة خافتة ، وتابع حديثه بثقة المازحة العادية :

— سوف نقاتل ونرد على النار حتى آخر طلقة ، يا جينيا . تابع
بخطك عن البطلة . وعندما يصبح العبء ثقيلاً مرهقاً لا يطاق ، سأعطيك
إشارة . وتخرج أنت من الحصار . وسأهني إطلاق النار لوحدي .

— فياتشيسلاف أندريفيتش ! لماذا تقول ؟

— عزيزي جينيا ، أنت لاتزال شاباً ، ولا تعرف أنه قد تكون
الظروف أقوى منا . شكراً لمشاركتك .

— فياتشيسلاف أندريفيتش !

— ألا تريد أن تتقبل مني عبارة شكر ؟

* * *

الفصل الثالث عشر

بعد نصف ساعة ، قاد مولوتشكوف بالسيارة كريموف إلى بيته الريفي ، وفي الطريق أسند كريموف رقبته بتعب واعياء إلى ظهر المقعد ، وأغمض عينيه ، وأخذ يسترجع في ذهنه بألم وحزن ، الممر الفارغ في بناء بتروفكا ، حيث التقى ، دون أن يتوقع ، فينيامين فلاديميروفيتش بحركاته المسرحية التي لا نطاق ، ولا يستطيع السيطرة عليها ، كما بدا له ، والناشئة عن فجيعته الحقيقية الصادقة . وبعده هذا الجنون ، رأى ، إما في الواقع ، أو في مخيلته ، بالابانوف الأحمر اللون ، الذي شمر أكمامه ، كالمحارب ، عن يديه القصيرتين ، وبيسكاريف بوجهه المعظم النحيف ، وبقدميه المعقوفتين تحت المقعد ، وهما يشربان الشاي ، واسترجع في أذنه خطابه التهريجي البهلواني المتأنق ، المعد لكليهما ، وتأسف ولم يتأسف ، في آن واحد ، على السخرية المتدفقة في لعبته الوقحة التهريجية معهما . ولكن هل حدث هذا ، أم لم يحدث ؟ وكان يزعجه شيء ما ، ويثيره بقلق جديد غير مفهوم ، لم يستطع تحديده أسبابه ، تماماً ، كما يحدث أحياناً ، عندما يحاول تذكر كنية شخص ما ، ولا يستطيع تذكرها ، وكأنها ظل متسائل ، تعجز الذاكرة عن الإمساك به .

ما إن غادرا الاستوديو بالسيارة إلى المركز الأزرق الشوارع
موسمكرو ، ولبقائهما طويلاً ، أخذوا يوزحان تحت نتن الغازات المنفوخة
على تقاطعات الطرق المكتظة بالسيارات ، وحاول مولوتشكوف
الإجتماعي بطبعه ، أن يقول شيئاً ما («أوه ، يمكن للمرء أن يموت ،
صحراء حقيقية ») ، وتأوه باطف ماسحاً من لحظة لأخرى بخرقة
يديه المتقرعتين المسكتين بمقود السيارة ، غير أن كريموف قال بثبات :
« تيرني ، لنأخذ نفساً ونسلك ، إن كنت لا تعارض ؟ » - وصمت
غير مكتثر بالقيظ الاسفاتي ، وجحيم الشوارع المغبر ، وبجهود
مولوتشكوف لأن يكون سباقاً ، مرحاً ، كما يتوقع له أن يكون ،
على الأغلب ، مذاك الأفلام المالي في جميع الظروف الحياتية .

« إذن ، أنا ذاهب إلى البيت الريفي ؟ - كان يفكر كريموف ،
متكيفاً مع الجو المنزلي . - أجل ، « دوش » تحت أشجار التفاح ،
ابنتي الحبيبة تانيا ، غيلدي الدائم ، وأولغا ، بغينيتها المضامين الوديعتين ،
القادرة على الصمت الطويل عندما لا تكون راضية عني . . . الكائنات
المحبوبات على نحو خاص على سطح الأرض ، وبدونهما لما كانت لي
حياة . نعم ، نعم ، الرقة والنعومة . . . وفالتين الجدي بافراط ،
الغامض في جانب ما ، الذي يرغب ، بصورة مكتومة بأن يأخذ دوره ،
ونخطيبته إوسيا ، ليودميلا ، المنطوية على نفسها ، ذات الأنف الحاد
الآرنية ، والراغبة أيضاً بأخذ حصتها . . . ماذا بي ؟ في السابق ، كنت
أتوجه إلى البيت الريفي بفرح ، أما الآن ؟ هناك ، مكتبي في العاية ،
كتبي ، وسريري تحت النافذة المفتوحة ، والاطمئنان والهدوء ، حيث
يمكن للإنسان أن يفكر ويستغرق . . . غريب ، لقد جئت من الخارج ،
وحتى الآن لم أتحدث مع أولغا . . . »

من جلديد ، ما كاد يبدأ التفكير بأولغا ، مشتاقاً إليها ، حتى أخذ يشعر بتعب ، بالربيع الباكر ، والبرودة الخبلية في الهواء (كانت جبال الألب على مقربة منه) ، وبحشود العيد للمرة أمام الواجهات الحارة المحلات التجارية يروى بعيداً في الأسفل ، خاف الحاجز الحجري الذي كان يفوح منه الدفء ، وينفوح منه شهر نيسان ، رأى ساحة محجوبة بالسيارات ، غطيت بكاملها بالخضرة الناعمة لأشجار الدلب ، في الشبكة الربيعية الممتدة على المسطحات الخضراء من الظلال والشمس - في تلك الفترة من رحلاته الأولى إلى الخارج ، كان يشعر بالفرة القريبة ، بالحب والشباب المتواكل . هذه الساحة المريحة الأنيقة ، كان يبحث عنها على عجل في زيارته اللاحقة للنمسا ، ولم يستطع العثور عايتها ، لا في فيينا ولا في زالسبورغ . وكان يتصور أحياناً ، أنه لم يستطع العثور ، لا على تلك الساحة التي يدفعها النهار النيسانى ، بل ولا على ذلك الربيع ، الشباب ، ذلك الأمل السعيد . السنوات الخمسينيات الذي لم يتحقق . . . » ومع ذلك ، أجباً أن هذه الساحة يربطها بأولغا خيط من الماضي ؟ كنت في الخارج لوجلي ، أما هي فبقيت بعيداً في موسكو . . . كنت أشتاق ، أحلم بلقائها على تلك الساحة ، لكي يحس كلانا بهواء اللامبالاة الفتي هذا . . . » .

- فياتشيسلاف أندريفيتش ، أنت تغفو ، أليس كذلك ؟ -
من خلال هدير المحرك ، برز صوت مستعطف ، بابتدال ، ولهذا بازعاج ، مطفئاً بذلك الربيع وخضرة أشجار الدلب على الساحة ، وكرر ثانية : - ألم تغفو ، من ضجيج المحرك ، أليس كذلك ؟
- لاني يقط .

— إن يفغيني بافلوفيتش رجل جدي ، واديه إهتمام بالعمل .
« ثانية ، تيرنتي بطبعه الاجتماعي الذي لا يفارقه وعنايته بأمر العمل ، اصبر قليلاً ، يا عزيزي » .

— نتحدث عن نيتشوراليف ؟ — سأله كريموف دون أن يفتح عينيه .

— عنه ، فياتشينسلاف أندريفيتش

فتح كريموف جفنيه الثقيلين بالنسيان . عبرت السيارة الأبراج الرمادية في ضواحي موسكو ، منطلقة على الاسفلت المحروق إلى حد البياض في الطريق المحاق الدائري ، وكانت تلوح من اليسار ، من خلال رؤوس الإسيجة ، أشجار الشوح ، وبينها كانت تراءى السهول المصبفرة ، في الشلال الضوئي الريفي ، كان يرتجف فم مولوتشكوف الضيق الذي انفرج عن ابتسامة مترقبة .

« أمر طريف — وجهه حليق بنعومة بالغة ، وكأن الشعر لا ينمو عاياه ، أما رقبته فكلها تجاعيد كبيرة — لاحظ كريموف — يبدو أنه قوي وصحته جيدة ، رغم نحافته وهزاله » .

— إنه إيجاي ، يفغيني بافلوفيتش . ألا توافقني ؟

— أوافقك . أنت النظر إلى الطريق ، ليس ضرورياً أن تنظر إلي ..

— لا ثقاق ، أعرف أنا من أقود — قال مولوتشكوف مطمئناً ، على طريقة النساء ، بصوت أقرب إلى الغناء ، — اعتبر أنني أقودك إلى الجبهة : في مكان ما ، قرب نهر الدنيبر مثلاً : لو قدمت في تلك الأثناء فحضر السواقة ، لما كنت فعك في وحدة الاستطلاع .

— ولماذا تذكرت وحدة الاستطلاع ، يا تيرني ؟

— لقد نسيت بكل شيء تماماً . ولا أريد أن أتذكر شيئاً . غير أنني أذكرك أنت وحدك ، ولهذا أحبك .

إن رقة صوته المتموجة ، ولباقته المفرطة في المعاملة ، ورشاقة حركات قامته القصيرة ، واحترامه الدائم الزائد الذي يبيده نحو كريموف ، ومخاطبته له بلغة الجمع ولهجة الاحترام ، كما يخاطب الجندي قائده — إن سمات مولوتشكوف هذه كلها ، التي لم تنكشف حتى القاع في الحرب ، قد اكتشفها كريموف باهتمام لدى لقائهما الأول قبل ستة أعوام . ونسب كريموف هذه السمات الجديدة ، التي أصبحت جزءاً لا يتجزأ من مولوتشكوف إلى شكل الدفاع عن الذات ، الذي تكون مرة واحدة وإلى الأبد ، لدى تيرني ، الكشاف السابق الفاشل ، الذي صدمته الحياة بقوة في السنوات اللاحقة بعد الحرب أيضاً .

التقيا بصورة مفاجئة ، غير متوقعة في ساحة كالوجسكايا بالقرب من اللعب الآلية للمياه المعدنية في يوم أحد من أيام حزيران ، كان يدور فيه زغب أشجار الحور وكأنه في عاصفة . ولولا زغابة التصقت في قعر كأس كريموف ، لما انتبه أحدهما للآخر . « أنظر ، أين حطت ، إنها تطير إلى فمك مباشرة » ، الملعونة — قال شخص اقترب منه ، من الجانب ، وبعد أن أطلق قهقهة لامبالية ، ملة يداً سمراء مبتسبة ، كيد القروء ، إلى كأس في العلية الآلية المجاورة . انظر كريموف ولم يصدق في البداية : « هذا مستحيل ! » .

من فصيلة استطلاع الفوج التي وصفت إلى ألمانيا لم يبق جندياً واحداً في عداد الأحياء . لم يعد يذكر وجوههم بوضوح ، بيد أن هذه اليد

المعروقة المتشبثة رسخت في ذاكرته مدى الحياة ، حتى أنه رآها في منامه ، وهي تخدش باضطراب في الشاج المسود كالبارود في منجلو الخفرة . . . نعم ، كان هذا مولوتشكوف ، جندي من فصيلة الاستطلاع ، وكان آنذاك نحيفاً جداً ، شبيهاً بالمراهق الشرير ، ذا عينين صفراوين وقحيتين ، سايط اللسان ، يحمل نطاقاً معتماً عليه مسدس « بارابلاو » ، وهو مسدس يطاق بدقة وصلابة ورنين ، حسب رأي أصحاب الخبرة من رجال الاستطلاع ، وكان يلبس جزمة ضباط ألمانية ، جمع أطرافها من فوق على شكل أوكوردبون على رجليه الرفيعتين . غيز أن مولوتشكوف ، الذي تعرفه كريموف في يوم زغب الحور من خلل يده ، التي أمسكت الكأس بالدفاع ، لم يكن ذلك الشاب الماهر الهاوي للفكاهات والأغاني الروسية الشعبية الريفية ، ذلك الشاب الطائش ، المرتعد خوفاً من نيران الرشاشات على خط المنطقة المحايدة ، الذي كان يفقد إرادته خلال ساعات ، بل كان رجلاً متغصناً ، مكرماً ، قصير القامة ، يرتدي بزة رقة مبتذلة ، وقميصاً غسّل حتى اهترأ ، مع ربطة عنق مربوطة بلاذراية ، أما عيناه فقد أجهلننا من اللعان بخفة ، لكنهما كانتا مثل قندين ماحوسين ، وكشف شحوبه المرضي عن شعر كثيف رمادي على خديه . ورأى كريموف نظراته الكلبية ، المدهشة ، المتزلقة ، عندما سأله بعد أن أجاسه في سيارته ، إلى أين يذهبان لتناول قدح من المشروب من أجل اللقاء — إلى البيت أم إلى المطعم . وأجاب مولوتشكوف ، دون أن يجرأ على الجاوس براحة أو على إسناد ظهره إلى ظهر المقعد ، أن من الأفضل إلى البيت ، ان أمكن ، ليتعرف على زوجته ، ونظر بوجل إلى صالون السيارة ، إلى أغطية المقاعد ، إلى اللعبة المشعثة الشعر التي علقتها تانيا على المرأة ، على شكل تعويذة .

في منزل كريموف ، سرخان ما ثمل مولوتشكوف وانتشى ،
وانتعش . كان يمسك بالسكين والشوكة بأصابعه ، مزيجاً خنصره ،
وروى ، متلعثماً ، بحضور أولغا المضيفة المتحفظة ، قصته الكئيبة بعد
الحرب : في عام ألف وتسعمائة وخمسن وأربعين ، عاد إلى الكولخوز ،
بالقرب من مدينة قورونيج . كان عدد الرجال رجل ونصف ، والباقي
نساء . لهذا ، ودون أي تفكير ، وبسبب من جرحه ، عثر لنفسه على
عمل ، أميناً للمستودع . غير أن حياته سارت على الفشل الماكر الخبيث ،
مثل ميزان حرارة وسط عاصفة : لم يتمكن من الزواج ، فالنساء
الجميلات لم يسمحن له باختيار امرأة لوحدها ، وأسقينه الساماغون * ،
كالثور ، وبعد ذلك انقلب كل شيء على عقب وانتكس . فقد سرق
لصوص المدينة المستودع وأحرقوه ، واضطر لتحمل المسؤولية ،
حسب قوانين بعد الحرب الصارمة ، وفي العام التاسع والأربعين أصدرت
المحكمة حكمها الصارم عايه وفق نص القانون ، ولهذا أخذ يقطع أخشاب
الغابات في أنهار الشمال ، متحملاً الجوع والبرد . وبعد أن أمضى
فترة حكمه ، لم يعد إلى القرية ، فقد قرر جمع مبلغ كبير من الروبلات
بالعمل الحر في سيبيريا ، وذلك بقطع الأشجار بالمنشار الكهربائي
والفأس ، لكنه لم يستطع تجميع مبلغ كبير من المال في غابات التايغا ،
فقد تزوج ، وأخذت تنحور قواه ، وبدأ يتطاع إلى عمل في القطاع
الإقتصادي . وسنحت له فرصة العمل في وظيفة جيدة في تموين بعثة
جيولوجية على نهر نيجنايا تونغوسكا ، (حيث تنزه الدببة بمعانقة نوافذ
البيوت) . غير أن البعثة الجيولوجية أنهت أعمالها خلال ثلاث سنوات .

* الساماغون : مشروب كحولي يتيق قوي مصنوع من الفواكه المخمرة - المترجم -

ورماه القندر بعد ذلك في مدينة كيزنسك ، الواقعة في غابات التايغا ، أولاً ، ثم في مدينة ايركوتسك ، حيث عمل أمين مستودع لمؤسسة الخضار ، ثم مدير مرآب ، ثم مدير مطعم عمالي ، إلى أن أصيب صدفة في كايته بالمرض (« فقد شرب كثيراً من مياه المستنقعات أثناء الصيد ، حيث تقف جراثيم ما ») ، مرض مولوتشكوف وهجرته زوجته ، وهجرت مريضاً ، وليس زوجاً أو عاملاً ، أما هو فبعد مرضه ، وبعد علاج طويل ، تحقق حالمه في سنوات الكهولة بالاقتراب من موسكو ، وقدم إلى منطقة خيميكي ، إلى أخته ، الأرملة ، التي كانت تعيش وحيدة . وهنا أراد العثور على عمل باختصاصه ، في التموين في مصنع بناء القاطرات الحديدية ، بيد أنه لم يستطع حتى الآن الحصول على أي شيء جيد ، على وظيفة لا ثقة . « يعلوني باستمرار : تردد إلينا ، تردد ، وليس في الحيب شروى نقيم ، ولا يسمح لي خصميري بالعيش عالة على كنف أختي براتبها التقاعدي ، وحالي يرثي لها ، أعيش على الكحل وحده ، ولا أتناول طعام الغداء عند أختي . أشتري الكحل في مكان ما في البولفار ، وأقصمه ، وأشعر كأنني شبع على طريقة الجنود ! » .

جلال حديثه ، كان ثملاً بصورة قوية ، وبكى فعلاً بكاء خافتاً من أنفه ، ف شعر كرموف بالألم والشفقة من رؤية سرة مولوتشكوف المجددة الملطخة ، وشفته المملودتين بسبب البكاء ، ومن كيفية غرزه الشوكة في طبق الخبز ، ممسكاً بكسرات الخبز الصغيرة ، ومن نظراته إلى اللوحات الفنية المعقدة على جدران غرفة الطعام ، وإلى المزهرات وإلى الثريا ، معتبراً هذا ، كما يبدو ، بمثابة ثراء كبير وبلذ وترف ، استحققه قائله القصيدة السابق ، وهو الآن إنسان واسع الشهرة . وانطبع

في ذاكرة كريموف الاحمرار الثمل لوجئيه ، الذين أصبحنا الى الفور
كالحوار المتقنع بسبب إثارته وانفعاله — وبرز عليهما شعر ذقنه باون
أغمق ، وأشد وخزاً ، وكأنه استعطال فجأة . وعندما مسح الدموع
بقبضته المعروقة ، قال مولوتشكوف بصوت متقطع : « أنا عبدك
يا فياتشينسلاف أنلرييفيتش . وسوف أخدمك باخلاص . فمحن مرتبلمان
معاً بخيط واحد — لقد حاربنا معاً . أنا ملين الك بحياتي . تخلفني العمل
عندك . أنا أعرف أنك قادر على عمل الكثير » .

لا ، لم يكونا صديقين في الجبهة ، كان كل شيء أكثر بساطة ،
وبالتالي أكثر وضوحاً . وربما كان الخيط الوحيد الذي يربطهما هو
العملية الاستطلاعية غير الموفقة التي اشتركا فيها في شتاء عام أربع
وأربعين . لم ينس كريموف تلك العملية الاستطلاعية الفاشلة ، وربما
لشفقته على مولوتشكوف ، أو لشعوره بذنبه الشخصي ، ساعده في
إيجاد عمل له بصفة مدير إداري في إحدى مجموعات التصوير في
الاستوديو ، ثم مساعداً للمدير الإنتاج ، ثم مدير إنتاج في مجموعته ،
وكان راضياً عن نشاطه وسعيه الحثيث . وإن الخفة الشديدة الدائمة
والنشاط المستمر وطاقة مولوتشكوف التي لاتنضب ، وعلاقاته المربحة
للغاية مع إداريي الاستوديو ، وقدرته البشوشة على عقد أطيب العلاقات
والروابط مع المؤسسات والهيئات المختلفة ، التي يمكن أن يتوقف عليها
تنظيم اللقطات على الطبيعة ، واستعداده المسبق لتنفيذ أي طلب يبيده
كريموف ، وابتسامه شكره الخنوقة الرقيقة على ماضيه وحاضره ،
وتقديس المخرج في المجموعة — كل هذا ، غير المتوقع من مولوتشكوف
قبل سنوات عديدة ، أكد لكريموف شيئاً واحداً : أنه في المراحل
المختلفة من حياة الإنسان يكمن فيه شيطان أو ملاك . « كان فيه شيطان

هناك ، وملاك هنا . أم العكس ؟ » . بالنسبة لدقة مولوتشكوف التنفيذية التبجيلية المخلصة ، المزعجة أحياناً ، كالتملق ، كان يقف كريموف . منها موقفه الساخر المألوف ، لكن المهم ، أن الأمور المالية والإدارية والتنظيمية ، تحت سلطة المدير اليقظة الساهرة ، كانت خالية من أية عيوب أو شوائب ذات شأن . وخلال ست سنوات من العمل شغل مولوتشكوف في الاستوديو مكانة مرموقة بين مدرء مجموعات التصوير ، وحصل بمساعدة كريموف على شقة ، وأخذ يرتدي البزات الأنيقة النظيفة ، وأصبح نظيفاً وأنيقاً لدرجة يصعب معها التعرف عليه ، أخذ يخلق ذقنه بعناية بالغة ، ويعقد ربطة عنقه بمهارة ، واشترى سيارة « موسكوفيتش » بعد حصوله على حوافز إنتاجية من ثلاثة أفلام ، وأخيراً تزوج في العام الماضي . والأمر العجيب ، أن مولوتشكوف في يوم تسجيل عقد الزواج قدم إلى بيت كريموف لنصف ساعة ، من أجل أمر هام — « من أجل عرض عروستي ، إذا ما سمجت » — جاء إلى بيته مع امرأة ممتلئة الجسم ، طويلة القامة ، مستديرة الوجه ، وسيمة القسمات ، غارقة في فستان فاخر ، فاتح اللون ، ذي حواشي متماوجة وثنيات مروحية ، مثل الريش الأبيض . وفجأة امتلأت الشقة برائحة عطر قوية ، وبجسم دافئ وصوت رنان غليظ ، كانت تحفضه إلى حد التدبذب الغنائي ، ودون خجل أو حياء ، أخذت تتحدث عن أنها تعشق الأفلام التاريخية ، حيث الأزياء الأنيقة والبزات الفاخرة ، والعربات المترفة ، وحفلات الرقص ، حيث يستمتع المرء روحياً . أما كريموف فكان يبتسم ، شاكرًا الله لأن أولغا لم تكن في البيت (كانت أولغا لاتطبق الإبتهاج المفرط ورائحة العطر القوية) ، وأصيب بيأس كئيب ، دون أن يتوقف عن الابتسام بجمود ، عندما جلست بدهشة جذلة (« آه ،

بالاروعة ، ياللاءعجوبة ») أمام البيانو ، وبحركة منسجمة مثانة سوت حول وركيها الثنيات المتملوجة افستانها ، وجربت بأصابعها المتورمة مفاتيح البيانو : أما مولوتشكوف ، الذي كلن يتبعها بعشق وهيام ، فقد أصبح كله كأنه وتر مشدود ، في يزته البلديدة المزينة بقرنفلة وضعها في عروة « نالجاكتة » ، ولمع أمام مرآها بفضوع ، بعيني عريس سعيدين ، وأولماً برأسه زاجياً : « غني ، يا مولوتشكا ، من فضلك ، ليصغ فياتشيسلاف أندرييفيتش إلى صوتك » - وهمس في أذن كريموف بأهمية ، وكأنه يفشي سرأ هاماً « سونتشكا تعلم الغناء في المدرسة » .

وغنت بصوت رنان منخفض ، عن شمة كانت تحرق قرب شرفة : غنت أغنية سولفيج . أما كريموف ، الذي لم يكن يحب غناء الحجرة ، الذي يولد دائماً التجمد والتقيد ، فكان يلاحظ مولوتشكوف ، الذي يتأمل عروسه ، وينظر باعجاب إلى شفتيها الممطوطتين ، المستديرتين ، القمرزيتين من أحمر الشفاه ، كان مولوتشكوف متأثراً للغاية ، مذهولاً من قوة صوتها المرتجفة ، ولاحظ كريموف كيف صفق مولوتشكوف باعجاب ، أما هي فقد نهضت ، مسندة أطراف أصابعها باهمال إلى غطاء البيانو ، وكأنها تستعد للانحناء . « سوف يخدمها ، هذا واضح » . وبعد ساعة ذهباً ، بعد أن باركهما كريموف ، الذي اضطر أن يقول لمولوتشكوف ، على افراد ، دون احتفاء ، غير ما أراد سماعه الأخير (« فياتشيسلاف أندرييفيتش ، ما قولك ؟ ماتقوله سأنفذه : أتزوجها أم لا . لأنني أحبها ، وأطلب النصح منك لأنك بمنزلة والذي ») . أجاب كريموف ، أنه في مثل هذه الأمور لا يحق لأي إنسان تقديم النصح . فالناس ، منذ عهد آدم وحواء ، يخضعون لتأثير العاطفة ، التي يمكنها أن تجعل من كل امريء سعيداً وبائساً ، ولكن كما ظهر ، كان قد

تم الإختيار . فقد تزوجا ، ومنذ تلك الأثناء ، كان كريموف يلتقي
سونتشكا على عجل ، في العروض الأولى للأفلام ، مذهولاً في كل
مرة من بدانة جسمها ، مثل أجسام نساء التجار اللواتي رسمهن
كوستوديف ، ومن فمها الصغير كالقلب ، وصيحاتها الغنائية العاصفة ،
ورائحة العطر القوية ، ومن شيء ما ، فاخر ، أبيض ، متحرك بثنياته
وتموجاته على صدرها ووركيها ، وكان غريباً أن يرى المرء إلى جانب
سونتشكا ، مولوتشكوف ، الأقصر منها مسافة رأس ، مولوتشكوف
المستقيم ، الوديع ، وهو يتجول بهيام وعشق قرب زوجته في الصالة .

* * *

— لا أريد أن أتذكر العرق والدم والقمل . ثمة حياة أخرى تدور ،
تغلي . حياة السلم يا فياتشيسلاف أندرييفيتش .

— إذن ، لا تتذكر ؟ — قال كريموف عَرَضاً ، وهو ينظر إلى
وجه مولوتشكوف المتورد ، الملتفت إليه ، الذي لا يعاني الآن ، كما هو
واضح ، من أية هموم أو هواجس ، والراضي عن حياته . — وهل
تذكر أحداً من شباب فصيلتنا ؟ — سأله مدركاً في نفسه انه عاجزاً شديداً
من مولوتشكوف . — كالزقيب أحمد دبنوف ، مثلاً ؟

— كان شاباً مليئاً بالجرأة الكبيرة ، استشهد بصورة مروعة —
قال مولوتشكوف ومسح بقفا كفه قطرات العرق من على ذقنه —
أما أنا ، فقد جئت إلى الفصيلة كلباً غنياً آخرفاً . انني لا أحادث سونتشكا
عن الحرب أبداً . انني أشعر بالخجل ، عندما أتذكر نفسي ، الغني ،
الحليف ، الغشيم .

— أنت تبالغ ، يا تيرني ، — ابتسم كريغوف ساخرًا — فقد كنت تبدو أحياناً ، شاباً ، عنيداً ، يابسن الرأس ، إن صح التعبير .

— كنت فلاحاً ، مطلياً بالقطران ، — هكذا كنت يا فياتشيسلاف أندرييفيتش — وضحك قليلاً مولوتشكوف — لا أستطيع أن أتذكر نفسي بهدوء واطمئنان . أنا لا أحب نفسي عندما كنت شاباً . كنت غيباً أحمقاً . لم يكن هناك من يريد الموت ، ولم يرغب به أحد . أما أنا فكنت في الاستطلاع ، أغدو أحياناً ، كالمجنون . كنت أخاف من الوقوع في الأسر ، ومن التعذيب حتى الموت . شكرًا لك . . . الحرب ، لا أريد تذكرها أبدًا ، أما أنت فلن أنساك أبد الدهر . لولاك لانتخرت عظامي في أوكرائينا . . . لانتخرت في تلك الحفرة . . .

وضحك من جديد ، ثم كرر على الفور وهو يسعل من حنجرتة ، هازأً رأسه :

— أوه ، أي غبي كنت ! أنا لا أحب نفسي شاباً . في تلك الأثناء أنت أشفقت علي ، أنا الغبي ، الفج ، في عام أربع وأربعين . . . ولو كان غيرك ، لأطلق علي النار كالكلب . قوانينكم في الاستطلاع كانت صارمة لاتطاق . فاذا ما خفت أو استرسلت في البكاء في المنطقة المحايدة ، عليك أن تضع المسدس على جبينك وتطلق النار !

وأجهد مولوتشكوف وجهه بضحكة صامتة وفم مغلق ، ولكن برز من هذه الحركة غضب خبيث داخلي ، كان يبدو ، وكأنه فقدته إلى الأبد، في حياته الحاضرة، شيء ما تبدل في نفسه، كمخضخضة مفاجئة في ذاكرة المصيبة المهينة الماضية .

وتذكر كريموف ، مالم يرغب باسترجاعه بالتفصيل إلى ذاكرته ،
تذكر وضعه شبه المنسي ذلك ، الذي كان يعيشه في حياة أخرى ، على
أرض أوكرانيا في عام أربع وأربعين ، على خط التماس ، في المنطقة
المحايدة ، حيث كانا راقدين ، مستلقين ، هو ومواوتشكوف ، في
حفرة قنبلة ، بانتظار عناصر الاستطلاع المتقدمين ، حيث اتفجح
الكايبها ، أن وحدة الاستطلاع قد اصطدمت بالألمان وإن ترجع .

* * *

المفصل الرابع عشر

في تلك اللحظة ، عندما سمع كريموف صرخات وطلقات على تلك الضفة ، أدرك أنه قد حدث شيء غير متوقع لوحده الاستطلاعية . أما هو ، فكان مقتنعاً بأنه كان من الواجب التحرك على الخط المحايد في تلك الضفة باتجاه الكومة المنهارة المحترقة في الحقل ، ولم يشك أبداً ، بأنه من هناك في المنحدر ، كان يجدر بهم السير إلى اليسار ، ومن ثم الخروج إلى مؤخرة القرية ، حيث كان على المجموعة أن تنفذ مهمتها : وقد جاءته هذه الثقة ، بعد زحف استمر يومين وليلة في خنادقنا ذات الحماية القتالية ، وبعد دراسة طبيعية دقيقة للغاية للمكان ، عشية المهمة الاستطلاعية ، التي لم يستطع هو نفسه المشاركة فيها ، بأمر من الرائد آزاروف ، ولسبب طائش غير مقنع ، بصورة غير مقبولة .

في تلك الأثناء ، كان يتألم ويتعذب ، ليس من ألم الدمايل الذي لا يطاق في ظهره ، بقدر ما كان يتألم من مباغته هذا المرض الشنيع له ، وفشل الاستطلاع الأخير ، الذي قامت به فصيلته قبيل عيد رأس السنة . فبعد استرجاع كييف والمهجوم الذي أوقف في منتصف تشرين الثاني على جيتومير ، انتقلت الفرقة إلى الدفاع ، وكما يحدث عادة في نهاية الهجوم ، نشأ تعطش شديد إلى المعلومات عن العدو ، عن إعادة تشكيل تجمعاته على الضفة اليمنى . كان الرائد آزاروف ، قائد الاستطلاع ،

المسؤول عن جمع المعلومات ، مزعوجاً للغاية لقيام وحدات الاستطلاع الألمانية ، قبل ثلاثة أيام من عيد رأس السنة ، باختطاف حرسنا النائم تحت الدريئة من خندق حراستنا القتالية ، الأمر الذي استدعى من جانبنا عملية استطلاع عاجلة لم تحقق أي نجاح • فبعد أن خرجت مجموعة كرموف الاستطلاعية إلى مؤخرة الألمان ، استلقت على الثلج بالقرب من الطريق العام خمس ساعات دون نتيجة . وخلال تلك الليلة القارسة البرودة ، لم تسر ولا سيارة ضباط واحدة ، ولا مركبة واحدة إلى القرية ، وعاد الكشافون ، أدراجهم ، فارغين ، عراة ، كما نعتهم باختصار الرائد آزاروف ، الذي لم يعترف بأية أسباب موضوعية . غير أن الليل بكامله ، الذي قضاه في الثلج والرياح الصقيعية ، قد أقعد كرموف فجأة ، وأصابه ألم رهيب وحرارة عالية ، ووُضع في الوحدة الطبية ، حيث تم اكتشاف دماغه على ظهره ، أما هو ، ولسخطه على نفسه من فشل الفصيلة ، ومن هذه النزلة الصدرية السخيفة التي تصيبه للمرة الأولى في الحرب ، فقد قرر الخروج من الوحدة الطبية ، والاكتفاء بإجراء الضمادات ، والبقاء ضمن الفصيلة ، مدركاً إدراكاً تاماً ، بماذا يمكن أن يفكر الرائد آزاروف ، إذا ما بقي هو ، كرموف قائد الفصيلة ، راقداً على السرير في الوحدة الطبية التابعة للسرية ، بعيداً عن المهمة .

لهذا ، ومع أنها كه قواه في الزيارات اليومية للوحدة الطبية من أجل تغيير الضمادات ، فقد كان كرموف يدرب فصيلته بنفسه ، ويعدّها إعداداً دقيقاً للمهمة . إنه لم يعهد بالتدريب إلى الرقيب أحمد دينوف ، الشاب المجازف ذي الحاجبين السوداوين ، الملاك السابِق ، الذي كان موضع ثقته الكاملة ، وزحف ليلتين بكاملهما على الخط الأمامي ،

مراقباً الرشاشات المعادية المناوبة ، وملاحظاً كل كتيب ثلجي على الخط المحايد ، على ضفتي النهر اليمنى واليسرى .

ولكن ، في الدقائق الأخيرة من الليلة الشتوية ، عندما أصدر أمره لمجموعة الاستطلاع ، وبقي مع مولتشكوف في حفرة قنبلة كبيرة على الخط المحايد ، وقال أحمد دينوف بمرح « سلام ! » ، وتلاشى مع أربعة من الكشافين في الغسق الأزرق بلون النجوم على ضفة النهر ، أخذ يشعر كرىموف باحساس مسبق سيء ، يحذره بمختلف الأمارات والعلائم . فقد كان يسود في كل مكان الهدوء والصمت الرنان لصقيع شهر كانون الثاني ، وفي الأعلى ، في السماء السوداء ، الشبيهة بالصحراء ، كانت النجوم تنير بضوء ماسي ، أما في الأسفل ، على الأرض ، في ضواحي البلدة التي احترق نصفها ، فكانت تطير وتخلق الطلقات الخطاطة الألمانية . هناك ، لاذت بالصمت ، بصورة غير مألوفة ، الرشاشات المناوبة . كان هذا الصمت مريباً ، منبئاً بجمود الموت المضمّر . وبعد أن صرف جماعة أحمد دينوف ، أخذ ينصت طويلاً إلى هذا السكون والصمت المطبق على المنطقة المحايدة . كانت هذه المنطقة تمتد قرابة ثلاثمائة متر إلى الأسفل نحو النهر المتجمد ، وكانت تمتد خلف النهر مائتي متر نحو الأعلى ، نحو خنادق الألمان الأولى قبل البلدة ، حيث كانت تسطع فوق الأسطح النادرة النجوم المتوهجة في السماء . كان ألم الدمامل المستقرنة ينهش ظهره ، يقصمه بين عظمي اللوح ، وكانت تخنقه قشعريرة البرداء الحشنة . وشعر بأن حرارته قد قفزت إلى الأعلى ، وربما زاد هذا من قلقه ، الذي دفع كرىموف إلى اتخاذ قرار مستحيل — إلغاء المهمة ، واستدعاء جماعة الاستطلاع ، وإعلام الرائد آزاروف بالسكون الغريب المريب عند الألمان . ولكن ، في

الوقت نفسه ، لم يكن لديه أية حجة ذات وزن (فسكوت الرشايات ليس بحجة) . علاوة على ذلك ، فقد يسيء آزاروف فهم إلغاء المهمة ، وقاوم كريموف شكوكه ، معتبراً أن العملية كلها ، إذا ما توفرت لها الظروف المناسبة ، ستشغل ساعة ونصف أو ساعتين : قطع خط المنطقة المحايدة بخنجر ، من الشريط الضيق الذي أزال منه عناصر الهندسة الألغام ، بالأمس ، وسط الحقول المغمومة ، وأخذ أسير من الخندق الأول .

غير أن الومضات المختلطة المشوشة للرشاشات الآلية ، التي أعمت الليل ، والصرخات البعيدة التي طمست العيارات النارية ، والتنفل المبهم لكتلة من الأخيلة والظلال في العتمة البنفسجية إلى يسار طرف القرية ، وانفجار اللغم الصداح — كل هذا ، الذي حدث فجأة على الضفة اليمنى ، بدا له في تلك اللحظة مستحيلاً ، لدرجة أن كريموف ضغط بشدة على أسنانه ، وضرب بقبضته على حافة الحفرة ، قائلاً : « ها هو ذا ! وهل هذا معقول ؟ . . . » . لا ، في أية عملية استطلاعية (مهما أعدت بعناية) ، لم تكن مستبعدة عشرات الأشكال الممكنة للمصادفات ، ولكن ، في كل مرة ، عندما كان كريموف نفسه يذهب في عملية الاستطلاع ، كان يشطب بغطرسة احتمال الفشل القدرى .

« هذا هو حدسي ، هذا هو إحساسي المسبق — لمعت هذه الفكرة في رأس كريموف — لم أذهب معهم — وهامي ذي النتيجة ! . . . » .

— مسدس الطلقات الخطاطة ! مولوتشكوف ، مسدس الطلقات الخطاطة ! — صاح كريموف همساً ، وعندما رأى وجه مولوتشكوف المرتد بهلع في القبعة الصوفية التي ارتداها فوق الخوذة ، شتم بخشونة .

— اصطدموا ، اصطدموا . . . أليس كذلك ، أيها الرفيق الملازم
وهل من الممكن أن يكونوا قد وقعوا في كمين ؟ — تمت مولوتشكوف
ناشجلاً وأدخل من الجانبي، الشبّانة الصلبة للطلقة في المسدس ، ودفعه
نحو قفاز كريموف دفعات متتالية — هل هذا معقول ؟ . . .

— كف عن التوجع وراقب ! — أمر كريموف خاطفاً المسدس
من يد مولوتشكوف . — هل ترى بوضوح ، أين رجالنا وأين الألمان ؟

— اصطدموا . . . أنهم خلف الخندق . . . اجل ، وهل من
المعقول أنهم وقعوا في الأسر ؟

— اخربس ، قيل لك !

حسب الاتفاق الصارم والدقيق مع مدفعية الفوج ، كان باستطاعة
كريموف ، بصاروخ خطاط أحمر ، قصف خندق الألمان الأول
بالمدفعية على عجل ، على نقاط الرشاشات التي تمشط المنطقة المحايدة ،
وبالتالي ، تغطية انسحاب رجال الاستطلاع إلى خنادقنا ، وهذا ما حدث
أكثر من مرة في مثل هذه الأحوال . غير أن إطلاق نيران المدفعية
الآن كان بلامعنى — حيث يمكن للنار أن تغطي كشافينا أيضاً ، — ورمى
كريموف مسدس الطلقات الخطاطة إلى مولوتشكوف .

— اخف هذه اللعبة ! ما فائدتها الآن ! اخفها ، ليأخذها الشيطان ! . . .

كان راقداً بصدرة على الحفرة ، ينظر إلى امتداد الليل ، المتصدع
برشات الرعد في تلك الضفة ، حيث التمعت خلف الخنادق الأولى
رشات مستمرة من الطلقات ، غمناً المعركة المتكررة لرشاشات «شملايسر»
الألمانية ، والقطعة المدوية لبنادقنا الآلية ، والانفجارات المحدودة

للمانات الألمانية ، والزئير المتبعثر للقنابل اليدوية السوفيتية ، - ومن خلال وميض الرشاشات ، - وألسنة اللهب المترافضة القافرة ، - ومن خلال الخط الناري خلف النهر ، بدا لكريموف ، وكأنه رأى عن قرب كل ما يحدث وجرى هناك ، لجماعته الاستكشافية . على الأغلب ، أن الرقيب أحمد دينوف قد اصطدم ، قبيل الخندق ، اما بجماعة استكشافية ألمانية مواجهة ، ولما بزاعري الألغام الألمان ، العاملين في المنطقة المحايدة .

" - ابتعد ، أحمد دينوف ، إلى الراء ، إلى الراء ! - كرر كريموف دون وعي ، منصتاً إلى توقف فرقة البنادق الآلية واحدة إثر أخرى ، وكان يسمع بصورة شريفة ، ظافرة ، « تطريز » مدافع « شميسر » الرشاشة الألمانية .

وعلى الفور ، سقط من السماء سكون غريب ، وامتلأ امتداد الليل الصقيعي بصمت أخرس كثيف مطبق ، كما لو أنه لم يحدث قبل دقيقة واحدة إطلاق العيارات النارية ولا انفجار القنابل اليدوية ، وكأنه لم تطلق أية صرخات . ولكن ، ومن بعيد جداً ، تناثرت في الأفق إلى اليمين ، تحت النجوم المنخفضة ، سلاسل حمراء من الرصاص ، ومن هناك وصل متأخراً وقع ضعيف لدفع رشاش . وهنا ، صمت بصورة مريبة ، خطنا الأمامي والخط الأمامي الألماني ، ولم يعد يسمع أي صوت أو حركة ، في كل مكان ، ماعدا القشعريرة المعدنية للبنادق الآلية .

- وهل أخلوهم أسرى ؟ - وصل إلى أذنيه من الجانب صوت مولوتشكوف اللاهث ، وظهر إحساس غامض ، بأنه يتحرك في مكان ما

قريب ، ويتنفس بصعوبة ، زاحفاً بجزمته اللبادية الشتوية على الثلج . -
وكيف جرى ياترى ؟ محكوم علينا بالموت ، أيها الرفيق الملازم ،
محكوم علينا بالموت .

- مولوتشكوف ، اخرس ! أمر كريموف بصرامة ، كارهأ
نفسه ومولوتشكوف لعجزهما وضعفهما ، هنا على الأرض المحايدة ،
في حفرة القذيفة ، حيث لم يكن باستطاعتهما مساعدة أحمد دينوف ،
لا بنار البنادق الآلية ولا بنار المدفعية . - لا أصدق ، أن الجميع ، -
قال كريموف بصوت أجش . - سار ثلاثة منهم في المقدمة ، واثنان
خلفهم - جماعة الحماية . . . لا أصدق ، أن الجميع . لابد أن يكون
أحدهم قد ابتعد . . .

خلع كريموف قفازه المصنوع من الفراء ، وأمسك حفنة من
الثلج ، ورغبة منه في تبريد وجهه بالبرد القارس ، فرك وجهه بالثلج
إلى حد الألم . فاختلط هذا البرد بالقشعريرة التي كانت تمسك به بثقل
حار في رأسه ، واصطكت أسنانه ، كما في نوبة ملاريا قاسية .

- ماذا بك ، أيها الرفيق الملازم ؟ ماذا ؟ - ارتجف صوت
مولوتشكوف فوق أذنه - أنت مريض تماماً . . .

- الآن - اعتصر كريموف وبدأ يتحرك على حافة الحفرة . -
سننتظر الآن . . . ثم إلى هناك . . . سنعرف بأنفسنا ماذا حدث . سننتظر
قليلاً ثم إلى هناك . . .

عض بأسنانه على قفازه ، كي لا تصطك ، وأحس بالطعم الحامض
المعدني للثلج والجلد المتجمد ، وشعر بحاجة للتقيؤ ، وبتشنج في حنجرته ،
فأن ، ولهث من مساعيه الفاشلة ، وكرر بهمس لاهث :

— سننتظر قليلاً . . . ونذهب إلى هناك لعندهم ، زحفاً . . .
لننتظر قليلاً . . .

— أيها الرفيق الملازم ، أخيراً مرضت أنت . . . إلى أين سذهب ؟
إلى قبضة الألمان ؟ إلى أين ؟

أبعد كريموف رأسه عن القفاز ، ونظر إلى مولوتشكوف ، المستلقي
إلى اليمين على الثلج المتراكم في حفرة القبلة ، ومع ضوء النجوم
الصقيعي في الغسق ، بدا وجهه المثلث ، المضغوط بالقبعة الصوفية ،
والغطاء الأبيض لبزة التمويه ، وكأنه وجه نسائي مخبول ، شبح شاحب
بعينين زجاجيتين ، ينفث بخاراً من الهدب الكثيف للندى المثلج حول
فمه ، وبدا له ، وكأن هذا ليس ذلك الشاب الريفي الخفيف مولوتشكوف
الذي يردد بجرأة أغاني فورونيج الشعبية في الفصيلة ، بل شخص آخر ،
مترنح ، أدرك من أعماقه المصير المحتوم .

— أسمع ؟ — همس مولوتشكوف بصوت متقطع ، وخيل إليه
أن نظراته الرطبة كانت تضيق على وجه كريموف . — أنهم يصرخون . . .
أليس كذلك ؟

وفجأة ، أطلقت المدافع الرشاشة الألمانية نيرانها على المنطقة المحايدة ،
ولمعت الطلقات النارية الممتدة ، وحامت رشقات المدفعية كالاعصار
الوحشي فوق الحفرة ، معمية الأعين بنيرانها القرمزية ، أما مولوتشكوف
فقد ضغط رأسه بين كتفيه وسقط من حافة الحفرة إلى الأسفل ، ومنه
إلى القاع ، وصاح بصوت رفيع :

— أشعر ، أن مصيرنا اليوم ! . . . مجموعتنا اصطدمت ، وجاء
الآن دورنا . . .

— لقد سئمت منك ١٠ — قاطعه كريموف بغضب ، ونزل إلى قاع الحفرة مترنحاً ، كان رأسه متكديراً بصورة ضبابية ، وأراد أن يستلقي ، ويلف جسمه على شكل كومة كي يشعر بالدفع . — أين يصرخون ؟ هل تخيلت ؟ — سأله كريموف كابحاً اصطكاك أسنانه ، مصغياً بجهد كبير ، غير أنه لم يسمع سوى المدير المتقطع للمدافع الرشاشة الألمانية المضطربة التي تطلق النار على المنطقة المحايدة .

— أحدهم يصرخ في الضفة المقابلة . . . أنا أسمع — همس مولوتشكوف بحرارة ، مقرباً منه كثيراً . — أليس أحمد دينوف هذا ؟ ربما يعذبونه ؟ لقد جرحوه ويمزقونه الآن بالحراش . . . أتذكر كيف عثرنا على سيدوروك ؟ لقد فقأ الألمان عينيه ، وقطعوا يديه . . . — مابك ، أخذت تشكو وتنوح ؟ ماذا بك ، أنا أسألك ؟ . . .

وشتم كريموف من جديد ، مهيناً مولوتشكوف بشتمه على هذا الهمس الناضج بالمصيبة ، على خوفه العاري الحقيق من المصير المحتوم الذي حدث لكشافيه ، وهذا ما لم يستطع كريموف أن يصدقه ، لمعرفة بخبرة أحمد دينوف وأولئك الذين ذهبوا في مجموعة القبض على أسير ، ولم يرد كريموف أن يصدق بسهولة ، ما كان يمكن أن يحدث هناك ، أمام الخنادق الألمانية .

— سننتظر ، — قال كريموف بحدة ، ناظراً من الأسفل إلى خطوط نيران المدافع الرشاشة ، التي كانت تمزق ظلام السماء حول الحفرة . — سننتظر حتى انتهاء إطلاق النار ونتحقق . سنزحف إلى هناك . . . أريد أن أتأكد بنفسني .

ارتفع مولوتشكوف قليلاً ، واتسعت عيناه الزجاجيتان في محيطي
الندى المثلج على جفنيه ، ناضحتين بالرطوبة :

— لقد وقعوا في قبضة الألمان الفاشيين . . . إلى أين ستزحف ؟
إلى أين ؟ . . . وأنت مريض جداً . . .

ضغط كريموف على أسنانه .

— إلى هناك ، أليس واضحاً ؟ — قال كريموف بقرف واشمئزاز
شديد ، من عجزه أمام المجهول ، وقد أثارت كلمات مولوتشكوف
« أنت مريض جداً » التي لفظها بتأنيب حائر ، إلى حد الاحتدام . —
مالك تشتكي وتنشج ؟ وأي شيطان يدفعك إلى الدعر ؟ أنت كشاف
أم خرقة للمسح ؟ اصعد إلى الأعلى وراقب المنطقة المحايدة ، وإلا
فسيقرب الألمان ويأخذونك أيها الغبي ، ويجرونك في عدل !

— وهل سيأخذوني أنا . . . وأنت كيف ؟ وهل أنت حديدي ؟

— إن الألماني الذي سيأخذني ويجري لم يولد أمه بعد ، واضح

مفهوم ؟ أنا نفسي سأصرف بنفسي .

— أوه ، ييسوع . . . لن أتمكن من قتل نفسي . — همس
مولوتشكوف ناشجاً ، وبعد أن رفع رأسه ، زحف على بطنه إلى الأعلى ،
على منحدر الحفرة ، وهنا مدام قامته وتجمد ، مغطياً وجهه بقفازيه ،
وكان بالكاد يرى الأكمة الزرقاء تحت الخطوط النارية المتنقلة فوقه .

— ماذا ؟ ماذا حدث لك هناك ؟ هل نمت ؟ ، — صاح كريموف ،
متغلباً على الوهن الساري إلى جسده المهتر بقشعريرة جوارته الداخلية
المرتفعة ، وبالألم الذي ينهشه من ظهره الذي التصق به قميصه الداخلي

المربط بالقبيح ، وهنأ شعر بظماً قاتل ، برغبة شديدة لإرواء بدنه المتوهج الذي يحرقه .

التقط الثلج بأسنانه ، وأخذ يقرض مادته العذبة الواخدة ، التي كان لها طعم الحديد المتجمد الصديء ، وقبل أن يلوكه ، وخوفاً ، من أن يتقيأ وتجيئ نفسه ، بصق كتلة لدنة مقرحة . صعر خده بغضب ، زاحفاً إلى حافة الحفرة ، واستلقى بصدرة على كتلة الأرض المتجمدة ، ورأى أمامه زرقة الثلج الكيميائية غير العادية ، والحنادق الألمانية البارزة خلف النهر ، والنيرون المتراقصة التي تطلقها المدافع الرشاشة ، والمظلة الساقطة للصاروخ الخطاط . وانطلقاً الصاروخ ، وأخذ يلتوي صاروخ آخر بأزيز قارص ويتناثر في الجو ، وتبعه صاروخ ثالث - كانت الصواريخ الخطاطة تتصاعد واحداً إثر آخر . لقد أزاح الألمان بضوء سماوي ، الظلام الأرضي فوق الخط الأمامي ، ومسحوا المنطقة المحايدة على امتدادها برشقات متقاطعة من المدافع الرشاشة . ومع الطنين الغامض في أذنيه ، نظر كريموف طويلاً إلى البيوت الريفية المتطرفة ، العائمة فوق الليل ، من القرية التي احترق نصفها ، حيث كانت تتراعى بخط أزرق الحنادق الألمانية الأولى ، حيث حدث على مقربة منها لجماعته الاستطلاعية أسوأ ما يمكن أن يحدث في الحرب . غير أنه الآن ، وبعد أن رأى في المنخفض إلى يسار القرية ، الفراغ المنحدر للثلج المغمور ببصيص الصواريخ ، رفض ثانية فكرة أن يكون عناصره الخمسة كاهم قد استشهدوا أو عطفوا وأسروا . كان واثقاً كل الثقة ، بخبرة الرقيب أحمد دينوف وحذره ، فهو الذي ذهب عشرات المرات من أجل أسر جنود ألمان ، وكان لا يزال يعيش في نفسه ، دون أن ينطفئ الأمل ، الذي لا ينحصر لأي شيء ، في أن يكون أحدهم قد ابتعد من تحت

النيران ، أثناء اصطدامه مع الألمان ، واختبأ في المنخفض وسيعود منه ،
حالما تتوقف المدافع الرشاشة عن إطلاق النار ، وتتوقف الصواريخ
الكشافنة عن التحليق .

- سننتظر ، سننتظر ، - قال كريموف ، متأنقاً بشراة الحاج
في فمه ، للتخفيف من الحرارة الشديدة في حنجرته .

- ها هوذا ! سمعت ؟ - صاح بحسرة مولوتشكوف ورفع رأسه ،
على طريقة السلفاة ، من القانسوة . - الصوت من هنا ، من هنا ،
من تلك البيوت الريفية . . . هل سمعت ؟

إنك تهذي ، يا رضيع !

نهض كريموف قليلاً متكئاً على مرفقيه ، فشعر وكأن ناراً تثقب
ظهره ، وكأن فقراته اجثت وفصات بكماشة ، وحس نفسه ، ثم
نزع قانسوة التمويه ، ونزع قبعة الفرو من رأسه الملهب ، الذي تهوى
على الفور بالريح الثلجية الصقيعية ، وأصاخ بسمعه . . .

كانت المدافع الرشاشة تتوقف قليلاً بين الرشقات النارية ، وفي
أثناء هذه التوقيات القصيرة المليئة بالفراغ ، وصات بوضوح إلى مسامعه
أصوات متحاربة غريبة ، في مكان ما ، في المنطقة المحايدة . كانت
هذه الأصوات غير واضحة ، أجشة مبهوكة ، كانت تظهر وتختفي
في الليل ، لم يكن باستطاعة إنسان أن يصرخ مثل هذا الصراخ ، إنه
صراخ ، أشبه بصراخ وحش يعاني آلاماً شديدة ، دون أن يرجو أحداً
الرحمة قبيل الموت ، ودون أن يطلب المساعدة من أحد - لقد كان
هنا صراخ الموت والغم والكآبة ، موجهاً دون وعي أو ذاكرة إلى

النجوم ، إلى الصقيع . إلى الثلج ، إلى أي مكان ، حيث لا مجال للنجاة
ولا إمكان الإنقاذ .

تشنج كريموف من هذا العويل الحيواني ، عويل القنوط واليأس ،
الذي أصله على الأغلب ، تجريح محكوم عليه بالموت الأليم ، وهو
يودع الحياة ، في الدقيقة الأولى كان من السهل عليه أن يوحى لنفسه ،
أنه كان يصرخ على هذا النجور الملقى مجروح أثناء تبادل لإطلاق النار ،
وليس كشافنا المجروح جرحاً بليغاً ، في المنطقة المحايدة . لكنه كان
واضحاً أن الألمان من غير الممكن أن يتركوا جريحهم على الخط المحايد
بالقرب من خنادقهم . وأدرك كريموف ، أنه هناك ، إلى الأمام ،
خلف النهر ، كان كشافنا ينزف دماً ويتأزغ أمام الخنادق المعادية
الغريبة . أما الألمان ، فعندما سبغوا صرخاتهم الفظيعة ، لم يقرّبوا منه ،
ولم يمسكوا بالجريح ، بل على العكس غالباً ، رغبوا بأن يفضل عويل
الجريح الذي يموت إلى الخنادق الروسية ، ليسبب الألم ويزرع الخوف ،
بمثابة عقاب إنتقامي لهم على استطلاعهم

ش إنه هو . . . إنه هو يصرخ . . . تنزخت صوت مولود تشكوف
كالثعبان وراء ظهره . لقد أمسكوا بأحمد دينوف . . . إنهم يعدون أنه ..

دون أن يحجب ، أغمض كريموف عينيه من انفجار ريتة البصوار يخ
الخطاطة التي تؤذي العين ، فوق النهر ، والتصق بصديره على بحافة الحفرة ،
وبدأ يلتقط من جاييد الثلج الرصاصي بأسنانه ، بالبعاء إياه بأقصى جهده .
أما في أذنيه ، فقد نما واقتراب عواء غير بشري ، صادر من المنطقة
المحايدة ، المضاعفة بالبصوار يخ الكشافية دون إنقطاع . وكان هذا العواء

يتشبث وينغرز بظهره ويمزقه ببرائن فولاذية ، وأصبح ظهره جامداً من الألم .

لو أنني ذهبت معهم لكأن كل شيء على ما يرام » — كان يفكر كريمةوف في نفسه ، محتقراً بصورة مؤسوسة ، هذا الفشل الأول بعد معركة قوس كورسك . ولم يغلد يحاول وقف اصطكاك أسنانه ، وبقتعريرة كانت تمزقه ، أخذ يلعن نفسه ، ويلعن هذه الحفرة الآمنة على الضفة ، حيث كان لايزال ينتظر عودة واحد ما من اكشافيه ، رغم أن الزمن نفسه قد غار في مكان ما ، في لجة هاوية .

أيها الرفيق الملازم . . . ماذا تقول ؟ لا أسمع شيئاً . . . إنك تدملين بشيء ما .

وهزته من كتفه يد متشبثة ، أما هو ، فعندما رفع رأسه ، رأى فؤقه وجه مولوتشكوف الرمادي ، المضغوط بقبعة القز و تحت القنسوة ، المكشوف بضوء الصواريخ الأبيض ، وطبقات الندى فوق حاجبيه ، ورأى فمه الذي ينفث البخار ، وقال كريمةوف بهمس أجش ، مكملاً :
'بلغ قطع الثلج القاسية' ، التي وقفت في خنجرته ، ولم تبرد حرارته العالية :

الآن . . . مستهياً . . . لن ندع الجرحى في المنطقة المحايدة .
لن نترك أحداً منهم . افحص بندقيتك الآلية ، يا مولوتشكوف ، وتدفء الآن . . .

قال هذا ، وهو متجمد . ويحترق من حرارته ، وكأنه كان يرقد بلا معطف على الجليد ، وتنفذ الريح القوية المحمومة إلى عظامه ، وعندما

نظر إليه. مولوتشكوف بفم ملتو مرعوب ، ارتد عنه ، وأصبح ظلاماً
أبيض في الظلام ، وأخذ يخشخش ويدوس الثلج ، نازلاً إلى أسفل
الحفرة ، وصاح بصوت مخنوق : « يا إلهي ! يا عيسى ! يا إلهي ! ... » —
وصبّت هناك ، وتلوى ، وتكوم مثل نابض بانتظار النفس الأخير .
« أشد ما أخشاه ألا يقعدني الألم والمرض ، أشعر أن حالي قد
أصبحت سمية . . . — كرر كريموف هاذياً . — المهم ألا أفقد الوعي ،
وأن أصمد ، حتى تهدأ . . . ولو لنصف ساعة » .

يبد أن النار لم تهدأ ، وبقيت المدافع الرشاشة تطلق دون انقطاع ،
وانكشفت المنطقة المحايدة فارغة ، مية ولع ماء النهر المتجمد مثل
منعطف شديد الانحدار مزين بالثريات المتأرجحة في السماء ، ثم أخذ
يبدو ، وكأن كل شيء يتحرك في الأمام من تخليق الصواريخ الجوج
واحتراقها ، ويقفز من الظلام إلى النور ، ومن النور إلى الظلام . واندلع
الجليد رذاذاً كالدموع في العين وانطقاً ، — وشعر بدوار شديد في
رأسه بسبب الصراخ الذي هدأ وأصبح ضعيفاً في المنطقة المحايدة ،
وبسبب اللعاب الخاطف المستمر ، وقفزات النيران المندفعة ، ورواسب
الصواريخ الخطافة ، والظلام الذي كان ينهال على النور . وسعل
كريموف ، وبعد أن التقط أنفاسه ، شعر من خلال الدوائر السوداء
التي ظهرت في عينيه ، وتعزز في نفسه خوف لا يقهر ، من ألا يفقد
السيطرة على نفسه ويغيب عن الوعي .

« الآن ، يجب الآن ، — ففكر في نفسه . — إن المدفع الرشاش
اليساري لا يبدل قطاع رمية . يجب اذن ، الزحف على الجانب اليميني
من المنخفض . فهو على هذا النحو لن يمسننا . . . حان الوقت ! » .

ونادى بصوت أجش :

— مولوتشكوف

لم يسمع أي رد . أدار رأسه ، متغافلاً على الألم في رقبته : وألقى نظرة — هناك ، في الأسفل ، في قاع الحفرة ، كان يرسم جسم مولوتشكوف بصوت غير واضحة وبلون أبيض . لم يتحرك على الحاج ، جاذباً ركبتيه إلى ذقنه ، ووصلت إلى أذني كريموف أصوات تخور بهمة غامضة . فنادى بصوت أعلى :

— مولوتشكوف ! تعال لعندي

وصل إلى سمعه نسيج غير مفهوم من الأسفل :

— أيها الرفيق الملازم . . .

— ماذا بك ، مولوتشكوف ! هل صرت أطرشاً ؟

ونزل كريموف بعجالة إلى منحدر الحفرة ، وانحنى فوق مولوتشكوف وهزه من كتفه بعنف ، فانتفض الأخير مثل طائر منهوش ، ناشراً مرفقيه مثل جناحين مقصوصين حليقين ، وتباعدت نظرنا عينيهِ الحارتان من الفراغ بخبل

— إلى أين ؟ إلى أين .

— اصغ بانتباه يا مولوتشكوف — قال كريموف بصوت متقطع . — سنسير كما يلي : وثباً نحو النهر ، ثم زحفاً نحو الضفة الأخرى .. وزحفاً

نحو الخنادق الألمانية . وسنلتصق بالمنحدر الأيمن للمنخفض . . ونعمل كل شيء تحت ضجيج المدافع الرشاشة . تابع إشاراتي بعينيك الاثنين . عندما أرفع يدي — يعني إلى الأمام ، وألوح بها — يعني اجمد مكانك
كان يجد صعوبة كبيرة في الكلام ، ويعتصر الكلمات بصعوبة من خلال اصطكاك أسنانه ، وفجأة أصدر أمراً بهمس متقطع لضيق شديد ألم بصدر

— انتهى ! اتبعني

واستدار مترنحاً ، واتجه إلى الأعلى على منحدر الحفرة ، في اللحظة ذاتها حيث صمتت المدافع الرشاشة ، وفي الصمت المطبق الرنان ، وحيث ظهر صاروخ كشف مضيء شتت الظلام على الخط الأول
— لاداع ، لاداع لذلك أيها الرفيق الملازم .

توقف كريموف عند منتصف المنحدر ، غير فاهم معنى الصرخة المتوسلة الرفيعة خلف ظهره (« لاداع لأي شيء ؟ عم يتحدث هذا ؟ ») ، وشعر بانفعال غاضب لمعارضة أمره ، وهذا ما لم يسمح به أبداً في فصيلته ، وتظر من الأعلى فرأى البريق الزجاجي على وجه مولوتشكوف المبقع بقطرات العرق ، ووصلت إلى مسامعه الألفاظ القافزة لصوته على شكل حزم مقوسة :

— لاداع لأخذي ، أيها الرفيق الملازم ، لاداع . . . — رن صوت مولوتشكوف نابهاً ، وتحول على عجل إلى كلام سريع غير مترابط وكأنه بلا وعي : — إن الذي صرخ هو أحمد دينوف وأنداك ،

بالقرب من « سومي » ، فقاً الألمان عيني سيدوريوك بالحربة . فالى أين
سندهب ؟ . . .

— ماذا أصابك مولوتشكوف ؟ هل فقدت عقلك ؟ هيا ، انفض ،
تمالك نفسك .

ومخاق فوق المنطقة المحايدة صاروخ كشاف ، بصوت واضح ،
حاملًا معه الضوء الكاشف ، وتناثر في السماء مطر مائل إلى الحمرة ،
أضاء الحفرة كلها بالموث القرمزي . — وعلى الفور تحركت عينا
مولوتشكوف وتزحلقتا مثل نقطتين حاميتين بنفسجيتين ، كعيون الكلاب
المريضة ، التي تطلب الغوث .

— لا أستطيع ، أيها الرفيق الملازم ، إن فرائصي ترتعد ، انني
خائف . . . — قال مولوتشكوف متوسلاً ، وخفق حاجباه الأيمن
بسرعة وبصورة ذليلة مثل دودتين صغيرتين . — اشفق علي ، أنا الغبي
القروي ، بالله عليك . لا تأخذني . أخاف الوقوع في الأسر ، سوف
يعذبوني . أنا لست كشافاً ، أيها الرفيق الملازم ، أنا أصالح للسير في
قافلة ، لا أكثر . — وها قد جمدت يداي أخيراً ، انني لا أسيطر
عليهما . مثل قطعتين خشبيتين . . . لا أستطيع الإمساك بالبندقية الآلية .

كان مولوتشكوف جاثياً على ركبتيه ، وبسط يديه المترجفتين في
القفازين المتجمدين المتحجرين . ثم جذب بأسنانه قفازاً واحداً بجهد
كبير ، وحاول أن يحررك . أصابعه ، دون جدوى ، فكشع عن
أنيابه . وبكى بصمت ، وترانجع إلى الوراء ، بحيث يبرز منخرته
المبللان ، اللذان كانا ينتفخان وينقبضان بالتناوب .

— ماهذه الترهات ! — صاح كريموف بسخط .

— انني لا أقوى على شيء ، أيها الرفيق الملازم ، — زعق مولوتشكوف بصوت رفيع ، مترنحاً على ركبتيه ، وانخدرت دموع ناعمة على شفتيه الزرقاوين . — كل مرة ، كنت أذهب معك في مهمة استطلاعية ، كنت أموت خوفاً ، وكانت روحي تنزل إلى أسفل قدمائي . لكن الموت كان يمر بجانبني دون أن يمسنني ، أما الآن . . . فقد اختلط كل شيء في رأسي . تجمدت بكاملي ، وانخلع دماغي من مكانه . كم أتمنى لو اقتادوني إلى المستشفى ، . . . فليقطعوا رجلي أو يدي ، آه لو اقتدت إلى المستشفى ، ليست لدي قوة . أريد أن أعيش ، أيها الرفيق الملازم ، لا أريد أن أدمر حياتي شاباً ! — ومسح دموعه ، ثم شهق ناجباً : — يا إلهي ، أيها المسيح ، أنقذني ! . . .

سبق لكريموف أن رأى درجة اليأس الأخيرة في الحرب ، بغير أن كآبة وخوف هذا الشاب الغض ، الذي فرزه كريموف شخصياً للاستطلاع لتكملة الملاك ، بسبب نظراته الجريئة ، وحركة جسمه النحيل الماهرة ، ان خوف مولوتشكوف المسكوب ، ليس أنه لم يكن متوقعاً ، بل أذهله بصدق الشنيع ، بصراحة المستغيث ، وكأنه ليس هناك من شيء في الوجود سوى الرعب العاري ، أمام الحد الأخير الذي كان ينتظرهما في المنطقة المحايدة .

— لا أستطيع الخدمة في الاستطلاع ، أيها الرفيق الملازم : —
كرر مولوتشكوف ، منحنياً على الأرض ومستغرقاً في النحيب . . .
كنت أنتظر أمرك وأبتهل إلى الله : إلهي ، ابق على حياتي وأنقذني . . .

— اخرس يا جرو ! نطق كريموف ، وتوجه نحو مولوتشكوف ،
والدم يضربه على مصدغيه ، وضغط بأصابعه على كتفيه ، — ماذا تظن ،
هل نترك الجرحى في المنطقة المحايدة ؟ الأفضل ، أن نموت نحن أيضاً ،
مفهوم ؟ قف — أمر كريموف — هيا ! بسرعة ! انهض !

— اقتلني ، أيها الرفيق الملازم ، اقتلني على الفور لي لا أتعذب . . .
اقتلني . . .

— كفاك بكاء ! انهض ، قلت لك !

وضغط بكامل قوته على كتف مولوتشكوف ، الذي التوى
بمرونة ، ملاحظاً عن قرب ، وجهه البليل ، المشوه بالبكاء . وبدأ
لكريموف هذا الوجه ، على ضوء الصاروخ ، مثل وجه صبي صغير ،
أما هذا الارتجاف الخفيف الكتفه ، وكأن جسمه الثابت قد فقد توازنه ،
فقد تهيأ له ، وكأنه علامة منذرة بالموت ، يرسمها القدر نفسه .

وفكر كريموف في نفسه ، أنه اليوم ، وبعد نصف ساعة ، بعد
ساعة — سيقتل مولوتشكوف ، وبشقة عدائية دفعه ، وقال وكأنه
في حالة من النسيان :

— ما العمل إذن ! . . . ماذا سأفعل بك ، أنت وغد لثيم ، ولست
كشافاً ؟ أطلق عليك النار ، كالحبائ ، لعدم تنفيذك الأمر ؟

— أيها الرفيق الملازم ، عزيزي ، كن شفوفاً ، سوف أغسل
لك قدميك بالماء وأشربه ! — أخذ مولوتشكوف يصيح ، وترنح إلى
الأمام ثم سقط على الأرض ، أما يده اليسرى العارية ، التي لم تطاوعه
أصابعها والتي لم يلبسها القفاز المتخشب ، فكانت تبحث جاسئة مجزأة

كريموف اللبادية ، والتوى بصورة مسحوقة ، ثم تمدد برأسه على جزمة كريموف ، مغمماً ، مصدراً أصوات قبلات سريعة . .

— أنت ، أيها الغبي ، هل فقدت عقلك ! — قال كريموف مؤنباً ، ولم يعد يحتمل هذا الذل المجنون ، فأمره بغيط : — هيا ، انهض ، قيل لك !

— يا عزيزي الملازم ، سوف أقبل قدميك ، سأكون خادماً لك ، اشفق علي من أجل شبائي — أخذ يصرخ مولوتشكوف ، زاحفاً على الثلج حول كريموف . — وكان في نديه الجنوني الإخرق هذا شيء معيب ، نهسائي ، بعيد عن الرجولة . — لو أرسلتني إلى المستشفى . . . أنا غير قادر على الخدمة في الاستطلاع ، أخاف الوقوع في أيدي الألمان . انهم وحوش ، سوف يمزقوني قطعاً . ليس لدي الآن أي فهم أو إحراك ، أيتها الرفيق الملازم ، انني غبي كالحمار ، كن شفوفاً تجاه صباي ، الخالي من الخبرة والمعرفة . . . انني أصغرك بثلاث سنوات ، وأرى الموت ماثلاً أمامي باستمرار . . .

— اذن ، تريد الذهاب إلى المستشفى ؟ وتري الموت أمامك ؟ أوه ، كم أنت مقرف وقبيح ، — نطق كريموف باشمزاز وتمزز ، ناظراً إلى ظهره الأبيض الذي كان يلتوي كالدودة بين قدميه ، ويجزم صارم يقطع الرأس ، أمره قائلاً : هيا ، اجلس !

وانتزع القفاز من يده اليسرى ، وجذب بها بشدة الرداء التمويهي لمولوتشكوف ، الذي جلس على عجل على الثلج في دهول أخرس (عيناها وحدهما ، المصمتان بالدموع ، كانتا تتألقان . وتدفعا)

وتشوسعان في رعب قاتل . . ويبيده اليمنى ، انترع متحسباً ، البظاء
اللزج ، المبلل والمغطى بالثلج لقرايب المسلس على نطاقه ، ميتاحسباً القيدمة
المتجمدة لمسلس « البرابللو » المغتسم ، ولم تنصع القبضة ، فقد تجمدت
بالجليد في زوايا القرايب الضيقة ، عندئذ انترع مسلس « البرابللو »
انتزاعاً حاداً . بصيرير قوي ، بحيث انسلخ الجلد من على أصابعه ،
وتغضن وجهه . وفي تلك اللحظة صعقه صراخ رفيع :

— لا ، لا داعي ، أيها الرفيق الملازم ، عزيزي ! . .

وسقط مولوتشكوف بأنين خائف على يديه ورجليه ، وزحف
بهرج جانباً في قعر الحفرة ، ونظر بحفري عينيه السوداوين ، وهو
منهك ، وقال بصوت أجش وهو ينحب : « لا داعي ! » — ودفن
وجهه في الثلج ، محرّكاً جزمته اللبادية من جهة لأخرى .

— ليس شفقة عليك . أيها الوغد ، بل شفقة على أمك ! . .
لقد أخطأت في اختيارك أيها العير ! . . قلت لك ، اجلس ! — كرر
كريموف متنزراً ، ومن جديد . . وبدفعة قوية ، رفع مولوتشكوف
من الأرض . . وبعد أن رفعه ، شعر برجفة جسمه الواهن ، القارسة ،
وبنفسه الثقيل من فمه المفتوح بصورة مستديرة خرساء ، وأمره بصوت
أصم : — « ها ، انظر إلى السماء ، واعطني يدك ، إذا كنت تريد
البقاء حياً ! انظر إلى الأعلى ، يا ابن الأبالسة ! — صاح كريموف
وأمسك بيد مولوتشكوف المكدومة الإرادة ، وبحركته سريعة وضع
حفنة من الثلج على كم بزّيه التمويهية ، وأطلق النار بصورة دقيقة ،
مدروسة ، على حافة الحفنة الثلجية . عارفاً ماذا يفعل . . .

(فيما بعد ، بعد مرور عدة سنوات ، ودون أن ينسى تلك السنوات من الخطر اليائس والقاسي ، ناسياً مع ذلك الملازم كريموف ، هذا الشاب الحازم بصورة مفرطة ، القائد الموفق دائماً تقريباً الفصيلة استطلاع الفوج ، كثيراً ما كان كريموف يفكر بجرأته السابقة في التصرف بمصائر الناس ، بخشونة تصرفاته وأفعاله الشخصية ، بتهوره وجرأته ، عندما كان ملازماً ، بالبحث السريع عن المخرج ، حيث لم تكن هناك تلك الشكوك التي رافقت حياته كلها فيما بعد .)

لكن ، في تلك الأثناء ، في تلك الليلة الكافونية ، وبعد طلقة كريموف هذه ، تأوه مولوتشكوف ، وحرك عينييه المبيضتين كعيني الميت إلى الأعلى ، وسقط على ظهره على منحدر الحفرة ، فارتل قدميه ، كما في سكرة الموت . أما كريموف فقد انتظر قليلاً ، وجلس بقربه ، ومزق بسبطانة المسدس الخعبة الفردية ، ثم ضمّد بصمّت الكتم المتورم الغامق لردائه التمويه الأبيض ، وعندما شعر بالتشنج والرضبة في التقيؤ في جنجرتة ، وأوحس برائحة الدم المشربة بالأملاح الحديدية ، وبالدبق الزجج على أصابعه ، خاطب مولوتشكوف بعنف وازدراء :

— والآن ، اركض إلى المؤخرة ، دون أدنى التفاتة إلى الوراء ! لن يصدقوك هناك إذا كنت سليماً معافى ، لهذا ، اصرخ هناك بأعلى صوتك : جرحني الألمان ، وضمد جرحي الملازم ! ستبقى على قيد الحياة ، أيها الوغد . على أن لا أراك بعد اليوم ، بالقرب من وحدة الاستطلاع . فاذا ما رأيتك ، سأذكر كل شيء ، وعندما لن آسف على رصاصة . هيا ، اركض ، بأقصى سرعتك ، بحيث ترتطم قدماك بمؤخرتك !

ولكن بعد يوم واحد ، فدر لكريموف مجدداً أن يرى مولوتشكوف
في مركز الكتبية الطبي ، حيث اقتيد إليه كريموف في فجر تلك الليلة
المشؤومة ، التي ابتلعت خمسة رجال من فضيلته الاستطلاعية .

لقد رسخت في ذاكرته إلى الأبد تلك الدقائق الحرجة ، عندما
زحف وحيداً ، تعصف به الرياح الثلجية المعترضة ، إلى الضفة اليمنى ،
ثم استلقى منهكاً ، تحت السماء الباردة المرصعة بالنجوم ، في السكون
المطبق ، الذي ساد لسبب مجهول ، في المنطقة المحايدة المكتومة .

في الأمام كانت قد صممت المدافع الرشاشة ، ولا أثر لأي صاروخ
كشاف ، وانقطع العويل البشري في المنطقة المحايدة ، ماعدا الجليد
في الأسفل ، الذي كان ينهار بخشخشة رنانة في زمهرير وحشي في
النهر ، حيث كان الدخان يتصاعد من نقرة سوداء ، غير متجمدة ،
فتحتها قذيفة في منتصف النهر . أما هو ، المخبول ، الفاقد الوعي من
الحرارة والألم ، والذي كان يضمنه الظمأ ، فقد زحف متخيلاً الرطوبة
النقية البللورية ، المشبعة بالصقيع ، متصوراً كيف يغمس ذقنه في الماء
البارد بلذة ، ويشرب ، دون أن يرتوي ، قطرات كبيرة ، أدخلت
البرودة إلى حنجرتة ، دون أن يروي ظمأه .

وكان آخر ما بقي واضحاً في ذاكرته ، الموجة السوداء الثقيلة
التي اندفعت من النقرة غير المتجمدة (حيث اهتزت النجوم وامتدت
خيوطاً طويلة !) ، ومذاق الماء الجليدية القارسة ، التي اختنق بسببها
وتجمدت أوصاله ، والشفق المعتم السماوي للضفة اليمنى ، التي زحف
إليها ، ساحباً على مرفقه البندقية الآلية ، التي كان أخمصها يصلصل
بصورة خطيرة على حذبات صقيع النهر .

ثم انجرف كل شيء وانمحت حدوده — المنخفض ، الكثبان الثلجية
للخنادق الألمانية الأولى التي يصعب تمييزها من الأعلى ، والليلة الشتوية
المديدة ، فوق الخنادق المتخدرة من البرد للبلدة التي احترق نصفها ،
وضربات الدم المتدفق في أذنيه ، والفكرة الملحة بأن عليه ، مهما كلف
الأم ، أن يعرف ماذا حدث هنا ، وحفيف الريح الثلجية في المنخفض
العاري ، ولم يكن هناك أي شيء ، لا طلقة نار ، ولا ضوء صاخب ،
ولا أي علامة تفسر ما حدث للجماعة الاستطلاعية ، رغم أنه تخيل ،
أن الريح الثلجية تفوح ببارود بارد . . .

وجدثوه فيما بعد ، أنهم قد عثروا عليه في المنطقة المحايدة ، بالقرب
من الحفرة ، على الضفة اليسرى . غير أنه لم يستطع أن يفهم ، كيف
استطاع العودة من الضفة اليمنى .

عندما وُجد نفسه في مركز الكتيبة الطبي ، رأى في اليوم نفسه كشفه
مولوتشكوف ، الذي قدم إليه في غرفته ، وهو يتسم إبتسامة اعتذار
وفرح ، وكانت يده معلقة على ضجاء جديد ، أما وجهه المدهون بدهون
بني اللون ، فكان مبقعاً ببقع رمادية زرقاء ، لكن عينيه الصنفراوين
الحريشتين كانتا ترقصان بفتوة ونشاط ، وزن صوته مداهاً ، ملاطفاً :

— أيها الرفيق الملازم ، الحمد لله ، أنت حي . . . نحن صري قد
التوى وتخدر . ها هوذا ، انظر . إنها أشياء بسيطة ، تافهة . لقد ثقت
الرصاصية اللحم .

— اغرب عن وجهي ، — قال كريموف بلا مبالاة .

* * *

— أنت محق ، يا تيرني ، فالطلقة أحياناً ، قد تكون خلاصاً وإنقاذاً — قال كريموف ، شاعراً بصورة خاطفة ، بالعجز القديم والوحدة في المنطقة المحايدة ، ولكن دون حدة الغضب السابقة ، وكأن الماضي كله قد غاص في حلم بعيد . — على كل حال ، لن نستعيد ذكرى الحرب ، وكل شيء قد انقضى ، في نهاية الأمر . الأفضل حدثني ، كيف تعيش الآن ؟ كيف أحوالك العائلية .

« وهل ثمة داع للتفكير بكيف كنا قبل ثلاثين عاماً ؟ إن تيرني مدير إنتاج جيد ، مخلص لعمله . . . » .

— كيف سونيا ؟ ألا تنتظران ولي العهد ؟

— إن حياتي كلها متوقفة عليك ، يا فياتشيسلاف أندرييفيتش ، طيلة الوقت أفكر بك . أنا لا أؤمن بالله ، وإلا لتضرعت إليه وصليت ، — قال مولوتشكوف متأثراً ، بعاطفية واسترد أنفاسه بقلق . — من أنا بدون مساعدتك ؟ حتى أنك باركتني ، باركت زواجي الشرعي . ربما ستلد سونيا طفلاً ، قريباً . أنا أريد ابناً ، وهي تريد ابنة . وهناك نقاشات عائلية بهذا الخصوص . إنه أمر مخيف ، فياتشيسلاف أندرييفيتش ، مخيف جداً .

— وما هو المخيف ؟

— إن سونيا مصابة بالربو . وقد انقطعت تماماً عن الغناء . أحياناً ، تشعر وكأنها تكاد تختنق . في هذا العام ، استدعينا الإسعاف السريع ثلاث مرات . لا ينصحونها الأطباء بالعيش في المدينة . عليها أن تسكن في الضواحي ، حيث الهواء النظيف المنعش . وقد أخذت الآن من

الاستوديو قطعة أرض تعاونية . علي أن أجمع قواي وأبني بيتاً صغيراً ،
فياتشيسلاف أندريفيتش ، — هذا سيكون إنقاذاً لسونيا . آه ، لو
تمكنت من ذلك !

— مفهوم . ستمكن من ذلك . أنت ستنجح .

— ولماذا قلت ذلك ؟

— الآن ، أنت تنجح في كل شيء يا تيرتي . لقد دخلت في
منطقة النجاح والتوفيق . في الحياة ثمة خط للتوفيق وخط للحظ السيء .
أنت الآن في منطقة التوفيق والحظ السعيد . تنطلق فيها بسرعة ، علي
ظهر سيارتك الـ « موسكفيتش » .

— أفسخ مني ؟ وكيف أنت ؟

— أنا خرجت من منطقة التوفيق . وأنا أضحك علي نفسي بالطبع .

نظر مولوتشكوف نظرة جانبية إلى كريموف ، واستدارت عيناه
المستعطفتان ، المتألفتان بصورة معبرة ، مظهرأ فهمه لفكاهة المثقفين
بيد أنه عندما استدار ثانية نحو المقود ، أصبح قذاله مستقيماً ، مترقباً ،
أما صوته الرنان فقد أبدى بوضوح شكه وريبته .

— وهل الإشاعات السخيفة والإقراءات واقع ؟ أنت رجل معروف
للعالم كله ، ولن يستطيع أحد أن يمسك باضبعه ! وهل يستطيع أحد
أن يقضي عليك ؟

أنزل كريموف زجاج النافذة ، واستنشق الهواء الدافئ المشبع
بالهلب الصنوبري الخاف ، وهو ينظر إلى تحاريم الشمس بين أشجار
الشوح علي حافة الطريق ، وقال :

— ليس هناك أشخاص لا يمكن مسهم على الأرض . يسقط ذاك الذي يركض ، أما ذاك الذي يزحف ، فلا يمكن أن يقع . لقد ركضت طويلاً ، وطويلاً جداً . وهذا أمر لا يحبه الجميع ، دون استثناء . على أية حال ، كنت أنا ، بكل بساطة ، أعمل ، وأعمل ، وأعمل . حاولت الإمساك بطائر السعادة من ذيله . أتفهم يا تيرنيتي ؟

— أيقوم نيتشورالوف باخراج الفيلم بدلاً منك ؟ إن الإشارات تدور حوله . — قال مولوتشكوف وجلاً ، وتجمد ففاه المستقيم بترقب من جديد . — وكيف سأكون أنا بدونك ؟ وهل المسألة جدية فعلاً ؟

— لن يصيبك شيء ، أيها المدير — قال كريموف وربت على كتفه مشجعاً . — تيرنيتي ، أنت رجل محنك ، لبق ، قادر على التفاهم والتعامل . بالابانوف يحبك ، وأنت تخدمه جيداً . قل لي ، يا عزيزي تيرنيتي ، في سبيل أي شيء تكذب عليه ، وتفترى علي الأساطير والثرهات المختلفة ، وتلفق القصص الخيالية التي لا أساس لها من الصحة ؟

« هذا ما كان يؤرقني طيلة اليوم ، مثل الغموض الكئيب » .

— إنني أخدمه وأخدمك ، فياتشيسلاف أندرييفيتش ، — رد مولوتشكوف بلهجة الموافقة الهادئة ، الخنوعة — وأخدم السلطة السوفيتية أيضاً . أنا رجل صغير ، في زمن الحرب ، كنت مأموراً ، والآن ، أنفذ الأوامر أيضاً . إنني لا أفترى عليك شيئاً ، ولا أتحدث عنك بسوء ، بل العكس صحيح — أساعدك ، عذراً ، قوتي محدودة للمساعدة . بقدر استطاعتي . وهل أنا ضدك ؟

وغص صوت مولوتشكوف الهاديء بالاستياء والضميم ، وأصبح سائلاً ، يصدر عن أنفه ، وقال كريموف بأسى :

— هاهي ذي أبهة أخرى ، ها قد بدأ مشهد الميلودراما . هل تعلمت التمثيل في السينما ؟ كفاك توجعاً ، هذا مضحك ! أنت خبيث بلا حدود ، يا ثيرني ، وتعرف جيداً أن التملق يلتهم الضعفاء وهم أحياء .

— أتضحك علي ؟ انك تسيء إليّ ، — قال مولوتشكوف بصوت مرتج ، مريض ، وهز رأسه بحزن وأسى . — وأنا اليوم بالذات ، علي أن أتحدث معك حول مسألة هامة . تتعلق بك . ألم تحزر ، لماذا لم أرسلك إلى البيت بسيارة الاستوديو ، بل أقودك بسيارتي ؟ ذلك أن السائق غولين أحرق غي ، وقد كنت محملاً في ضربه على سحنته الكبيرة الرعناء . أما هو ، فيلجأ إلى القانون ، ويريد رفع قضية عليك إلى المحكمة . إنه بلبل ، سافل ، لثيم ! — جاء لعندي اليوم ، يدعوني لأكون شاهداً .

— هذه مسألة تخصه ، — قال كريموف بصورة غامضة ، منذ كراً نظرة غولين العابسة المتقلبة ، عندما التقاه منذ أيام في مجموعة التصوير . — وماذا أجبت ؟

رف مولوتشكوف بعينه الجامدتين ، شاعراً بلذبه ، وتوتر منخرا أنفه الصغير الغضروفي إلى حد البياض .

— إنه أحرق — أليس هو خطير ، يا فياتشيسلاف أندرييفيتش ؟ من يدري ، ما الذي يدور في رأسه . لقد تكلمت معه طويلاً ، بقي عندي ساعة كاملة ، حاولت إقناعه بمختلف العبارات والكلمات ، بأنه هو نفسه ، الكبير ، الجاهل ، يمكن محاكمته بسهولة ، فقال لي : « لقد أراد كريموف أن يشوهني ، لأنني رأيت كيف كان مستلقياً على العشب مع العاهرة سكفورسوسا ، وقد كان يهدني . فلتنظر

المحكمة ، على حد زعمه ، في هذه القضية المريبة كلها » . إنه عنيد ،
ذنيء ، وحش وليس إنساناً ! إنه جاهل إلى أقصى حد . . .

— وماذا بعد ؟ ولماذا سكت ؟ أكمل حتى النهاية ، يا تيرني .

« هراء ، جنون . . . وما الفائدة من معرفتي ؟ وماذا سيحصل
لنا جميعاً بعد ذلك ؟ — فكر كريغوف فجأة ، وبلغ من النافذة نسمة
من تيار الهواء ، من أجل تخفيف الألم في قلبه . — ومن سينقلنا من
الأغبياء الغادرين ؟ » .

— سكير ، إنه سكير ، بيد أنه كانت له حساباته في رأسه ، —
وتابع مولوتشكوف بادانة لاذعة . — قال لي ، إنه أراد أن يشوهني ،
فليدفع لي ، اذن ، لقاء ذلك بالعدل والقسطاط ، عندئذ سأسأله ،
ونكون قد تخالصنا ، ولن أرفع قضية ضده إلى المحكمة . إذا ما دعس
سائق رجلاً ، فانه يدفع له بسبب تشويبه وإصابته راتباً شهرياً لقاء تعطيله
واقعاده عن العمل . وقال لي ، ليست لدي سيارتي الخاصة ، وليس
عندي بيتاً ريفياً ، أما كريغوف فهو رجل غني . فليقدم أربعة آلاف
روبل لرجل فقير ، إذا كان ملذّباً ، — ونسوي الأمر بالود والاتفاق
ونظافة ، وسوف أصمت ، وكأنني لا أعرف شيئاً ولم أر شيئاً .

— مفهوم ، مفهوم . أربعة آلاف ؟

تأوه مولوتشكوف بازدياء واستخفاف ، لاعباً بأصابعه القابضة
على المقود ، وقال بصوت جاف غير مألوف :

— لقد قلت له ، لهذا الأحمق : « ماذا بك ، هل عزمتم على
نهب رجل طيب ؟ أربعة آلاف ! وما حاجتك إلى أربعة آلاف ؟ ستفقهها

دون فائدة على الحمرة ، أيها الغبي ! أنت لم تحو في جيبتك على خمسمائة روبل في يوم من الأيام . ألا تخاف من أن تثرثر أمامي عن الآلاف ؟ » .
أما هو ، فكان حاسباً لكل شيء حساباً . لقد اتضح أن هذا الغبي خبيث وذكي . قال لي : « نحن اثنان ، لا ثالث بيننا ، ليس هناك شهود ، ولم يسمعي أحد غيرك . انني أقول ما أريده في الخفاء . أنا أطلب أربعة آلاف بصورة مشروعة ، وليكن ثلاثة فقط ، ولا أعرف أي شيء » .
أرأيت هذا الدنيء الحقيق ، الذي برز ؟ !

— اذن ، أربعة أو ثلاثة آلاف ؟ وكل شيء سيكون على ما يرام ؟

— يطلب الآن ثلاثة بعد حديثي معه ، هذا النذل ، الخالي من الضمير .

— أليس كثيراً يا تيرنتي ، ما رأيك ؟

— كيف يجراً هذا السكير على النطق بذلك ! — قال مولوتشكوف وهو يشتم لبسامة لاذعة ، سامة ، متأثراً ، وناظراً بعصبية من وراء كتفه المرفوع إلى كريموف . — حتى أنه اتخذني وسيطاً دون خوف أو وجل ! إنه لإنسان فارغ ، عديم النفع ، لكنه خطر . وماذا تطلب منه — كما تطلب من الأهل ! وهو ، على غبائه وحماقته ، قادر على الحاق ضرر كبير . وقد صدق المثل الشعبي : لا تمس الغائط ، فلا رائحة ذكية ترجى منه . آه ، فياتشيسلاف أندريفيتش ، إنها قضية قبيحة ، سخيفة ، ولا حاجة لنشر هذه الرائحة . لو أعطيته هذه النقود ، وليخنت بها ، بشرط ألا ينشر الروائح الكريهة ! فلتذهب النقود إلى الجحيم ، إن النقود تأتي مع الزمن ، أما الاطمئنان فهو أغلى ، قسماً بالله . ستصرف من أعصابك وآلامك مع هذا الغبي الآخر ما يعادل عشرة آلاف !

— أجل ، على أعصابك ستصرف عشرة آلاف — كرر كريموف مقلداً لهجة مولوتشكوف ، وكأن ماقاله لا علاقة له به ، وفي الوقت نفسه ، كان يخنقه التقرز الغاضب ، وغدا كل شيء ، على الفور مقرفاً كريهاً بصورة لا تحتمل : صوت مولوتشكوف المفكر هذا بصورة مقنعة ، وقداه المستقيم والمتمعض ، وابتسامته المحتقرة للأخرق غولين ، ومن جديد ، قال له شخص ما ، في داخله ، حنكته الخبرة الفاجعة ، والشك القابض ، شخص محكوم عليه في روحه بالوحدة إلى الأبد ، وبفهم بطلان كل ما كان يرغب به ويريده ، ويتطلع إليه ويثير فضوله باستمرار : « ومن أجل ماذا ؟ وأين مغزى هذا الكذب الرخيص ؟ في الحصول على ثلاثة آلاف — وماذا بعد ؟ وهل نستحل في حياته الغبطة والسعادة ؟ سيشتري الخلود ؟ » . واعترض شخص آخر في روحه ، بعدم تسامح ، وبخبط ، غير راغب بوزن أي شيء في ميزان الحكمة الأليمة ، وقال : « على أي نحو طمست أنت في القذارة ؟ وجه اتهامك ولومك إلى ثقتك الساذجة ، بأن كل شيء سينتهي ! » .

— تيريتي سيميونوفيتش . . .

— نعم يا عيوني ؟ أصغي إليك ، فياتشيسلاف أندرييفيتش ،

— شكراً لك على هذا الرد اللطيف « يا عيوني » مثل الجدة . لقد

كان ردك رائعاً !

— من حيي لك . . .

— شكراً ، شكراً . قل من فضلك ، تيريتي سيميونوفيتش —

قال كريموف هامساً ، وقد مال بجسمه على أذن مولوتشكوف ، ومسه

من كتفه مشجعاً - وكيف قررتما اقتسام هذا المبلغ ؟ ألقان وخمسائة لك وخمسائة لغولين ؟ أم بشكل آخر - ألف لغولين وألقان لك ؟ أتعرف ، هذا مهم جداً بالنسبة لي .

أدار مولوتشكوف نحوه رأسه الطويل ببطء ، وتقوس حاجباه القصيران بمرح مثل علامة استفهام ، وانفتحت شفتاه المتحركتان وانغلقتا مصورتين ضحكة كوميدية .

- أتمرح ؟ - قال بلطف وعتاب ، ولكن دون أي دفاع عن كرامته المهدورة ، ودون حرج من الصراحة الغريبة الوقحة - آه ، فياتشيسلاف أندرييفيتش .

- لأنني أتحدث ببجدية كاملة ، - تابع كريموف ، رابئاً على كتف مولوتشكوف المكتنز بعطف . - لأنها فكرة رائعة ، وهي بالطبع ، لم تخطر في ذهنك على الفور ، دفعة واحدة ، يا تيرني سيميونوفيتش ، ولم لا ؟ ان كريموف ، كما يبدو ، لم يعد كما كان . لا تترك الغنيمة ، إقطعها بأسنانك قطعاً صغيرة وكبيرة ، اغتنم الفرصة المواتية ، فاعل هذا المثقف سيجبن ، ويسعفنا الحظ ، نحن الفقراء في هذا المرح والمرج . هكذا ، أليس كذلك ، يا تيرني ، يا صديقي العزيز ؟

- دعني ! أنت المذنب في كل شيء ! - صرخ مولوتشكوف بصوت نشاز عال ، هازأ كتفيه ، وانحنى قليلاً جانباً ، راداً لسبب ما بيد واحدة ، السترة على صدره ، وفي الدقيقة التالية ظهر في نظرتة الحولاء شيء ما نزيه ، حتمي ، محقق .

- ماذا ستقول ، اذن ، أيها الكشاف ؟ - سأله كريموف . - أية جملة تريد أن تنطق ؟

— لقد كنت أقوى مني — صاح مولوتشكوف بالبصوت القوي ذاته ، ومن جديد بسط فمه بصورة متكلفة وكشف عن ابتسامة كوميدية صامتة — لقد كنت ، يا فياتشيسلاف أندريفيتش ! أما الآن ، فأنا أيضاً ، لست ضعيفاً . كنت خادماً وعبدك ، وكان هذا يروق لك ، أما الآن ، فأنا ، أكاد أن أكون حراً ، مستقلاً عنك ! يمكن لأي مخرج أن يأخذني . هكذا يحدث في الحياة ! كما في الأغنية : تارة ترفعه عالياً ، وتارة أخرى ترميه إلى القاع بلا أثر . لقد انتهت سعادتك وولت . لقد شوهدت لي يدي هذه في الحقيبة . وعطلت عصيها ، أنظر ، كيف يتحرك إصبعي بصورة سيئة ! — أبعد مولوتشكوف يده اليسرى السريعة ، كالقرد ، عن المقود ، وهز أصابعه مهدداً ، وحرك خنصره المعوج البارز ، دون أن يضحك بصمت هذه المرة ، مكشراً بجدة عن ابتسامة شخص مستعد للهجوم على مكن حيوان متوحش — وأنت بحق ، فياتشيسلاف أندريفيتش ، مبيء ومذنب جداً ! أنا أيضاً يمكنني أن أرفع عليك دعوى إلى المحكمة — كيف أطلقت النار وجرححتني عامداً متعمداً !

كان مولوتشكوف ، وكأنه في عجلة من أمره ، يملح نفسه ، ويتباهى باصرار ، وعبر ابتسامته الحادة ، ومضت عيناه الحاققتان بصورة غير مألوفة ، بنار صفراء . وبعد أن تمسك كريمةوف بقدر كاف من الهدوء الساخر وتمالك نفسه ، قال :

— وأنت ، بروتوس * ، إذن ؟

* بروتوس ، مرقص يوليوس ، (٨٥ - ٤٢ ق . م) سياسي روماني كانت له الباع الطويل في المؤامرة على يوليوس قيصر وليه نعمته . — المترجم —

- ومن اين بروتوس هذا ؟ ومن أنا أيضاً ؟ . . . أنت لا . . .

- حمار ! - قال كريموف بارتياح واحتقار ، وتابع قواه ، مرتباً الكلمات بصورة مستهزئة ، كما في السابق : -- يبدو أن هذه كانت مشيئة القدر ، أن أشفق عليك ، في العام الرابع والأربعين . . . أليس كذلك ؟

صرخ مولوتشكوف بصوت تير مألوف ، منعماً بحدة الامتناع :

- آه ، أنا أيضاً شمة حاجة إلي على هذه الأرض ! وماذا حققت ، ماذا اكتسبت ؟ أما الظلم ، فقد كان وسوف يبقى ! لديك شقة كبيرة ، وبيت ريفي ، ومال وفير ، كل شيء متوفر لديك ! وماذا لديك ؟ شقة صغيرة جداً ، سيارة - مهزلة « موسكوفيتش » ، زوجتي مريضة ، أما بالنسبة للمال ، فدائماً على الحافة ، يا فياتشيسلاف أندرييفيتش ! لقد استوعبت جيداً حديثك مع الأمريكي . إنك تضع نفسك في مرتبة أعلى من الجميع ! أنت سيد نبيل بالمقارنة معي ، مع حياتي البائسة ! أنت تحتقرني ، تقرف مني ، تصبر علي ، أنا أشعر بذلك ، بجلدي وجسدي . . في الحرب كنت تحتقرني ، وكذلك الآن تحتقرني !

أسرع مولوتشكوف في اكتمال حديثه ها بصورة دامغة ، منفعة ، وكانت ترسم على شفاهه ابتسامة انتقام ممطوطة ، وشعر كريموف أن الوتر الحاد الطنان الذي يربط بينهما قد انشد وتوتر إلى حده الأقصى ، ولإحساسه الحارق بالكراهية الجاحمة المتكشمة التي يكنها نحوه كشافه السابق ، الوحيد الذي بقي حياً من فصيلته ، قال بصوت هامس :

- هذا صحيح . لقد كنت دائماً عبداً ، بطبيعتك . ولن تثير

في نفسي أية عاطفة أخرى سوى الإحتقار والإزدراء . أوقف السيارة ،
يا بروتس العصري ، — أمرد بصوت خافت ومسيطر ، كما في الأيام
المنصرمة عندما كان ملازماً ، وضغط على كتف مولوتشكوف المكتنز
الحار . الذي توتر بسرعة ، وعندما رأى وجهه الذي ارتسم عليه شحوب
الموت من التوقع والخوف ، أمره ثانية : — قف !

أخذت سيارة الـ « موسكفيتش » تزرق بفراملها ، وعرجت على
حافة الطريق ، وتوقفت عند متراس من الطريق الفارغ في هذا المكان ،
فوق الحقول المصفرة ، وعندما فتح كريموف باب السيارة بحزم ،
وخرج منها بهدوء ، انصب عليه قيظ الطريق الملهب بأشعة الشمس
مع هواء الحقول الجاف . وهنا تأخر قليلاً ، والتفت إلى مولوتشكوف ،
ناظراً بفضول لم يكتمل إلى وجهه الذي أصبح يلون الحوار ، والذي
فقد بشاشته المتملقة المعتادة ، وتعبير الطاقة العملية ، المستعبدة دائماً
للعمل ، الضروري للغاية من أجل تنشيط مجموعة التصوير ، وبالدرجة
الأولى بالنسبة له ، بالمخرج كريموف .

— هكذا ، اذن ، يا تيرني ، شكراً على الصراحة ، فهي أيضاً
غالية جداً ، أغلى بكثير من الآلاف الثلاثة — قال كريموف ، مذهولاً -
من أعماقه من قدر الكراهية الكبير الذي نفثه مولوتشكوف ،
ومن درجة رباطة جأشه وبرودة أعصابه . — لكن ، وكما ندركون
جيداً ، تيرني سيميونوفيتش — تابع كريموف ، منتقلاً إلى صيغة
الجمع باحترام ، — في مثل هذه الظروف الناشئة ، لا مجال للعمل معاً
نحن الاثنان في مجموعة تصوير واحدة . وغداً سأأخذ قراراً ، إذا لم
تتخله قبلي . بهاذه المناسبة ، قل السائق ستيفان غولين ، أنني بأبهم العناية ،

مستعد لأن أخسر ثلاثة آلاف . ولكن ، بالطبع ، بشرط ألا أحرم
من سعادة النظر إلى وجهه . . . كما أرى وجهك الآن ، كي أرى
عن قرب ، من هو المحسن إلي منكما . هذا كل شيء ، كما أعتقد ،
لا تقلقوا ، يا حضرة المدير ، سأصطاد أية سيارة عابرة . أتمنى لكم
سفرًا سعيداً . تيرني سيميونوفيتش ! لقد حالفك الحظ من جديد ،
كما حدث في تلك الأثناء في الحفرة . . . إنك تعود وحيداً . .
وأغلق باب السيارة بتلك الدرجة ذاتها من رباطة الجأش ، عندما
كان ملازماً ، والتي كانت ضرورية في تلك الأثناء ، كما كانت
ضرورية الآن ، بصورة خاصة .

« وهل يمكن أن يحدث هذا - في عام أربع وأربعين ، في أوكرانيا ،
أراد أن يحتال على المدير . . . وهاهو مرة ثانية الآن ؟ تبدلت هيأة
الخارجية ، البزة ؟ - فكر كريموف ، ماشياً على الطريق ، وسيطر
عليه الأسى بصورة خائفة . - لا ، شيء آخر ، انضاف إليه شيء
آخر ، شيء آخر . . . انه كان يشب إخلاصه ويدافع عن نفسه بوداعة
مزينة في الاختلاط مع الجميع ، أما رعايتي الطيبة له فقد ساعدته على
الوصول إلى أشياء كثيرة . فما الذي دفعه إلى التفكير بالأربعة آلاف
المشؤومة ؟ ليس غولين ، واضح أن ليس غولين . انها فكرة مولوتشكوف
فكيك . ظهرت ؟ هل بسبب مرض زوجته سونتشكا ؟ أم من أجل شراء
بيت ريفي ؟ أم أنه قرر ، أن اللحظة قد حانت لنهش قطعة أكبر
بلا عقاب ؟ أي حساب لثيم هذا ؟ أية دراسة شيطانية هذه ؟ . . . »
- فياتشيسلاف أندرييفيتش ! انتظر يا عزيزي ! إلى أين تمضي ؟ -
سُمع تخلف ظهر كريموف صوت يزعمق محذراً ، وكانت خطوات

تطرق الاسفلت في الخلف ، وركض مولوتشكوف اللاهث ، الجبل ،
إلى الأمام ، راقصاً بالتماس ، راجياً بذهول وارتهاك ، بعينين مرفقتين ،
مستعمداً للبكاء ، وقد خبس دموعه . - فياتشيسلاف أنذرييفيتش ،
عزيزي ، لقد أسأت إليك ! - قال مولوتشكوف لاهثاً - اعذرني ،
اعذر حيواناً جاهلاً ، ماهذا الإفتراء السخيف الذي افتريته عليك ،
خرج من لساني دون قصد ، أنا نفسي لا أعرف ، انني غبي ، انني
بهيم أخرق ! يالي من ديبلوماسي ، أخذت أمارس الثروة الفارغة ،
في حين أنني مدين لك حتى الممات ، وسأقول لأطمأني أنك إنسان طيب ،
أنك ، بروحك ، إنسان طيب . . . أما أنا ، فأخذت أدافع عن السكر
غولين ! . . .

« هاهوذا . مولوتشكوف الآتحر ، في البزة الواقية » .

- إن الطيبة في عصرنا نقيصة لا تغتفر . صحيح ، يا تيرني
سيميونوفيتش ؟ - قال كريموف وابتسم ابتسامة ساخرة . - قل لماذا
احتجت إلى ثلاثة آلاف ونصف ؟ انني أعرف جيداً ، أن غولين لن
يحصل من هذا المبلغ إلا على خمسمائة . لماذا لم تطلب مني ، ببساطة ،
ديناراً ، قرصاً ؟ .

- فياتشيسلاف أنذرييفيتش ، النقود ليست من أجلي ، ليست
من أجلي - صاح مولوتشكوف بصوت معترض و فجأة اندفع بحمية
خرقاء . بشفتين ممطوطتين ، وبوجهه كله نحو كتف كريموف ،
مما كان يعني به قبلة شكر جارفة . - وهل بإمكانني ذلك ! النقود لغولين ،
لغولين ! لقد أردت أن أحملك من شره ، ثم اختلط كل شيء في

رأسي ؛ وبدأت أكلّمك بكلمات قائمة ! كم أفضل لو تضربني ،
لشعرت بشيء من الراحة ! لماذا قلت لك هذه القباح ، لا أدري .
لا أستطيع أن أفسر ذلك لنفسي ، أنا الغبي . فأنا أحبك ، يا فياتشيسلاف
أنبرييفيتش ، وتكلمت عليك بتلك النماذج والعبارات ، وكأنني عدو
لك ! اتمه أنقذت حياتي . . .

— كذاك تذللاً وتضرعاً ! — أوقفه كزيموف ، محاولاً قمع
غضبه — بالله ، إنه شيء مقرف . لا حاجة لك الآن للذهاب في مهمة
استطلاعية ، وإن تذهب معي إلى الضفة الأخرى . حتى عندما كنت
شاباً ، كنت دائماً تعرف ما تريد . وهل تظن ، أنني صدقتك ، في تلك
الأيام ، في الحفرة . أن يديك تجمدتا وفقدت عقلك ؟ كل شيء
كان واضحاً . كل ما في الأمر أنني أشتقت عليك — وذهبت إلى المؤخرة
يا سعيد الحظ ، وبقيت حياً . في حين أنه كان من الواجب قتلك
بالرصاص . وهل تعتقد أن هذه القذارة المتعلقة بالنمود ليست مفهومة
بالنسبة لي ؟ شيئاً واحداً لم أفهمه — لماذا كنت دائماً أمد لك يد العون ؟
لماذا أساعدك ؟ على أية حال ، فالطبيعة خلقت ، لسبب ما ، هؤلاء
الظربان أيضاً . هل أصبح موقفي منك واضحاً الآن ، يا تيرنتي
سيميونوفيتش ؟ اذهب إلى الجحيم ، ولا أريد أن أراك بعد الآن !
— يا إلهي ، يا مسيح . . .

أصغى مولوتشكوف إلى الكلمات الساحقة ، وذقنه ترتجف ،
ثم ألصق قبضتيه بعينيّه وأنّ ، وبكى بكاءً خفيفاً ، وهز يزق كالكلب ،
ولوى كزيموف وجهه قائلاً :

— كفى توجعاً ، كفى أخيراً .

- يا إلهي ، يا مسيح ، النقود ليست من أجلي ، ليست من أجلي
أنا خادمك ، كنت ولا أزال ، فياتشيسلاف أندرييفيتش !
- قلت لك ، اذهب إلى الشيطان ، اذهب إلى الجحيم !
- علام ؟ علام تكرهني ؟ لأنك تكرهني أليس كذلك ؟
- بل وأسوأ من ذلك .
- هكذا ، اذن !

ودون أن يرفع قبضتيه عن جبينه ، رقص ، وخطا خطوات سريعة
حول كريموف ، وفجأة ، تاب إلى رشده ، واتجه نحو السيارة هازأ
رأسه ، وكأنه مقتول من ظلم إنسان كان يؤلّفه ويقدره من أعماق
روحه ؛ لكنه رفضه ، ونبذه ولم يفهمه . وعندما أنزل قبضتيه والتفت
كان وجهه المزهر معوجاً ، مفعماً بالحقد .

- أما النقود فستعطيها لغولين ، وإلا فسوقعك في مأزق ، انه
قادر على ذلك ، سيقعك في مصيبة ! . . .

« فعلاً » ، لماذا يكنّ لي هذه الكراهية ؟ ربما تكون هذه الكراهية
كلها من الماضي ، ومن تلك الحفرة ؟ توقع الانتقام ؟ » .

* * *

وقف كريموف على قارعة الطريق العام ، كاسراً عيذان الثقب
ومشعلاً سيجارة ، ونظر نظرة سريعة إلى السيارة ، التي استدارت
على الطريق ، وتمكن من رؤية كتفي مولوتشكوف المستقيمين ، وفمه

المضغوط بنبات ، بل وبصراقة — هذه أول مرة يرى فيها تيرني سيميونوفيتش على هذا الشكل — وعلى الفور ، خطر في ذهنه ، أنه ، مولوتشكوف ، عموماً ، سيد الموقف ، لأنه لن يتورع عن أي شيء ، مستغلاً الفرص المناسبة . لقد لاح وجهه الصارم العدائي سريعاً واختفى ، وكأنه لم يندرز بينهما أي حديث ، وكأن مولوتشكوف لم يعتذر بصورة ذليلة ، مهينة ، ولم يحاول البكاء بعويل منقبض كالكلاب . « ماذا يحدث لي ومن حولي — جنون ؟ — فكر كريموف بأسى . — من المستحيل أن تكون شقيقي قد أهلكت إيرينا ، وأن يكون أبوها على حق : لم يكن علي أن أزرع في نفسها الأمل ، — ارتعشت في ذهنه هذه الفكرة ، وشعر بألم موجه في صدغيه . — إذا كان الأمر كذلك ، فالشفقة ، إذن ، تنقلب تعاسة وشقاء ؟ وهل هناك من منطق ثابت ؟ الجوع فقط ، والولادة والموت — هذه وحدها فقط الحقائق الثابتة ، أما سماعا ذلك فهو مزدوج ، ذو وجهين ، خاضع للظروف : الحقيقة ، الشر ، الخير . أجل ، أجل ، نحن جميعاً أسرى الظروف . وليس هناك من أحد حر ، مستقل . إن هذا رهيب ، بلا مخرج ، وحقي . . . لكن ؛ يجب أن يكون في هذا أيضاً ، مغزى سديداً ما ! وهل للفكر السديد علاقة ما بالحبان الماكر بالباطون ، وبمولوتشكوف ، بحقده ولعبة العبد التي يمارسها ، وبوالد إيرينا الذي يقتله الألم والوحدة ؟ وفي نهاية الأمر ، هل هناك من هدف لدى الشهير غريتشمار ، المضغوط بعدم قبوله المدنية المريضة ؟ وأي هدف لي من هذا الإيمان المضجر ، الذي لا يبرأ ، بالحقيقة ؟ . . . وما هي الحقيقة — هل أعرف على وجه الدقة ؟ وكيف الخلاص ؟ — بسخريتي المتكلفة ، وبلعيتي بالجياة . وفي سبيل أي شيء ؟ أجل ، هل هو عجز المثقف وضعفه أمام الظروف — هذه

هي سخرتي . عجز أمام الحساسة والدناعة والكذب ، ورغبة بالتخفيف وليس زيادة التوتر ! كلا ، من المستبعد أن أخاف شيئاً ، وأنا في عمري هذا . لكن سخرتي هي أيضاً حل وسط ، هي أيضاً استسلام للظروف وتوافق معها ، وأخيراً ، خيانة تجاه نفسي ذاتها ! . . . إنه مضحك ! لقد تعب المتحمسون ومحبو الحقيقة . لقد أنهك العادلون وسثموا . والناس يتملصون منهم وينبذونهم ، ولا يتسمون لهم إلا شفقة . ومع ذلك ، ففي لحظات اليأس ، أتذكر رجلاً لا يعرف الوسطية والحلول الوسط في التاريخ ، إنه الشهيد والمعاني ، الذي لا مثيل له . من أعطاه الإيمان والتعلق به — الرب ، الله ؟ فمن الذي يمنحني الإيمان ، وأنا رجل غير مؤمن ، — الفن ؟ القمص حقوقي ؟ وبأية قوانين يمكن أن يؤثر ظهور الحقارة والدناعة الدليلة على النفس بمثل قوة التراجيديا العظيمة ؟ حقوقي ، الكاهن الأكبر حقوقي ، المتأجج المشاعر والعواطف ، القديس ؛ والعالم المعاصر الفقير روحياً ، الراغب بالملذات بصورة تشنجية ، وكأنه عشية يوم القيامة . ومن جديد جون غريثمار ، « مدينة المدائن » باريس وشعور الألم الخائق ، كالذي انتابني هناك في الليلة قبل الأخيرة » .

ساحة بيغال ، الحي المرح ، السابح في الملذات ، ليلاً ونهاراً ، من « مدينة المدائن » ، الحي الذي اقتاده إليه غريثمار الذي لا يعرف الكلل والنصب . كانت ساحة بيغال تلمع وتغلي ، وتتلون ، بدأ له بالألوان ذاتها والأضواء ذاتها ، وبالأسماء ذاتها للبارات والكباريات الليلية ، وبأسواق الجنس وأفلام الجنس ، كالتي رآها كرموف في هامبورغ ، وفي بروكسل وسان فرانسيسكو ، النذل أنفسهم في بزاتهم الحمراء الفاحشة ، في قبعاتهم السوداء العالية الأريستوقراطية ، وتلك

السحنات الشاحبة المهلهلة للتوادين ، الذين يعرضون ، في جميع الزوايا
باغراء واصرار ، الدخول إلى المفاجأة المثيرة ، ومعاناة الشعور الذي
لم يشعر به المرء من قبل ، الازدحام البشري ذاته ، الحركة الضيقة
لحشود الناس ذات الوجوه والألوان المختلفة ، الهواء الفاسد المشبع
بروائح العطور المنوعة ، والمختلط بالرائحة الساخنة لحبات الكستناء
المشوية قرب دور السينما، والعدوبة الآسرة للقهوة في محلات «السندويش»
ذات الأبواب المفتوحة ، وفي كل مكان أمام الأرصفة ، ترى السيارات
اللامعة ، ذات الظهور المدهونة ، المنطلقة إلى مكان ما في العدم الضوئي ،
والضجيج الذي لا ينقطع ، ذو النغمة الواحدة ، بالاختلاط مع صرير
آلات اللعب الأتوماتيكية ، والأصوات المحنكة ذاتها أمام البوابات
والمداخل ، ولمس سماعات الهاتف : « ألو ! » - والنظرات المتواضعة
إلى الأعين مع الانحناء الداعية ، المناذية ، والعفة المتصنعة لبائعات الهوى ،
الصغيرات السن أحياناً ، الشبهات بطالبات جامعة السوربون ، وقد
ارتدين النظارات البريئة البسيطة ، وإلى جانبهن الحدقات المتوسعة
للشباب - متعاطي المخدرات ، المصوبة على الوجوه الخالية من الدم ،
وجماعات من الزنوج المرنين المشوقين ، مثل الإيلة ، في قمصان
بيضاء داخلية ، المتربصين بضجة أمام المطاعم ، ينتظرون عروض
السائحات الأمريكيات الغنيات ، اللواتي يُثيرن خارج أمريكا خيالاً
متزايداً ، والرجال المحترمون الذين ينقلون نظراتهم اللامبالية على
واجهات الأندية الليلية ، وعلى صور الأجساد العارية بأوضاعها المختلفة .

المنعطفات والأزقة ذاتها ، حيث الأنوار الخافتة ، والظلام الخفيف ،
التي تفوح منها موجة دافئة من « البودرة » ، ورطوبة الحمامات أحياناً
مع تدفق عطري لأشياء مالحة ، حيث بالقرب من جدران منازل شبه
مظلمة ، وأمام أبواب شبه مفتوحة كانت تنتره المومسات المتقدمات
في السن ، متوترات السيقان في جوارب من لون أجسادهن ، وفي

سراويل ذات مثلثات ملونة في أسفل بطونهن ، فكن يديهن وكأهن عاريات تماماً ، وكن يتحادثن فيما بينهن بحرية ، بأصوات مدمنة على التدخين . وكن في الوقت نفسه ، بلامبالاة متكلفة ، يصطدن بنظرات جانبية من أعينهن المربعة المنقشة كأعين المهرجين ، أقل اهتمام بيديه المارة من الرجال . صاحت لإحداهن ، وكانت نحيفة مسطحة الصدر ، وهي تهز شعرها الطويل ، وقد أسدلت أحرفاً مزخرفة باسمها على كتفيها العريضين ، صاحت منادية غريتشمار بضحكة فظة :
— ايه ، أيها البدين ، أنا أعرف أنك ألمانى غني ، اصعد إلي ، سأعمل ما تريد ! لدي صديقة . . .

— وكم ستكلف ، يا عزيزتي ؟ — رد غريتشمار بحماسة مفتعلة وغمز كريموف بجرأة . — أين صديقتك يا عزيزتي ؟

— اصعد إلى العلية وستراها . إنها شقراء مثل سافو . وأصلها من ليسبوس . هل تفهم شيئاً من هذا ؟

— وكم فرنكاً ستأخذين يا عزيزتي ؟

— ستدفع لإيجار شقتنا .

— وكم سأدفع ؟

— لن تندم على فقودك أيها البدين بعد أن ترى .

كانا يتحدثان بالفرنسية ، ولم يفهم كريموف حديثهما كاملاً . كانت ترهقه هذه الحركة المسائية الجشعة للناس ، الباحثين عن الملذات السريعة في الساحة ، وفي هذه الأزقة العاتمة ، حيث كان يباع على المكشوف الجسد البشري الحي — أفخاذ وأوراك ، سيقان وشفاة ، وكذلك تلك الحركات الآلية من جانب المشتري أثناء اختياره ، وشعر بذلك الإحساس الضاغط ، الذي كان قد عانى منه قبل عامين في مخزن بمدينة هامبورغ ، يدعى بسداجة مخزناً صحياً ، وذلك عندما شاهد

لعبة مطاطية ضخمة كريهة ، مدعوة باسم ليندا ، تتمتع بدفع « جسد نسائي طبيعي » (وهذا ما عرفه من الإعلان التجاري) ، يمكن شراؤها بثلاثين ماركا ، كعشيقه دائمة ، لا تختلف إطلاقاً عن أي امرأة . كما أذهله في هذا المخزن زبون غريب ، رجل نحيف ، دقيق الرجلين ، في حوالي الأربعين من عمره ، كان يدور حول باب المخزن . وكان يربط لسبب ما ، منديلاً على وجهه إلى مستوى العينين ، وكان يخطو خطوة نحو منضدة البيع تارة، ويتراجع إلى الوراء تارة أخرى، وهو ينظر نظرة شبه مجنونة لصريع خجل مرضي ، وهوس وخوف مجهولين . . .

أما هنا ، في ساحة بيغال الباريسية ، بالقرب من الأزقة المظلمة ، كان كل شيء يغلي بالألعاب النارية الساهرة لمصابيح النيون والكهرباء . كانت تتدفق في كل مكان حشود متسكعة فضولية من الراغبين بمعرفة أو رؤية مواد الملذات ، وكانت المومسات الشابات يقفن ، وقد ارتدين سترات ، مثل حلقة متربصة أمام نوافذ البار الساطعة ، وكان رجل مقعد متمليء الجسم عند رقبته وكتفيه ، يرتدي قبعة ذات تفصيلة عسكرية ، ينتقل على عربته من مومس إلى أخرى ، وكان يقنعهن طويلاً بشيء ما ، رافعاً إليهن عينيه بتضرع وتوسل ، غير أنهن كن يشرن إليه سلباً بسباباتهن ، ويدرن له ظهورهن ، وبدا ، وكأنهم لم يتفقوا على السعر ، فابتعد مضطرباً ساخطاً بوجه متعرق ، ثم انطلق متعباً أخيراً نحو الحاجز المعدني الذي يفصل الرصيف عن الشارع ، ووضع بحركة واحدة قبضتيه المرتجفتين على الحاجز ، وخيل لكريموف ، غالباً ، أن الدموع الحاقدة قد انحدرت بسرعة على وجنتي المقعد الفتيتين المستديرتين . نظر المقعد ، عبر الطريق ، إلى الواجهات المضاءة بالشموع القرمزية للمهى أمريكبي جديد ، وهناك ، على الطرف الآخر من الشارع

دوت صفارة بصورة حادة ، وازداد الحشد المتراكم على الواجهات ومدخل الكاباريه . وتوقفت سيارة البوليس التي تطلق وميضاً دواراً من الإشارات الزرقاء بعنف أمام الرصيف . واقتاد شرطيان شخصاً مغطى بالدماء عبر الحشد المتجمع أمام المدخل ، ودفعاه إلى داخل السيارة التي فتح بابها على مصراعيه . ودوت الصفارة من جديد ، وأثناء تحركها من مكانها بصورة جامحة من بين جموع السيارات الواقفة على حافة الطريق ، اصطدمت سيارة البوليس من الجانب بعمود حديدي كتبت عليه يافطة باسم الشارع ، فأنّ العمود وتمايل ، وضحك الحشد كله بشماتة . وانطلقت السيارة التي كانت تشق طريقها بدوي الصفارة الرهيب ، تحت الحلزونات الوامضة للإعلانات ، واختفت في فوضى الأنوار والأضواء الغازية ، وسط سيل السيارات .

في تلك الأمسية ، لم تفارق كريموف حالة من السخافة البلهاء الجارية فيما حوله ، وكان قد تناول من المسكرات أكثر من عادته ، وكان يصغي بصمت إلى غريتشمار ، وجلس في البار حتى الساعة الثالثة ليلاً ، جرياً وراء أمل باطل بالتخلص من تلك الحالة المرضية المضجرة التي استمرت خارج جدران البار ، وفي شوارع باريس الليلية .

« بيم أفكر ؟ بالكاهن الأكبر حبقوق ، بساحة بيغال ، ببائعات الهوى في سترهن الطلابية ، بالمقعد الباكي وهو على عربته . . . وبالأربعة آلاف ، وبضم مولوتشكوف المضغوط بصورة لا تعرف الشفقة ؟ أي ارتباط ، أي ترابط ؟ أين ؟ أشكال ومتغيرات . هكذا أو بصورة تقريبية على هذا النحو ، يحدث في روما القديمة . وربما كان يحدث دائماً ، في التاريخ كله . لا ، فحتى بعد الحرب ، لم يكن هناك مثل هذا الإحساس المتطرف بالحنون . فما العمل ؟ إلى أين يتحرك كل شيء ؟ »

الفصل الخامس عشر

أوقف سيارة خاصة ، تعمل بالأجرة بصورة غير قانونية ، ولم
يستطع ، طول الطريق إلى بيته الريفي ، التخلص من الفكرة العالقة
في ذهنه ، المتكررة بالحاح : « لماذا كان يلوح في حذقي عينيه فلنصر
مسطح ؟ »

كانت تانيا تقرأ وهي جالسة في الأرجوحة ، وكانت تهز رجلها
وتأرجح ، وعن بعد ، وخوفاً من أن يزعجها ، كان يسير على الممر
أناتولي بتروفيتش ستيشوف ، وكان يُرى بوضوح تحت أشعة الشمس
بين أشجار التفاح ببرزته الفاتحة اللون ، وشعره الأشيب الفضي ، والأناقة
الكبيرة لفرق شعره المائل : وما كاد كريموف يفتح خوخة الباب ، حتى
استدار ستيشوف للقائه بخطوات عاجلة :

— وصلت قبل ساعة ، أنا أنتظرك ... قال ستيشوف قلقاً على غير
عادته : — على أن أقول لك شيئاً . سأشغل من وقتك عشرين دقيقة .
اليوم كنت عند المحقق ، الذي يحقق في القضية

— دقيقة ، يا تولى ، لن نستعجل الأمور .

قاطعه كريموف ، وتحلى بشكاه المازح ، الساخر المألوف ، ثم

اقترب من تانيا ، أما هي ، فقد قفزت من الأرجوحة ، وقد سقطت
عينها الرماديتان ، وقبلته على وجنته بصورة غير مسموعة .

— سلام يا بابا .

.. مرحباً أيتها المنزة - الشيطانة ، ألم تشتاقني إلي ؟

ضحكت تانيا وقالت :

— والدي العزيز ، أمرت أن أطعمك . ماما في الهواء الطلق ،
كما يقال ، سوف تنتظر غروب الشمس . أما أنا فكنت بانتظارك .
ولم أذهب إلى الشاطئ ، رغم أن الخطيب والخطيبة قد دعواني باصرار .
أخبرك ، أن اليوم عندنا حساء «أوكروشكا» البارد اللذيذ. أين سنتناول
طعام الغداء ، على الشرفة أم في الحديقة ؟

« هذه هي الوحيدة ، القريبة ، المخلصة التي لن تخونني أبداً . . . » —
فكر كريموف ، وشعر بالدموع ، التي أخافته لفجاءتها ، تندفع إلى
حنجورته .

— ليست لدي رغبة بالطعام ، يا تانيوشا الحبيبة ، — قال كريموف ،
وقبلها من رأسها بخزان جديد إلى صوت ابنته ، إلى شعرها الأشقر
المقصوف كشعر الصبي ، الذي تفوح منه الشمس . — أتعرفين ،
لقد تهديت في الاستوديو . سأصبر حتى العشاء . إذا سمحت ، احضري
لنا ماء « بورجمي » المعدني ، أو ماهو موجود في البراد ، إلى غرفة
مكتبي . مفهوم ، أيها النقيب ؟

— سمعاً وطاعةً أيها القائد ، — ردت تانيا بموافقة مشاكسة ،
مُمارِسةً اللعبة اللذيذة التي يمارسها ، بيد أنها سألته على الفور بقلق : —
ألم تكن اليوم هناك حرب باردة ؟ ألسنت مرهقاً كثيراً اليوم يا بابا ؟
— لا ، — أجاب بطيبة خاطر ، — لست مرهقاً كثيراً . ولكن
ما الأمر ، يا انتي ؟

— اعطني يدك ، وسأعرف كل شيء بسرعة ، من خلال خطوط
راحة كفك . أتريد أن تعرف نفسك ؟ لقد كنت أحاول رؤية لوحة
حياة أناتولي بتروفيتش ، لكن كل شيء مدرع مخفي في راحة كفه ،
كما السلحفاة . ضباب مشوش .

— تلك هي حياتي ، تاتيانا فياتشسلافوفنا ، — قال ستيتشوف ،
منحنياً بأناقة واحترام .

— يدي ؟ تعرفين صورة الحياة من خلال الخطوط ؟ هذا ممتع —
قال كريموف بمرح كبير . — لكن ، ربما فيما بعد ؟ حسناً ، أيتها
البصارة ، تعرفني وبصري .

أمسكت يده ، وركزت انتباهها بصرامة ، وجمعت حاجبيها
المستقيمين على قصبة أنفها ، وصمتت دقيقة ، ثم نظرت إلى راحة كفها
الزهرية ، وإلى راحة كفه ، وقالت وهي تهز شعرها ، بصورة غامضة :
— أنت إنسان طيب ، وكذلك أنا . انتقلت إليّ الطيبة عن طريق
الهرمونات . سوف تعيش ثمانية وسبعين عاماً . أما أنا فخمسة وسبعين .

— تانيوشا ، لا تخيفيني .

— أنت اسمع من فضلك ، لديك خطوط طريقة في راحة كفك .
زوجتك تحبك ، أما أنت فتحبها بدرجة أقل ، هكذا اذن . وأطفالك
مختلفون تماما .

— ترهات ، ماهذا ؟

— أنت اسمع واصمت . النصف النسائي في الأسرة يحبك . لكن
الأبناء ، كما قلت مختلفون تماما : أحدهما يذهب باتجاه الغابة ، والآخر
باتجاه الفطر : أنا باتجاه الفطر . وعموما ، ان مصيرك سعيد . هذا
كل شيء . بيد أنه يجب وضع جميع الأغبياء على ظهر سفينة فضائية ،
وارسالهم إلى كوكب غير مأهول .

— هذا اقتراح معقول ، يا تانيوشا ، يجب أخذه بعين الاعتبار .
هذا طريف جداً . وأن تعلمت التبصير وقراءة الكف ؟ — سأل كريموف
بلهجة رعاء ، متابعاً لعبته ، وشاعراً في الوقت نفسه ، بشيء جلدي ،
مقصود في تصرفات ابنه .

— اليوم صباحاً على الشاطئ ، — أجابت تانيا بعدم اكتراث —
علمتني التبصير امرأة ذكية . وهي بالاناسية ، مشاهلة ومعجبة بأفلامك ،
تكن لك الإحترام والتقدير ، وقد رجنتني أن أبألك الآتي : « قولي
لفيانشيسلاف أندرييفيتش ألا يعر أي اهتمام لجميع المرائين ، أصحاب
الأذان الطويلة ، المتواجدين الآن بكثرة » . أنقل لك قولها هذا . وهذا ،
رغم كل شيء ، صوت الجمهور ، فخلده في اعتبارك ، وأنا مع الجماهير
يا بابا . آه ، كم أكره جميع المرائين المفترين الأغبياء .

سيطر فجأة على كريموف ألم لذيذ ، نابع من عاطفة الأبوة ، ومن
الخدس القابض بأن ابنته ، رغم أداؤها لدورها المرح السابق ، كانت
ترفض ، بارتباك وبطريقة طفولية ، الأمور السيئة ، وتريد مساعدته .
ودون أن ينطق بكلمة واحدة ، نظر كريموف إلى وجهها المرفوع ،
الحر ، المستعد للدفاع عن أيها ، وداعب شعرها الطري في نقرتها
بخفة ولطافة وشكر ، والتشجع في حنجرتة .

— شكراً يا حبيبي .

قالت بشفتين مرتجتين :

— ألا تصدقني ؟ أنا ساحرة وبصارة . سوف ترى .

— شكراً يا تانيوشا . أنا أصدقك ، أصدق تبصيرك وقراءتك
لاكف . أتجلبين لنا شيئاً ما ، بارداً ؟ أحمليه إلي في الأعلى . — وأشار
لستيشوف الذي كان ينتظر بصبر ، وخلع سترته على عجل ، متخلصاً
من ضيقها ، ورمأها من يده . — أذت إنسان مثقف يا تولى ، فقل لي
متى ستتحسن موجة الحر ؟

— كان بودي أن أزع لك خبراً ساراً ، يا فياتشيسلاف ، لكنني
لست راصداً جويّاً ، وأنا عاجز في هذه المسألة .

— مؤسف جداً ، أننا نكون أحياناً عاجزين ، ضعفاء .

كان كريموف محطماً ، منهار القوى من هذا اليوم كله ، وما
ان صعد إلى العلية حتى سيطرت عليه رغبة جابحة ، بأن يسقط جسمه
الآن على الأريكة ، مستمتعاً بنسمات الهواء العليل (كانت النوافذ
والأبواب ، المطلة على الشرفة مفتوحة على مصاريحها) أو الاستلقاء

على الأرض التي تبدو وكأنها مغطاة بأوراق الشجر بالقرب من السرير ، والاستسلام للصمت والتدخين ، وتأمل التذبذب المائي لأشعة الشمس على السقف ، وعدم التفكير بأي شيء . لقد كان هذا إحساساً بقلق ما ، مبهم ، هادئ ، خامد مكتوم . ومن أجل إخماد الامتناع المختبئ الخامد للأسى ، رمى الجاكتة على السرير (لم يكن لديه ما يكفي من القوة لتعليقها في الخزانة) . وقال : « آه ، حسناً » - رمى غطاء البار الصغير ، الواقع بين رفوف الكتب ، وسكب في قديمين قليلاً من الكونياك ، ثم نظر بطمأنينة إلى ستيشوف الذي كان واقفاً أمام باب العلية ، غارقاً في أفكاره ، وقد صالبا يديه على صدره .

- لماذا أنت واقف هنا ، مثل نابليون على جبل بوكلونايا * ؟
الوفود لن تأتي ، والمفاتيح لن تُسلم ، ولا يعترف أحد بأنه مغلوب .
وفي النصر - نصف الهزيمة .

- في أي نصر ؟

- في نصر لا يخص أحداً . ليس هناك من نصر لأي طرف . طالما بقي هناك إله وشيطان ، - قال كريموف ومد قدح الكونياك إلى ستيشوف - أعتقد ، يا توليا ، أن كل نابليون وبرميج عصري ، حتى عندما ينام ، يصاب يديه على صدره كل ليلة . أنا لا أدخلك في عذاب

* جبل صنير ، يقع غربي موسكو ، وقف عليه نابليون أثناء لروسيا عام ١٨١٢

- المترجم -

مغتصبي السلطة . فاست قادراً على الإحتفاظ بها . ولكن ما رأيك ،
هل ينال مدير إنتاجي مولوتشكوف بيدين متصاليتين على صدره ؟
— أنا أقود سيارة ، وتعلم أنني أكره الكحول ، — رفض ستيشوف
الكونياك ووضع القدح على رف البار . — وفي مثل هذا الحر ، لا أنصحك
به : إنه عبء على القلب .

— إنها روح انضباطية مذهلة . أحبي فيك الاعتدال والتحفظ .
لقد كان سقراط عظيماً . . . بصحتك يا تولى .

شرب كريموف قدح الكونياك وتنحنح ، متنفساً الصعداء ، وسقط
على الأريكة ، متمددًا بكامل قامته ، حالماً بهدوء طال انتظاره . هكذا ،
براحة واسترخاء ، بودي أن أستلقي على الأريكة ، وأغرق في السكون ،
وأسيح في النسيان المريح بلا تفكير . لكن ستيشوف كان يقف منتظراً
أمام الأريكة ، وقد ساط عليه ضوء النهار الصيفي القوي ، القادم
من الحديقة ، وقد بدا هذا الضوء ، المجزأ بأوراق الشجر ، المنعكس
على عينيهِ الزرقاوين الجاحظتين ، شتوياً خافتاً .

— تولى ، — قال كريموف ، — إن حُزن كانون الأول يطل
من عينيك ، فما السبب يا صديقي ؟

— فياتشيسلاف ، انني مذهول من خسة الناس غير المفهومة ،
إذا ما تحدثنا صراحة .

— مذهول مم ؟ من الخسة ؟

.. نعم بالذات ، انني مذهول من خستهم ، من خفرهم اللذيل ،
من خبتهم الشرير ! ماذا حدث ؟ بالأمس فقط ، كانوا يبتسمون من

السعادة باجتماعهم معك ، ومحادثتك ، ويعبرون عن حبهم لك ،
ويندفعون نحوك مقبلين ، ويبكون في أحلامك من فرط التأثر . . .

.. ماذا تقصد ، ومن ؟

— لا تأخذك الدهشة ، فياتشيسلاف ، واسمع بالإصغاء إلي —
تابع ستيشوف حديثه غاضباً . — اليوم ، أخيراً ، لم أعد أستطع احتمال
إشاعات الاستوديو السخيفة إلى درجة الدهول ، وذهبت في الساعة
الرابعة إلى ذلك البناء الشهير في شارع بتروفيكا ، إلى محقتك أوليغ
غريغورييفيتش توكاريف . . . اتصلت به هاتفياً وذهبت عنده .
اعذرني ، أنا أعرف أنك كنت صباحاً هناك ، ولكن لم تتم المحادثة
معك لأسباب ما . أعرف كل شيء كما ترى . وهاك جوهر المسألة .
جوهر المسألة ، أن المحقق ، بصورة عامة ، هو رجل غير متحابل
أبداً ، انه يتمنى لك كل الخير ، كل الخير ، وأضيف إلى هذا، أنه
في موقف عسير ، كما قال بنفسه . . .

.. اشرح لي ، ماذا يعني ذلك ؟

— اني غاضب ، وعموماً ، أشعر بأنني طيلة اليوم لست على
مايرام ، — قال ستيشوف وحرك يده بعنف ، تعبيراً عن بأسه ، فلمع
كالذهب ، زر كفه التنظيف المنشئ . — لقد أتيت عنده مضطرباً ،
أحمل معي سؤالاً واحداً ، متى أخيراً ، ستضع ربة العدالة تيميس
المبجاة نهاية للشك في رجل محترم ، بما هو بريء منه ؟ لقد خرجت عن
طوري . أعرف ، ماذا أجابني ؟ قال لي : « للأسف ، إنني مندهش
من الموقف الغامض للاستوديو وبعض زملائه ، الذين لا يتخذون أي
موقف شخصي محدد ، والمستعدين للموافقة على أي افتراض في المناسبة

الرهبة التي حصلت . و « نعم » ، و « لا » ، و « يمكن » ، و « غير يمكن » . فما هذه الحقايرة وما هذه الخسة ! يا لهم من سفلة أصلاء ! -
صاح ستيشوف متعجباً ، وبعد أن فك زر الجاكطة العلوي ، دخل إلى المكتب : - لم يكن لديه الحق بذكر أية أسماء والتحدث بالتفاصيل ، غير أنني ، صموماً ، أحزر من هؤلاء الزملاء ، الذين لم يتخذوا موقفاً !
انهم لا يستطيعون أن يغفروا لك . . .

- ماذا يغفرون لي على وجه التحديد ؟

- بعضهم لا يغفرون لك موهبتك ، وآخرون لا يغفرون لك استقلاليتك .

- فلتذهب الإستقلالية إلى الشيطان ! - لم يوافق كزيموف -
من منا مستقل على هذه الأرض ؟ من فضلك ، لا تبالغ . ليس هناك
من إنسان مستقل . حتى أولئك الذين يسيرون هذا العالم ليسوا مستقلين .

- أنا لا أبالغ ، يا فياتشيسلاف ، بل أقلل من شأن ذلك ! -
اعترض ستيشوف بحماسة - أتريد مثلاً على ذلك ؟ تفضل . هذا
الأبله ، بالأبالوف ، يخاف منك ، رغم أنه في سره ، ميال إلى الرذائل
والسوء . كان يعرف أنك تستطيع أن ترفض طلبه وترسله إلى الشيطان ،
لكنه كان في أمس الحاجة إلى إرضاء المخرج الأمريكي الشهير ، الذي
تمكن معه إنتاج فيلم مشترك والقيام برحلة لطيفة إلى أمريكا . فأرسلني
إليك كي أقنع صديقي المتمرد . إنهم يحتاجونك كواجهة . ومع ذلك ،
فبؤدهم أن يتخلصوا منك بحزن وبكاء . ان من السهل على المرء أن
يعيش مع الناس العاديين البسطاء . تصور ، وصل إلى المحقق تقرير

مجهول بلا توقيع ، ليست له أية علاقة بالقضية ، ومع ذلك ، فهو بيضة ملونة في يوم الفصح . يتهمونك بالموقف اللاسياسي في حديثك مع غريتشمار ، كما قال لي المحقق . وبما أن هذا اللقاء حضره اثنان فقط — مدير إنتاجك مولوتشكوف وأنا — فهذا التقرير المغفل كتبه واحد من هذين الاثنين . . .

— ليس تماماً — ابتسم كريموف ساخراً . — أثناء اللقاء كنا أربعة . لذا ، فالوشاية قد تكون صادرة عني ، بعد أن صحت وثبت إلى رشدي ، وتبت . أو كتبها غريتشمار ، الذي اهتم بأخلاقي وروحي الضالة ، بعد أن تناول قليلاً من المشروب في بار المطار ، قبل إقلاعه بالطائرة .

— ألا يزال لديك من القوة ما يكفي السخرية يا فياتشيسلاف أندرييفيتش ، — قال ستيشوف ، واصفر وجهه الناعم ، الرابط الجاش ، الذي يشبه وجه نبيل روماني ، وبدأ حزينا . — أجل ، فياتشيسلاف أندرييفيتش ، في سنوات هرمي ، هذه هي المرة الأولى التي أصل فيها إلى نتيجة مؤلمة . وهل يمكن للمرء أن يكون خارج بيته ، كما هو في داخله ؟ من المستبعد ذلك ، يا فياتشيسلاف ، من المستبعد . لا يمكن المحافظة على البراءة والسذاجة . لارض الأذواق المختلفة ، ابتسم لثاقدين العديمي الموهبة — وأنت عزيز علي الجميع ، موهوب كبير ، حاذق ، لقد كدت أن تصبح إنساناً عظيماً ! أما أنا فأشمتز ، أقرف ، وأخشى الثعالب الخائفين والحمقى . . . آه ، أو ليست سفالة ! — صاح ستيشوف متعجباً ، ومقرباً من البار ، وكان من المضحك والمحزن في الآن نفسه ، رؤية هذا الرجل الطويل القامة ، ذا الشعر الأشيب ، المهيب ، العازب

الأنيق ، ذا الملامح الشابة ، وقد أمسك بيديه بشيء من الاشتمزاز
والقرف ، قدح الكونياك ، وأخذ يشمه ، ويديره من طرف إلى آخر
أمام أنفه (كما يشم شيئاً ما فظاً ، سمجاً ، كريه الرائحة) ، وقال بأسف
ساخر : — لو كان بإمكانى ، لسكرت حتى فقدت وعيى ، كما فعل
عامل التمديدات الصحية من ورشة إصلاح منازل الحي في يوم السبت ،
وعندها كان باستطاعتي أن أنفوه ، بصورة رائحة ، باشتائم المقذعة ،
وأنظر إلى الدنيا !

— لست قادراً ، يا تولى ، لا على هذا ولا على ذاك ، — قال
كريموف . — ليست وظيفتك ، وايس دورك . أما أنا فقادر على
الشراب باعتدال ، والتفوه بالشتائم بافراط ، بـتباري ضابط استطلاع
سابق . أما أنت فهذا لا يليق بك . وان يفهمك أحد . لقد تربيت وفق
تقاليد أخرى ، وفق تقاليد النبلاء ، ذوي الدم الأزرق .

— سيفهمون ! — اعترض ستيشوف محتدماً ، ودفع بالقدح إلى
دعامة البار بحيث انداق الكونياك قلداً . — سيفهمون ! — كور ستيشوف ،
وبارتباك قليل مسح راحة كفه بمنديل المطوي بعناية . — عليك أن
تذهب إلى حيث يجيب الذهاب ، وتمزيق خيوط العناكب الكافرة !
ولاً فستخنةك هذه الخيوط ! . . .

— إلى أين سأذهب ؟ للشكوى على أحد ؟ للتذمر من زملائي في
العمل ؟ لا أعرف مع من تحدث المحقق . هل أشتكي على بالابانوف ؟
لديه أكثر مني بعشرات المرات مما يدعى بالبزاهين والحمجج : ممثلة
شابة ماتت في ظروف غامضة ، لهذا يجري التحقيق ، أما المخرج
كريموف نفسه ، فهو رجل مدلل إلى حد كبير ، أفسده المجد ، اغتر

بنفسه ، وظن أن كل شيء مباح له . علاوة على ذلك . فالشكوى دليل ضعف يا توليا .

— آه ، ماذا اقترفت أنت هناك مع بالابانوف ؟ — أخذ ستيشوف يثن وأمسك برأسه يائساً . — إن الاستوديو كله يتحدث عن تلك الفضيحة التي لم يسبق لها مثيل ! وهل صحيح ، أن « الحنبلي » بيسكاريوف ، الموظف ذو العقد الفرويدية كان جالساً في مكتبه ؟ انني أتصور تقريره إلى الرئاسة ، والألوان الزاهية التي سيزينه بها ! وأنت ، ماذا بك — وهل أردت فعلاً أن تكيل صفة لبالابانوف ؟ يا بطريفة الفرسان القديمة التي تستخدمها ! على أسوأ احتمال ، كان من الأفضل لو رميت قفازك . تحدياً له .

« إذن ، لقد حدث هذا . وهل من المعقول أنه قد حدث ؟ » .

— لا وجود الآن لقفازات الفرسان البيضاء ! واو حدث هذا قبل ثلاثين عاماً لضربته على وجهه الناعم ، بدون تفكير ، وبسرور عظيم . للأسف ، لقد فقدت منذ زمن طويل خفة الجندي وسرعته . إذن ، فضيحة ؟ رائع ! في حين كنت أظن ، أن كل هذا حدث في خيالي الجبان .

— أنت تقتل نفسك بنفسك يا فياتشيسلاف . إنك فظيع ، مثل صبي مشاكس ! إنك تبحث عن قاع الهاوية معصوب العينين !

— مرة أخرى ، ليس تماماً يا توليا . تصور ، قدمت إلى القيادة العليا : مديرنا ذو الحدين السميكين يركض في مكتبه ، هاباً للقائي ، كله لهفة ، مشعاً بالبهجة : « آه ، أنت قادم لعندي ، أي ضيف كبير ،

انك لا تنعم علي كثيراً بزياراتك ! « مضطرب اليدين ، فرحاً ، حتى
كاد أن يقبلني بفرح ، شاي مع الكعك ، لمعان عينيه السعيد ، أسئلة
مرهفة ، وعود : « طبعاً ، طبعاً ، سنتدارك كل شيء ! إذا لم تساعد
الموهوبين ، فعلام نجلس هنا نحن الموظفون ؟ » و . . . لاشيء إطلاقاً !
لا يحرك حتى لإصبعه . هذه هي الصيغة العصرية البقاء على قيد الحياة .
كل شيء مجرب ، يا توليا .

— أكرر : أنت مشاكس ، وتقدم على الانتحار ! وكأنك تريد
هلاكك عامداً . . . أتوسل إليك ! استسلم واقبل ! أرجوك ! أتوسل
إليك ! — صرخ ستيشوف فجأة ووضع يديه على صدره معتذراً —
هل تريد أن تتعذب وتتألم دون ذنب ؟
— بماذا أقبل ، لأي شيء أستسلم ؟

— لا تدخل في صراع مع أي كان ، يا فياتشيسلاف ، أرجوك .
— تصور ، أن أشياء كثيرة ليست متوقفة عليّ ، يا توليا :

سمعت خطوات راقصة على الدرج المؤدي إلى العلية ، وبعد أن
سألت على العتبة « بابا ، الدخول مسموح ؟ » — دخلت تانيا إلى المكتب ،
وهزت شعرها بريية مأكرة ، باتجاه كريموف ، ثم باتجاه ستيشوف ،
ووضعت على ذعامة البار المفتوحة الابريق الذي مال بسائله الزهري ،
ثم قالت :

— أرى أن لديكما أسراراً . بابا ، هذا عصير من صنعي . توت
عليق مهروس مع ماء البئر . انه رائع ! على المرء أن يشرب منه ،
ويغرق في أحلامه . سأصب الآن .

ملأت ، بجود وسخاء ، قدحين نظيفين حتى الثمالة ، وقدمت لهما
العصير ، وانحنت محيية بمزاح ، على أصابع قدميها :

— إذا كان وجودي لا داعي له ، فأنا ذاهبة إلى الشاطئ لألعب
كرة الطائرة وأستحم . أليست هناك اعتراضات جوهرية على ذلك
يا بابا ؟ الغداء في المطبخ .

قبلت تانيا أباهما على جبينه وخرجت ، وهي تخطو بخفة بقدميها
الملفوحتين بأشعة الشمس . أما هو ، فعندما أحس بشفتيها الطفوليتين
على جبينه ، وكأنهما نسمة عذبة من الهواء ، جسم من جسمه ، لم يسمع
على الفور صوت ستيشوف ، الذي غص بجرعة من العصير الشديد
البرودة :

— أنت غير مذنب إطلاقاً ، بينما يريد بعضهم أن يصطاد في
الماء البكر : وقد يكون كريموف مذنباً !

— أنا مذنب ، على الأغلب يا توليا ، على الأغلب .

— ماذا تقول أيها المجنون !

— أتذكر دمة الطفل ؟ . . . لذلك ، نحن كلنا مذنبون . مذنبون ،
بحق دمة الطفل المراقبة بلا ذنب . نحن ، كل من هو قادر على الاحساس
والشعور . وإلا ، فلا قيمة لأي كان ، كائناً من كان .

— قل لي من فضلك ، وما علاقة فيودور ميخائيلوفيتش * ؟ أنا
أرى أن نزعة عاطفية قد ظهرت عندك .

— المترجم —

* المقصود هنا : فيودور ميخائيلوفيتش دوستوفسكي

— صدقي ، يا تولى ، أن المقاعد في الحدائق العامة لا تكفي للجلوس والتفكير بالزرعة العاطفية التي يشتمها العمليون .

كان أحدهما يعرف الآخر جيداً ، منذ أعوام ، وكان أحدهما يفهم الآخر من أقل من كلمة ، وهما الآن كانا ينظران ، — أو أرادا أن ينظرا — إلى شيء واحد من وجهين مختلفين ، ربما لأن ستيشوف القلق ، من فرط التأثر ، قد بدل على نحو ما ، طريقتة المألوفة ، وهو الرجل المهذب إلى حد نادر ، في نشر جو الاجتماع اللطيف المريح من حوله ، وهذا ما كان كريموف في أشد الحاجة إليه أحياناً ، فكان كالمرقأ الهادئ ، بعد العوم العاصف في أثناء اللقطات السينمائية . لم ينتقم ستيشوف من القدر للسنوات العديدة ، التي عاشها بدون أسرة (فقد طلق زوجته منذ أن كان شاباً) ، وبدون أطفال ، مع محافظته على صلته الراضخة الوحيدة مع أمه ، المرأة الحكيمة ، التي كرست حياتها كلها لابنها ، وتوفيت للأسف قبل عشرة أعوام . كان دائماً حليق الذقن بعناية ، أنيقاً بصورة ملحوظة ، مسرح الشعر (وكان شعره الأشيب ذا بريق فضي) ، وكان حتى في البيت ، في مكتبه ، بين الرفوف الكثيرة الغاصة بالكتب ، أنيقاً ، حسن الهندام ، كان يرتدي القمصان الدارجة التي تكسبه هيئة الشباب . وكان كريموف يرى ، أن قمصانه هذه وربطات عنقه ، والألوان الفاتحة لستراته وجاكته المخرصة ، التي تشد قامته الرياضية الطويلة بصورة ممشوقة ، وبنطاله الضيق المكوي — كل هذا كان تعبيراً واضحاً عن رغبته العنيدة بالظهور بالمظهر المناسب ، ومقاومته الدائمة للدؤوبة لتقدم السن الزاحف بخطى ثابتة . ولتفضيله الليونة على الحدة ، كان يتعد عن الحشونة والكلمات الحادة ، ولم يكن باستطاعته حتى قتل بعوضة تحط على يده ،

مهما بدأ ذلك غريباً (كان يلوح لها مهدداً بالتمديد ، منقنعاً بالارتباط العالمي الشامل لجميع الكائنات الحية) . بيد أنه كان ثمة شيء آخر يذهل كريموف إلى حد كبير أحياناً : وهو اخلاص ستيشوف الذي لا يتزعزع للسينما ، وتكريسه نفسه لها ، ووفاءه الثابت للفن ، الذي جعل مرتبته أعلى من الحياة .

— وما علاقة فيودور ميخائيلوفيتش هنا ؟ — كرر ستيشوف بذهول ، رافضاً الموافقة على كاتبه المحبوب دوستويفسكي . — دمعة : كلمة قديمة ، غير مستعملة . أما الواقع فهو دموع . وإذا كان الأمر كذلك ، فأود أن أقول لك شيئاً آخر . أين الآلهة المعاصرون ؟ أين المعبودون والعباقر الذين يمكن للمرء أن يرغب بتقليدهم ؟ ليس هناك من مدارس جديدة ، ولا يريد أحد أعلاماً بارزين في الفن ، لأن كل واحد يعتبر نفسه الأول . هل نكتب مثل تولستوي ؟ انه نمط قديم . مثل ريبين ؟ انه أسلوب ممل ، محافظ . هل نصور أفلاماً مثل ايزنشتين ؟ لقد أصبح هذا الشيخ مملاً مضجراً . لهذا ، فان التشتت والصيحات العقيمة ، ووليمة الكثيرين ، من غير الجديرين بالدخول إلى محراب الفن ، الذين يؤلفون ويكتبون السيناريوهات بحمية ، ويصورون الأفلام بحرارة وجلبة ، ويهرجون ويمزجون بلا نهاية ، انهم يحسدون ، ويندفعون ويتدافعون في السكون الدافئ . ومع ذلك ، لدينا بعض الناس ، ومن بينهم صديق لي ، يمكنهم أن يزينوا أية سينما في العالم ، ولكن . . .

وضع ستيشوف القدرح على شفتيه ، وكأنه لسع من البرد ، وأكمل شرب قدرح العصير ، وكانت يده البيضاء الناعمة ترتجف (وهذا أمر لم يلاحظه كريموف سابقاً) ، كما كان الزر الذهبي على الكم الأبيض يرتجف أيضاً .

— لماذا ينحني الناس احتراماً للموهوبين وتبجيلاً لهم ؟ ويريدون
لهانتهم في الوقت نفسه ؟ وهذا الحادث المأساوي المؤسف ، الذي
يمحثون فيه عن شيء ما . . . ويرتابون بك بشيء ما . بأي شيء ؟
بالدمعة ؟ ، بالدموع . . . أمر لا يدركه العقل ! مسألة فظيعة ، مرعبة .
أتوسل إليك ، لا تفكر أبداً بالتحدث عن ذنبك الأسطوري الخيالي
هذا إلى المحقق . ستعقد بذلك كل شيء ، ولن يفهمك أحد ، ولا لثانية
واحدة . أنت ، أنت أتبنتي يوماً ، لأنني أعتبر الفن موازياً للحياة ،
وأعلى من الواقع . لكنك أنت ، أنت القائد السابق لفصيلة الاستطلاع ،
ذو الصدر المثلي بالميداليات ، أنت الواقعي الصارم ، لا تكن
دونكيشوتياً عصرياً . . . فارس الشخصية الحزينة من العاطفة الكونية !
صمت كريموث ، وغرز نقرته في غطاء الأريكة الدافئ .

— في يوم الحساب الرهيب ، — قال ، وهو غارق في أفكاره ،
وغمز بدهاء ، — ستبرز البشرية هذا الكتاب العظيم في تبريرها . نحن
جميعاً تنقصنا الدونكيشوتية أفهم ؟ من جديد ، فيودور ميخائيلوفيتش . . .
وأغمض عينيه ، ومن جديد ، مر عبر حنجرته تشنج مفاجئ ،
باجتناف لذيذ ، كما حصل معه سابقاً ، في لقائه لتانيا ، وكرر بهمس :
ضابطاً على نفسه بصعوبة ، وخائفاً من نوبات هذه الوعكة .

— هل تفهمني يا توليا ؟

— من جديد دوستوفسكي ، يا صديقي العزيز ؟ غير أنك إنسان
قوي ، أقوى مني بألف مرة . . .
— هذا ليس دوستوفسكي ، هذه حياتنا .

وليس ستيشوف في ذهول ، بأصابعه المجمدة ، يد كريوف :
وسأله غير واثق :

— ماذا بك يا فياتشيسلاف ؟ لقد أصبحت إنساناً غير أرضي . . .
صعب الإدراك بالنسبة لي . أنا فعلاً ، لم أعد قادراً على فهمك . وهل
نستطيع أن نأخذ على عاتقنا عيوب العالم كله ونحمل أنفسنا مسؤوليتها ؟

— عيوب العالم . . . أنا لا أتحدث عن هذا ، — قال كريوف
بصوت خافت ، وعينين مغلقتين ، وأطبق بشدة على أسنانه . — ان قلبي
ينفطر . — قال بصوت أجش — عندما أتذكر برودة شعرها المبلل على
وجتي ، عندما نقلتها إلى المستشفى . والفضيع في الأمر — أن السيارة
كانت تهتز بعنف ، وانزلق رأسها على صدري ، وكانت وكأنها
تطلب مني الغوث . . . أتعرف أية فكرة مرعبة خطرت لي في تلك
الأيام ؟ أنني أنقل ابنتي تانيا ، وأن هذه نهاية حياتي . كان من الممكن
أن أفقد عقلي . صدقني ، لم يكن بيننا أي شيء . ولم يكن ، بالامكان
أن يحدث أي شيء . لا ، لأنها عاطفة أخرى ، تماماً ، أسمى من الشفقة .

— لإشرح ، من فضلك — طلب ستيشوف .

— اعذرني لهذا الكلام المنمق والمبتذل ، لا أعثر الآن على عبارات
أخرى . ان أولئك الناس ، مثل إيرينا ، موهوبون ، مثل الزهرة ،
لكنهم ضعفاء ، عاجزون ، تحطمهم الرياح . . .

— وكان بودك أن تساعدنا ؟

— لم أستطع . أخشى ، يا توليا ، أن ما حدث ، لم يكن حادث
قضاء وقدر .

— ماذا تريد أن تقول ؟

— لا أريد أن أقول شيئاً . ليست لدي قوة ، يا توليا . لقد كان هذا اليوم يوماً مجنوناً ، مرهقاً . . . على أية حال ، مثل بقية الأيام الأخيرة . — وحاول الابتسام بعينيه . — اشرب العصير الذي أعدته تانيا ، أما أنا فسأشرب كونياك . هذا أقوى . لا أقوى على النهوض . اسكب لي .

— ألا تفرط في الشراب في السنوات الأخيرة ؟ وكما لاحظت ، فلم تتخلف عن غريتشمار الشهير في هذا المجال ، — أئبه ستيشوف ، وعندما أخذ يسكب الكونياك ، أوقف يده ، ونظر بقلق إلى كريموف ، الذي هز رأسه بموافقة ساخرة — مدركة .

— الله أدرى بذلك ، يا توليا . انني أشرب ولا أثمل . أنا نفسي متعجب . هذا بسبب « الإفراط » ، بسبب الجهد المفرط ، بسبب الارهاق المفرط ، وبسبب أشكال الإفراط الأخرى . لم تكن لدي أية فرصة أو استراحة بين الأفلام ، لم أتمتع بأي قسط من الراحة ، وأنام نوماً رديئاً . آه ، لو أخلدت للنوم ، كالدب ، ثلاثة أيام بلياليها ، لأصبح كل شيء على مايرام .

وكانه نسي الكونياك ، وتمدد بسبب اعيائه وخور قواه ، وأضحى شبه مستلق على الأريكة ، وصالب يديه على صدره ، وقال هامساً :
— لا تتذمر مني ، أكاد أموت من النعاس . أتتصور كم كان ينام نابليون بعد كل معركة يربحها ؟ فكيف لو أنه خسرها ؟ ومع ذلك ، . . .

— لماذا تؤدي أمامي دور الاستبداد الرائع لمؤرخ غريب ؟ ورغم أنك لا تحب التذمر والشكوى ، لكنني لست غريباً ، بالنسبة لك . . . —
قال ستيشوف باستياء غاضب ، وسار في غرفة المكتب جيئة وذهاباً .
ماشياً على البساط الأرضي الجاف ذي الصرير . — يا للاثليجنسيا الروسية
بذنبها الأبدي تجاه العالم كله !

— لكن ، هذا شامل ، عام جداً ، يا توليا .

— عام جداً ، أكثر من اللازم ! انني أكبر منك بعشر سنوات ،
وقد عشت حياة في ضجيج الصراع الهائج ، رأيت كل شيء — قال
ستيشوف . — لذا أسمح لنفسني بالتصرف بصورة مستقلة ، إلى أن
يَدْعوك بسلام ، ويتخلوا عن ازعاجك . أنا لست صديقك فحسب ،
أنا أحد أفراد جمهورك . اعتبرني معجباً بك .

قال كريموف شبه جاد :

— شكراً ، يا توليا ، هنا من المستبعد جداً ، أن تستطيع المساعدة
بشيء . كل شيء سيكون مرهوناً بي ، متوقفاً علي . علاوة على ذلك ،
أنا متفائل ، وآمل أن ألتقي ، مع مرور الزمن ، جميع مناظري ومحاججي
في مملكة الظلام ، وأتحدث إليهم حديثاً صريحاً ، من القلب للقلب ، إذا
لم أتمكن هنا من ذلك .

— طبعاً ، وبخاصة إذا كنت سوف تبحث ، على طريقة الاثليجنسيا
الروسية ، عن الذنب والمسؤولية في ذاتك ، وتصرح به للمحقق ،
وللاستوديو كله ، تحت التصفيق الحاد للأشخاص المتشوقين إلى هذا
الاعتراف .

— أنرى ، كيف بدأت المزاح غاضباً ، في حين أنك لم تكن . أي اعتراف ؟

— أنا لا أمزح ، يا فياتشيسلاف . انني غاضب بكل بساطة . أتفهم ، أنهم قادرون على تطويقك وإنهاكك ، وعصرك ، مثل الليمونة ؟ ان جميع هذه الدعابات مع القضاء تكلف غالباً . خذ قرصاً من سيدوكسين ، ونم يا صديقي . سأتصل بك بالهاتف اليوم مساءً أو غداً صباحاً . نم نوماً كافياً ، خذ قسطك كاملاً من النوم ، بحق كل مقدس لديك : أمل أنك لم تكن تشعر بذنوب العالم على كاهلك ، قبل ثلاثين عاماً ؟ أنا لا أودعك .

« لم أعرفه على هذا النحو ، — فكر كريموف ، مصغياً إلى خطوات سريعة في الأسفل على الدرج ، ثم صرير الرمل فوق ممر الحديقة . — مثقف نقي ، خالص ، لا تشوبه شائبة ، متقن للغاية ، لا يدخل أبداً في أية نزاعات ، في أي وقت من الأوقات ، يشتمز من الكلمة غير الحذرة ، — وفجأة قال بسخرية قاتلة وسخط غير مألوف — وهل من المعقول أنه مخلص لصداقتنا إلى هذه الدرجة ؟ لماذا لم أكن معه صريحاً حتى النهاية ؟ وكنت أسخر مثل أبله مخلوق ؟ وهل لدي صديق أكثر إخلاصاً ووفاء منه بين زملائي ؟ » .

وصل إلى مسامعه من النوافذ المفتوحة ، أصوات متحمسة من الحديقة ، وصوت ضرب خوذة الباب ، ونهض وغماً عنه ، وخرج إلى الشرفة ، الممتلئة بالهواء والضوء في هذا اليوم الصحو ، والخضرة الدافئة ، والحرارة العسلية لزائحة الأزهار الناضجة من الأسفل ، المرتحية في ساعات بعد الظهر القاتلة . وشعر للحظة واحدة بروعة الصيف ،

ففكر متأثراً : « أجل ، أجل ، الحياة رائعة ! فمن الذي يرغبنا على جعلها فارغة ، تافهة ؟ » وفي الحال ، رأى في الأسفل ، خلف الخوخة ، ستيشوف إلى جانب السيارة الواقفة على قارعة الطريق وبجانبه فالتين ، الفارع الطول ، بصورة غير معقولة ، وهو عار حتى خصره ، وقد ارتدى قبعة « كاسكيت » ذات رسوم مربعة ، وخطيبته لودميلا ، كالقصبة الرفيعة ، واضعة على عينيها نظارات شمسية ضخمة ، مسدلة شعرها البني على كتفيها . يبدو أنهما كانا عائدين من الشاطئ والتقيا ستيشوف : فقال بشيء ما للودميلا ، وقبل يدها ، ابداء لاحترامه لها . دخلت الخطيبة من خوخة الباب ، وهي تهز وركين رفيعين ، ملوحة بقبعتهما البانامية بدلال ، كالملوحة . وبقي الرجلان وحيدين خلف باب الحديقة . أخذ ستيشوف فالتين من مرفقه ، وقاده إلى الطريق ، ورغم أن كريموف لم يستطع أن يسمع حديثهما ، فقد تكدر في سره : « كم هو مزعج ، الافتراض أن الحديث يدور عنك » .

وعاد إلى مكتبه ، مرغماً نفسه على التفكير بخطيبة ابنه ، التي تعايشت مع أسرهم ، دون حياء كبير ، مثيرة خوف أولغا ، التي اعتبرت فتاة ورشة الحياطة هذه ليست مناسبة لابنها فالتين لأسباب عدة :

« ربما تكون الخطيبة ، أحياناً ، انفاذاً وخيراً ، والخير خطيبة ؟ نحن جميعاً وحيدون وعميان في أخطائنا . الخير ، الخير : : : البجعات البيض في البحيرات الزرقاء ، أزهار اللوتس الناعمة والثياب البيضاء الملائكية ، كما في اللجنة البوذية ؟ أنا لا أؤمن بنعيم الجنة . : : . اذن ، بم أؤمن ؟ أؤمن بأنه لا مكان لي في العالم بدون الفن . فهذا الوحيد الذي أؤمن به . أنا أعرف ، أن الحق يرتفع فوق الحياة مع الاحساس بوجود

الموت . . . بيد أنني لم أدرك أبداً حتى الآن هذا بالدرجة التي أردتها .
أنا أعرف : لقد تغيرت المشاعر الانسانية . ألم يخن الإنسان نفسه ؟
هذا ما أريد أن أفهمه » .

ابتسم ابتسامة ساخرة ، وهو ينظر إلى رفوف الكتب ، باحثاً
بعينه عن مجلدات ليف تولستوي ، حيث كانت توجد يومياته التي
يجبها (إنجيله في ليالي الأرق) ، وحيث كل جملة ، مثل حبة ملح
مرة ، مترعة بتعذيب النفس ، باحتقار ضعفه الشخصي ، حيث كانت
آلام الكاتب العظيم الروحية مرتبطة أحياناً بصغائر الوجود ، التي كانت
تسبب له آلاماً ومعاناة لا تقل عن الأحداث الخطيرة . بيد أنه هكذا
كان هو ، ليف تولستوي ، بولعه بالأفكار ، وندمه ، وبأفكاره حول
البساطة والحب والأخوة ، حول ما أراد أن يفهمه كريموف بعد الحرب ،
بيد أنها كانت أعلى من القدرة على الفهم ، حيث بدأ يذوب ويضيع
في العالم كله ، بصورة جامحة لا تعرف الشفقة ، كل ما هو جوهري
هام ، تاركاً مجرد كلمات ، كنصيب تذكارية للوفاء والاخلاص والطيبة
السابقة :

« إذا كنت أريد أن أؤمن بالفن ، فهذا يعني أن أؤمن بالطيبة
أيضاً ، وإلاّ فما هو المعنى من حياة المرء ؟ — كان كريموف يوحى
لنفسه بشعور خائق بالعجز . — فمن هم هؤلاء ، المدعوون بمحاججي ،
بأبناء بلدي ، باخوتي ، وبالتالي شركائي في الرأي ؟ إنه خوف النعمة
من النظر بامعان فيما حولها وإلى نفسها . خوف الحقيقة . . . وماذا
بعد ، ماذا بعد ؟ » .

وأثناء تكراره بصوت مسموع « وماذا بعد ؟ » ، اقترب كريموف من مكتبه ، الذي لم يجلس خلفه للعمل منذ فترة طويلة ، والمغرق بالأضابير والرسائل والمجلات التي لم يفتحها بعد ، والمهمل كاليتيم بسبب هذه الفوضى ، وسحب الجارور الأسفل ، وأخذ منه ظرفاً فيه أوراق مالية (كان يحتفظ بها في البيت من أجل النفقات غير المنظورة) . هذه النقود كانت جزءاً من مكافأته عن الفيلم الأخير ، وأجصى هذه النقود من جديد : ألف وخمسمائة روبل . « أوه ، يا للأسف ، يا للأسف ، لم يسعفني الحظ . . . » . رمى كريموف الأوراق المالية ثانية في الجارور ، دون أي شك ، بأنه إذا ما وجد في الظرف ، لمجرد توافق الأحداث ، أربعة آلاف ، لأعطاها في اليوم التالي لمولوتشكوف بصورة مشروطة ، لاسيما وأن أيدي غولين، طليقة لكتابة أية رسائل : ودهش كريموف بسرعة ، مما أراد أن يفعله — أن يعطي هذه الأثاوة الغامضة لمولوتشكوف ، لنفسه الدليل ووضاعته ، لمداهنته العبودية ، ولتشبته بالحياة — هذا التشبث الذي يمتد بنحيط من الحفرة في المنطقة المحايدة عام أربع وأربعين إلى ذلك اللقاء العابر أمام الصناديق الآلية للمياه الغازية ، اللقاء السعيد الذي أنقلده ، وأوصله إلى حياة طبيعية ، إلى سونيا النشيطة ، المريضة ، التي يحبها إلى درجة العبادة .

« في تلك الأثناء ، أطلقت النار على يده من أجل إنقاذه ، والآن يمكن أن أعطيه أربعة آلاف من أجل مساعدة زوجته سونيا . . . فمن أنا أكون في هذه الحالة ؟ الفضيلة ذاتها ؟ لا ، في تلك الأثناء ، في الحفرة ، كان مولوتشكوف كريهاً بالنسبة لي ، لكن هذا كان الشيء الوحيد ، الذي كان باستطاعتي عمله كي يذهب إلى المستشفى ، كي لا أراه

بعد الآن في الاستطلاع . والآن ؟ . . . شيء ما أشبه بالرشوة والتعويض .
لكن ، لماذا ، للمرة الثالثة في حياتي ، أفكر بهذا الرجل التافه ، بمثل
هذه الجدية ؟ على أي نحو ذليل أخذ ينتحب مولوتشكوف في الحفرة ،
وأي عزم وثبات عبر عنه فمه المضغوط عندما استدار بسيارته ! وهل
في هذا الشخص يكمن الخطر الأعظم المهدق بكل شيء ؟ إن هذا أمر
مضحك بالطبع . . . » .

* * *

الفصل السادس عشر

— أبي ، أسمح لي بالدخول ؟

التفت كريموف من مكانه عند الطاولة بنشاط متعمد إلى فالتين ،
الداخل إلى مكتبه ، — كان فالتين حافي القدمين في قميص بلا أكمام ،
غير مبكل من الأمام ، واجتاز العتبة ، وأخفى رأسه عند الباب ، فعانقه
كريموف بسرور مؤثر ، على غير عادته ، وربت على ظهره الحار
من استلقائه طويلاً تحت أشعة الشمس :

— ادخل ، يا بني ، ادخل ، أنا مسرور بلقائك ، نحن لا نلتقي
معاً كثيراً . اجلس يا فاليا ، دخن ، وأنا سأأتملك عن قرب . — قال
كريموف بلهجته الخفيفة التي يتحدث بها مع أطفاله ، وأشار إلى علبة
السجاير على المنضدة في طرف السرير . — دخن ، من فضلك .

— أنا لا أدخن ، يا أبي ، — أجاب فالتين وجلس على حافة
السرير بجذر غير مريح ، وهو عابس مقطب ، طويل اليدين . — بدأت
التدخين ثم تركته : قرأت كل ما يكتب حول السرطان ، وبخاصة
ما يكتبه الانكليز . . . للأسف لودميلا تدخن .

— أصبح التدخين تقليعة دارجة بين النساء — قال كريموف وجلس
أيضاً على السرير ، متأملاً ابنه بانتباه وعدم تصديق . هل من المعقول
أن هذا من لحمه ولحم أولغا ، وهل من المعقول أنه هو كريموف ،

قد ظهر ، برجلته ، في ابنه ، في هذا الشاب الأخرق ، النحيف ،
ذي الطول الفارع ، مثل لاعب كرة السلة ، الشاب الجدي بافراط ،
المفكر ، الصارم ، الذي لا يشبه أباه في أعوام شبابه ، المفعمة بالمجازفة
العسكرية والتهور ، والذي ورث في الوقت نفسه عن أبيه لون عينيه
الرمادي ، ورائحة جلده نفسها (وهذا ما أدهش كريموف ذات يوم
إلى حد كبير) ؟ - بيد أن « الموضة » الخرقاء الغربية ، ستزول على
الأغلب وتنقضي كما يزول وينقضي كل شيء .

أكمل كريموف جملة الأخيرة شبه ساخر ، تماماً كما لو أنه
يقترح اختياراً حراً للحديث . بيد أن وجه فالتين بقي جدياً مركزاً ،
وسأله كريموف :

— كيف تجري أمورك ؟

— أبي ، انني لا أستطيع أبداً الاسترشاد في الحياة .

— هكذا إذن ؟ لا تستطيع الاسترشاد ؟ . . .

لم يدرك فالتين لهجة أبيه شبه الساخرة ، التي لا تلزم بأي شيء ،
والتي كان كريموف يستخدمها كثيراً ، من أجل عدم تعقيد علاقتهما
بصوره لبقية ، حيث اقتنع ، منذ فترة ، بعدم فائدة قهر العناد ، بعدم
فائدة قهر طباع ابنه المشاكسة . ابنه غير المهيا لا المزاح ، ولا الضحك
على شيء ما ، أو على أحداً ما ، والذي يرغب بحل مشاكله بعقائه الخاص ،
في السنة الثالثة ، أخذ يحصل فالتين على منحة دراسية عالية .
وإخلاءه من التبعة ومن اهتمامات أمه ، رفض قطعياً عون أسرته
المالي ، واستبدل البنات التي كان يرتديها بستر رخيصة ، كان يشتريها

بنفسه . وذات مرة ، بعد مشادة مع والدته ، قال لأبيه بعبوس وبصورة قاطعة : « أنا لا أريد أبداً الاستفادة من اسمك أو من مواردك . سأكون مستقلاً بنفسى » . وهذا الطموح إلى الاستقلال المادي المبكر ، حسب معايير اليوم ، (وهو استقلال مادي جزئي بالطبع) ، أو بصورة أدق ، هذا الطموح إلى تأكيد نفسه على تربة متقلقلة ، من المنحة الدراسية ، وإن كانت عالية ، فد أغم كرموف في البداية . فهو ، كما تبين ، لم يشك أصلاً في هذا العناد من ابنه ، عارفاً في الوقت نفسه ، أن هذا الميل المبكر إلى الاستقلالية ، وحب الذات المبياني الجامح لن يجلبا له حرية التصرف التي يتوقعها ، بل سيجلبا له ضربات مرضية في الحياة التي لا نحتمل الاستخفاف الزائد بمعايير الارتباط المرعية في علاقات القربى المعاصرة .

— أبي ، أنا لا أستطيع الاهتداء في الحياة — كرر فالتين —
لا أستطيع بأي شكل من الأشكال .

— كان يبدو لي . . . — وأخرج كرموف سيجارة من العلبة ، وضغط على أطرافها ببطء ، — كان يبدو لي أن كل شيء واضح بالنسبة لك يا بني .

— لاداعي للسخرية . أنا لم أعد صبيّاً ، يريد أن يصبح راشداً .

— أصغي إليك ، أنا أصغي إليك يا فالياً * . . .

كانت غرفة المكتب ممتلئة كلها بالشمس والهواء ، ومشبعة برائحة النباتات ، وكانت الطيور المنهكة من القيظ تغرد في الحديقة بصوت واهن ، وقد انقل هذا النهار العموزي الطويل بلا نهاية ، إلى

* فاليا : صيغة تصغير وتحيب للاسم الكامل فالتين — المترجم —

مساء طويل ، وكان يسمع طنين ناعم لزنبور دخل من النافذة ، وأخذ يزحف على المرأة ، حيث كانت ، في العمق المنعكس ، تستحم الفروع الخضراء لأشجار البتولا . « الآن سيقول مالا أتوقعه — فكر كريموف — إنه يبحث عن الكلمات ، كي لا يزعجني » .

أما فالنتين ، فقد كان يجلس على حافة السرير ، ضاغطاً ساعديه الكبيرين بـ كتيه ، وكان ثمة تجعيد عرضاني يقسم قصبته أنه ، وقد تركزت عيناه الرماديتان بصوره عابسة على المرأة ولم يرقاً ، لكنه كان واضحاً — أنه لم يكن يرى ، لا المرأة بعمقها الأخضر ، ولا الزنبور الذي كان يطن بالحاح ، وكرر كريموف قائلاً :

— أنا أصغي إليك يا فاليا .

سأل فالنتين بصوت هادئ :

— قل لي يا أبي ، كيف يمكن تحديد ذنب المجرم والضحية ؟

— ذنب الضحية ؟ — قال كريموف مستغرباً . — ماذا تقصد ؟
أو من تقصد بذلك ؟

— أنا أقصدك أنت يا أبي .

— هذا طريف ، هام . تابع ، من فضلك ، أنا أصغي إليك .

— هل تستطيع أن تجيني بصراحة ؟ وإلا فلن أسألك شيئاً . أتستطيع ؟
— سأحاول .

ضغط فالنتين بشدة أكبر أصابعه المشبكة بين ركبتيه ، وقال بصوت متقطع ، عابساً مكشهاً .

— أُنِّي ، يحدث ظلم وبعد عن العدالة ، تجرّي سفالة ما حول
اسمك . . . إشاعات تدور ونماذج الملق . . . عندنا في المعهد ، شعب
متنوع ، بعضهم ينظر إليّ بشماتة ، ويهمس : هذا هو ولي عهد كريمةوف
الشهير ، الذي وصل إلى ارتكاب الجريمة ، وماشابه ذلك والخ . ماذا
حل بهم ، هل أصابهم الجنون ؟

— هل أجيب الآن ؟

— لا ، انتظر ، لم أكمل بعد . . . أنا لا أفهم شيئاً واحداً يا أُنِّي ،
انني لا أفهم ، من أين ظهر الوشاة وتكاثروا ، ولماذا يريد المعجبون
بالماركيز دوسا تصديق الافتراءات والإشاعات المغرضة المختلفة !
وكيف يمكنهم تصويرك في دور المجرم ؟ أم أنهم يريدون ذلك ؟ لا ،
يا أُنِّي ، الإنسان ليس تاج الخلق والإبداع ، وليس فيه أي صوت أُنِّي .
ناهيك عن أي تشامخ أو تطوير ذاتي على طريقة تولستوي ! قل لي ،
لماذا يبقى الشر دون عقاب ؟

فقش فالتين بأصبعه ، ناظراً بتجهّم إلى مكان ما ، باتجاه رفوف
الكتب ، أما هو ، كريمةوف ، فقد لاذ بالصمت ، متوقفاً حديثاً
عسيراً مع ابنه العنيد ، مدركاً بوضوح أنه لن يستطيع أن يجيب فالتين
بعبارة أب حكيمة مجرّبة . لأنه لم يكن لديه جواب ذو بعد واحد ،
ذلك الجواب المأخوذ من الحقيقة المقدسة أو الفاسدة ، الذي يمكن أن
يضع ، مرة واحدة وإلى الأبد ، كل شيء مكانه ، حياته وحياة غيره ،
ويضع الحدود الثابتة بين نعم ولا ، وبعد ذلك ، يمكن لموقفه الشخصي
أن يفسر بدقة ، ومرة واحدة وإلى الأبد ، العالم كله ، الذي كان يصغر

لحده من حوله بطيش كبير ، ويضحك ، ويقتل ، ويشوه الطبيعة
وفق قوانين مضادة للطبيعة ، فرضها البعض .

— سأجيبك ، يا فالتين ، على قدر استطاعتي ، — قال كريم ف
أخيراً ، ودون أن يشعل سيجارته المدعركة ، رماها في صحن السيجارة ،
الموضوع على الطاولة الصغيرة . — في الحرب ، استشهدت خيرة أبناء
الشعب . ولم يبق حياً من أفضل أبناءه إلا القليل . أما الأطفال فلم يصبحوا
أفضل من آبائهم ، غير أنه لا يصبح إدانة جيل كامل ، كائناً من كان .
وربما لهذا السبب ، قليلون جداً من يخاطرون الآن بالارتداء بصدورهم
فوق فوهة المذفع ، مدافعين عن شرفهم وشرف غيرهم .

— بصدورهم فوق الفوهة ؟ — كرر فالتين وأخى رأسه . —
ما هذا يا أبي ، هل يعني ذلك سد فوهة الرشاش بصدورهم ؟

— أنا قصدت التشبيه ، — قال كريم ف مرتعياً لما لاح على وجه ابنه ،
عندما أخى رأسه . — أنا لا أتحدث عن تلك البطولة ، عندما يسدون
فوهة الرشاش بصدورهم ، رغم أنه تحدث في الحياة لحظات مجنونة .
أنا أتحدث عن شيء آخر . أدرك ، يا فالتين ، ان المدنية المعاصرة
قد قادت العالم إلى طريق كاذب . لقد اخترع الأذكىاء السيارات
والآليات ، بيد أن هذه التقنية لم تعثر على قادة أذكىاء ، ولم تخضع
للناس ، بل أخذت توجههم . لقد رفهتهم ، ونعمتهم ، وسلبتهم
قوة الروح . وبدلاً منها وضعت لهم في نفوسهم مسطرة حاسبة تنتجها
التقنية . . . في أواخر الخمسينات ظهر نوع جديد من المتكيفين مع
خيرات المدنية — الأخوة الميسورون في العالم كله . في الغرب يدعونهم

بالمثاليين . وهذا يمسنأ أيضاً . فنحن لسنا منفصلين بحدار اسمتي
ساح .

— وأنت يا أبي ، إلى من تنسب نفسك ؟ — سأل فالتين غير مصدق ،
ومن خلال لهجته القاسية ، أحس كريموف أن ابنه ليس متساعاً مع
أعدائه ، ولا مع أية تبريرات مخففة بسبب الظروف الناشئة . — أمل
ألا تكون اممثاليا ؟

— أنا إنسان فاسد ، يا فالتين . أنا مخرج ، أنقل مشاهد الحياة
إلى السينما ، وهنا يكمن شقائي ، — قال كريموف بابتسامة ساخرة
حزينة — حتى أنني أستطيع أن أرى جنازتي الشخصية عن بعد ، من
الجانب ، وأنقلها إلى مشهد . على أية حال ، أنا لست دقيقاً في كلامي .
على الأصح هكذا — الرغبة في معرفة ماذا يمكن أن يقدم هذا المشهد
الكريه للناس ، وماذا يمكن أن يأخذ منهم . لآتلمني يا بني ، على
عباراتي الفخمة الكبيرة ، بيد أنني في السنوات الأخيرة ، أفكر بمسألة :
أين يكمن سر الحياة وسر الموت ، ذلك السر الذي يفسر تصرفاتنا
وأعمالنا . ومن المفيد هنا ، على الأغلب ، أن يكون المرء محامياً أكثر
منه قاضياً . وهذا أمر لا يستطيع المرء تحقيقه دائماً . في القرن العشرين ،
الناس أصحاب الضمير ، ليسوا سعداء كثيراً ، بصورة عامة ، يا بني .
أما السعداء البائسون فهم أقلية . العالم كله صار ، أو يصير ، بائساً ،
تعبساً . أما أنا ، فأحاول أن أفهم : متى وأين انحرف الإنسان ، أو
ينحرف ، عن الطريق القويم . وأنا مع الآخرين . . .

— أبي ، أنت مثالي ! أما أنا ، فأريد أن أعرف ماهي السفالة ،
وماهي الأمانة ؟ — وهذا كل شيء — صاح فالتين ونهض مقطباً حاجبيه

بصورة فاترة -- في هذه الحالة ، من الذي دعا الخير خيراً ، والشر شراً ؟ وأين ذو طريق المدنية القويم يأتني ؟ إن التقية والعلم ليسا شراً أبداً بل هما خير ، كالماء الساخن ! أتعرف ماذا تحتاج البشرية من أجل خلاصها ؟ قل لي ! ربما حان وقت يوم الحساب ، وصاحب المعجزات التوراتي الثاني ؟

- أذنت من فعل جداً . . . وتكلم معي باستياء وامتناع . اجلس - قال كريموف ، وأخذ يابنه ، برقة من يده ، الذي حاول افلاتها ، وشده إلى الأسفل ، وأرغمه على الجلوس ثانية ، على السرير . - الحساب العسير ، أردت أن تقول ، وليس مجرد الحساب - صحح كريموف . - وماذا في الأمر ، بكل شيء ممكن ، وقد حان وقت محاسبة البشرية على جميع الشرور والسخافات . لكن هذا الحساب سيكون رهيباً - فالحساب الأخلاقي سوف يستبدلونه بحساب ذري . وسيحولون المحاكمة إلى إعدام شامل لجميع أبناء البشرية ، أما الأرض ، فسيحولونها إلى رماد . - وصمت متضيقاً ، من أن شيئاً ما ، قد منعه الآن ، من أن يكون مقنعاً مع فالنتين ، العنيد ، الذي لا يقبل الحلول الوسط . - ومع ذلك يابني ، عمة طريق أخلاقي ، رغم أنه ليس الطريق الوحيد . . .

- أي طريق ؟ الطريق القويم ؟ وما هو هذا الطريق ؟

- إنه طريق مستحيل . إنه المشاركة في المعاناة . أن يشعر المرء بالآلام الآخرين ويدركها . بيد أنه من أجل ذلك ، يجب أن يند في العالم آلاف من الدعاة الصبورين .

- أي ، هذه أقوال ، أقوال ، مجرد كلام . المشاركة في المعاناة أمر جيد ، فقط بين الناس الجيدين ، - قال فالنتين بصوت جهوري

منقطع ، - وكيف يمكن أن تقوم مشاركة في المعاناة والآلام مع السفلة والأوغاد ؟ أيضاً ، يمكن ؟

- ليس لدي جواباً دقيقاً . أريد أن أقول ، يا فاليا ، أن الأوغاد ، وغير الأوغاد ، مرتبطون بحبل واحد ، - قال كريموف ببطيء - . أي أن الإنسان الواحد متصل بالإنسان الآخر ، وبجميع الكائنات الحية على الأرض ، وهذه تشبه الشبكة الواحدة . والتخلص منها مستحيل خالِباً .

- إذن ، فالجرم والضحية - كلاهما مذنبان ، طالما أنهما في شبكة واحدة . - ضحكك فالتيت ضحكة بشعة ، وكان في ضحكته تمرد ، واعتراض ، وعصبية ، وارتباك وحيرة لاتميز الابن - إذن ، كلاهما مجرمان .

أجاب كريموف بهجاء :

- في حال موافقة الضحية على أن يغدو ضحية .

- وأنت ، ألم تعتبر نفسك أبداً ضحية ؟ ولا مرة في حياتك ؟
انت كنت تنتصر دوماً ؟

- لا أستطيع إجابتك على كل شيء . غالباً ، كانوا ينتصرون علي .

- أنا لا أتحدث عن هذا .

- وأنا لا أتحدث عنه . بيد أنني فهمتكم كما يجب . في الحرب ، كنت أندesh من أن كثيراً من الناس محكوم عليهم ، دون صراع ،

وبدون المقاومة الأخيرة ، كانوا يسمحون بإطلاق النار عليهم في معسكرات الاعتقال الألمانية . صدقي ، يا فاليا ، في الاستطلاع ، كنت أعرف خطوطي الأخيرة ، حتى إذا ما استهلكت آخر طلقة في مسدسي .

— أنت تريد الحديث عن الكراهية والاحتقار ؟

— لا ، هذا ليس مخرجاً . ثمة شيء أعلى .

— وما هو ؟

— انعدام الخوف . أن يتوقف المرء عن الخوف على نفسه — هذا أعلى من الكراهية . كان في الحرب هذا مكنأً أحياناً . انه شيء نادر ، ولكنه حدث .

— وهل أنت لا تخاف أبداً من أي شيء ؟

— أخاف . — ولمس كريموف ركلة ابنه الرفيعة . — أخاف أن أفقدكم : أمك ، تانيا ، أنت . اذن ، أنا ضعيف .

— أفي . . . — قال فالنتين بصوت متقطع عريض ، وأشاح بوجهه عن أبيه بسرعة ، ثم تابع حديثه : — إذا كنت ترى هذا الرأي في نفسك ، فما هو رأيك بي ؟

— ليس عندي رأياً سيئاً نحوك .

— وهل كنت تأخذني معك صديقاً في الحرب ، — قال فالنتين متحدياً . — أنت ، غالباً ، تحتقرنا نحن جميعاً ، أبناء العشرين عاماً ، الذين لا يعرفون شيئاً .

- لا ، كنت أخذتاك معي صديقاً . ونحن ، أنا وأنت ، أصدقاء .
- غير صحيح . لا يمكن أن تقوم صداقة بين الأب والابن .
- غالباً ، أنت مخطيء .

هاهو ذا يجلس إلى جانبه على السرير ، ابنه - العنيد ، المناقش ، المحاجج ، الذكي ، الساذج ، ابنه . خليفته المذكور على الأرض ، لا يشبه أباه ، وهو في الحادي والعشرين ، لا بحركاته ، ولا بشيء من طباعه ، لا يشبه ذلك الملازم الباسل ، قائد فصيلة استطلاع الفوج ، باستقلالية فطرته الساخرة ، باستعداده الفوري للعمل والمخاطرة ، الذي وثق فوراً بخاوده في الحرب . فما الذي دفعه إلى هذا النضوج المبكر ، إلى هذه المخاطرة ، إلى تلك الثقة بالنفس - هل هو الخطر المميت المحدق فوق رأسه ؟ هل هي اللجة السحيقة بين الوجود واللاوجود ؟ وما الذي جعل ابنه وهؤلاء الشباب ، الذين يعرفون الكثير ، والذين قرأوا الكثير ، الشباب المثقفون ، الذين اطلعوا مبكراً على المنطق الصوري واللامنتطقية - أطفالاً ضعفاء عاجزين ، هل هو الرفاه الهادئ ، والنعموة الفرطة في الوسط العائلي - وعناية الوالدين المفرطة بأبنائهم ؟ أم لإنعدام الاستقلالية ؟ طبعاً . كان من الممكن تفسير كل شيء ، كما يجري غالباً في الحياة ، من أجل تبرير الرأي المطمئن والمناسب للناس في اللحظة الآتية . بيد أن أي تفسير لم يكن ليغير شيئاً في الجليل نفسه ، الخاضع لحتمية الزمن المعدية ، الذي لم يعيه أحد من المعاصرين بشكل كامل . وهو ، أي الزمن ، قد تشكل ن زوايا حادة ومنفرجة ، من الأشياء غير اللازمة ، من الأموال الفائضة والفاقة ، من التقلبات والتصاميم الشرقية والغربية غير المطابقة . حيث كان يبرز في أحيان كثيرة حساب مقتبس .

مستعار ، حتى في الحب ، في دعوة الضيوف ، حيث كانت البرودة المضرمة بصورة مصطنعة ، تزيد أكثر من الاغتراب ، وهذا ما لم يحدث أبداً في المرحلة السعيدة ، أثناء الحرب وبعدها ، من عمر كريموف ، في سن الشباب ، في مرحلة الخطر والفقر والآمال . وأحس كريموف بوضع ابنه الصعب في المعهد ، الناشئ ، كما يبدو ، من «جديته المفرطة في تعامله مع الآخرين ، ومن الأحداث غير السارة المرتبطة به ، بكريموف.

... أرى أنك تخطيء يا بني ، -- قال كريموف بأكبر قدر ممكن من الهدوء . -- وأنا مسرور ، لأن صداقتك معي . . .

— غير صحيح ، -- قاطعه فالتين ، وقد قطب وجهه . -- مستحيل . الأب هو الأب . وأنا لا يمكنني أن أقول لك ما أقوله لصديقي .

.. وليس لديك صديقاً ؟

— صديقاً حقيقياً ، لم يكن لدي أبداً . والآن ، ليس لدي أصدقاء حقيقيين . هناك مشاركون في السهرات وحفلات الرقص . انني أحسبك لوجود صديق عندك مثل ستيشوف . فهو ، غالباً ، لا يخون .

.. غالباً فقط ؟

وأجاب فالتين ببرودة واقناع :

— أبي ، أنا أعرف ، أن الأصدقاء هم أول من يخون ، مثلهم مثل الزوجات .

« لم أفكر أبداً سابقاً ، أن ابني وحيد » .

— الزوجات ؟ لماذا الزوجات ؟

اعتدل فالتين في جلسته ، وارتسم التجعيد العرضاني بصورة أكثر
حدة بين حاجبيه المستقيمين الداكنين - وهي السمة الربانية للإنسان
الذكي ، كما جدد كريموف في نفسه هذا التجعيد . بيد أن وجه الابن ،
عبر على الفور عن دهشة متساعمة ، وتردد صوته بحموية أكثر ، وكأن
الحديث كان يدور حول طيش آني .

- تلك هي طبيعة النساء يا أي .

تنفس كريموف بارتباك وحيرة .

- عفواً ، يا فاليا ، ولكن لديك خطيبة . ان عبارتك الغنائية هذه
لا تنسجم مع واقعك . وهل تخاصمتما ؟
- لم نفكر بذلك .

- هل يمكنني الافتراض بأنك تحب لودميلا ؟

- آه ، يا أي ، لو أنني أعرف ماهو الحب - ألقى فالتين رأسه
إلى الوراء ، وقال بتأكيد ساخر غير مألوف منه : - لا أستطيع أن
أحدثك بصراحة . أشعر بشيء من الحرج . . . سأزوجها . ان لودميلا
حامل ، وسأزوجها . . . ألسنت مضطرباً جداً من طيشي ورعوني ؟
ضحك فالتين من جديد ضحكة رديئة ، وفكر كريموف ، أن
ضحكته وسؤاله حول الطيش - أن هذا كله غريب ، فليس هذا
جوهره ، إنما هو عبء ، وضعف في دفاعه الواضح الذي لجأ إليه
في محاولته تأكيد ذاته أمام أبيه

- ليس كبيراً ، - قال كريموف كاذباً ، وأضاف مشاركاً

بصورة موعظة : - كل شيء يمكن اعتباره طبيعياً . بيد أنه لا داعي لتخبر أمك بذلك ، قبل الوقت المناسب .

-- إن أمي تستوعب أشياء كثيرة بصورة مأساوية مفرطة . ولكن ، لا بأس ، سوف نتمكن الآن عند لودميلا . وسوف أعمل خارج أوقات الدوام . وبعد عامين سأخرج من المعهد . وسوف أصور فيلماً من الأفلام . . . سنعيش في حب ووافق . هكذا !

ارتعش وجهه بصورة قبيحة ، واستعد من جديد لضحكته الدفاعية .
بيد أن كريموف طلب منه ، بصوت خافت :

- لا حاجة للضحك على هذا النحو ، يابني . أنا معك ، في متاريسك أجبني من فضلك ، يا فالتين : هل تحب لودميلا ؟

- لا أعرف ، يألبي . كان بودي جداً ، كان بودي جداً ، ولكن ماذا أعمل . . . أنا أعرف : أنني سأحبها عندما يولد الطفل . ولكن لو كنت مكانني ، كيف تصرف ؟ كيف كنت أنت . . . أنت بالذات ؟

اندفع فالتين: بضعف ، بكامل جسمه إلى الأمام ، مشبكاً يديه الكبيرتين بين ركبتيه ، مفرقشاً بأصابعه ، فاقداً بصورة نهائية ، ثقته المشيعة بنفسه ، ولاحظ كريموف بشفقة مريرة ، أن ابنه الجدي ، خليفته على الأرض ، وأمله الأخير ، لم يخاطر ، ولم يتمتع بالحرأة على التغفل إلى ذاته ومعرفة نفسه ، في العشرين من عمره ، حيث يصدق الشباب عواطفهم ومشاعرهم الأولى . دون تأملات طويلة . « وهل يحق لي أن أسأل . كيف حدث ذلك بينهما ؟ »

— في مثل هذه الأمور ، لا مجال لإسداء النصيحة ، يا فاليا ، —
قال كريموف مراوفاً ، متملصاً ، وعانق ابنه من كتفه .

— فمن ، من أذن ، يمكنه أن ينصحنى غيرك ؟ — قال فالتين ،
وسمِع في صوته وتر مشدود . كنت تنصحنى أنت ، عندما انتسبت
إلى معهد السينما . أردت لي أن أنتسب إلى كلية التصوير ، وانتسبت . . .

وحرك بشيء من الحرج ، كتفه ، متخلصاً من يدي أبيه ، وأحس
أبوه بالرائحة الذكية الصحية لجسد ابنه الفتي ، الذي تشرب حرارة
الشمس على الشاطئ ، وهذا الإحساس الجسدي القريب ، القوي ،
وهذه الحيرة العارية التي تجلت على فالتين ، قد طعنا كريموف بأسف
قابض : لا ، كان بإمكانه أن يعرف ابنه ، لكنه لم يكن يعرفه تقريباً .

— مهما كانت النصيحة التي سأسديها لك ، عليك أن تتخذ القرار
بنفسك ، برجولة — كرر كريموف بصلاية ، — تصور ، لو أن عسكرياً
من سلاح الهندسة ، في الحرب ، أخطأ مرة واحدة في حقل ألغام .
تميل جداً من عدم الدقة في التعامل مع آلية الالغام وتكون المصيبة ، ولا
يذكره أحد . الزواج والطلاق — ليسا مسألة موت وحياة ، لكنهما
قد يسببان جرحاً دائماً مميّناً .

— وكيف حدث بينك وبين أمي ؟ كيف حدث ذلك لك ؟ —
سأل فالتين باصرار . — أنت لم تشك في أي شيء ؟ .

— أبدأ ، لم أشك في أي شيء . — أجاب كريموف . — عندما
رأيتها للمرة الأولى ، أصابني مس من الجنون . شيء شبيه بالمخدّر . . .
لا تبتسم ، يابني ، هكذا كان فعلاً .

— أبي ، ان جيلكم كان جيلاً سعيداً . كنتم تعرفون ماذا تريدون . — وتحرك فالتين باضطراب . — أبي ، ليس من أجل هذا الغرض جئت عندك ، علماً ، ليس طلباً للنصيحة . أنا سأندبر أموري بنفسي ، بشكل من الأشكال . . .

— هكذا سيكون أفضل يا فاليا . وهل تعرف يا فاليا ، أن ذلك المخدر لم يفارقني حتى الآن

* * *

المفصل السابع عشر

في صباح عيد رأس السنة ، آنذاك ، كانا آخر من خرج إلى الطنف في الصقيع القاسي للثمناء المغطى بالثلج في منطقة زامسكفورييتسك . وكان هواء كانون الصقيعي يتورد حول أشجار الزيزفون المغطاة بالصقيع .

كان كريموف يقف في الأسفل ، عند الطنف ، وفي يأس مداعب ، مد لها يده ، مساعداً إياها على النزول ، وقال بشيء من الوقاحة المشجعة :
— تمسكي بقوة ، ياسيدة قلبي ، وكل شيء سيكون على مايرام ، إذا لم أقتل في مبارزة .

ضغطت أولغا بكل قوتها على يده ، لكنها لم تنزل على الدرجات إلى أن خفتت في الثناء الأصوات المبتعدة ، والضحك ، وصرير الثلج خلف البوابة . وبعد أن رفعت رأسها نظرت إليه ، واستدار حاجبها السوداوان ، كلون الفحم ، الدقيقان بصورة مدهشة .

— ماذا تعني ؟ « كل شيء سيكون على مايرام » ؟ وما هذه اللغة ، لغة الفرسان المبتدلة « ياسيدة قلبي » ؟ أعتقد ، أنك حفظت روايات والتر سكوت عن ظهر قلب !

— يا للشيطان ! ، انك فعلاً سيدة قلبي .

طيلة الأمسية . لم يستطع أن يفهم ما الذي كان يجذبه ، بصورة
لاتقاوم ، إلى وجهها ، والآن فقط ، في ضوء الصباح الجلي الزجاجي ،
رأى بصورة صاعقة : كانت عيناها وديعتين مخمليتين ، في طرفهما
حوّل خفيف ، وكانت شفتاها ممتلئتين قليلاً ، مستعدتين للفرحة
والمسرة

خلف المائدة ، كانت تجلس قبالتها ، وكانت تشرب النبيذ بمحركات
صغيرة ، وتمسك القدح بحياء ، سأله مرة بصوت سلس : « لاتبدو
عليك أمارات المرح — هل تشعر بالملل هنا ؟ » ، وفي محاولته التغلب
على ارتباكها ، تتمم بفكاهة طلابية : « لقد مرضت جدتي بالحصبة —
وأراد أن يكسب الحديث الذي بدأه خفة طبيعية ، غير متكلفة . بيد
أنه استدار ، مصادفة . ورأى في المرأة وجهاً أحمر ، متوتراً ، ولم
يعرف نفسه مباشرة ، مذهولاً من عجزه الجاهل على متابعة حديث
المائدة في جماعة مدنية ، غير عسكرية . وهنا غضب كرموف من
عدم لباقتة ، وشرب من اليأس أكثر مما يجب ، وبعد أن أثارته موجة
من الصداغ ، شرع يحدث ويروي النكات والفكاهات دون خجل ،
والنطق بالأنخاب ، قائلاً على الطاولة القدح بذيل سترته التي اشتراها ،
منذ أمد قصير ، بدلاً من السترة العسكرية الخارجية . أما هي ، فقد
أخلتها الدهشة وذرت الملح على السمات ، وقالت بمرح أن عيد رأس
السنة يشبه عيد ديونيس الاغريقي القديم ، وأن إراقة النبيذ من الطقوس
التقليدية المقدسة .

في الساعة الثانية عشر ليلاً تماماً ، صرخ على طريقة الجنود «أورا» ،
تحت فرقعات أغشية زجاجات الشمبانيا ، وبعد ذلك ، وفي حمية مشاعر

العيد ، بدأ يدور على الحضور مقبلاً ومهتماً كل واحد بعبارات التهاني التقليدية ، ثم توقف بالقرب منها ، وضاح بعزم جريء صيحة « غورك ! » * الداعية إلى التقبيل - وفي بهلوانية جسورة قبلها مرتين ، أما هي ، فلم تلحق أن نشوب إلى رشدها ، وأن تعترض ، وقالت هامة :

— ماهذه « غورك ! » ؟ هل فقدت عقلك ! — وأضافت وهي تضعحك ، وقد احمر وجهها : — ياله من غريب الأطوار !

وعندما أبعدت المائدة ، وبدأ زحام الرقص ، جلس على الديوان ، في ظل غطاء المصباح القرمزي ، ودخن سيجارة ، وقد تعرق من الاضطراب ، ورأى كيف يقترب منها شاب مهممل ، مهلهل الثياب ، مشعث الشعر ، ذو وجه مخمور ، ويدعوها للرقص ، غير أنها ألقت عليه نظرة سريعة ، وهزت رأسها سلباً . « برافو ! — قال في نفسه — ولكن الق علي نظرة ، ولو لثانية واحدة ، أنا لست سيئاً إلى هذه الدرجة ، أقسم بشرفي » . في اللحظة ذاتها ، ناداها أحدهم ، فمرت أمام الديوان ، حيث كان يدخن جالساً ، فذهبت عليه بالهواء وبرائحة ثوبها . ومن المفترض أنها أحست بنظراته التي رافقتها ، وقد ارتجى بهاء ، لأنها التفتت إلى الوراء ، ووجهت نحوه نظرة متسائلة وهزت كتفها .

كان كريموف شاباً ذا هيئة عادية ، لهذا كثيراً ما كان يعاني من غيرة مرضية ، وهو يتأمل النساء الجميلات ، اللواتي يلتقيهن في الشارع

* « غورك » صرخة يطلقها الضيوف في العرس ، تعني حرفياً « مرة ! » وتدعو المروسين لتبادل القبلات — المترجم —

أو ضمن جماعة ما ، وعندما كان يجد في مظهرهن الخارجي عيباً من العيوب (أنف طويل قليلاً ، أرداف عريضة جداً ، أرجل غير مستقيمة تماماً) ، كان يفكر بسخرية مطمئنة : « اذن ، ليس هناك نموذجاً للجمال والروعة ، حتى بينهن » . لكنه في تلك الأثناء ، كان طيلة الليل لا يستطيع التعرف على نفسه ، مأخوذاً بوقاحة المازح ، وجرأة اليأس ، خائفاً للحظات ، من ألا يزول الضباب قريباً ، وتتجلى عيوبها على الفور ، ويغدو كل شيء واضحاً .

نزلا من الطنف ، عندما خفت الضحك وصرير الثلج والأصوات خلف البوابة ، وفرغ الفناء من الناس . وقفوا ، كلاهما ، متوردين في الفجر الكانوني ، لا يدركان ماذا حصل ، كان يحيط بهما الصباح الشتوي القارس ، وفراغ السماء بهلاها الياهت ، والبخار الجليدي ، والكثبان الثلجية في منطقة زاموسكفوريثشي — هل من المعقول أن يكون قد انتهى المخدر الليلي ، والهرج المرح في هذا البيت الخشبي المريح ، وعليه الآن العودة إلى مسكنه الجامعي ، وعليها العودة إلى بيتها ، الواقع في مكان ما ، في أوستوجينكا ؟

— لقد تفوهت بسخافة من السخافات ، — قالت أولغا — ألم تلاحظ ؟

— صحيح تماماً . هذا يحدث عندي ، في أحيان كثيرة .

كانت أصابعها تتحرك بانتظار في يده ، أما عيناهما الحولوان ، فقد مستأ حدقتيه بابتسامة .

— عام سعيد ! وأين زميلك الذي كان يحمل الحاكي ؟ أتذكر كيف كان كل شيء مضحكاً وغريباً ؟

— لقد رأيتك هنا ، في الفناء ، — أجاب كريموف ، وهو بالكاد يسمع صوتها ، وسبح في العمق الداكن لعينيها المخمليتين ، متذكراً كيف اندفع وصديقه إلى المدخل الصغير ، ضاحكين ، متفوضين ، مدخلين زمهرير المساء الموسكوفي الثلجي إلى الدفء . أما هي ، التي التفتت صدفه في الفناء ، فقد كانت منتعشة أيضاً ، وخلعت جزمتها قرب مشجب الثياب ، وحدثت أحد الحضور : « أنظر ، فأرى شخصين يحومان حول العنابر ، يمسك أحدهما بيد الآخر . أسألهما : إلى أين ؟ فيجيبان ، مارقم البناء الذي نحن فيه ؟ لقد ضل البائسان طريقهما . ها قد أحضرت لكم ضيوفاً ! » . أما صديقه ، طالب الدراسات العليا في معهد التعدين ، فهو شاب رائع ، يتقن الاهتمام بالنساء ومداعبتهن ، وقد ارتقى أمامها على ركبة واحدة بفطنة وشجاعة ، وهو يقول « يامنقدتنا » ، وساعدها بمهارة على خلع جزمتها ، على طريقة الفرسان ، وهذا ما أضحكها .

— كل شيء كان مضحكاً — ، كررت أولغا ، دون أن تبعد عينها عن حديثه ، وخلصت يدها بهدوء .

— أنت ثمل قليلاً ، لكنك ، هل تذكر على الأقل ، ما قلته آنذاك في المدخل ؟

— على الأغلب . . . — أجاب كريموف ، عاجزاً ، كما في السابق عن إدراك ما تسأله عنه بشكل دقيق . . . — كنت أهذي على ما يبدو . . .

— لقد قلت آنذاك : « الشيطان يعرف ماذا هنا ، الشيطان نفسه يكسر رجله في هذه الأحواش ، المليئة بالكثبان الثلجية ! ها قد التقى أحمقان وفتاة جميلة ، طائر السعادة ، حتى أنهما لم يتعارفا عليها ! » .

— هل قلت أنا هكذا ؟

— بل وأضفت أيضاً : « لقد جلبنا معنا الموسيقى . جهاز حاكمي واحد لجماعتين » .

— أوه ، يالي من غبي مريع ! أبله عبيط ! . حمار بهم !

— ماذا تقول ، على العكس ، كان جيداً : لقد قلت هذا من الارتباك — اعترضت أولغا ونظرت إلى الفناء ، حيث كانا يقفان وحيدين بين ركام الثلج الكبيرة ، التي كانت ترقد عليها بقع حمراء . — أعتقد أن علينا أن نتحرك . . .

— أألسنت أبلهاً حقاً ! — قال كريموف ، مغمضاً عينيه ، وتصور الأمسية كلها ، وتصور نفسه ، وقد حلت عقدة لسانه ، لاذعاً ، وانثماً من نفسه ، وغمره الحياء والحجل : ذلك أنها كانت تستمع إلى سخريته غير المحتملة . (« أتريدون شمبانيا ؟ » كان يسير حول الطاولة ، حاملاً زجاجة الشمبانيا وهو يقول : « هل تريدون أم لا تريدون ؟ » كانوا ينظرون إليه متوقعين المقلب أو الفكاهة ، ولكن لم يكن هناك مقاب ولا فكاهة . « ماذا تريدون أن تقولي بذلك ؟ » — « وأنت ماذا تريد ؟ ») « ماذا أصابني ؟ وكأني في حالة هذيان ، وكأني شربت سمّاً حلو المذاق ، أردت أن أحوز على إعجابها ، بيد أن لولباً ما في داخلي قد انكسر » .

— كنت ثملاً ، — قال كريموف ، شاعراً بذنبه . وكان عليك أن تكرهيني . . .

— عم تتحدث ؟ — ذهلت أولغا . — هل يعجبك الثلج ؟ الثلج المتساقط عشية السنة الجديدة ؟

— أنا لا أفهم . . . — تتم كريموف .

— وما الذي يحتاج إلى فهم هنا ؟ الثلج يتساقط ، المصابيح متوقدة ، وأنتما حول الأحواش ، تسيران يمنة ويسرة ، ومعكما الحاكي ، وفجأة تلتقيان طائر الأحلام — أعتقد أن هذا يجد ذاته طريف ! لم تكن بعد ثملاً آنذاك . كانت عشية رأس السنة . أما الآن ، فقد أصبحنا آخريين . لقد زاد عمرنا عاماً جديداً ، هذا كل شيء . أوصلي إلى موقف الباص . أما طائر الأحلام فلم تمسك به . . .

ربت بيدها على كم معطفه العسكري بهدوء وود ، واتجهت نحو البوابة على الطريق المغطى بالصقيع ، وتموجت قليلاً خاشية الفراء لمعطفها الضيق ذي الحرملة فوق جزمته . واندفع هو خلفها ببلادة وغباء . « الله أرسل للغراب قطعة جبن . . . » أمثلة كريموف هذه ، كانت تدور في رأسه وتقرعه بمطارق غامضة ، عند مرأى حركة معطفها الرشيق المترنّة ، حتى أنه لم يصدق صفاقة نكاته وفكاهاته الوقحة السابقة وصراخه الماجن « غورك ! » وتلك القبلية التي كررها مرتين على وجنتها ، والتي أثارت خوفها (عضت على شفتها من الألم حتماً) . « وهذا أنا ، العسكري الوقح ، دخلت إلى حديقة الجنة بسحنة شجرة بلوط ! قه ، قه ، يالي من فارس ! . . . »

— شكراً . هنا سأركب الباص بنفسي . أما بالنسبة لك ، فستأخذ عربة الترام ، كما أعتقد . هناك ، أترى الموقف ؟ كم أنا سعيدة الحظ — الباص قادم ! . . . يا لهذا الصباح ، إنه صباح رائع ! أكبر الظن أن مثل هذا البرد الشديد لم يحدث منذ القرن السابع عشر . أتتصور ، بيوت ومنازل منقوشة ، الدخان يتصاعد من المداخن ، النوافذ منارة من

زواياها في الفجر ، والغربان تحوم فوق قباب الكنائس ، كما هو
الآن ، يا للروعة !

— الآن ؟ . . . أنت الآن سترحلين بالباص ؟

أما في الشارع ، الحالي من أي عابر سبيل ، الهادىء ، الذي اجتاحه
عيد رأس السنة ، فقد همد الصباح في البخار المتجمد ، في الندى المثلج
الكبير ، الموبر على الأسلاك ، في العتمة الليلكية للكوى المغطاة بالثلج ،
وفوق القبة المتوردة كالتوت ، للكنيسة شبه المخربة ، كان يتعلق هلال ،
كالأسطوانة الشفافة ، ويدوب ، وهناك كانت الغربان تتمايل بفوضى
وسواد وقلق ، وكانت ترقزق بصوت عال في الهواء الدافىء ، وكان
صوت الأسى القديم هذا يمزق له روحه .

— اهديني بريق عينيك الرائعتين ، في لحظة الوداع ، علينا أن
نفترق ، نحن سنرحل الآن إلى الغرب . . . — أنشد كريموف بعث
وغفلة ، وأزاح قبعته العسكرية إلى نقرته ، وكأنه أراد أن يقوم بنزوة
شاب ريفي ، مرحة ، وبعد أن خلع قفازه ، مد لها يده . — اعطني
كفك ، هيا ، هذا باصك ! إلى اللقاء ، حان وقت الفراق ! (« ماذا
أقول ! هذيان ! جنون ! ثمة خجل في عقلي ! ») اهديني ، في لحظة
الوداع . . . — أنشد من جديد ، بصورة مزيفة ، في يأس الحجل ،
لأنها لم تمد له يدها ، عاضة شفتها السفلى بأسنان نظيفة آسرة . — اهديني
في لحظة : : :

— تفضل ، سأهديك ، ولكن كفى ، توقف — قاطعته أولغا ،
مطوقة وجهه المنتعش السخيف بعينين مرفوعتين ، مشبعتين بالشفقة
المزدرية . — واذهب ، اذهب بسرعة ، أيها الشقي ! . . . — أكملت

حديثها وأدارت له ظهرها ، ثم نزلت بسرعة من الرصيف إلى حافة الطريق في مواجهة الباص ذي النوافذ الزجاجية المغطاة بالندى الثلجي الأبيض ، الذي كان يقرقع على الجليد بعجلاته .

— توقفي ! — صاح ، وانقطع الصوت في حنجرتة فاختنق ، بيد أنه سرعان ما قفز اثرها إلى الباب الذي انفتح بقرقرة للباص البارد الخالي من الركاب تقريباً (ثلاثة ركاب كانوا جالسين كالقنافذ ، شبه نائمين ، على مقاعد متباعدة) ، وأخرج من جيب معطفه العسكري قطعة نقدية صغيرة وركض نحو الحاي المتدثر بمعطف سميك من الفرو . — بطاقتان ! واحدة منهما للذكرى ! — قال كريموف بحماسة مفرطة ، ومال نحوها ، حيث جلست على مقعد جانبي ذي تنجيد صرار ، وقال بدقة ، وجراءة ، وثقة بالنفس : — إذا لم تعطني رقم هاتفك فسأقبلك من جديد . . . على مرأى من الجميع ! هنا . أتعرفين ، إنك ترتكبين جريمة بحقني ! إذا لم أراك . . .

— اخرج ، اخرج ، يالك من مهرج بائس . . . — قالت أولغا بتقزز ، ومالت على الزجاج المغطى بالصقيع ، وضحكت ضحكة غير طبيعية . — ماذا تفعل ؟ ماهذه المصيبة التي ألمت بي . . .

— أرجوك رقم الهاتف ! — صرخ متوسلاً ، دون أن يعير اهتماماً إلى ذهول الركاب الشاخصين إليه ، وكأنه التقط صوتهما من بين الضباب ، فقفز من الباص ، ضارباً كتفيه بفتحتي الباب المغلق . — أظن أنها قالت رقماً أم خيل لي ذلك . . . يجب تسجيله ، يجب تسجيله ، — تتمم بجنون ، واضعاً بطاقة الباص على عمود المصباح الكهربائي ، وبقراضة قلم رصاص سجل الرقم . — أم خيل لي ذلك ؟

وقف وحيداً على الرصيف ، ناظراً ببلادة إلى دخان الباص ، المة
بين الثلج . وخنق الهواء الصقيعي تنفسه .

استمر عذاب كريموف المتواصل أسبوعاً كاملاً ، وحاول
يفهم ، دون جدوى ، ما الذي يحدث له ، غير مدرك بوضوح ا
التي تدور من حوله : فكانت تظهر وتختفي بالقرب منه الوجوه الم
وغير المألوفة ، وكانت تمر كالظلال صور الأساتذة في القاعة
وتصل إليه من مكان ناء بعيد أصوات الطلاب وصفير عربات التر
وصوت اسمه ، وكان يطوقه أحياناً السكون البارد للقاعات ، -
كانت تنسكب أشعة الشمس الشتوية بصورة مائلة ، وتنعكس
الطاولات والمقاعد ، ثم بدلاً من تناول طعام الغداء كانت الفو
في المطاعم الشعبية الرخيصة تحرق أحشاءه ، وأخيراً كانت تشعل الأ
وتظهر النوافذ بستائر المسدلة ، والبوابات ، وأجساد تماثيل الأ
المائلة ، الحاملة للشرفات ذات القضبان الحديدية الصب فوق مد
أوستوجينكا القديمة . في هذه المنطقة ، كان يسير ساعات طويلا
وينظر طويلاً إلى أرقام الشقق السكنية ، ويصعد إلى الطوابق ، وي
دون كلل أو ملل أمام ردهات الأدراج ، وفي الزوايا ، ومقابل الأقو
داخل الأفنية ، أملاً أن يلتقيها ، كان ينتظر بصبر وعناد ، وبعا
يرتجف ويقشعر نهائياً من البرد في ليالي العواصف ، كان يعود
سكنه الجامعي في الأزقة الحالية من المارة ، رافعاً قبة معطفه العسكر
الذي لا يجلب الدفء ، فوق رقبتة ، متنفساً بأنفه هواء رطباً ،
عاصفاً . « سوف أعثر عليها ، سوف أجدها » — لم يكن يفارقه .
تلك الأمسية . وصباح العام الجديد ذاك ، كان يحرقه بالعار والحج
وفي الوقت نفسه ، كان يسيطر عليه مثل مرض لذيذ غير قابل للشف

يقرب إليه في هذيانه المرغوب صوتها الناعم المنسجم ، ونظرتها اللطيفة الحولاء قليلاً ، ومعطفها ذا الطرحة ، المتموج فوق جزمها . وكان يلاحقه ذلك النغم المسيطر ، المتكرر بلانهاية في تلك الليلة ، من أغنية « اهديني في لحظة الوداع . . . » ، والأزيز المتكرر لأسطوانة الحاكي ، وصوته المزيف ، الذي ردد هذا اللحن أمام موقف الباص . بيد أنه كان يراها غالباً ، وهي جالسة على مقعد جانبي ، مخنية الحاجبين ، وقد أنارتها بصورة متوردة ، أشعة الشمس الصباحية ، المارة عبر الزجاج المتجمد ، وكان همسها العدائي يمر عبر جسده كالتيار الكهربائي : « ارحل ، اخرج ، يالك من مهرج بائس . . . » .

فيما بعد ، لم يستطع أن يفسر ، بصورة منطقية ودقيقة ، بأية قوة إرادة ، وبأي ولع كبير ، وبأية تراكيب مخترعة لأرقام الهاتف (فالرقم الذي سجله على بطاقة الباص لم يكن يجب) ، وبأية دراسة يومية مسائية للبوابات والمداخل في حي أستوجينكا ، استطاع العثور عليها في نهاية الأمر . وكان من المستحيل أيضاً تفسير سبب موافقتها على الذهاب معه ، ليحلا ضيفين على بيت صديقه ، طالب الدراسات العليا في معهد التعدين ، الذي سافر بمهمة .

أما المسكن المتواضع لصديقه ، بالقرب من تاغانكا (غرفة ومطبخ) فقد كان في تلك الأمسية مملكة خيالية للسكينة والخير الذي لا مثيل له ، الخير الصاعق المذهل لأنها كانت إلى جانبه ، حيث كانت تمس المدفأة الحامية ، وتتأمل خزائن الكتب والمرأة العتيقة ، — وشعر كريموف من جديد بموجة المخدير السام الحارة ، رغم أنه لم يشرب نقطة واحدة من المشروب ، وشعر أنه سوف يجن ، وسوف يبدأ الآن بالكلام

القارص وسرد النكات والفكاهات دون تمييز - وهل من المعقول أن يتكرر ذلك من جديد ؟

وصفّر ساخرآ من نفسه ، واستلقى على الديوان ، ووضع يديه تحت رأسه ، وأخذ ينظر بخضوع إليها ، كأنه طفل ، مفتون اللب والفؤاد .

كانت تجلس على الأريكة ، وتنظر متأملة بعينيها الداكنتين النقيتين ، أما هو فقد كان غارقآ في سكينه عزلاء ، لا يستطيع أن يتصور ، كيف تجرأ على تقييلها آنذاك في عيد رأس السنة ، ثم قول الترهات المختلفة بعد ذلك .

— أولا ، — ناداها هامسآ . — هل تريدن أن أموت ؟

— اسمع . . . أظن أنك الآن لست مخمورآ ؟

— لست واثقآ . أولا ، سوف أموت ، إما بسبب غبائي . . . أو لأنني لا أعرف مايجري لي . . . اجلسي إلى جانبي على الديوان ؛ لا تخافي ، أرجوك .

جلست إلى جانبه على الديوان . ومن جديد ، كما في ليلة رأس السنة ، كان وجهه يفوح بهواء عليل بسبب حركتها .

— دليني ، — طلب منها ، وأغمض عينيه .

— ماذا ؟

— دليني ، امسحي بيدك على رأسي .

وأخذ يدها ، متذكراً الملمس المنتظر لهذه الأصابع الخفيفة قبل

ثلاثة أيام في فناء منطقة زاموسكفوريثسك ، وأمرَّ بها على جبينه ، على شعره ، ووضع رأسه على ركبتيها ، ومسح وجنته ، وقد شعر برائحة الصوف في تنورتها القماشية ، وبدفء ركبتيها المتلاصقتين ، الأنثويتين المستديرتين ، وكانتا مرعبتين له بسبب قربهما منه ، لدرجة أنه قال بهمس متلاش :

- أولا ، ان رأسي يدور ، وكأنني على حافة الهاوية .
- أي عقوبة لي هذه ! أنت ضابط ، وتحمل خمس ميداليات ، في حين أنك مثل الصبي . . .
- أولا . . . أتريدن ، سأموت أمام عينيك ؟
- ماذا تفعل ؟ لماذا ؟ — قالت أولا ، وقومت ظهرها ، ناظرة إلى النافذة بعصبية . — لماذا ؟ ماهذه المصيبة . . .
- أما هو فقد صمت ، وهو يمسح وجنته بالدفء الصوفي لتنورتها ، وبركبتها .

خلف نافذة المملكة الهادئة لهذه الغرفة في حي تاغانكا ، كان الغسق الشتوي يزداد زرقة ، وأضيئت الأنوار الأولى ، وكان الثلج الكثيف البطيء يتساقط ويتساقط دون انقطاع . وكان يمر تحت المصابيح الضبابية في فترات متباعدة الترولي باص ، الهاديء ، رامياً شرارات بنفسجية من أسلاكه ، وعلى الجسر البعيد كانت تزحف ببطء عربات الترام المنارة مساء ، وكان رنينها لا يكاد يصل إلى الآذان عبر ستار الثلج المتساقط ببطء ورتابة .

ثم طرق الباب ، على سبيل الاستئذان ، ودخل صديقه ، وقد

ارتدى جزمته ومعطفه ، حاملاً حقيبته التي رتبها ، كما يبدو ، في المطبخ (كي لا يزعجهما) ، ودون أن يشعل المصباح الكهربائي ، سعل ، ثم سألها بصورة مباشرة وصريحة ، وهو يميل بطبعه عادة إلى الحديث المازح :

— هل تحببته ؟

— سؤال غبي لا يحتمل ! — نهضت أولاً وجمعت بين حاجبيها — .
وان كان نعم ؟ أو كان لا ؟ ماذا ينتج عنه ؟ أين مفتاح الكهرباء عندك ؟
أشعل النور !

— تصبحان على خير . ان قطاري بعد ساعة ، — قال الصديق مضيقاً عينيه بارتباك للنور المشعل ، وارتدى قبعته . — أترك المفتاح هنا . أتمنى السعادة .

تراجع نحو الباب ، وانحنى لهما ، تعبيراً عن تمنياته الطيبة ومشاركته الوجدانية .

— إلى اللقاء ، يا صاحب اللسان اللاذع ! — صاح كريموف ، ونهض من على الديوان ، وأغلق الباب خلفه ، ثم وقف أمام العتبة ، داساً يديه في جيبيه . — نعم ، إذا كان نعم ، ونعم إذا كان لا ، — قال بحدة ، ونظر من خلال كتفه شبه متسائل . — على أية حال ستصبحين زوجتي .

« لقد بدأ الجنون من جديد ؟ يحل الشيطان من جديد في داخلي ! »

— أنا ؟ زوجتك ؟ وهل يمكنني أن أصبح زوجة لإنسان غريب وغير مفهوم ؟

فقال بصوت متمرّد :

— سترين من أنا ، أي شاب غريب ، أي شاب غير مفهوم ،
لنّما أي شاب جريء أنا ! اعلمي ، أنني خدمت في الاستطلاع .
أنتصّورين ماهو استطلاع الفوج ، وماذا يعني السير في مؤخرة الألمان ؟
— اشفق علي من فضلك . وهل من المعقول ، أنك تريد الانتصار
علي ، كما في الحرب ؟ أنت متبجح منفاخ ، محب لداته . . .
— أولاً ، حبيبي ، ارحلي الآن ، على الفور ، أنا أعرف أن
أهلك ينتظرونك في البيت ! اذهبي . هكذا سيكون أفضل . . . وإلا . . .
(« من جديد ، من جديد ! . . . ») .

— شكراً . سأذهب . وإلا ، ماذا ؟

— وإلا ، لن أستطيع أن أتمالك نفسي . اذهبي ، أرجوك . أنا
أحبك . الشيطان وحده يعرف كم أنا أحبك ! . . .

أوصلها كريموف حتى موقف الباص ، ثم دار طويلاً في مكانه
حول المصباح الكهربائي ، متغصناً ، وكان يشعل عيدان الثقاب ، أما
الريح الصاعدة بين الأبنية فكانت تطفئ النار ، وكان الثلج الرطب
يلصق بالسيجارة . ثم جمع راحتي كفيه ، على طريقة العسكريين في
الجهة ، وتمكن أخيراً من إشعال السيجارة ، وسحب منها سحبة ،
بيد أن أعصاراً ثلجياً انتقم منه ، ورمى بقوة كبيرة لا تقاوم الشعلة
من السيجارة ، وعندها ، ولأول مرة منذ سنوات عديدة ، بكى من
العجز والضعف . كان يبكي بحقد انفعالي لذيذ على نفسه ، على هذا
الجنون الجامح ، على كل ما كان مرتبطاً بتلك الأمسية القدرية عشية

رأس السنة ، وبذلك الصباح الثلج الرطب في الفناء في منطقة
زاموسكفورييتسك .

— هل كان هذا هدياناً أم حالة طبيعية ؟ بيد أنه كان واضحاً
في ذهنه شيء واحد : هو أنه أحب أولاً حباً جنونياً ، فلقاءاته العارضة
السابقة مع النساء الأخريات لم تثر هذا الجنون ، لم تثر ذلك الحنان النهم ،
ذلك التعطش الدائم ، الذي كان يشعر به نحوها .

أجل ، ذلك كان زمن آخر ، وكانا هما غير ماهما عليه الآن ،
في تلك الأثناء ، بدأت مرحلة الشباب الخالدة ، التي لا تنسى .

* * *

الفصل الشامن عشر

في ذلك اليوم ، وبعد أن ودع فالتين ، لم ينتظر أولغا ، وخرج كريموف من البيت . لم يعثر عليها في المرج ، وسار وحده في الغابة على ضفة النهر المرتفعة ، على طول الأماكن الرملية الضحلة ، حيث كان يحط البط البري في الربيع . كانت الغيوم ، في البداية ، تسبح في المياه وتنساب بتكاسل صيفي (« من أين هذه المتعة التي لا توصف في حركتها البطيئة ؟ ») ، وعند الغروب توردت غيوم رفيعة — أنثوية بنعومة ، عند المنعطفات ، واعدة بالغبطة السماوية (« ان هذا خداع رائع ») ، ثم بدأ يندفع تدريجياً ذلك الإحساس الفتي الخفيف في أمسية تموزية ، يتبخر فيها دائماً نور الشفق الطويل ، انه شيء ما مرهف ، متقلقل ، ليست له حدود زمنية دقيقة . وفي الظلمة المزرقة الخفيفة ، جلس كريموف وقد سيطرت عليه رطوبة السرخس ، على شجرة بتولا منهارة ، وأخذ يدخن ، طارداً البعوض بغصن من شجرة ، وكان ينظر إلى الضفة الأخرى ، التي كانت تبرز خلف النهر المتأله . كان يبعد عن بلدة المنازل الريفية حوالي ثلاثة كيلومترات . هناك ، في ظلمة الغابة ، لم يكن يصل إلى الأنظار ولا ضوء واحد ، رغم أن الأنوار كانت مشعلة ، كما يبدو فوق الأسوار وفي جميع زوايا البلدة ، وكانت تترامى بين أشجار الصنوبر نوافل « الفيللات » ، وكان غطاء مصباح الطاولة ، في غرفة أولغا مخضراً بصورة آسرة ، وعلى مقربة منه كان

المصباح مشعلًا في مكتبه — ففي انتظارها له في الأمسيات ، كانت أولغا تشعل الضوء في العلية ، مفسرة موقفها الغريب بابتسامة صغيرة خفية : « أنا أشعر بالخوف عندما أكون وحيدة ، وهذه المنارة الصغيرة أشعلها ، كي تعثر بسهولة أكبر على الطريق إلى البيت » .

« أنا أشعر بالخوف عندما أكون وحيدة ، وهذه المنارة . . . » —
تذكر كريموف متأثرًا ، وعندما نهض ، وهو لا يكاد يميز الدرب الضيق ، نزل على السفح الشديد الانحدار إلى الضفة ، حيث كان يتوقد بلمعان خط متعرج من الأضواء المنعكسة في الأسفل : كانت الخيوط المتعرجة الذهبية تتدفق وتتحرك . لم يدرك كريموف على الفور هذا الشيء الذي كان يضيء متلألئًا ، ويلمع ويتعرج في الماء الأسود .

تجاوز كريموف الشجيرات ، وسار فوق جسر صغير ضيق ، محاط من جميع الجهات بكورس مغتبط من الضفادع ، التي تنق بين القصب في الأماكن الضحلة ، وهنا رأى شيئًا ما ، يلتهب ، ويسبح على المجرى السريع للتيار : ففي تلك الضفة ، في الغرب ، حيث كانت السماء أكثر إشراقًا بسبب الشفق ، وفوق الذروة الداكنة لشجرة البتولا كان نجم كبير غير معروف يتلألأ بأضواء ماسية آسرة .

« ما هذا — الزهرة ، المريخ ؟ — فكر كريموف ، المفتون بالبريق الاحتفالي فوق ذروة شجرة البتولا . — عشت حياتي كلها ولا أعرف ... » .

توقف كريموف في منتصف الجسر ، رافعاً رأسه ، ورأى بين شقوق الذرى الحامدة لمعاناً بعيداً لأضواء النجوم ، وغبطة السماء العظيمة ، وكل هذه النجوم المنشورة المتلألئة ، والارتجاف السماوي للاشعة

الفضائية في أعماق الأغوار المريعة للمجرة ، وفاح في وجهه من الهوة السماوية برد أبدي ، وسرقة وسي لما لا يدرك كنهه ، وأخذت تسيطر على كرىموف رغبة هادئة بطلب الصفيح عن شيء ما ، عما أذنبه الجميع تجاه هذه العظمة ، عظمة الجمال الذي لا يدرك ، عن ذنب الجميع تجاه هذا اللا متناهي الاحتفالي الذي لا يعرف له اسم .

« ماذا نعرف ، نحن المتعطرسون ، والمهجبون بأنفسنا ؟ نحن واثقون من أننا نعرف كل شيء لكننا لا نعرف شيئاً . وماذا هناك ؟ وماذا بعده ؟ ولأي هدف ؟ وفي سبيل أي شيء ؟ — أين يكمن معنى كل ما هو أرضي وسماوي ؟ أم معناه بأنه بلا معنى إطلاقاً ؟ أم أن لكل شيء معنى ، وهو المعنى الذي يدركه الإنسان في لحظة الموت ؟ ربما يكون الموت هو إدراك كل شيء ؟ أجل ، ان السماء هي لغز ، مثلها مثل الموت . . . أجل ، أجل ، يجب أن نتذكر هذا دائماً ! بيد أنه لا يريد أحد تقريباً أن يتذكر هذا . ونحن ننسى ، ولا نريد أن نعرف ، أن التواصل مع الجمال الغامض هو فرحة ، وأن الفرحة هي الحكمة العليا . كم هي تافهة الهموم والمساعي الإنسانية كلها نحو المتعة الآنية ، والحسد ، والغرور . . . أي ترهة لا معنى لها ولا فائدة منها ! كم من الناس على الأرض توصلوا إلى هذا الفهم ! وماذا كانت النتيجة ؟ »

سخر كرىموف من فهمه هذا للعبث الأرضي ، ناظراً إلى النجم الذي يتألق بأشعته المتحركة ، ومع ذلك ، كان يشعر في أعماق روحه بالضياء والانعقاد .

* * *

بالفعل ، كان النور شاعلاً في العلية في مكتبه ، وكان يظهر من خلال الأشجار ، وكانت نافذة غرفة أولغا إلى جانب مكتبه مضاءة بنور أخضر هادئ من مصباح الطاولة . ودون أن يشعل المصباح الكهربائي في الطابق الأول ، صعد كريموف بسرعة إلى العلية ، وكان باب غرفتها منفرجاً بفتحة صغيرة . كان الشعاع الضوئي القادم من غرفتها ، يقطع الديجور على بهو الدرج ويقسمه إلى قسمين ، وبدا وكأنه ينبعث من غرفتها هدوء الليل والفراش النظيف .

— ألسنت نائمة ، يا أولغا ؟

. ودخل كريموف . كانت أولغا جالسة على الأريكة الخيزرانية ، مرتدية بنطال العمل ، وقميصاً أسود اللون ، تسند ذقنها بقبضة يدها ، وتأمل لوحة صغيرة ، لم تجف بعد ، رسمتها اليوم ، وقد وضعت على الأرض ، مستندة إلى الجدار ، ومنازة بمصباح الطاولة الكهربائي . كانت هذه اللوحة تمثل منظرًا طبيعيًا : غروب الشمس المنطفيء خاف الغابات ، البريق الأخير في الماء ، والارتجاف القلق المندفع للنجم الأول في اللمعان القرمزي . وربما كان هذا بريق ذلك النجم المسيطر ، وغير المعروف ، الذي كان ينقل أشعته الماسية فوق القمة الداكنة لشجرة البتولا ؟ فهل هي رأتها أيضاً ؟

— هذا أنا ، يا أولغا ، — قال كريموف بصوت خافت . — مرحباً .

لم ترفع أولغا يدها عن ذقنها ، ونظرت إليه بعينين حولوين وهزت رأسها غير مصدقة .

— مرحباً . في مثل هذا الوقت المتأخر ، يا سلاف * ؟

— المترجم —

* سلاف — تصنيف وتجب لاسم فياتشيسلاف

سمع صوتها ، ولم يميز مافيه ، هل هو استهزام بسيط مازح ، أم عتاب مبهم ، وتنفس الصعداء بأسف ، وعندما اقترب منها من جهة ظهر الأريكة ، رأى شعرها المجمع في حزمة وفق التعليلة القديمة ، وأذنها الصغيرة ورقبتها المفتوحة بقميص العمل ، وقال بخذر :

— أنا ، كالعادة ، مذنب دائماً . انطلقت أبحث عنك . فلم أجذك . فأتجهت صوب الغابة ، بعد الجسر . وهناك ، كان كل شيء مناسباً للتفكير . بالمناسبة ، لقد رأيت ولادة الليل . . . كان رائعاً . . .

— واضح . ألم يكن نعلك أنا تولي بتروفيتش ؟

— لقد رحل باكراً . غريب . . . هذا النجم ، كالنجم المرسوم في لوحتك ، رأيت أنه أيضاً . ولكن تحت الجسر ، أمام الوند . هل هو الماريخ أم الزهرة ؟

— اذن ، كنت وحيداً ، وكان رائعاً ، — قالت أولغا بلهجة الاستهزاء الخفيف ، ناظرة من الأسفل إلى وجهه بتعبير منتظر .
أما هو ، فقد قبلها باعتذار ، وهو واقف بالقرب من الأريكة ، من شفيتها المنفرجتين عن ابتسامة صغيرة .

— أعتقد أنها المرة الأولى منذ سنوات عديدة ، أشاهد فيها الزهرة أو ما يشبهها ، قال كريموف ، شاعراً بعدم الإكتراث والبرودة في شفيتها ، وقال بشيء من المزاح : — وأنت مع من كنت ؟

— وحدي مع نفسي .

— وكيف كنتما ؟

— تصور ، كنا في حالة ممتازة ! وكيف تواصلنا ، وتحدثنا ، وبكىنا جيداً .

— بكيتما ؟ على من ؟ ولماذا ؟

— عليك ، وعلي .

في عينيها المخمليتين الهادئتين ، كان ثمة تساؤل غير مكتمل ، كما في السابق ، ليس من عاداتها ، وقد أحس كريموف بأن خاف هذا التساؤل هناك شيئاً مقلقاً ، مؤنباً ، معاتباً ، تخنيمه بعناية ، وقال لها بدون رموز كلامية لا لزوم لها بينهما :

— أولاً ، ان أمكن ، اشرحي لي ما حدث . اليوم ، أنا متعب قليلاً ، ولن أفهم شيئاً . أنت مغتظة مني لسبب ما ؟

— لا ، أبداً . كل ما في الأمر ، أنني بكيت على شبابنا الراحل . لكن هذه أمور تافهة ، إنها رومانسية النساء .

نهضت أولاً وأحاطت كتفيها بيديها ، وكأنها تعانق نفسها من أجل أن تصبلي وتهدأ ، ووقفت أمام لوحة المنظر الطبيعي ، واستدارت شفتاها استدارة خفيفة ، شبيهة بالابتسامة (أما هو فقد تذكر فتورهما البارد المميت ، الذي قرصه قبل دقيقة واحدة) ، وعلى هذا النحو ، ربت بكفيها على كتفيها ، معانقة نفسها ، ثم ابتعدت جانباً ، خلف ضوء المصباح ، ومن هناك ، من الظل الأخضر ، قالت بصورة متعددة ، بصوت حيوي نشيط :

— لم أكن أفكر أبداً ، أنه سيحدث هكذا يا فياتشيسلاف . وكم هو محزن ، وفي غير محله !

— يحدث ؟ ماذا يحدث ؟

— أعتقد ، أنك لا تحسب قواك بصورة صحيحة .

— هكذا كان دائماً ، — قال مازحاً ، حازراً بخوف كبير ما أرادت أن تقوله . — أنا أعرف عيوبي منذ زمن طويل يا أولاً .

— أنا عرفتها مؤخراً ، منذ فترة قصيرة ، بعد أن عشت معك عمراً كاملاً . فماذا سنعمل ، يا سلاف ؟

« هذا ما كنت أخشاه ، إذلالها هذا . لقد كنت أخشى من أن تتلوث أولنا أو تفسد بقذارة ما ، من قبل بعضهم . وهل من المعقول أن تكون قد وصلت إليها افتراءات الاستوديو بكامل أوانها وأصباغها ؟ لا ، ان الناس بلا شفقة ولا رحمة . . . »

— أولاً ، لقد أصبحت غيباً بصورة مفاجئة . لذا ، سأطرح أسئلة ساذجة : ماذا حدث ؟ هل اتصل بك أحد هاتفياً ؟ هل وصلتك رسائل ؟ مغفلة المصادر بالطبع ؟ . . .

من خلال الضوء الخافت . اكفهرت عيناها غير المتسمتين ، أما شفقاتها (كم من المرات قبلهما ، وهما فائزتين لا ترويان ظمأه) فقد ارتعشتا بانعكاس الاستغراب المتحفظ .

— أنا لا أدينك . لم تعد تحبني ، لذلك يمكنك أن تتصرف كما يحلو لك . المسألة ليست في الاتصالات الهاتفية ولا في الرسائل .

— أولاً . . .

— هنا لا يمكنك عمل أي شيء . في الحياة يحدث كل شيء .

— أولا ، لماذا أنت ؟ . . .

« وهل من المعقول أنها تصدق الإشاعات ، وأن علي أن أشرح ،
وأن أبرر موقفني وأبريء نفسي ؟ لكنني لا أقوى على ذلك » .

وجلس كريموف القرفصاء ، وهو منهك ، بادي الأعياء ، بالقرب
من اللوحة ، وهذه السماء الخضراء بعد الغروب ، والتلألؤ العنيف
لأنجم الأول في نقاوة الماء الفارغة ، والغيمة الرمادية من الغربان المحلقة
فوق الغابة البعيدة في المساء ، والأنوار الصامتة القريبة للنجوم في السماء ،
والعيد السري في أعماق المجرة التي لا قرار لها ، وحركة الأشعة وتنقلها
وتحولها — هذه العظمة الاحتفالية كلها ، التي تكشفت له عند منتصف
البحر ، كما لو أنها من قعر فج عميق ، بين القسم الجامدة فوق الضفاف
العالية ، فقدت خلال لحظة واحدة الأمل المعتقد ، وفكر كريموف
بيأس : « كل شيء قد أزيح من مكانه ووضع في مكان آخر ، وكل
شيء يهوي إلى القاع ! » .

— أولا ، — قال كريموف بخضوع ، دون أن يجراً على إدارة
رأسه عن لوحة المنظر الطبيعي ، غير أنه لم يعد يرى فيه أية تفاصيل ، —
أولا ، أرجوك شيئاً واحداً فقط : صدقي نفسك فقط ولا تصدقي أحداً
ما . . . أتعرفين ، بم أفكر في الفترة الأخيرة ؟ هناك طيور مغردة
وطيور صيادة . والطيور الصيادة ، حتى عندما تكون شبيعة ، يمكنها
أن توجه ضربة على النقرة بمنقارها الحاد . ماهو المغزى من ذلك ؟
لاوجود له . ولكن ثمة رغبة بالضرب ، بالأذى . أما الأسباب فهي
آلاف مؤلفة وكل سبب أتفه من الآخر . أولا ، يحدث لي مالا
أريده . إن الحياة ، لسبب ما ، عاجزة عن أن تعلمنا الصدق والحقيقة .

نحن سريعو التصديق إلى حد مفرط . وأنت أيضاً ، سريعة التصديق يا أولاً . اليوم أيضاً ، فكّرت بمدى سخافة سعي الناس ، عندما رأيت في الماء فجأة هذا الانجم الرائع ، عندما كنت فوق الجسر . . . على كل حال ، انها مبتدلة تلك الحقائق جميعها المكتشفة منذ زمن طويل ، والمنسية منذ زمن طويل ، . والمكتشفة مجدداً .

ونفض من القرفصاء ، وتجهم بعد صراحته الصادقة اللا ارادية ، مما جعل من الممكن أن تعدها أولاً متعمدة بصورة مفرطة ، . أما هي فقد كانت واقفة عند الجدار في الخط المعتم خلف مصباح الطاولة وكانت تصغي لي إليه بعينين مغلقتين .

— شيء مرعب ، — قالت أولاً واقتربت منه ، رابطة بخنان على وجهه ولأمة ذفته بطرف اصبعها . — انه مريع جداً ، كم تغيرت في الفترة الأخيرة ، لقد نحفت وضميرت ، ولم تعد كما كنت . شيء ما قد حدث ، يا فياتشيسلاف . . . لقد أحبيتك كثيراً آنذاك ، في عيد رأس السنة ، عندما بقيت وإياك هنا . . . أنت لم تعد كريموف الذي عرفته ، أو أصبحت رجلاً آخر ؟

— رجلاً آخر . ولكن ليس بشكل كامل على الأغلب .

— أسوأ ؟

— نعم .

— اذن ، أنت خنتني ، يا فياتشيسلاف ؟

— لا ، ولا مرة واحدة .

— لأنني ، لسبب ما ، لا أصدقك الآن يا سلافا . — قالت أولا
بوجه شارد ، ورسمت باصبعها طغراء مبتكرة على قلبة سترته . — لقد
كنت ألاحظ كثيراً ، كيف كانت النساء ينظرن باتجاهك . ثم عاداتكم
في الاستوديو ، وبوهيميتكم الاريستوقراطية ، يمكنني تصور ذلك . . .
وأنت لست قديساً ، يا سلافا . هكذا ، أليس كذلك ؟

— أنت تخطئين ، يا أولا . أنا شبه قديس . وأنت لست على حق
بخصوص عاداتنا في الاستوديو . انها ، كما في كل مكان . وليست
هناك بوهيمية ، — قال كريموف ، شاعراً برغبة في أن يعانقها ، ولا يقول
أي شيء في سكون قربها ، في فتورها الهادئ ، الذي لا ينطفئ ،
كما في تلك الليلة العاصفة المقفرة ، عندما بقيا كلاهما في البيت الريفي
الذي لم يكن قد اكتمل بناؤه . بيد أن شيئاً ما منعه من تكرار لحظات
مزاج عيد رأس السنة الذي تحدثت عنه أولا ، واكتفى بأن أمرّ يده
على كتفها القريب المحبب ، من تحت قميصها الأسود ، وأكمل حديثه
بشيء من الوجمل ، — كيف يمكنني أن أقسم لك ، أنني أحبك ؟

— لا حاجة للقسم ، — قالت أولا دون أي تعبير ، — اذهب ،
من فضلك . اذهب يا سلافا . لقد تأخر الوقت كثيراً . اذهب يا قديسي
الحبيب . — ورسمت من جديد باصبعها طغراء غير مرئية على قلبة
سترته ، وكان وجهها خاملاً لامبالياً . — وإلا فلن نتمكن كلانا من
يوم .

— تصبحين على خير .

قبلها من وجنتها وخرج بمشاعر مؤلمة ، وكأنها ، لعدم تصديقها
له ، لم ترغب باكمال حديثها وتحطيم كل شيء إلى النهاية .

الفصل التاسع عشر

— فياتشيسلاف أندرييفيتش ، عذراً لسؤالي غير المتواضع ، الذي لم أكن لأجراً على طرحه لولا الجانب الشكلي من مهنتنا : فمن أجل اثبات الحقيقة ، علينا أحياناً أن نعرف شيئاً ما شخصياً . . . غير متواضع . اعذرني من فضلك ، ثانية ، هل كنت على علاقة قريبة بايرينا فينيامينوفنا سكفورتسوف ؟

— أوليغ غريغوريفيتش ، لقد قلت لك كل شيء أثناء لقائنا الأول . وهل تظن أن جوابي الثاني سيكشف حقيقة الكارثة الحاصلة ؟ ان كان نعم ، فهل كل شيء واضح ؟ وان كان لا ، فما هو غير الواضح ؟

— أوه ، أرى أنك بدأت أنت الآن تطرح علي الأسئلة يا فياتشيسلاف أندرييفيتش . أنا أدرك جيداً ، أن كل لحظة اصطدام بالحياة — هي بالنسبة لك ، الإنسان الفنان ، نوع ما من جمع المواد والتجربة التي سوف تتجسد . . . أنتم الفنانون ، كقطع الاسفنج ، تتشربون كل شيء وتجسدون . ولكن ، على أية حال ، ألا تريد الإجابة عن سؤالي الشكلي ؟

— يستحيل شرح ذلك ، تقريباً ، كيف يمكنني أن أشرح لك ذلك ؟ ان هذا ليس للمحضر الذي تحتاج إليه .

— وماذا تقصد تحديداً ؟ ربما أنك ، مع الاعتذار ، لاتود الحديث عن شذوذ ما تعانيه الممثلة سكفورتسوبا ؟ فقد عانت كثيراً من إصابة قاسية ، وقد ترك فشلها في البالية بصماته على نفسياتها ، ربما كان هناك عندها شذوذ أو هوس من نوع خاص ؟ . . .

— لماذا تقول هكذا ؟ ايرينا سكفورتسوبا كانت طفلة نقية ، طاهرة ، سريعة التصديق إلى حد السذاجة . ومثيلاًتها بين الشبية المعاصرة ، نادراً جداً أن تلتقيهن . كانت تؤمن بأن الهدف من الحياة هو الفرحة . ليس اللذة ، ولا البطالة ، وليس الرفاه المادي ، بل الفرحة تحديداً . كانت تتمتع بعاطفة الحرية الأخلاقية . وأي شذوذ يمكن الحديث عنه هنا ؟

— طبعاً ، طبعاً ، طبعاً . . . لم أرد أن أسبب لك إساءة ، لم أرد ذلك . قل لي ، فياتشيسلاف أندرييفيتش ، ألم يدر بينك وبين ايرينا سكفورتسوبا ، قبيل الحادث المؤسف ، كما سوف ندعوه مؤقتاً ، أي حديث جدي ؟ ألم تخبرك بأي شيء ، ألم تحدثك عن أي شيء . ألم تطلب منك شيئاً ؟ ألا تتذكر بعض كلماتها ؟

— أتذكر . كانت منزعة ومتكدة من حديث سمعته من غرباء في الاستوديو مصادفة .

— ألا تتذكر هذا الحديث ؟

— كما يحدث غالباً ، فالمرشحات للدور كن يغتبنها ، وكن يتحدثن بالطبع عن أنها بلاموهبة ، وأنها قد حصلت على الدور الرئيسي ، بالطبع ، بعد أن أصبحت عشيقة المخرج .

— أوليس هذا صحيحاً ؟ أليس مطابقاً للواقع ؟

— ماهو « ليس صحيحاً » ؟

— هل كانت ايرينا سكفورسوف ، وأعتذر هنا ، عشيقتك أو . . .
صديقتك أو عشيرتك ، كما يقال الآن في أوساطكم ؟

— لا أعرف ماذا يقال في أوساطنا حول هذه المسألة ، لكن ايرينا
سكفورسوف لم تكن عشيقتي ، ولا صديقتي ، ولا خباتي . كانت
شيئاً آخر .

— فما هي العلاقة التي كانت بينكما ، فياتشيسلاف أنلرييفيتش ؟
بسبب واجبي في الخدمة ، أجد نفسي في وضع غير مناسب . . . وعلي
أن أطرح عليك أسئلة حساسة ، ملحة ، كما يقال ، أرجو أن تنصبر
على إصراري وإلحاحي .

— سأصبر . لكنني سأسمح لنفسى بعدم الإجابة على الأسئلة
الحساسة .

— غير أنني أسمع في أجوبتك نعم ولا في وقت واحد . فكيف
علي أن أفهم حديثك ؟

— بمعنى لا .

— وكيف تحديداً ؟

— أوليغ غريغوريفيتش ، ليس باستطاعتي أن أشرح لك جوهر
علاقتي بايرينا سكفورسوف بكاماله . كانت ايرينا تتمتع بالقوة والضعف

والعجز . أمام الحياة كانت عاجزة ضعيفة ، مثلها في ذلك مثل جميع الموهوبين تقريباً .

— لا يصح القول عنك مثلاً ، أنك عاجز ، ضعيف ، رغم أنك موهوب بصورة فطبعة ، كما قال عنك شفهي^١ مخرج كبير ، زميلك .

— ليس كل شيء كما يبدو . أنا ، ببساطة كنت موفقاً ، حالاً في الحظ . وثمة كثير من المبالغات حولي . وهناك كثير من الحاسدين والأغبياء من حولي . ان المحظوظين والموافقين غير محبوبين كثيراً في الفن . انهم يحسدونهم ، ويتملقونهم ، لكنهم لا يحبونهم كثيراً . ألا يصدمك جوابي هذا ؟

.. أنت الآن تتدلل وتتصنع ، فياتشيسلاف أندرييفيتش . فالنقد المحترم يكتب عنك . . .

— لاداعي لقراءة النقد المحترم . فهو في أحيان كثيرة يكذب . أو ينظر من وجهة نظر مراتب لإخراج ضيقة . على النقد أن يكون فنياً . وبالتالي سليطاً ، جسوراً .

— إنك تتدلل من جديد .

— كما تريد : إذا كان بالإمكان التصنع والدلال مع الحقيقة ، فأنت على حق .

— أنت ، لست طيباً تحاهي . على نحو ما ، فياتشيسلاف أندرييفيتش . أنت ، عامداً متعمداً ، ترى في شخصي رجلاً معادياً ، ان صح التعبير ، في حين أن مهنتي تقتضي عدم التحيز ، وعدم المحاباة ، حتى بالنسبة للأشخاص الموهوبين جداً ، وأنت لست منهم . لكن ، لنعد إلى موضوعنا

اقتد تحدث الآن عن سكفورتسوبا ، وكأنها . . . كيف يمكنني التعبير
بصورة دقيقة ؟ وكأنك عاشقاً ، مغرمًا بهذه الفتاة الغريبة إلى حد
الجنون . هل كان لديك مثل هذه العاطفة نحوها ؟

— لم أكن مغرمًا بهذه الفتاة الشاذة الغريبة إلى حد الجنون : علاوة
على ذلك ، فهي لم تكن تطبق الشذوذ والغرابة . وأنا كذلك :

— على هذا النحو أو ذاك — ماهي العلاقة التي كانت بينكما ؟
هل أرادت أن تصبح زوجتك ؟ هل طلبت منك أن تطلق زوجتك ،
فشعرت أنت بأنك مرتبط بأسرتك وأطفالك ، فظهر عندها ، عند
إيرينا سكفورتسوبا ، امتعاض ، وألم ، وعدم الارتياح لوضعها ؟
— لم يكن هناك شيء من هذا القبيل .

— فما الذي كان بينكما في نهاية الأمر ، فياتشيسلاف أندرييفيتش ؟
هل كانت راضية ، عن وضعها ؟

— لم تكن راضية عن نفسها . هكذا أعتقد . أنت تعرف ، أنها ،
بعد بدايتها الرائعة في البالية ، تعرضت لإصابة مرضية وابتعدت عن
خشبة المسرح عامًا كاملاً . لقد رأيته عدة مرات كيف كانت تتدرب
في بيتها على الحامل — كانت تسعى لاستعادة لياقتها البدنية مهما كلف
الأمر . ولم تستطع للأسف الكبير . وعندما عرضت عليها الدور ، لم
توافق سكفورتسوبا في البداية ، تصور ا فهي لم ترغب بخيانة نفسها
وخيانة البالية .

— وأنت تعتقد ، أن هذا بالذات ، قد أدى إلى نهايتها التراجيدية ؟

— وهل قلت أنا ذلك ؟

— لكن هذا ما يمكن استنتاجه من أقوالك .

— لقد كنت أجيب عن سؤالك الذي لم يكن دقيقاً .

— على الأغلب ، أنا مضطر لأطرح عليك كثيراً من الأسئلة غير الدقيقة ، لذلك أرجو أن تعذرني ، فياتشيسلاف أندرييفيتش . أتعرف ، أحياناً يكون الطريق الدائري هو الطريق الأقرب إلى الحقيقة .

— أرجوك أوليغ غريغوريفيتش ، لا ادعي للأسئلة غير الدقيقة ولا حاجة للطرق الملتوية والدائرية . أقسم بشرفي أنني متعب جداً . سأسهل عليك مهمتك . أنا أعرف : أنت بحاجة إلى تحديد سبب هلاك إيرينا سكفورتسوف ، أو المذنب في هلاكها ، وتحديد القاتل المباشر أو غير المباشر .

— أتريد ماء ، الماء في الابريق دافئ على الأغلب . تفضل فياتشيسلاف أندرييفيتش ، هذه زجاجة المياه المعدنية « بورجومي » . اليوم حر منذ الصباح ، الشمس تكوي .

— أشكرك . والحو خائق في مكتبك أيضاً . لماذا لا تفتح النوافذ ؟

— أوه ، أنت قوي الملاحظة ، لديك نظرة مهنية دقيقة ، فياتشيسلاف أندرييفيتش .

— أريد أن أسهل عليك مهمتك ، التي لم تحل بسبب عدم دقة إفاداتي . أنني على الأرجح ، متهم ، لأنني مذنب مذنب فيما حصل . إن فينيامين فلاديمير وفيتش سكفورتسوف ، الذي التقيته عندك ، كان على حق . لقد كان محقاً باتهامي بأنني كنت غاوياً شريراً ، بأنني حاولت زرع الأمل في نفس ابنته لكنني ، مثلك ، بودي

أن أعرف ، كيف حصل ، كيف حدث كل شيء . هل كان هناك عارض مأساوي ، أم أنها أقدمت ، بوعي وقصد على الانتحار ، هذه الفتاة البائسة ؟ أم ماذا ؟ أريد أن أصدق أنه عارض ، مصادفة . . .

— بيد أنه ثمة أسس للافتراض ، يا فياتشيسلاف أندرييفيتش ، بوجود أسباب أخرى للنهاية المأساوية ، بوجود ظروف أخرى . . .

— اذن ، أنت تشك بشخص ما ؟ أنا أفهمك . طبعاً ، القضاة ، القانون ، التحقيق ، الافادات ، شهود العيان . بيد أنني الشاهد الوحيد . ولماذا كنت لا أعرف بصورة دقيقة ، بيد أنني أريد أن أعرف ، كيف ولماذا حدث كل هذا ، فمن يمكنه أن يعرف سوى الله ، ونحن ، أنت وأنا ، لا نؤمن بالله ، كما أظن .

— كان هناك شاهد عيان آخر ، فياتشيسلاف أندرييفيتش .

— من ؟

— أنت تعرفه جيداً . سائق الاستوديو غولين ستيان يفدوكيموفيتش أنت تغفله لسبب ما ، رغم أنك عاملته بطريقة تخلو من الاحترام ، على أقل تقدير .

— آسف من الأعماق لأنني أظهرت عدم الاحترام تجاهه . كما آسف لأنني كنت متساهلاً أكثر مما ينبغي مع السائق المحترم ستيان يفدوكيموفيتش . على أية حال ، فالتساهل والندم — خاصية ثابتة اللاتيليجنسيا الروسية .

— غير أنك ضريته ، يا فياتشيسلاف أندرييفيتش ! أنت ممثل اللاتيليجنسيا الفنية المبدعة ، أنت الرجل الأكثر شهرة ، المخرج المعترف

به ، ضربت إنساناً هاملاً ، أثار غضبك ، لمجرد أنه كان شاهداً لخلافك مع سكفورتسوف ، في ذلك اليوم عندما وقع الحادث المأساوي . أنت أغفلت هذا الجانب بالدات .

— هذا طريف حقاً ، كيف يمكنه أن يكون شاهداً على شيء ما ، في الوقت الذي كان فيه بعيداً عن مكان الحادث ثلاثين كيلومتراً ، حيث ذهب لتناول طعام الغداء في مطعم بمركز البلدة ؟ أعترف بأنه أثار ، وما يزال يثير ، في نفسي مشاعر النفور والاشمئزاز . . .

— ولهذا ألحقت به الضربات مسبباً له ضرراً بدنياً ؟

— أي ضرر ؟

— جاء في التقرير الذي قدمه الشاهد من المستوصف الثاني والأربعين ، أن شفته قد شقت نتيجة الاصطدام بأسنانه بسبب الضربة ، وثمة كدمة في أسفل أنفه .

— رائع ! أنا آسف جداً ، حقاً ، لأنني ضربته ضربتين فقط . بالنسبة لهؤلاء الأشخاص الضرب مرتين قليل لا يكفي .

— فياتشيسلاف أندرييفيتش ، أرجوك ، اقرأ بيان الشاهد هذا .

— قراءة صامتة ، أم بصوت عال ؟

— أشك في أن هذه القراءة ستكون ذات طابع فني . لماذا أنت شديد التحفظ والحذر معي فياتشيسلاف أندرييفيتش ؟

— تماماً ، كما أنت معي ، بالرغم من الصيغة المحبة والاحترام الذي تبديه نحوي . عن أذنك ، سأقرأها بصوت عال ، كي يكون

أكثر وضوحاً وأكثر صدقاً . سأقرأ . . . إلى الإدارة العامة . مقدمه :
غولين ستيان يفدو كيموفيتش » . حسناً ، ماذا يقول ستيان يفدو كيموفيتش
السائق الحائز على لقب الجدارة ، الذي كوفيء بشهادة تقدير ؟ أنظر
كيف يعرض جواهر القضية . . . « أريد أن أصف للرفاق المحترمين
في الشرطة ، جواهر قضية الجريمة ، نظراً لأنني كنت أعمل في فيلم
« الجليل » ونقلت الرفيق كريموف فياتشيسلاف أندرييفيتش ، مخرج
الفيلم ، والمثلة سكفورتسوا إيرينا ، لا أعرف اسم أيها ، إلى الطبيعة .
حيث كان من المنتظر أن يتم هناك تصوير مشهد فيما بعد . عندما انطلقنا
بالسيارة من أجل استكشاف الطبيعة ، كان المخرج كريموف يؤنب
سكفورتسوا على غيائها ، على أنها ليست قادرة على عمل أي شيء ،
لا في البالية ولا في السينما ، أما سكفورتسوا فكانت تجلس صامته ،
تبكي بهدوء ، ثم قالت بأنها لا تريد أن تبقى على قيد الحياة وتحمل مثل
هذه الإهانات ، أما المخرج كريموف فقد ضحك لسماع هذه
الكلمات بأنانية نادرة . وعندما وصلنا إلى الطبيعة ، نزلا
من السيارة وذهبا باتجاه الكنيسة على الضفة اليمنى من النهر ، أما أنا
فقد بقيت على الضفة اليسرى ، نظراً لعدم قدرة الجسر الصغير على
احتمال ثقل السيارة . أمرني المخرج كريموف أن أنتظر ساعة أو ساعة
ونصف ، بيد أنه انقضت ساعتان ولم يحضرا ، وشعرت بالجوع ، لأنه
كان قد حان موعد الغداء . لقد رأيتهما على الضفة الأخرى : كانا
يسيران ، أحدهما مقابل الآخر ، ملوحين بأيديهما ، وكأنهما يتقاذفان
الشتائم . وفكرت آنذاك ، بأنهما سيبقيان طويلاً ، وذهبت إلى مركز
البلدة ، من أجل تناول جرعة ماء على الأقل ، فقد تصببت عرقاً في
الجوف الحار . وعندما عدت إليهما ، رأيت سكفورتسوا كالميتة ، تترقد

غريقة على العشب ، في « مايو » السباحة ، مبللة الشعر ، بيضاء الوجه كالمرمر ، أما المخرج كريموف فقد هجم علي كالوحش ، وأخذ يضربني إلى أن أدماني ، وهو يردد كلمات مقذعة ، وحذرنى ، وهو كالسعور ، بأن لا أجرؤ على التفوه ببنت شفة ، حيثما كان ، عن كل شيء رأيته أو سمعته . اقتدنا سكفورتسوف إلى المستشفى ووضعناها هناك . هذا ما أعرفه عن هذه القضية المجرمة . رفقا تقرير عن الأضرار الجسدية الملحقه بي . التوقيع : غولين . « هذا كل شيء ؟ أجل ، التوقيع واضح . وماذا أقول ، ان السائق المحترم قد شرح كل شيء بصورة رائعة . لقد عرض كل شيء بصرامة رجل واقعي . هنا يستشف أسلوب الضحية . وأنت ، تأخذ هذه المذكرات التلميحية ، التي كتبها سائق يضطهده مخرج ، بعين الاعتبار ؟

— إنني آخذ بعين الاعتبار كل ماله علاقة بالقضية . السائق غولين يعرض موقفه الشخصي مما حدث . أما النتائج فأنا أستخلصها على أساس جميع افادات الأشخاص الذين يعرفونك وكانوا يعرفون ايرينا سكفورتسوف .

— وإذا ما أصغيت إلى غولين ، وإلى رئيس الاستوديو الحكيم بالابانوف ، وإلى المدير الإداري المحترم مولوتشكوف فسيتشكل لديك رأي عادل — استنتاج حول المجرم المحتمل ، حول القاتل المفترض المخرج كريموف . هذا دون الحديث عن فينيامين فلاديميروفيتش سكفورتسوف ، والد الفتاة المرحومة ، الذي يتهمني بكل شيء دون أي تردد . يبدو أنه محق ، من حيث كونه أباً ، وأنا أفهمه أيضاً كأب . أنا مذنب ، أو كيف يقال من وجهة نظر حقوقية ، أنا مدان ، وليس

مذنب ، أنا مدان بأنني زرعت الأمل في نفس سكفورتسوبا ، أما الأشخاص الحسودون والشريريون المتنكرون ، والمقرفون كالحساسة ، فقد حطموا الأمل . وإذا كان هذا الأمل قد قتلها فأني زهرة هشة كانت سكفورتسوبا . . .

— فياتشيسلاف أندرييفيتش ، إن مثل هذه التصريحات تبعدنا جانباً ، إلى سيكولوجية الإبداع ، إلى غابة مظلمة حالكة السواد ، حيث يمكن المرء أن يتعرض لخطر الضياع ويفضل الطريق بين ثلاثة أشجار صنوبر ويحطم عنقه . وأنا ، إن كنت تعرف ، حريص جداً على عنقي ، لا لمجرد ارتداء ربطة العنق . لذلك ، أعود إلى السؤال الرئيسي — ماهو ، برأيك ، السبب المباشر لموت إيرينا سكفورتسوبا ؟ سأكشف لك سرّاً ، رغم أنه ليس سرّاً في الواقع . قصد والد سكفورتسوبا مرجعاً أعلى ، وطالب بإجراء تحقيق دقيق في أسباب موت ابنته ، وقد كلفت أنا بهذه القضية . وأنا ، رجل دقيق ، اعذرني لهذه الصراحة ، ورغم أن احترامي لك . . .

— وأي احترام هنا يمكن أن يكون ، وما هو الاحترام ، ولماذا هذا الاحترام ! . . . هذا هراء ! لقد قلت لك ، بل على الأصح ، أجب في المحضر ، انني مدان ، انني مذنب . . .

— فياتشيسلاف أندرييفيتش !

— أنا مذنب ، وافعل معي ما يقتضي ذلك لاحقاً .

— فياتشيسلاف أندرييفيتش !

— لقد قلت لك — لن تجد مذنباً آخر .

— فياتشيسلاف أندرييفيتش ، أنا مذهول . . . عليك أن تكون مسؤولاً عن أقوالك ، لا أن ترمي الكلمات في مهب الريح . مثل هذه التصريحات خطيرة في نهاية الأمر .

— لم أعد أخشى شيئاً ، منذ وقت طويل . لا ، أحياناً ، أخشى الموت طبعاً . هنا ، يغلب علي الفضول البحث : وماذا سيحدث من بعدي ؟ لقد كان الفضول وحب المعرفة يقتلاني طيلة حياتي . وربما لهذا السبب ، أصبحت مخرجاً : كي أعرف حياة الغير . بيد أنني لم أتمكن من معرفة الكثير .

— لقد قلت أنك مذنب في كل شيء ؟

— في كل شيء . ولا حاجة لك بعد الآن ، لطرح الأسئلة على بالابانوف ، ولا على مولوتشكوف ، ولا على غيرهما . . .

— وعلى ستيشوف ، الذي كان عندي صباحاً ؟ أعتقد أنه إنسان جدير ومحترم للغاية .

— أيضاً لا حاجة . إنه رومانسي ومثالي ، معجب بي . إنه غير قادر على أن يكون موضوعياً . لاسيما وأنه صديقي ، وصديقي المقرب أيضاً .

— ليست لدي أسئلة أخرى أطرحها عليك الآن . لا توجد لدي أسئلة . وإذا ما ظهرت فسأضطر لازعاجك من جديد ، يا فياتشيسلاف أندرييفيتش .

— أشكرك . يمكنني أن أذهب ؟

- حظاً سعيداً . أتمنى لك النجاحات الإبداعية على الشاشة .
- شكراً . لأنني متأثر جداً بمشاعرك الطيبة تجاه الفن السينمائي .

* * *

علقت بوجهه المتعرق حرارة الاسفلت المنبعثة من الشارع المتوهج
الداوي في هذه الساعة ، الشارع الذي يلطم الآذان بهدير المحركات
والآليات . اقرب كريموف المنهك من السيارة التي كان قد أوقفها
قرب الرصيف ، تحت أغصان شجرة زيزفون (كي لا تسخن كثيراً
من أشعة الشمس) . فتح كريموف باب السيارة ، حارقاً أصابعه بالمعدن
الحامي ، وجلس في داخل السيارة بيأس طاغ ، لأنه ينهار ، ولا يستطيع
التوقف ، ولا السيطرة على نفسه ، وإيجاد التوازن ، ولأنه يقدم الآن ،
في كافة تصرفاته على مجازفة غامضة ضبابية ، فاقداً القدرة على التفكير
السليم ، ولأن هذه الحالة قد تؤدي به ، أو أودت به الآن ، إلى التهلكة .
لم يكن ليتصور الآن الانهيار الكامل لمكانته السابقة ، لم يكن يتصور
مكانته الذليلة الحالية في الحياة ، حيث يسري مفعول قوانين أخرى ،
وعلاقات أخرى ، كما حصل أمام عينيه لبعض الناس المشهورين ،
الذين انهاروا تحت ضربات الظروف العادلة أو الظالمة . ولم يكن يتصور
وضعه الشخصي تابعاً ، خاضعاً إلى تلك الدرجة ، التي لم تكن تنطبق
عليه مسبقاً .

إن ما حصل معه ، وما عمله ، من جيد ومن سيء ، وما كان
يقوله ، ويفرضه ويؤكدده — كل هذا كان مُبَعَّدًا ، بصورة غير معقولة ،
محاطاً بظروف سخيصة مجهولة ، وبمبررات وذرائع رديئة ، وبدا له

غير واقعي من ناحية ما'، غير ثابت ، آتياً ، وأنه سينتهي الآن بأقصى سرعة ، وسيعود إلى التيار اليومي للواقع العادي ، الذي لم يتغير أبداً من الناحية الخارجية ، وصار كما كان عليه قبل سفر كريموف إلى فرنسا . بيد أن تغييرات واضحة حدثت وأعادته من جديد إلى ذلك اليوم الحزيراني الحار ، يوم ايرينا الأخير ، — وعندما خرج من عند المحقق ورأسه يؤلمه ، وعثر في صيدلية السيارة على حبوب آميدوبيرين ، لم تسعفه سوى حبتان ، ابتلعهما كريموف بمرارتها الكيمائية ، دون جرعة ماء وفكر في نفسه ، وهو يستند بارهاق إلى ظهر المقعد الساخن : « الآن علي أن أذهب إلى البيت الريفي » .

ثم جلس مقلباً الأمر في رأسه — هل يجب فعلاً الذهاب اليوم إلى البيت الريفي ، إلى الفيلا ، إلى الصيف الممتع ، إلى أشجار الصنوبر ، إلى العشب والشمس ؟ ربما كان من الأفضل أن أبقى في موسكو ، وأن أمكث وحيداً في شقة خالية ، وأفكر وحيداً بما حصل اليوم ، لأنه في البيت الريفي ، ليس هناك من يقدر على مساعدتي — لا أولغا ، ولا فالتين ، ولا ابنته الحبيبة تانيا .

« آية سعادة هذه : أن أجلس هكذا وحيداً في السيارة ، وأنظر إلى ارتعاش توزع الضوء والظل في عمق شجرة اليزفون ذات الأوراق المغبرة المعفرة بالتراب ، ولا أفكر بأي شيء ، بل أرى الشارع وأسمعه وأحسه . ولكن هل الاحساس والشعور يعني عدم التفكير ؟ ومع ذلك لا يفارقي هذا الألم المبهم ، الشبيه بالحنين ، الذي ظهر عندي ليلاً ، عندما خرجت من عند أولغا . . . ولماذا أشعر ، بهذه الرغبة ، بالهرب إلى مكان ما ؟ ولماذا كان بودي أن أحدث المحقق بهذه السهولة

عن ذنبي ، من أجل وقف هذه الأسئلة المهينة له ولي ، — هل من المعقول أن لا ينتهي هذا كله أبداً ؟ » .

وأملأ منه باستعادة توازنه النفسي ، حاول أن يتذكر أسعد يوم في حياته التي عاشها ، وأخيراً استطاع أن يتذكره — إنه قاص ، ناء ، ربيعي ، كما لو أن سنوات طفولته التي لا تنسى قد عادت وتكررت . هاهو ذا : آذار المشمس ، قطرات من الثلوج الذائبة ، الظلال الزرقاء لأشجار البتولا على الثلج الأبيض . . . وصبي (إنه هو) يقف أمام الطنف المغطى بالثلج ، وينظر إلى زرقة السماء الجذلة ، فوق المعلقات المجمدة النازلة من الميازيب المغطاة بالصقيع .

لا ، إنه يذكر أيضاً صباحاً سعيداً آخر ، ضوء الفجر الناعم على جدران عليّة غريبة ، ويقع حمراء على مفروشات ثقيلة ، تفوح منها رائحة قديمة ، عتيقة لذيدة . . . وكانت آنذاك أمسيات طويلة في شهر أيار ورائحة الليلك العبقة في الحديقة . أين كان هذا ؟ في ألمانيا ؟ في تلك الأيام ، كان كل شيء غريباً ، ولم يتكرر بعد ذلك أبداً . ليلاً ، كانت تضيء في الأفق الهالات المتخلفة من الحرب المنتهية ، وبين كتل الرماد المحترق ، والانفجارات والدخان ، وتخيّل بجعات ضخمة متفحمة ، تحلق بعيداً نحو الأفق الرهيب ، وقد برزت بصورة مستديرة ، من بعيد قباب وأسطح وذرى أشجار . أما الهلال المصقول ، كالمرآة ، فكان يسطع بحدة وقوة بين الثقوب ، واعداداً بالحياة والحب والشباب ، والتوفيق ، وتجديد ذلك الصباح ، في فترة ماقبل الحرب ، بالقرب من موسكو ، عندما رآها . كانت تقف ، وقد ارتدت ثوباً صيفياً بلا أكمام من الدمور ، عند خوذة الباب ، تقطع عناقيد الأكاسيا ، لامسة بركتها

العارية الدراجة المائلة المسندة إلى السياج . . . ثم رأى بوضوح نفسه إلى جانبها . كان ينفخ إطار الدراجة ، وكانت هي واقفة تحت شجرة الأكاسيا ذاتها ، مارة بيدها بصمت على السياج ، وكانت شفتها منتفختين . « من غير الممكن أن نكون قد تخاصمنا . من أجل أي شيء ؟ تلك كانت أياماً فريدة لا تتكرر من شبائي ، رغم أنه لم يبق في ذاكرتي اسم الفتاة الشابة ذات « السارافان » ، ولم أعد أذكر أسباب الخصام . . . » .

بيد أنه لم ينس حتى الآن ، لسبب ما ، كيف أنه أفاق من نومه ذات يوم من أيام شبابه البعيدة ، على مخزن الحشائش المجففة بشفتين متوجعتين من القبلات ، وقد أيقظه السكون بعد العاصفة الليلية ، وسيطرت عليه الدهشة : فمن بين الغيوم الكثيفة برز ولمع في عينيه نجم وحيد صاف ، وبقي هذا النجم حتى الفجر فوق المنحدر الأسود للسطوح التي لا تزال تفوح برطوبة المطر وطرأوته .

« الباردة رأيت أيضاً نجماً ، لكن كان هناك شيء آخر ، هو الشعور بالفقدان والحرمان ، أما تلك الليلة في شبائي ، فلا تزال حية في ذاكرتي . أجل ، أجل ، ظلال آذار الزرقاء على الثلج ، القمر في برلين ، فتاة في سارافان من قماش الزهور ، مخزن الحشائش المجففة الهواء العليل العبق للسطح الذي يحف من المطر — ماهذه ، أحلام صافية ، خالية من الغموم ، من شبائي ؟ أجل ، الحقيقي هو ذلك القديم . إنه بقي معي ، لم يغادرني ، وربما هو بالذات ، يمسك بي على الأرض » .

شعر بحماسة شديدة لتذكر طفولته الباكورة والاحساس بها : اللمعان الهادئ للندى على المروج ، صراخ الغربان في الصباح الشديد الريح ، سكون الغروب ، نفحة الحليب الصريف ، صوت المجاذيف على

النهر ، وفي الليل نباح الكلاب البعيد تحت العمق الواسع المكشوف
للسماء الخريفية ، ثم رصيف المحطة الرطب ، المغرق حتى أطرافه
بضباب شهر شباط ، المبشر بالربيع ، وبدخان القاطرات الحديدية
الذي تفوح منه رائحة الفحم . كما يذكر نفسه ، وقد أمسك بيد أمه
المدهولة ، التي تستقبل أباه القادم من مكان ما ، بلحيته الطويلة وشفثيه
المرثجفتين ، وهما تهمسان : « أيها الأم ، لم يقدر لي الصنح والغفران
على هذه الأرض ، كما لم تكتب لي السعادة . . . » .

لم يتمكن هو ، كريموف ، من تصوير شيء مماثل في أفلامه ،
بمثل هذا الشمول المر ، كما أنه كان من المؤلم جداً تصوير قوة الأب
اليائسة المكبوتة المقهورة .

« — لا أحد ، لا شيء ، لا لأحد . هكذا عشت ، يا أمي .

— ما هذا ؟

— هذا زمني .

— أنا أشفق عليك يا أندريه .

— أنت قديسة . . . هل من المعقول أنك قديسة ؟

— الق نظرة على ابنك سلاف ، ألم تنساه ؟

— وهل هذا ابني ؟ »

كانت يدا أبي القلرتان ، بصورة مزعجة ، والتميزتان بالضخامة
والجمال الرجولي ، قاسيتين عندما ربت على كتف أمي ، ومس بهما
بوجل ، ابنه المنسبي . أما الابن ، الخائف من مظهر أبيه الدليل المسحوق ،

فقد رأى كيف كانت عينا أمه تشتعلان دفئاً وخضوعاً بشوشاً ، و كيف كانت هي تصفح عن جميع اساءات زوجها الطائش واساءات هذا العالم الظالم — لقد كانت في ذلك اليوم سعيدة ، وهذا ما لم يستطع فهمه . « السعادة هي ما لم نشعر به نحن أنفسنا . وهذا أيضاً كذلك . . . » .

« أين ، وفي أي بلد ، كنت أبحث عن الميدان الصغير السعيد الذي يجب أن يكون تجسيداً لجنة الأرض ، والسكون والشفافية الناعمة من شمس الغروب ؟ — أين — في كوستروما ، في باريس ؟ في فيينا ؟ »

آنذاك خرج كويموف من المعبد وأخذ ينزل إلى ميدان « ريزيدنتبلاس » ، مقررأ فجأة ، أنه أمام ذلك الميدان الموعود ، — كانت السماء التشرينية تبدو رمادية ، وكان الثلج يسقط فوق السطوح ، وفوق الكنيسة ، الثلج الأول الخفيف ، التنظيف كالملائكة ، و ابيضت أحجار الميدان بالثلج ، كالوبر ، كما ابيضت مقاعد حوزية العربات ، كما في القرن التاسع عشر الطيب الذكر ، وكان الثلج يسقط على الأجلال الخضراء والحمراء للجياد الواقفة ، على القبعات التقليدية التي ابيضت كلها ، وشعر الحوزية بالبرد الشديد وأخذوا يمشون جيئة وذهاباً بين العربات ، كما في ساحات روسيا القديمة القيصرية . وفي منتصف ميدان ريزيدنتبلاس تساقط الثلج على حشد المظلات المفتوحة للسياح ، الذين تجمعوا حول الكأس الضخمة للفسقية التي كانت تمتد منها متجهة نحو السماء ، في رعب مجنون ، الوجوه الأصليلة للجياد البرونزية ، التي تراكت عليها قطع الثلج الكبيرة بكثافة ، كالقطن المندوف . وخلف القوس الحزين ، على مقربة من المعبد القوطي (بقناطره العالية المرتفعة وضخامته المدوية الرنانة ، حيث كانت تتردد أصدااء الخطوات على

البلاط الحجري) كان تمثال حديدي أسود لأحد الكرادلة ، يقف جامداً ، وقد غطى الثلج نصفه . وكان كل شيء في الميدان ليس كما تصوره ولا كما كان يرغب .

كان هو طيلة النهار يبحث في المدينة ، ولم يعثر على الميدان المرح ، الطبيب المبارك ، الذي رسخ في ذهنه بفرح في رحلته الأولى . آنذاك وقف كريموف على الرصيف أمام الدرايزين الحجري ، شاعراً ، من خلال ستورته الرقيقة ببرد نيسان ودفته ، وكانت الشمس في كل مكان تلون واجهات المحلات التجارية وزجاج الأكشاك ، وكان يتحرك أمامه حشد مبرقش منوع ، وقد ارتدى الثياب باهمال احتفالي ربيعي على أبواب الصيف . أما في الأسفل ، فقد كان الميدان الدائري الصغير يرقد مثل مسرح يوناني قديم ، غارقاً كله في سكون نيسان الدافئ من النهار المضيء والهواء الجلي العليل ، وفي الظلال الليلية لأشجار الدلب . كان الميدان هادئاً ، مشمساً ، مثل وعد الربيع الخالد في المدينة النمساوية العتيقة .

« اذن ، ربما حلمت بهذا الميدان ؟ في فيينا أم في زالسبورغ ؟ »

أثناء رحلته الأخيرة إلى فيينا ، هرب كريموف من قصر بالفسي ، حيث كان يجري لقاء السينمائيين الموسكوفيين مع المثقفين النمساويين ، وأخذ يبحث من جديد ، بعناد عن هذا الميدان ، الذي لا اسم له ، وكان هو ، كما في السابق ، في مكان ما ، خلف الدرايزين الحجري ، دافئاً ، محاطاً بأشجار الدلب الخضراء ، وبالحشود الربيعية المزركشة . . .

ولم يتمكن من العثور عليه . كان نهائياً رطباً ، من شهر شباط ، غائماً ، شديد الريح . وقد ضل طريقه في نهاية الأمر ، وفي أثناء بحثه

عن فندقه ، صادف « سوق الخردوات والأشياء القديمة » (كما عتبر فيما بعد) . كان يسير على أرض موحلة ، بنسبة مائة ، وكان الحاج الرطب يتساقط . وكانت تظهر ، من اليقين ومن اليسار ، وجوه ازرقّت من شدة البرد ، وسيارات ومنصات البيع ، وقد كدست عايتها ، بصورة فوضوية ، أشياء لا يمكن تصورها : ساعة حائط على شكل تابوت ، شمعدانات ضخمة تعود إلى عصر فرانس - جوزيف ، ثريات برونزية ، مصابيح كهربائية ، أقفال معقدة من عصور مختلفة ، كتب مجلدة تجليداً جليداً مهترئاً ، معاطف من الفرو من التقليلات القديمة الباطلة ، قبعات وطاقيات متنوعة ، صدرات الأجداد والأسلاف البالية ، أحذية أطفال مستعملة ، لوحات زيتية منسوخة من القرن السابق ، بطاقات ملونة زاهية صورت أشجار عيد الميلاد ، وسط المعامات الترينية الفاخرة ، محاطة بالشموع العائمة ، خوذة عسكرية قديمة ، آلهة هندية متعددة الأيدي ، محفورة على الخشب ، صحنون سجاير على شكل تماثيل من العاج ، كانت توضع في العصور الغابرة في الصاوانات الضخمة ، ثريات من الماضي الغابر للامبراطورية النمساوية - الهنغارية ، تنانير مستعملة ، سترات وسخة ، لفافات نسائية معتونة من الفرو ، وكانت تنطلق من جميع هذه الأشياء المتنوعة والعقيمة على المناضد ، ومن الحشد الشديد الحماسة ، ومن الزحام الشديد رائحة صوفية لثياب رطبة ، وللتلج المتساقط الرطب . وكان شباب ملتحمون ، غير مهتمين ، يتدافعون ، دون حياء ، في بنطالونات الجينز المهترئة ، وكانوا يضمحكون بأصوات عالية معانقين فتيات طويلات الشعور ، يشرقن بأنوفهن البنفسية ، وكانوا يشربون البيرة من الزجاجات ، ويلتهمون بضجيج المقائق من أكياس « السافان » .

استرحت انتباه كريموف امرأة شابة ، في معطف قصير من فرو
الأرنب ، ذات وجه شاحب رفيع ، أبعدت نظرها عنه عندما توقف
فجأة أمام بضاعتها الغريبة . كانت تضع على مفرش أمام قدميها
ملحنتين خشبيتين منقوشتين ، ومجموعة من دمي « ماتريوشكا » الروسية ،
وكُتَبَ ملونة من الصوف . نظر كريموف بفضول إلى دمي « ماتريوشكا »
اللامعة من الثلج الأبيض المتساقط عليها ، الغريبة ، العارضة ، هنا
في سوق فيينا المزدحم ، وتبادر إلى ذهنه على الفور ، أن هذه المرأة من
بنات وطنه ، كانت قد رحلت ، كما يبدو ، بحثاً عن جنة الله على
الأرض . . .

لم ترفع المرأة أهدابها السوداء المدهشة على وجهها الناصع البياض ،
رغم أنه قد وقف أكثر مما يجب ، من أجل استرعاء الاهتمام والفضول .
لقد لمست ، على الأغلب ، أنه ليس مغفلاً سوقيّاً ، وأنه رجل قادم
من منطقة بعيدة ، ولم يكن بודהا أن تلقاه ، في مثل هذا اليوم السيء
الطمس ، الشديد الريح ، وفي هذا المكان ، وبين هذا الحشد المهيّن .

— أأنت من روسيا ؟ — تجرأ كريموف أخيراً على سؤالها ، وهو
يرى ، عن قرب ، وجهها الجميل المتعب ، ومعطفها الجديد المصنوع
من فرو الأرنب ، الذي كان السير فيه على الصقيع المتكسر يبعث
الدفء والغنج والدلال ، أما الآن ، فقد كان الوقوف عند مهب
الريح ، في الثلج الدائب الذي وطأه كثير من الناس ، يبعث الاحساس
بالبرد . — عفواً ، — أضاف كريموف . — لقد لاحظت الملائع الخشبية
المتنوشة ، ودمي « ماتريوشكا » الروسية ، لهذا ظننت . . .

تغير وجهها الهزيل المضني ، وأصبح زهري اللون ، وتحلب
قوساً حاجبيها الأملسين ، فرفعت نحوه عينين كبيرتين ، مفلوحتين

بالألم ، وأزات على النور أهلبها ، وبيلدها الناعمة الرفيعة ، دون
قفاز ، لفت قبة معطفها على حنجرتها ، ولم تنبس ببنت شفة .
— أنا أخطأت — قال كريموف معتدراً عن الموقف الحرج الذي
خلقه ، — انتشول ديغين ، بيتي ، مادام * .

بعد أن قال كلمات الاعتذار بالألمانية ، رأى كيف التوى فمها
من الألم ، وقالت بصوت مذبوح ، محبوس :
— مات زوجي بالسكتة القلبية قبل شهر . وأنا بدون أية أموال
أو موارد .

دهش كريموف من صوتها الواضح ، المؤدب ، ومن لفظها
الروسي المثقف ، الذي بدا له من المستحيل سماعه في هذه السوق ،
في هذه القوضى ، بين صراخ الشبان المنسكعين المنفعلين ، المارين
بالبيرة والبيع والشراء ، وسألها :

— أين كنت تقيمين - في روسيا ، في أوكرانيا ؟

أخرجت بعجلة علبة السجاير من جيب معطفها ، وكانت السجاجة
ترتجف بين أصابعها الرشيقة ذات المانيكور المنقش على أظافرها ،
أدارت المرأة دولا ب القداحة على عجل ، ولم تستطع إشعال النار ،
بأي شكل من الأشكال (لأن يديها قد تجمدتا من البرد) ، فساعدتها
كريموف بإشعال النار من ولاعته . استنشقت المرأة الدخان بصورة
متقطعة ، وقالت وهي تلف قبة المعطف على رقبتها :
— كان بولفار تفيرسكي يُرى من نوافذنا .

وتصور كريموف بولفار تفيرسكي ، يخلف السور الحديدي ،
مغطى كله بالركام الثلجي ، ورأى السطح المغطى بالثلج لمسرح موسكو
الفني الأكاديمي بين الأشجار ، وأشجار الدلب المغطاة بالعواصف
الثلجية تحت النوافذ ، وتصور شقة مسكونة مريحة ، وتصور هذه
المرأة الفتية ، وهي تخرج من المدخل إلى مصابيح البولفار المسائية ،
بل رآها ، وتصورها أيضاً ، واقفة على الموقف ، ثم تستقل « الترولي
باص » بنوافذه الزجاجية المتجمدة ، فأنحط مفتاح حقيبتها المتجمد لخراج
تذكرة ركوب . وبعد أن تصور هذا كله ، توقفت نظراته على مكبات
الصوف المبللة بالثلج الدائب (كانت هذه المكبات تشير على نحو خاص
إلى شقاء لا يمكن إصلاحه ولا نداركه) ، وإدراكاً منه لانعدام أفق
الشفقة والمشاركة في العناء ، قال بعدم اكتراث :

- أريد أن أشتري منك « ماتريوشكا » ، كم ثمنها ؟

- لن أبيعها ، - أجابت بصوت خافت ، وهي تنظر بعينيهما
إلى الأرض :

- لماذا ؟

- أنا أعرف ، أنه لا تتوفر لدى السياح السوفييت نقود فائضة ، -
قالت المرأة ، وذكرته من جديد ، سرعتها في التدخين بموسكو ،
بالأمسية الشتوية ، بالمؤتمر وازدحام السيارات أمام قصر السينما في
شارع فاسيليفسكايا ، بعرض دوري جديد - في الردهة الواسعة ،
كانت النساء الأنبيقات يدخنّ وهن جالسات على الأرائك ، ويضحكن
ويتحدثن عن فيلم فيليني الأخير ، عن قضية طلاق ايليزابيت تايلور ،
عن فيلم أنطونيوني المطول إلى درجة لا تحتمل .

— أنا سأطير إلى موسكو بعد ساعتين ، — قال كريموف ، وأخرج بارتياح محفظة نقوده ، — ولم أعد بحاجة للنقود — ان هذه الـ «ماتريوشكا» رائعة . لدي مائة شلنغ ، هل تكفي ؟

أخذت المرأة النقود ، وأفلتت من العمق الليلي لعينيها المستعتين يأس شديد لا يقاوم ، مما أدى إلى انقباض قلبها .

في الفندق ، أثناء حزمه لحقائب السفر ، قلب كثيراً بين يديه هذه «الماتريوشكا» التي اشتراها من سوق «البالة والخردوات» ، ولعزمه على عدم تبديله لوسواسه الثابت — عادته القديمة التي سار عليها ، أثناء الحرب وبعدها بعدم أخذ أشياء ترمز للتعاسة والشقاء ، ترك كريموف «الماتريوشكا» في غرفة الفندق ، (كذكرى) على منضدة السرير الصغيرة ، مع الثلاثين شلنغ الأخيرة للخادمة . . .

« لكن ، كيف ، وبأي شيء ، كانت استقصاءاتي الفاشلة وبحي بلا جدوى عن الميدان السعيد وتلك المرأة الشابة ، تمسني وتمس أولغا ؟ هل بتوقع الفرحة وتوقع الشقاء ؟ وجون غريتشمار ؟ ومولوتشكوف ؟ ووالد إيرينا ؟ لا ، لا أريد التفكير بهم ، انني متعب ، متعب إلى حد الارهاق » .

* * *

مسح كريموف جبينه ، محاولاً تهدئة وجع رأسه الذي لا يتوقف ، بالمساج ، وكان عليه الآن ، بشكل من الأشكال ، أن يرتخي ، ويخفف من توتره ، كما كان يفعل أحياناً ، بعد التدريبات القاسية والبروفات : كان يقود السيارة إلى المحلق الدائري ، ماراً على البلدات والقرى غير

المعروفة ، ويتوقف ، ثم يخرج لاستنشاق هواء الغابات والحقول ، والريح الدافئ الذي يبعد التعب والارهاق .

* * *

أجل ، أجل ، غريتشمار . . .

« عندما أفقت من النوم ، وأنا في الصف الثالث من الصالة ، أدركت أن فيلمك عظيم . » « عندما أفقت من النوم ، أدركت . . . » لمن قلت هذه العبارة ؟ بلحون غريتشمار بالذات ، بخصوص فيلمه . وماذا حصل ؟ لأنه لم يمتنع ، بل ضحك . إنه سأم شكلائي ، مفعم بالفرويدية . بيد أن الفيلم ضم مشهداً مذهلاً — أب وابنته يلتقيان في ناد ليلي سري ، وهما ضمن جماعتين مختلفتين . الابنة لا ترى أباهما . والأب يراقب ابنته ، من خلال الضوء الخافت ، وهي تتعري طواعية من ثيابها ، فيتعرفها ويصاب بصدمة عصبية ، ويخجل ويعاني ويتألم ، حتى كاد أن يفقد عقله . . . ما الذي يخطر في رأسي ؟ مولوتشكوف من جديد ؟ كان يجلس دائماً ، كجندب متجمد ، على الديوان ، ينتظر ، وكأنه مثال الاخلاص ومثال المحبة — لماذا ، لماذا احتاج إلى الأربعة آلاف ؟ من أجل شراء البيت الريفي ، من أجل الهواء النقي لسونيا ؟ وأي فرق — سواء من أجل البيت الريفي أم للتكديس في صندوقه . كان الجوع خائفاً على طريق السيارات ، لا يستطيع المرء أن يستنشق الهواء . الآن منعطف نحو اليمين ، نحو الغابة . كل شيء سينتهي ، كل شيء سينسى في الغابة ، في الطريق إلى البيت الريفي . لا غريتشمار ، ولا مولوتشكوف ، ولا تلك المرأة في « سوق البالة » ، ولا ذلك الميدان السعيد في فيينا . . . على أي نحو تتعلق هذه الأمور بي وبأولغا ؟ عدت من خارج البلاد ،

هل كنت في صحة جيدة ، هل كنت راضياً ، ألم يجاملك الغرب .
هكذا أم لا ؟ أريد أن أنسى ، لا أريد أن أذكر كثيراً من الأشياء .
« عندما أفقت من النوم ، أدركت . . . » - لقد أنهكتني هذه العبارة ،
علي أن أنساها . وعلي أن أنسى جون غريتشمار بمشهد المريع المذهل
في فيلمه ، وأن أنسى باريس وميدان بيغال ، وكذلك الفندق وأقداح
الكوكيتيل في البار ، وبالابانوف بوجهه القرمزي ، وبسكاريف النزيه
بعكازيه ، والعاملون في الاستوديو ، الذين كانوا في الردهات ، في
الدهاليز ، بشماتهم الحقيرة . ليسوا هم الحقراء ، بل أنا نفسي وماحدث
في الليلة الفائتة . . . شيء واحد فقط كان رهيباً آنذاك ، هو فتور
أولغا ووحدي . ولكن ، إلى أين أنطلق ومن أجل أي هدف ؟ إلى أين
أنعطف ؟ إلى حيث الغابة ؟ » .

قيظ حارق على طريق السيارات ، لمعان متزلق ، ضربات الذباب
على زجاج السيارة ، الريح الساخن ، نتن الاسفلت اللائب ، الغازات
المقذوفة - المحلق الدائري الذي لا نهاية له ، بدا وكأنه انتهى إلى الأبد
فجأة . وماكادت السيارة تنعطف نحو الغابة ، إلى الطريق الضيق المبرقش
ببقع الأشعة الشمسية ، حتى أخذ يهب الهواء البارد بلطف على نوافذ
السيارة ، واهتزت أغصان أشجار الشوح المنخفضة كالمراوح المنشطة
على الزجاج الذي يهب عليه الهواء ، فكانت تنضح بالضوء تارة ،
وبالظل تارة أخرى .

« كل شيء انتهى ، كل شيء انقضى وانتهى . سيارتي - قلعتي ،
ملجأئي وملاذي ، ملاذي في جميع المصائب ، - فكر كريموف في
نفسه بسخرية ، محاولاً التمتع بالرطوبة وبهواء الغابة ، وهنا تذكر

عبارة تولستوي المحبوب إلى قلبه من يومياته للعام التسعين - إنها عبارة
الأمل الرائعة : « إذا ما بقيت حياً . سأحيا وأكتب . وكأنني أشعر
بنفسي أكثر نشاطاً » . - أجل ، أكثر نشاطاً وحيوية . كل شيء رائع .
كل شيء جميل . كل شيء ممتاز إذا ما بقيت حياً . . . » .

ودون أن يدرك ما يجري له ، أحس كريموف بدموعه التي تلدف
وتخفه بحرارة ، وشعر بغشاوة ساخنة تغطي عينيه ، فضغط بشدة على
أسنانه ، وبكى بارتباك من التعب المميت ، من الكآبة ، مبتلعاً نحيبه
ودموعه ، خافضاً رأسه ، وكأن هناك من يسمعه ويراه في السيارة ،
يرى ضعفه ، الذي كان يكرهه عند الآخرين ، والذي عرفه الآن بمتعة
ويأس ومرارة :

* * *

الفصل العشرون

كانت هذه قاعة ضخمة كبيرة ، تشبه الصالة الرياضية ، ذات جدران زجاجية عازلة للصوت - وفي منتصفها كانت تترأى مقصلة معدنية بلونها الأسود ، وكأنها منشأة أسطورية ، يلمع فيها الفأس المرفوع بحده المرهف المائل ، ويظهر في المقصلة تجويف المقصورة ، حيث على المحكوم أن يضع رأسه ، قبل أن تسقط الفأس المتحررة على الرقبة الموضوعة ، شارمة العمود الفقري . . .

كان قد أحس مسبقاً بالألم الناري المحرق ، أحس مسبقاً بصرخته الواهنة الخرساء الأخيرة من فمه المغلق ورأى جسده بلا رأس ، ودمه ، ورأسه الميت المقطوع ، المتدحرج الدائر في السلة . ومن هذا المصير الأخير الذي لا يرحم ، انتابه الرعب وتجمد شعره على فقرته ، وكاد أن يسيطر عليه الغثيان .

كانت تظهر ظلال مجهولة في الزنزانة ، وكان أحد جدرانها ، مثل باب واسع باتجاه القاعة الزجاجية ، وكانت سيور صلبة تصرصر على هذه الظلال ، أما الوجوه العامة المجهولة فكانت لبقة ، طيبة ، كانت تبدي نحوه عطفاً مشروعاً في الدقائق الأخيرة من حياته . كانت هذه الظلال تفعل شيئاً ما في الزوايا ، دون كلل ، وتنتظر دون ملل . سأل أحدهم بصوت هادئ أبيض ، ما إذا كان يرغب بتدخين سيجارة ،

فارتعش ببدنه كله ، مدركاً بصورة نهائية ، بأنها هاهي قد اقتربت
متعة الوداع الأخيرة على الأرض ، وأنه يسمح له بتلبية رغبته ، كمحكوم
عليه بالاعدام (وكان قد قرأ ذلك وعرفه منذ طفولته !) . كان يدرك
العبث الكامل لكل ما يعرض عليه ، كان يدرك أن كل ما عليه أن
يفعله ، أو لا يفعله هو لا شيء ، وليس له أي قيمة - وقال ببلاهة ،
وهو بالكاد يحرك لسانه المنتعقد : « أجل » . قُدمت له سيجارة مشتعلة ،
فخذه الدخان الحلو - القابض ، وشعر بدوخة في رأسه على الفور .
أخذت تسبح القاعة ذات الجدران الزجاجية والمنشأة المظلمة ذات الفأس
المائل إلى الأعلى ، المجهز له أداة للموت ، في ضباب مائل إلى البياض
ونضح الضعف زيزفوئاً متبخراً . تبدل كرموف بصورة قاسية ، وكاد
أن يفقد وعيه ، فأسنده صدره ويديه على طاولة ، كان يدور حولها
ويتحرك شيء ما ضبابي أبيض . وفي هذا الشيء الأبيض لم تكن تختفي ،
بل كانت تبرز وتحضر ظلال جامدة ، أخذ يسحب أحدها ، دون
أن يشعر ، السيجارة من فمه ، واختفى طعم التبغ ورائحته ، وشعر
بشيء من الارتياح ، وتبدد الشيء الأبيض في الزنزانة ، ومن جديد
سأله ظل لطيف ، فيما إذا كان يرغب في شرب كأس من النبيذ الأحمر ،
وإذا ما رغب بذلك ، فعليه أن يشرب ببطء ، وإلا فلن يشعر بأي
متعة . . . غير أنه بعد أن شعر بالتخدير القاسي للسيجارة ، أراد أن
يتخلى عن كأس النبيذ (« ولماذا كأس وليس قدح ؟ ») ، بيد أنه
كان ثمة طعم المخدر الحلو السام الفاسد في خدار السيجارة ، ومن يدري
فقد يكون هذا الطعم التخديري في النبيذ الأحمر ، الذي لم يكن يحبه
في الحياة الحرة الأخرى . انسكبت في حنجرته قطرة من السائل الأحمر
الدافي ، الذي قدمه له ووضعه في يده ظل لا يتراجع ، وكانت هذه

القطرة ذات كثافة قابضة ، وكان لونها لون الدم البشري ، فصعر
خده ، شاعراً بمذاقه الضارب إلى الملوحة ، بدلاً من الحلاوة والعدوبة
الشملة للنبيد الأحمر الذي كان قد جربه ذات يوم فرنسا :

« لأية قوة أخضع أنا ، بأية قوة أوافق هذه الظلال ؟ ولماذا تحمل
الظلال سيوراً ؟ . . . من الذي يرغبني ؟ لا أحد يقمعي ، ولا أحد
يتوسل إلي . ذلك لأن لا معنى لأي شيء ، فبعد بضعة دقائق لن أبقى
علي قيد الحياة » .

والغريب أنه لم يرد بالرفض ، ولا بالامتناع والصراخ ، عندما
سأله صوت بلا جسد ، فيما إذا كان يرغب برؤية امرأة . وظهرت
في الحال في الزنزانة صورة امرأة هيفاء قوية ، دخلت بجسمها كله إلى
الزنزانة ، في ثياب شفافة ، تهر رديها بصورة متموجة ، وعندما
اقتربت بخطواتها الهزازة المشوشة ، ومن خلال ثوبها الرقيق الفاضح
ارتسم ثدياها المصقولان الكبيران بحلمتيهما البنيتين ، بشباب وبرز
ولائم ، كما برز انعطاف خصرها ، وبطنها ، وقدميها الرشيقتان
الممشوقتان .

« بلا معنى » ، — اندفعت إلى وعيه ، وأراد لو يتسمر في الزاوية ،
لو ينسحق في الجدار ، رافضاً ولاعناً عمل الوعي ، الذي مهما كان
يتصور بوضوح ما يجري في الزنزانة ، فانه كان يكرر في الوقت نفسه ،
بصورة مسموعة ، وبلا رادع : « عبثاً كل ما لن يتكرر غداً . عبثاً
كل ما لن تشعر به غداً . الأمل — في الابداع والخلق . واليأس يعني
الموت . ان الموت يجعل من كل حي تقريباً لا معنى له ، وبقي المعنى
واحداً ، القفز إليه ، إلى الموت ، عبر الألم واليأس . . . » « وهناك ،

هل سيكون هناك معنى أم لا ؟ آه ، لو كان هناك معنى ! المعنى هو الحياة ، بل الأصح ، هو عدم الاختفاء إلى الأبد. الوجود في شكل آخر ، جسدي أم غير جسدي ، وجود الروح ، المهم ألا نهلك ، ألا نخفي دون أثر ، ألا نتحول إلى عدم . ولماذا ، يا إلهي ؟ لماذا أخاف الاختفاء إلى الأبد ؟ قد تكون في هذا حكمة عظيمة ، قانون عظيم — الاختفاء والانحلال والذوبان ، أي عدم الشعور بما هو بعد الاختفاء ؟ الحياة هي الاحساس بالحياة ، وبالتالي الرغبة . أما الفراغ ، فحيث لا وجود لها . الموت هو الظلمة ، الانهيار ، التحليق اللانهائي إلى مكان ما . لو كان الأمر إحساساً بالتحليق المنسجم اللانهائي في الظلمة . لكنها هي الحياة ، الحياة . أن يكون المرء ذرة غبار في الكون ، أن يصبح ذرة غبار . . . انني أؤمن بهذا ولا أؤمن . والأكثر أنني لا أؤمن . لماذا شعرت هي في الدقائق الأخيرة ؟ هل فكرت بي ، كما فكرت بها الآن ؟ كلا ، لم يكن هذا حباً ، لقد كان شيئاً آخر . اذن ، لازلت أشفق عليها ، وأذكرها حتى الآن . وهل حدث لي كل هذا بسببها ؟ و . . . المقصلة ؟ ومن حكم علي بالاعدام ؟ وهل ارتكبت جريمة ؟ لقد أخطأت في شيء واحد ، كما أذكر : كان علي أن أدير المقود إلى اليمين ، إلى اليمين قليلاً ، نحو حافة الطريق ، أما أنا فقد أدركته نحو اليسار . . . لماذا لم يكن المقود طبعاً لي ؟ ولماذا نخطرت في ذهني العبارات التي قالها أحدهم في الحلم : « ولا شيء » ، ولا خطوة واحدة . ولا شيء ولا معنى واحداً ؟ هل أردت اللعب بالقدر ، بالمصير ؟ . . . وكم بدت رائعة هذه العبارات ، الواعدة بالراحة ، والهدوء والطمأنينة ، ومتعة سكينتنا المساء . انها عبارات قالها أحدهم في اللحظة ذاتها ، عندما واجهه شيء ملعاع ، ينبعث منه الدخان . . . » .

« وهل حدث لي هذا ؟ » ،

في الليلة الفائتة ، أفاق كريموف خائفاً بلا سبب ، كان يستلقي والعرق يغمره ، محتثاً ، لاهثاً ، في ذهول . أما الخوف فقد غمر جسمه كله بالبرد ، لقد توقف تنفسه بضربات قلبه السريعة ، واعتصره الأسى ، وتركه لحظة ثم تزايد وأمسك به من جديد رعب مجهول بلا سبب من شيء آخر ، قدري . . . وكان هو لافاً رأسه بالمخدة ، ينتظر ، بل ويستعجل الثانية الأخيرة ، عندما يتمزق قلبه ويتوقف كل شيء ، لكن قلبه لم يتمزق ، ولم يتوقف ، وكان الألم ينغرس فيه بأسنان معدبة ، بأشواك . « فلتنتهي هذه الليلة بسرعة . انني لن أستطيع احتمال هذا » ، — قال كريموف مخاطباً نفسه ، متأملاً ظلمة الغرفة ، في تلك الجهة ، حيث يجب أن تكون النوافذ ، وفجأة ، أحس بوضوح ، أن المنزل يتعد ، يهبط ، ينزل إلى تحت الأرض ، إلى قاع مفتوح ، وينطبق فوقه سواد مع قرقرة بسمك أمتار عديدة ، ويتكثف ، وينضغط ، ويضغط على السطح ، على الجدران ، على الأبواب (« هكذا ، هكذا ، هكذا اختفى بالأمس فندقان في كاليفورنيا ! ») ، — وفي هذا السقوط الممتص في الظلمة الخائقة تحت الأرض ، كان من المستحيل طلب العون والمساعدة بالهاتف ذي الأسلاك المقطوعة ، وفي الوقت الذي كان يعرف فيه أن المصير المحتوم قد حل ، وجان الوقت ، وأنه سينتهي الآن كل شيء في الظلمة المسدودة للمنزل المنهار ، ولن يتمكن من العثور عليهما ، من انقاذ زوجته وابنته اللتين كانتا في مكان ما من الغرف المجاورة . واستجمع قواه ، وبذل كل جهده ، وصرخ ، وناداهما ، بيد أنه لم يخرج من صدره سوى حشرة ضعيفة خافتة : « أولاً . . . ثانياً . . . » .

« هذه هي النهاية ، النهاية ، — فكر كريموف وهو يكاد أن يخرج من الكابوس . — انني أدرك هلاكي ، وأودع نفسي بنفسي ، وأودع زوجتي وابنتي ، وأتصور أية آلام عاناها المدفونون وهم أحياء ، عندما يعودون إلى وعيهم وسط الظلمة القائمة مع رائحة ألواح التواييت ورطوبة القبور . . . بماذا شعر غوغول ، بخياله ، هناك تحت الأرض ، الذي كانت جثته مقبولة ، كما يقال ، عند الكشف عن قبره ؟ هل فقد عقله ؟ وأنا أيضاً أفقد عقلي ، لأنني الآن لا أشك ، بأن كل ما فعلته ، وما أحببته سيخفني معي ، باختفائي . اذن ، ربما يكون الكذب خلاصاً ؟ أجل ، ان الحقيقة الأكثر يقيناً وصدقاً تغدو بلا معنى ، إذا ما اختفى الكذب الذي أوحى به أحدهم للانسان حول استمرارية حياته . ونحن جميعاً خاضعون للكذب الدفاعي المنقذ . انه الخداع العظيم ، خداع له مفعول المعجزة ، حول لا نهائية الأيام على الأرض ولا نهائية متعة الحياة ، وانه أعظم من جميع الحقائق ، لأنه يبقينا الأمل بعمل شيء ما . . . وربما ، أن الحقيقة تعيش تحت سقف الكذب الدفاعي ؟ وهل من الممكن أن الحقيقة مجرد ساكن ، مقيم ، مستأجر غرفة في بيت الكذب العظيم الذي يوحى لنا جميعاً منذ الولادة : ربما أنت لن تموت . . . على الأقل سيحدث هذا لك بصورة متأخرة كثيراً عن الآخرين ، وربما لن يحدث لك ؟ . . . — تابع كريموف ، فرحاً وهو شبه نائم ، بهذا التبرير للأفعال والآلام الإنسانية . — ان الحقيقة الأكثر نقاء وطهارة ليس لها أي قيمة أمام الخداع العظيم ، الذي يريده الناس أنفسهم . ولو لم يكن هناك ذلك الكذب — لما رأيت ذرى أشجار البتولا الجالسة في السماء ، ولا ذلك النجم الجليل ، كما حدث بالأمس . اذن ، فالحياة هي مسرحية ، سيناريو ، ينشط فيه شخوص ، أبطال مسرحيون ،

ويتمحرون ، ويدون رغباتهم ، دون أن يفكروا ، دون أن يرغبوا
بالتفكير بأنه سوف تغلق الستارة حتماً . وعلي أنا أن أرى هؤلاء الأبطال
كبي أفهم مسرحيتي في نفسي . لعبة ؟ عم أتحدث ؟ وهل يحق لي أن
أفكر على هذا النحو ؟ أجل ، فهل يعني هذا أن كذباً لا يقهر ، حول
لا نهائية حياتي يجعلني سعيداً إلى حد ما أحياناً ، راضياً إلى حد ما أحياناً ؟
انني أتحالف شيئاً ما ، انني أتجاوز حداً محرمًا ، يكمن خلفه سر أسرار
الخلود وسر الوجود الإنساني الذي لا يدرك . . . ان الخوف من الموت
سيختفي عندما يتم العثور على معنى الحياة وإدراك هذا المعنى . ولكن
هل يفكر الناس بذلك تفكيراً جاداً ؟ وهل أعرف أنا هذا المعنى ؟ . . .
ولكن إلى أين نسقط وننهار ؟ إلى أية هاوية يسقط بيتنا ؟ » .

استيقظ كريموف من ضباب الحلم ، ونهض قليلاً من الفراش ،
سامعاً بارتياح سريع التكتكة الصاحية الصرارة للساعة - المنبه ، - وراق
الهواء في المكتب ، وبدا وكأن سكون الليل الصيفي قد سيطر على العالم
كله ، وتدفت البرودة من النافذة المفتوحة ، غاسلة له صدره المتعرق .
وأشعل متلمساً بيده المصباح الموجود في طرف الديوان ، غير أن ضوءه
بهر له عينيه بسطوعه الشديد ، فأطفأه على الفور .

كان لا يزال تحت سيطرة النوم ، عندما تذكر حديثه بالأمس مع
أولغا في غرفتها ، حتى الكلمة الأخيرة ، واللوحة المسندة إلى الجدار ،
وآثار النجم المنهمر في الماء المسائي ، الذي رآه من على الجسر وعلى
لوحتها . « أي تطابق غريب ! لقد رأينا معاً النجم نفسه في وقت واحد .
وأية علاقة بين هذا النجم والحلم الكابوس ؟ بين النجم والكذب . . .
ومافائدة البحث والتنقيب عن علاقة غامضة مبهمة ! لقد خدعت أولغا

وثانياً في شيء ما ، بحبي لهما حباً يفوق الوصف . ولكن ، أليس الأمر كذلك ؟ وهل كان من الممكن ألا يكون كذلك ؟ انني مذنب ، تافه ، حقير في كل شيء ! » .

كان كريموف يشعل الضوء تارة ، عازماً ، عبثاً ، على القراءة ، ويطفئه تارة أخرى ، ويمسح صدره ، واضعاً وجهه قبالة الريح الذي كان يهب من النافذة ، حيث كان الجو في الحديقة قبيل الفجر صامتاً ، لا مبالياً ، موحشاً . كان البرد القارس يصيبه بالقشعريرة ، ويضعفه بالأسى ، وتوقفت ضربات قلبه من حدسه بأن شيئاً ما عالمياً ، شاملاً ، رهيباً ، سيحدث الآن في العالم — ستصطدم الأرض بكوكب جبار ، وتتوقف في قتامة الكون ، وخيل له أنه في هذه الدقيقة قد مات أحد من أقاربه ، ووقعت كارثة لأبنائه ، — وعندها جلس في فراشه ، جلس متأملاً الستائر المفتوحة ، التي كان يسود خلفها ليل لامبال ، بطيء ، لا يساعده في أي شيء ، وتضرع إلى الليل بأن ينتهي بسرعة ، والا فسوف يجن من الوحدة والخوف المبهم ، ومن إحساسه المسبق بالكارثة .

في الغرفة المجاورة كانت أولاً نائمة ، وكان عليه أن يبذل قصارى جهده ، ويتوقف عن التفكير بما كان يعذبه ، ولم يكن يجيبه عن أسئلته ، وإرغام نفسه على تهدئة نفسه ، والدخول إلى غرفتها ، والاستلقاء بجانبها ، وتقبلها وهي نائمة ، بالكاد تتجاوب معه بنعومتها الرتيبة الخفيرة .

« أنت تعرفين ، أنه من السخافة بمكان ، في مثل سني التحدث عن ذلك ، لكنني أحبك ، كما كنت قبل عشرين عاماً » — بدأ كريموف

يكرر الجملة التي خطرت في ذهنه ، والتي كان عليه أن يقولها لها . لكن هذه الجملة التي لم يلفظها بعد ، تلبدت بالابتدال واحتجبت مسبقاً ، فطرحها جانباً ، مدركاً أنه حل زمن غريب ، لا يخصه ، وأنه بعد تلك الكلمات ، لن يستطيع النظر إلى عينيها المخمليتين المعاتبين بهدوء .

وتذكر كريموف : بالأمس ظهر في عينيها ذلك التعبير ، وكأنها كانت تنتظر كلمة ما ، كانت تنتظر مصالحة ما ، رغم أنه لم يحدث بينهما خلاف ، بحاجة إلى المصالحة . ان أولغا لم تخلق للخصومات العائلية . ولم تكن تبدي رغبة أنانية ذاتية بالتغلب عليه . وهي بالأمس لم تؤنبه بالكلمات ، بل بابتسامة لم تكتمل ، بسبب هذه الابتسامة أصبح أشد قسوة عليه أن يفكر ببراءتها وطهارتها ، ويأثمه الذي ارتكبه في حقها .

« أولاً ، مهما حدث ، عليك أن تصدقيني » ، — أخيراً ، وجد الكلمات ، ومن جديد ، رمى جانباً هذه العبارة التبريرية ، غير عارف ماعليه أن يفعل في وحدته القلقة هذه ، ودخل إلى غرفتها متردداً ، ووقف في الظلمة الرمادية خلف فراش أولاً ، واستلقى بحذر على طرفه ، ومس بشفتيه الخافتين كتفها العاري ، الذي بدا له دافئاً ، طفولياً ، ضعيفاً .

— أولاً ، — قال كريموف بهمس ، — ساعجيني . . .

— أنا لا أفهم ، لماذا أيقظتني ، — قالت فجأة ، دون أن تلتفت ، بصوت جلي واضح ، أذهله بتأفقه وبرودته . — انني لم أتم طيلة الليل . لقد غفوت لتوي . يا إلهي ، — همست أولاً بتوسل ، — لماذا تزوجت منك ؟ كان علي الزواج من رجل عادي ... ماذا سنفعل الآن يا فياتشيسلاف ؟ الطلاق ؟

— كان باستطاعتي أن أخلصك مني ، يا أولاً ، لو لم أحبك ، — قال كريموف بصوت أجش . — تصرفي كما تريد أفضل .
— أرجوك ، أخرج ، من فضلك ، لن أحتمل . . .

في مكتبه سقط بجسمه على الديوان ، ومن أجل أن يهدأ قليلاً ، أخرج من الطاولة الصغيرة يوميات تولستوي ، لكنه لم يستوعب النص ، فقد كان أسوداً ، حجرياً في الضوء الجامد للمصباح الليلي الخافت . ولم يستطع قراءة سطر واحد ، كان ينتظر إلى الصفحة المتوهجة ، وينتظر ، لسبب مجهول ، اتصالاً هاتفياً ، ينبثه بالمصيبة ، بالكارثة ، — الإشارة الأخيرة المفاجئة . بيد أن البيت كله كان صامتاً ، خارج الزمن ، في الوقت نفسه ، كانت الساعة تدق بيقظة ، ولم يصل إلى مسامعه أي صوت من غرفة أولغا . كان النوم المميت ، الخالي من القمر ، يخلق فوق العالم ، وأوحت له فكرة بعيدة غامضة ، بهدوء ، بأن عليه أن يغفو حتماً — ففي النوم الخلاص . وخلال تفكيره بأن النهاية والخلاص من قيود الليل الذي لا ينتهي ، قاب قوسين أو أدنى ، بدأ ، وهو مستلق على ظهره ، بتدليك صدره ، والتنفس بعمق ، وهو يعد إلى المائة ، ثم أطفأ النور ، وأغلق عينيه — وهنا اقترب خوف مجهول ، بلا سبب ، على قوائم كثيفة الشعر ، من سريره . وتوتر جسده بكامله ، وأخذت كتابة مسيطرة تدفعه إلى النهوض وارتداء ثيابه ، والهرب على عجل والسير في شوارع البلدة ، إلى مرأى عينيه ، والهرب إلى أقصى الأرض . . . غير أن هذا يمكن أن يكون جنوناً . . .

في تلك الليلة ، أدرك كريموف أنه وحيد حتى نهاية أيامه ، ولن يستطيع أحد مساعدته .

« من أين هذه الأصوات ؟ ولماذا أسمعها بهذا الوضوح ، وبهذا القرب ، لدرجة أنني أميز لكنة غير روسية . من كان يتكلم بمثل هذه اللكنة الحادة المألوفة ؟ إنه صديقي . . . ان اسمه يدور في ذهني ، لكنني لا أستطيع تذكره . . . » .

— عليك الآن أن تفكر بالأرض ، أن تفكر ، وتفكر كالمسحور . . .
« بالأرض ؟ ألا يجب أن أفكر بالإنسان ؟ وماهي الأرض بدون الإنسان ؟ من أجل أي شيء هذه الأرض ؟ لمن هذه الأرض ؟ »
— إن النظر إلى النار ، إلى الماء ، إلى الأرض أكثر متعة بمليار المرات من النظر إلى شاشة السينما وشاشة التلفزيون . وكيف أعبر عن هذا ؟ يستبدلون الحياة بلعبة ، لا . . . يقلبون الحياة إلى لعبة بالحياة . العالم كله يلعب بالجمال الرخيص . انهم أغبياء ، انهم يقتلون أنفسهم . هناك ، عندي في الورشة . . . أقصد في المكتب ، عصافير فقط ، أما جميع الطيور الجميلة فهي ترقزق في النافذة . صيفاً ، لا يصح النوم في الساعة الثالثة — هناك حفلة موسيقية . وسيقتلون الطيور . سوف ننظر إلى العصفور في المتحف . كما ننظر إلى الحراذين الطائرة المنقرضة .
« أي مرارة ، أي كآبة ، أي سخط في كلماته هذه ! »

— الآن سبيلد إنسان بتركيب غير إنساني . بدون عقل . إنه الإنسان — الآلة من الصنف الثاني . إنه يلعب بالأموال والأشياء ، أما قلبه فيطير بعيداً ه . . . كذا . . .

« ماذا يعني « بعيداً ه . . . كذا » ؟ أغلب الظن ، هنا كان المعنى التالي — لم يكن القلب على وفاق مع هذا التركيب . والناس خضعوا للاغراء الشامل ولم يعودوا يعيشون في وفاق مع أنفسهم . »

— والأطفال ، الأطفال . . . ربما يسرون على ظهور آبائهم ،
ربما يدوسون آباءهم .

« من ؟ لا ، ليس مجرد الأطفال ببساطة . أطفال البشرية ؟ أطفال
العالم كله ؟ وماذا في الأمر ، ففي هذا ثمة حقيقة خالدة ورهيبه . . . »
— الإنسان ليس مسؤولاً عن مكان ولادته ، وكيف ولد . . .
طالما أنه يتمتع بوجه ولغة ويدَيْن . . . فهو سيمفونية . سيمفونية سيئة ،
لكنها موسيقاً على أية حال . الأمريكيون يودون رؤية البشرية في
غرفة العمليات . إنهم يصرخون وينادون بالتفوق الأخلاقي على الآخرين ،
والجراحون أقطعهم . . . فهم يحلمون بتحويل العالم كله إلى أغبياء .
الأمريكيون هم لعنة أوروبا ، وعندما يخرجون منها فسيتفق الأوروبيون
ويتفاهمون . الآن ، هناك أناس كثيرون بأعين دولية . (« بأعين
دولية . . . ماذا يعني هذا القول ؟ ») .

— نحن نتعلم منكم الأشياء السيئة ، وأنتم تتعلمون منا الأشياء
السيئة . وهذا لن يمر مرور الكرام . في البداية ، سوف نشكو وتشكون
من وجع الأسنان . سوف نصرخ من الألم . يجب ألا تدور رؤوسنا ،
من الوجع ، ثم تعود إلى ما كانت عليه . لا وقت للتفكير . نحن جميعاً
قتلة ومنتحرون . يقتل أحداً الآخر ، ونحن معصوبو الأعين . ونقتل
أنفسنا أيضاً . نقطع أوردتنا ، ونظن أننا نقتل جارنا . اننا أغبياء بأوداج
منتفخة . قال دوستويفسكي : الجميل ، ماذا قال . . . إن الجمال سوف
ينقذ العالم . لا ، ليس هكذا . النساء سينقذن العالم ، إذا لم ينفجر في
عام ثمان وثمانين . ان النساء مخلصات للأرض كالكلاب . أما الرجال
فقد خانوا الأرض ، واغتصبوا مدنيتهما . وسيفعل النساء ما لم يتوقعنه

هن . فقد سئمن من الرجال — السياسيين الحمقى ، الذين اخترعوا الحرب والتحرير . إن النساء لسن ملائكة . ولو كن ملائكة ، لما رغبنا بهن . النساء مجرد نساء لا أكثر . انهن يعمان على استمرار الجنس البشري . . .

أين يدور هذا الحديث ؟ أجل ، أجل ، كانا جالسين ، قبيل العرض الدوري في بهو صالة سينمائية ، ثمليين قليلاً من الويسكي ، وكانت عينا غريتشمار الذكيتان ، كعيني خنزير ، تلمعان بارهاق وحزن .

* * *

« إن أولاً لم تنقذني ، رغم أنني لست سياسياً ، وهي ليست مجرد امرأة . . . ولكن ، متى وأين جرى كل هذا — في أي قرن ، في أي عالم ؟ لقد بدأت أنسى . . . أظن ، في عام سبع وخمسين ، في ضاحية موسكو ؟ كانت تقطع عناقيد الأزهار من غصن شجرة أكاسيا ، وارتفعت تنورتها الخفيفة ، كاشفة عن ركبتيها الممتلئتين ، وعن فخذيها السمينين البريثين ، وهذا ما أفقدني عقلي . . . أنها كانت المرأة الوحيدة التي جذبتني إلى نفسها جذباً شديداً بنعومتها الفاترة ، التي تشبه أمسيات نيسان العليلة بروعة هوائها البنفسجي الهاديء . . . » .

« ربما يكون ، هذا الألم — عودة إلى الذات ؟ ربما الخلاص في العودة إلى الورا ، إلى تطهير الذات ؟ لكن الورا لا يضم سوى الفراغ ، لم يكن هناك شيء — لا حرب ولا حب ، ولا أفلام . وهل يعقل أنني عدت إلى تلك الدقائق الطاهرة البريئة من ولادتي وظهوري إلى الدنيا ، حيث لم يكن هناك أي شيء معيب ومخجل ؟ . . . غير صحيح ، الشيء

المهم" كان قد حدث. فقد سبق ولادتي حب أي وأمي . وهل يعقل أنني عدت إلى تلك البداية ، إلى ذلك الحب ، الذي أدين له بكل شيء ، إلى طفولتي المباركة السعيدة ؟ وماذا حدث بعد ذلك في فتوتي وشبابي ؟ الحرب ، الخطر ، المكافات ، ومعها الفكرة الدائمة من أجل البقاء حياً ، وأحياناً ، في الدقائق المميتة ، تراودني فكرة مقرفة ، شنيعة بأن أصاب بحرج في يدي أو قدمي ، والحلم بأن أنزل في المستشفى ، وأستريح ، وأسترد أنفاسي في المؤخرة ، ولو لنصف شهر . . . في حين أنني كنت أعد الملازم الأكثر شجاعة تقريباً في استطلاع الفوج . كنت في العشرين من عمري . لماذا أطلقت النار على يده ؟ هل هي الشفقة ؟ أم أردت التخلص منه ؟ من خوفه ؟ ما الذي كنت أريده طيلة حياتي ؟ أرضاء طموحي ، أم أردت الحب ، أم أردت الحصول على مديح الناس ، واعجابهم ، ذمومهم ؟ كم هذا مقرف ، تافه ، خطأ لا يغتفر . . . ان من المستحيل تذكر الكثير دون خجل ، دون تقزز واشمئزاز من ذاتي . وماذا كانت حياتي — مخدر أم حالة طبيعية ؟ والآن لما كان باستطاعتي أن أعيشها . ونادر جداً أن يعود أحد إلى براءة الطفولة . لو كان ذلك ممكناً . . . ماذا حدث لي ؟ كم عمري ؟ أكثر بكثير من خمسين عاماً . . . وفي الوقت نفسه ، أنا في العشرين ، وفي الأربعين من العمر . . . ومع ذلك ، فهذا أنا مستقل على الطاولة ذاتها ، محاط من جميع الجهات بالسيراميك البورسلاني الأبيض المعتم . . . ولكن ماذا يفعلون لي ؟ ولماذا أصبح في الهواء فوق بياض الطاولة ، وأرى نفسي من الأعلى ، ولا أفهم لماذا انحنت علي هذه الممرضة الشابة ، انني أرى جبينها القتي ، رموشها ، وهي تمس شفتي بشفتيها . لماذا تجزي لي التنفس الاصطناعي ؟ وأنا الآن لا أريد العودة . . . انه ينتظرني ، يدعوني

ويعذني بالهدوء والفرح ، مثل أمسية ربيعـية صافية ، مثل الغروب الذهبي فوق ذرى أشجار البتولا . . . والدوبان السعيد اللذيذ في كل شيء .
انني أسبح في الهواء نحو سكون الغروب هذا ، نحو هذا الهدوء ، وليس ثمة ألم ، وليس هناك ذلك الأسى الذي لا يحتمل . ها أنذا أرى أولغا جيداً ، انها تجلس في الممر ، في ثوب رمادي متواضع ، تنتظر آخر ما سوف يحدث لي ، وتبكي بصوت غير مسموع . اذن ، هي أحبتي ولا تزال تحبني ؟ . . . وابنتي الحبيبة ، فرحتي ثانياً ، اختفت خلف كتف أمها وقد جمدت كلها ، وقطرات الدموع تتساقط من عينيها .
ولسبب ما ، فالتين ليس معهما . وصديقي الطبيب ستيشوف يقف عند النافذة ، واضعاً يديه وراء ظهره ، يلتوي وينحني ويعبض على شفـته .
أحبائي ، لاداع لهذا كله ! لا أستطيع أن أقول لكم شيئاً . لا أستطيع أن أـلمسكم ، أن أطمئنكم . لكن ، لم تعد لدي رغبة بالحياة . . . » .

وفي هذه اللحظة ، تصور ، وكأنه قد تناول وأولغا طعام الغداء في مطعم صغير ، خال تماماً من الزبائن ، وبدون نُـدُلٍ تقريباً . وقد وضعت على الطاولات الخالية من الناس مناديل سميكة مشـاة ، وقوائم الطعام المخيفة الضخمة ، وقد خرجا لوحدهما ، لاستنشاق الهواء في بلدة صغيرة جداً . كانت الشمس قبيل المغيب ، وكانت تغطي بلون ذهبي حزين الجدران الحجرية للأزقة الضيقة ، المكتسة بنظافة من أولها إلى آخرها، والخالية من الناس ، وتهيأ له ، أن هذه البلدة الروسية الشمالية ليست على الأرض ، بل في مملكة الحزن المضيء ، والصمت الأبدي ، وعندما اقتربا من الحاجز في نهاية الزقاق ، الخالي من أي غـنـوق ، انفتح في الأسفل واد ، وفي أسفل الوادي العميق ، كان يجري نهر ، متجهاً نحو ضباب مائل إلى الاحمرار في الأفق ، متعرجاً ، لامعاً من بعيد ،

كما لو كان في ثغر في آخر العالم ، كما لو كان في جرف ساقط في
بوابة الجنة ، وهناك ، فوق البوابات غير المرئية ، كانت تنف الشمس
منخفضة ، وتتلألأ في الماء برذاذ ضبابي كلون الفضة ، وكان يسود
في كل مكان هدوء خفيف ، وان الحريف الأصفر ، وكان يهب
الهواء الحريفي الساكن الخفيف . . . ثم مرت طوفية وحيدة على الماء
الزهري ، بدون أي صوت ، بدون أمواج ، وبدا وكأنها بلا ركاب
وبلا قيادة ، وتلاشت في نهاية العالم كظل خيالي .

وعندها خطر في ذهنه ، أننا جميعاً مآلنا إلى الموت ، وقال كريموف
لأولغا مازحاً :

— لا أريد أن تعيشي من بعدي . سيكون ذلك سيئاً . علينا أن نكون
معاً .

— أنا أيضاً لا أريد من بعدك . . . لأنني أحبك ، يا مغفلي الفظيغ . . .

كان يتذكر هذا ، في تلك اللحظة ، عندما حملة ، باتزان ، تيار
عريض من الهواء العالي ، المقعم برائحة أوراق الأشجار العفنة ، والرطوبة
المتخمرة لغابات الحريف ، فوق الثغر . فوق بوابات الجنة ، حيث
كانت الشمس تضيء مودعة ، مطمئنة ، في ماء النهر الشمالي عشية
الغروب ، وحيث كان يرقد المحيط المجهول في امتداد بنفسجي .
مغريباً بالدفء والسكينة ، والخير ، وواعداً بالاطمئنان الروحي الأبدي .

ثم رأى بعد ذلك رملاً أبيض كالسكر ، ساخناً ، كانت تغرق
فيه باغتياب قدمان حافيتان حتى الرسغين . ورأى نفسه وحيداً فريداً
على شاطئ المحيط ، السائر بعناد نحو اللانهاية . وسرعان ما سمع موسيقا

متموجة ، لا أرضية ، كانت تتدفق كالبخار الجوي من غابة استوائية
خضراء ، عذراء ، صادرة بسعادة من طاسات عميقة ، ثم رأى على
العشب الزمردى خطوطاً من الأشعة الشمسية بين الأشجار العملاقة ،
ووصل إلى مسامعه صوت ناعم متسائل ، رقيق ، ليس له رنين مادي بدني :

« من أنت ؟ وكيف ظهرت هنا ؟ وما هو اسمك ؟ »

أراد كريموف أن يجثو على ركبتيه ، ويحجب ، بأنه فقد الأمل ،
ويثس من الناس ، وخلال يأسره ، خرق . خالف شيئاً ما ، مثل صديقه
جون غريتشمار ، الذي كره البشرية لمذنباتها المزيقة ، بيد أن المذنب
ليس غريتشمار ، بل هو المذنب بصورة لا تغتفر ، وحاول تذكر
اسمه وذكره . لكنه ، ما إن تذكر أنه قدم إلى هنا من بلاد بعيدة ،
ذات سماء زرقاء ، وظلال سماوية ناعمة على كتيان آذار الثلجية ،
المرقطة بالقطرات الذائبة ، حتى اجتذبتة فجأة العودة من المحيط اللؤلئي
اللامحدود ، حيث كان كل شيء ميتاً ، جامداً ، اجتذبتة العودة إلى
الوراء ، إلى البلاد التي تركها ، بلاد الزرقة والقطرات الربيعية ، مع
رغبة متحمسة لكي يرى ، ويعاني من جديد ، ويشعر بكل ما هو
أرضي ، كل ما كان يسبب له ألماً لا يطاق ، يدعى بتلك اللغة ألم الحياة .
أما ذلك الصوت اللطيف اللامادي فقد أخذ يقنعه ويوحى له ، بأنه
يقطع طريق العودة إلى ذاته . إلى الطهارة الأولى ، إلى النقاء الأول ،
وأنه ، مثل كثيرين من الذين عاشوا على الأرض ، وأنه جزء من كل .
وأنه لا قيمة أبداً الآن ، ما إذا كان قد ضل أم لم يضل ، لأن مملكة الخير
لها حد . أما الشر فلا يعرف حدوداً .

« لكن ، إلى أين أنا أذهب ؟ وأي حزن غير أرضي في هذه السعادة

الخالية ، المقنطرة ! . . . آه لو رجعت ثانية ، إلى هناك ، إلى ذلك الألم .
إلى أولغا بعينيهما الهادئتين . إلى ابنتي تانيا المضحكة ، إلى بالابانوف ،
إلى مواوتشكوف . إلى جميع الآمنين الخاطئين ، إلى التعساء الأشقياء عامة ،
هناك ، هناك . إليهم ! ولكن ما اسمك ؟ من أنت ؟ تذكر ! كيف
ظهرت هنا ؟ » .

بيد أنه لم يعد باستطاعته تذكر اسمه ، كما لم يعد باستطاعته الشعور
بالألم الراحل إلى الأبد ، ولم يستطع أن يفهم في اللحظات الأخيرة ، لماذا
ظهرت على الرابية بين أعشاب الصيف بوابة مفتوحة لدير حجري قديم .
مغطى بالشمس الهاجرة ، كان قد رآه في الشمال ذات يوم ، ولماذا ظهرت
أمامه راهبة طويلة القامة ، عليها ثياب الحداد السوداء ، يعرفها بصورة
مؤلمة ، بنظرة عينيها المخمليتين العزيزة عليه ، بقبعتها السوداء ذات
المنديل الأبيض . وبوجهها الجميل المبلل بالدموع . كانت الراهبة تسير
باتجاهه ، يرافقها القميص حبقوق النحيل الشاحب ، في أمسي مميت ،
ضاغظاً يديه المشبكتين على صدره بخشوع وإبتهاح .

١٩٨١ — ١٩٨٤



الفهرس

يوري بوندارييف في سطور

٧	الفصل الأول
٢٢	الفصل الثاني
٣٥	الفصل الثالث
٦٣	الفصل الرابع
٨٣	الفصل الخامس
٩٦	الفصل السادس
١١٢	الفصل السابع
١٣٦	الفصل الثامن
١٤٩	الفصل التاسع
١٦٠	الفصل العاشر
١٨٣	الفصل الحادي عشر
١٩٥	الفصل الثاني عشر
٢٣٤	الفصل الثالث عشر

٢٤٨	الفصل الرابع عشر
٢٩٤	الفصل الخامس عشر
٣١٩	الفصل السادس عشر
٣٣٥	الفصل السابع عشر
٣٥١	الفصل الثامن عشر
٣٦١	الفصل التاسع عشر
٣٨٨	الفصل العشرون

عبري في مواجهه بيروقراطيه هي كالأخطبوط .
من العسير جدا ، لا بل من المستع أحبانا ، على الذي
يقع في شباكها أن يفلت منها - تلك هي اللعبة التي
تحكي فسنها هذه الرواية وروايات روسيه أخرى
كثيره بدأت تظهر مع الحسبات من هذا القرن
وما يزال موضوعها من الموضوعات الكلاسيكيه في
الأدب السوفيائي .

وسيري القارئ أن المؤلف قد حقق في روايته
ثلاثة أهداف .

الأول تجديد موضوع مسهلك بنقله الى
الثمانينات من هذا القرن حيث بدأت تظهر ارهاصات
التجدد في الاتحاد السوفيائي .

الثاني انقاد البطل من بران البيروقراطيه بجعله
مخرجاً سينمائياً مبدعاً ، أفلامه نقلته من المستوى
المحلي الى المستوى العالمي فأخذت تتنازع شركات
السينما الكبرى العالميه .

الثالث : اعطاء الرواية معنى انسانيا على اعتبار
أن البيروقراطيه صارت اليوم مع الدوله الحديثه
مشكله عالميه .

والحق أن الروايه والى جانب قيمتها الفنيه
العاليه ، تصنعنا في قلب مجتمعات ينقل من مرحله تاريخيه
الى أخرى . والمفاصل التاريخيه هذه هي الأكثر غنى
بالامكانيات فنيا وفكريا . انها تطرب وثقف . وهذا
أقصى ما ينتظره قارئ من روايه عالميه .

الطبع وفرز الألوان في مطابع وزارة الثقافه

دمشق ١٩٩٠

في الاقطار العربيه ما يعادل
٢٥٠ ل.س

سعر المخرجه داخل المظهر
١٢٥ ل.س